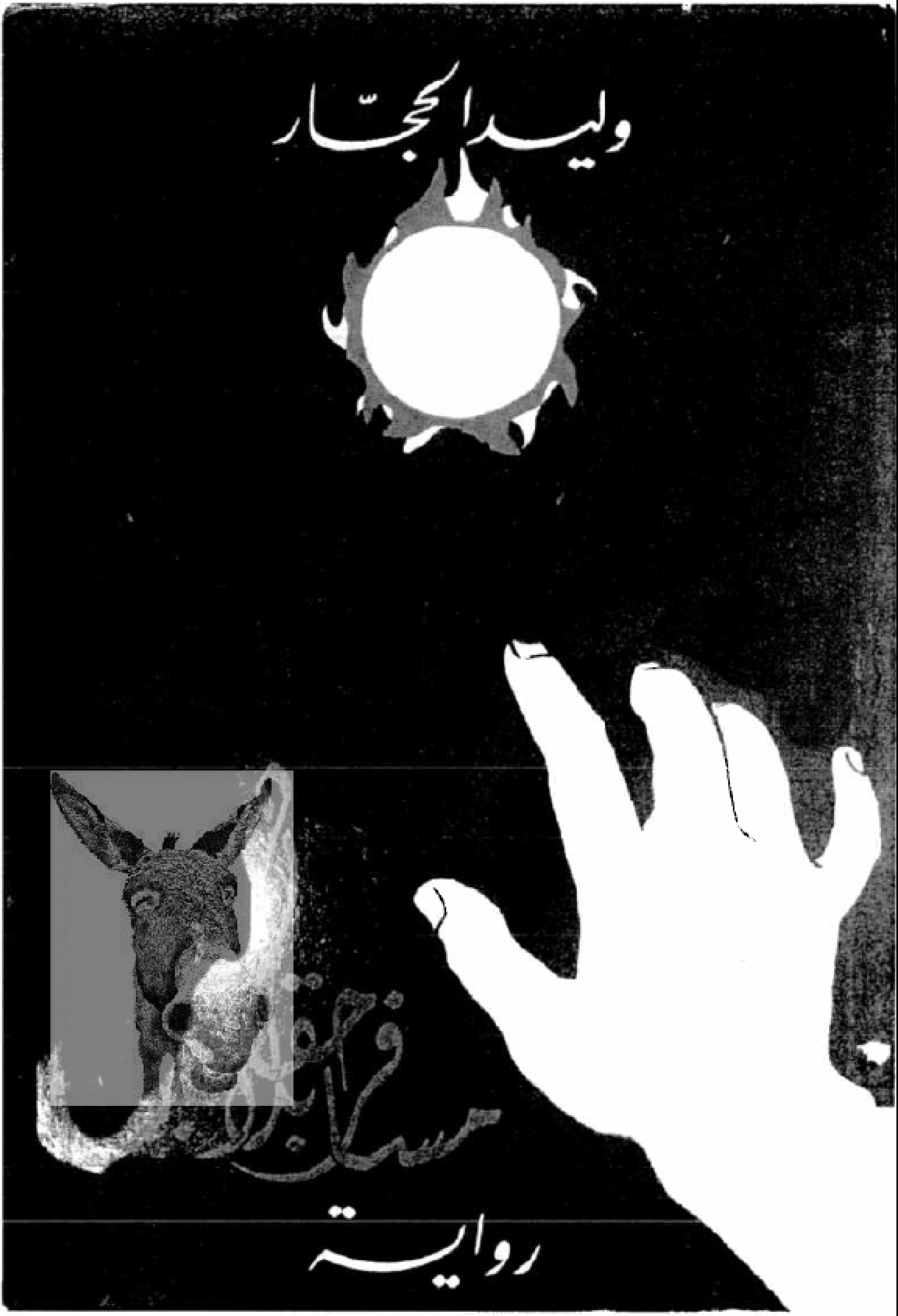
وليد الحجّار
رواية

"إن الحاجة إلى طرح الأسئلة الصحيحة
لا تكتمل، في نفس الإنسان إلا إذا
بلغ العشرين من عمره.. أسئلة، لا
يجد الصيغة الواضحة لها، إلا حين يقارب
الثلاثين.. أما الأجوبة على تلك الأسئلة
فإن الإنسان لا يهتدي إليها، إلا متى شارف
مرحلة الأربعين، من عمره». هذا قول "البوذا"
فلما سُئِل، "وماذا بعد الأربعين يا معلم؟"
أجاب: "إنها مرحلة الحياة الواعية،
تلك التي تبدأ بعد الأربعين"
إنه ثلاثية "البحث عن الأنا"،
وهي روايات "مسافر بلا حقائب"
"السقوط إلى أعلى"، "رحلة النيلوفر"، تبدي
لدى فراس، في رواية "مسافر بلا
حقائب"، مرحلة الحاجة لطرح الأسئلة،
يرفض فراس فيها مفاهيم بيئته الشرقية
المتخلفة، ظناً منه أنه الأجوبة الصحيحة تنتظره

ان حوادث وأبطال هذه الرواية ، جميعاً من نسج الخيال ·· وان أي تشابه ، قريباً كان أو بعيداً ، مع أي انسان ، حياً كان أو ميتاً ، لهو من محض الصدفة ··

المؤلف

وليد الحجّار   إسماعيل العرفي

مُسَافِر بلا حَقَائِب

رواية

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف
١٩٧٩

« اصبح مثلنـــا ، نحن العـــرب ، اهل الكهف ، عندمـــا استيقظنا مـــن سباتنا ، سبات ، انزوت فيه اجيالنا عن سير التاريخ ، عصورا مديدة ، فبدت مظاهر حياتنا ، بالية ، عرفنا وتقاليدنـــا ، مؤسســـاتنـــا الاجتماعية والاقتصادية ، حتى قوالب فكرنـــا وعملنا، وكان تراثنا قوقعة، تصدعت، وتداعت ، لدى اصطدامها المفاجيء بموجة المدنية الحديثة ! حتى لقـــد اصبحت قشور هذه القوقعة تحجبنا عن حاضرنا ، وتعوق ملائمتنا للبيئة المستجدة ! ولكـــن أحداثنـــا اخذوا يتطلعون الى هـــذه الموجة ، وهـــم يصبون الى غاياتها ، صبوة الاصداف، بين فترات الامواج ، الى الشمس التي تجـــدد بهـــا حيويتهـــا ، مستسلمين لتياراتها ، مع النفرة من ماضيهم نفرة متزايدة ! »

زكي الارسوزي

القسم الأول

الفصل الأول

البحر الابيض المتوسط ، ١٩٥٠

وداعا .. حبيبتي !

وداعا !! وداع ، فاض به صدري ، أرمي عالمك به ، كمن يرميه بلعنة !

أتعجبين ؟ أتعجبين هدباء ، من هذه الكلمات ، أصدّر بها أولى رسائلي اليك ؟! ألوف مثلها تتسابق الى شفتي ، تتناطح ، كل كلمة تود لو تكون الاولى ، تصفّق لهذا الوداع ، تفسره ، تدعمه ، تود لو تستنطق من حروفه ألوف المعاني والصور !

لا .. ليس هذا وداع آسفٍ على ما ترك !

أرى الدموع تتجمع بين جفنيك ! لا تجزعي ! فلكم أحببت عينيك ، لكم أحبهما ! ويفطّر قلبي ما يشهق به الآن صدرك من أسى ! ورغم ذلك .. أنظر الى عينيك الواجفتين ، فأتشفّى .. وتهدأ نقمتي ، في قرارتي ، إذ أعلم أني أبكيهما ! وأن في استطاعتي ـ أنا البعيد ـ أن أخفف من غلواء ثقتهما العمياء ، المقيتة !

آه حبي .. ليت في وسع الدموع أن تغسل بعض ما اتسخ !

أكنت أعلم ، وأنا أجتاز ذلك الشارع الضيق ، الطويل ، الذي يفصل بين دارينا ، أني سأسخط يوما عليك ، كما أفعل الآن ؟٠٠ أو أن وداعي ، هذا ، سيتلو وداعنا ، ذلك الطويل ، الوديع ، على الهاتف ؟!

هذا ما كان بالامس ٠٠ أكنت سعيدا لنبرات الحزن في صوتي ؟٠٠ أستبق ، وأنا ممزق حزين ، ما أشعر به من نشوة ، الآن ؟٠٠

هل كنت أودّع فيك طفولتي ؟ لماذا ألصقت شفاهي بالسماعة التي في يدي ؟ هل كنت في تلك اللحظة ، أ ودّع فيك أمي ، ووطني ؟ أودّع حبا عقيما ، لم يجتز يوما مرحلة القبلات على الهاتف ؟!

لكم أكره القدر الذي وضعك في طريقي ! أكره أنني أحبك !!

أهو حبك الذيأقتلعه من نفسي الآن ؟٠٠ ما لي أتتشي وأنا أرى الدم يقطر من يديّ ؟!!

وما ذنبك هدباء ٠٠ ما ذنبي أنا ؟٠٠ ما ذنبنا ، سوى أن ما يفصل بين دارينا ، دقائق ، كنت أسبق الريح ، مرات كل يوم ، لأجلس ، وأخيك ، في حديقة داركما الدمشقية القديمة ٠٠ تتنقّل بين الليوان ، والقاعة ، والمربع ٠٠ نستعرض ما قرأناه عن الحب ، والفلسفة ، فتظهرين ، بخصلات شعرك السود ، المتهدلة ٠٠ تتركين القهوة ، على حافة البحرة ، بدلال ٠٠ تودين مشاركتنا المطالعة ، ثم تغيبين ٠٠ وتعودين ، لتطلّي من شرف غرفة النوم العليا ٠٠ عيناك النجلاوان ، في بريق ٠٠ وابتسامتك الحلوة المرة تداعب شفتيك ، تجسّدين للحظات خاطفة ، جميع ما يعتمل في نفسي من عطش ، وموسيقى !!

وتسألينني بدلال ٠٠ « أهكذا يسهل عليك السفر ؟٠٠ كيف تترك مدينتنا الحبيبة ؟٠٠ وعطر الياسمين ؟! » ٠٠

كيف لا أحبك ؟ كيف لا أحب أصداء نفسي ، كانت ترجّعها الى عيني صفحات وجهك الرائع المتعالي ؟ كيف لا أعبد إباءك وأنفتك ؟ ثم كيف لا أمقت

حبا منعني عن أية فتاة سواك ! وكبّل جسدي الفتي بقيود كبتك الجائرة ، وبقيم مجتمعك الكاذبة ؟!

ولن أسألك عما كنت تشعرين به نحوي •• أو عما اعتمل في نفسك يوم أتيت لزيارتي ، لتوديعي ، قبل سفري بأيام ! لعلك حين أقدمت على تلك الزيارة ، كنت ترين فيها « مثلا » في تحدي القيود الاجتماعية ! تحدٍّ ، لم يسبقك اليه أحد ! « قدوة » •• سيسجلها التاريخ لأمثالك من العفيفات ! أو ، من يدري •• لعلك كنت ترين فيهـا منّاً تكرمت به علي •• « هبـة » يتوجب علي أن أحتفظ بذكراها الى الابد !!

لا •• لا أود الخوض فيما يمكن لفتاة محافظة مثلك أن تشعر به من تناقضات وهي تجد نفسها وحيدة ، للمرة الاولى ، مع شاب تحب ، في غرفة من دار خالية من الناس ! حسبي مـا مر بي ! ويكفيني أن أذكـر الذهول الذي اعتراني وأنا أراك ترتعدين من وطأة ما اعتمل بك من كبت !

هل كنت أنت هدباء التي أحببت ، منذ أن تفتحت في نفسي العاطفة ؟! بالله ! ماذا أخافكِ مني ، حتى بدوتِ على ما بدوت ؟! ما الذي قلّص عضلات وجهك ، وزمّ شفتيك ؟ لمَ جفّ لعابك ، حتى بح صوتك ! وغاب لونك !

هل تدرين حبي ، أنك أنسيتني في تلك اللحظة أنني حقا « فراس » ، ذاك الذي كنت تعرفين ؟! أتذكرين كيف جلسنا ، بعد برهة ، ينظر كل منـا الى الآخر ، في صمت ودهشة ، وكأنه يراه للمرة الاولى !؟ لاأذكر الآن شيئا مما كنت تقولين ! وظني أنك أنت الأخرى ، ما كنت آنذاك تدرين شيئا عما دار في ذهنك ! جل ما أذكره الآن ، ولو أن في سرد ذلك جرحا لكبريائك ، هو أن ما أثرتِ بي من احساس ، كان أقرب لما يمكن لحيوان أن يشعر به ، نحو حيوان آخر !

أشعرتني بدوافع جنسية ، مشوبة بقشعريرة تماثل تلك التي يشعر بهـا الانسان اذا ما واجه حيوانا كاسرا ! لا أظن إلا أنني كنت قادرا في تلك اللحظة على تصرّف أخجل من تصوره الآن !

لقد زججتِ ما أعرف عن ذاتي في غربة كريهة الى نفسي ، فرحتُ أداعب قسوة ، ما كنت أعرف أني قادر على الاحساس بها !

من الذي لا يعرف أن للنفس مجاهل تختبىء وراء ما دفعتني الى اكتشافه عن نفسي من متاهات ؟! لا بد أني بدوت أمامك في تلك الساعة عاريا من الحجب ! ولاح لك ما كنت أحاول فرضه على نفسي من هدوء وتصرف متزن ! ألهذا زال اضطرابك ؟! وإلا ، فما الذي أطربك فجأة من حيرتي ، وأنزل الهدوء على نفسك ، حتى استويتِ ، وجمعت ساقيك ساقا الى ساق ، وانتحيت جانبا ، في جلسة أردتها تلقائية ، وقورا ، ثم مددت ذراعك نحوي ، تداعبين خصلة شعر انحدرت على جبيني الذي تفصّد عرقا !

أي دور هادىء غريب انسقتِ في تمثيله ؟! كنت ، منذ لحظات ، ترتعدين ، وتتلوين ، كالجسد المشنوق ، بينما كنت أحاول ، بما أمكنني من لطف ، أن أتمدد الى جانبك ! أي جرم كنت قد حاولت ارتكابه ، حتى انتابك ذلك المس ؟! هل حاولَت يدي الوجلة أن تمتد الى صدرك ؟ أهذا هو الجرم ؟ هل لمست شفتاي خدك ، أو أذنك ؟!

نعم .. ولم أعد أدري كيف انقضت تلك الدقائق الطوال قبل أن أصاحبك الى الباب !

غريب ! غريب ، كيف أطلتِ الوقوف على الباب ، وأمعنت في الحديث الهادىء ، وصدرك ، طفل ضائع لم يعد يعرف غير صدري ملجأ ومقرا !

ولم يكتمل رفضي لك حتى تلاصقت شفاهنا ، في تلك اللحظة ، للمرة الاولى !

قلتِ ـ وأردتِها نبرة ساذجة حيرى ـ ..

ـ انْ كان لا بد في هذا الوداع من قبلة .. فلا بأس .. انما هي المرة الاولى التي أقبّل فيها شفتي انسان .. لا تلمني .. فأنا لا أجيد فن القبل ..

وصدقتني القول ! آه .. حبي .. كيف أفسّر لك أنك بدوت لي في تلك اللحظة كمن عرفت عشرات الرجال !!

أين السذاجة في قبلة أولى •• تناقش فن القبل ؟!

أين البراءة ، في جسد كان منذ لحظات يتشنج •• ويكاد يركل أول لقاء له مع جسد أحب ؟ أهي العفة في نظرك ؟ أهذا هو الطهر في ظنك ؟! ويحك هدباء ! تحت أي حمل ترزحين ؟! ولست الملومة في ذلك ! انها مفاهيم قومك ، يحملونها منذ أجيال ، ويبرعون في اعادة غرسها فيك ، وفي غيرك من « الطاهرات » •• الى الأبد !

الاخلاق ، والتربية الحسنة ، في عرفهم ، هي في أن تصومي عن الجنس ، حتى يكاد يجف جسدك من الجوع ! تتمشين في الطرقات ، لا تنظرين الى شيء ، ولا بأس في أن تتلفتي ، كالملسوعة ، اذا ما طالعتك رائحة الحياة ! تخفين ما تحسين به من كبرياء كاذبة ، وراء قناع بارد كالموت ! حتى اذا صعدت سلم دارك ، وعاد عبق ما تشتهين ، يطالعك من وراء أبواب ونوافذ مفتوحة على غرف النوم ، تعودين الى التضوّر ، تتصورين الرجال كشياطين ، مرغوبة ، جميلة ، لكنك تكرهين شهوتك ! فتلجئين الى سريرك ، يتلوى حرمانك في أحشائك ، كأنه أفعى !

أين العجب في أن تضمر نفسك ، بعد كل هذا ؟ أين العجب في أن يصبح الاحساس الطبيعي وحشا كاسرا ، ترتعدين اذا ما لاح في أفق حياتك أنك ستجلسين اليه ! وحين تتزوجين ، ان تزوجت ، فهل ستمحو بحبوحة سني الزواج الطوال ذكرى سياط العوز الذي عانيته في شبابك ؟! وما الذي سيمحو الندوب التي ستخلفها تلك السياط على جسدك الفتي ؟••

لماذا قدر لي أن أحب فتاة في مثل عفتك ؟! وهل أنا المذنب ؟ ألست ابن البيئة نفسها ؟•• لا أقوى على حب إلا من كان في مثل عفتك ؟•• أتعجبين ، بعد هذا ، أن أقول « وداعا » حزينة ، متشفية ؟!

أعجب من نفسي ! أحبك هدباء ، وليس في الكون ما يفعم نفسي أكثر من أنني في هذه اللحظة ، أشق البحر في مركب يبعدني عنك وعن شبح هذا الموت الذي قسرني حبك على العيش في كنفه !

عدت لا أدري ، أسعيت الى باريس نزوعا اليها ، أم هربا منـك ومن بلـدي !

ماذا أعرف عن باريس ، سوى ما سمعته أو ما قرأته عنها في الكتب ؟! ومع هذا ، فلئن صح القول بأن لا لذة في حرية سوى بمقدار ما كان يعانيه الانسان قبلها من أسر •• فان جوعي لباريس كبير ، كبير ! وحريتي فيهـا ستكون أكبر مما بوسعي أن أصفه لك !

أرى ثغـرك الحبيب يبتسم بمكر ! وأسمعك تقولين : « ألست تناقض نفسك ؟! » ، « أراك واثقا من أنك ستستسيغ الطعام ، بعـد جوع ! » •• « فلماذا تنكر عليَّ الحرمان والكبت ، ان كان لي في ذلك استساغة أكبر للجنس ، فيما بعد ؟! » •• أسمعك تقولين •• « ما المانع من أسري الجنسي ؟ اذا كان لي في ذلك تذوّق أكبر لممارسته بحرية فيما بعد ؟! » ••

لا ، وألف لا !!

أنا ، أحارب أسري ! وأنت •• انك مطمئنة اليه ! تنعمين به ! أو أنك تنتظرين أن تُفـكَّ عن معصميك الاغـلال ! أنا لـم أنتظر أن يُفتح باب سجني ، لأكتشف أن ساقيَّ قد ضمرتا ، حتى لم يعد باستطاعتهما المسير ! لقد حطمت قفصي ، قبل أن ينسى جناحاي كيف يمتدان ، ويطيران ! أمـا أنت ، فلئن تململت ، فلضيق سجنك ، وحسب ! لا لأنك في أسر !

* * *

هل أبدو كمن يجلجل نشيد نصر يود لو يطبق به الآفاق ؟!! لا بأس ! ينتابني في هذه اللحظة ما لا أستطيع وصفه من تيه !

تركت أوراقي هذه برهة ، ورحت أتجول فيها على ظهـر السفينة ، متقدما ، حتى تجاوزت المرساة ، ووقفت على السدة ، لا يفصلني عما يضرب رأسها الحاد من موج ، سوى حاجز قليـل الارتفاع ، أمسكت به ، ألاقي

الرذاذ والهواء العاتي في صدري •• حتى شعرت كأنني أنا الذي أحض هيكلها الكبير على المضي ! كأني أنا الذي أرفعه بساعدي فوق لجج الامواج ! يشقها ، ونمخر معا غياهب الليل البهيم !!

* * *

هنا أنا ذا أعود اليك ، يطفح صدري بنصر عليك ، لا أفهمه ! أليس من الغريب ألا أود أن أشارك في هذا النصر أحدا سواك ؟!

انها الواحدة بعد منتصف الليل ! أين أنت الآن حبي ؟ وفي أي سبات هانىء تغطين ؟

تكاد أصابعي لا تقوى على الامساك بالقلم ، لشدة بردها ! ألهذا أذكر الدفء الذي ترفلين فيه في فراشك الآن ؟ اخوتك •• أخواتك •• جميعهم حولك ، يحيطون بك ، في غرفهم المجاورة •• وينعمون بنوم هادىء ، عميق ••
عبق آخر السهرة •• ممزوج بدفء الموقد ، ينساب طليقا ، في أروقة الدار ، وبين غرفها ، بعد أن ماتت النار •

سيرقد بلدك قريبا •• سينام جميع من فيه •• وستتصاعد أنفاس النيام ، غمامة كسلى ، شرقية ، تغلف تلك الواحة الكبيرة ، وتعود بأحلام من فيها الى الوراء •• الى مئات السنين ! سيبعث الزير في أحلام الشباب •• وعنتر •• وقيس •• وصلاح الدين ! ستبرق السيوف ، والخناجر ! وتتطاير الرماح فوق نواصي الجياد الاصيلة البيض ! وستعلو المآذن ، وتعلو ! لا تضاهيها في التيه سوى عبقرية الشعراء ! يقهرون الاعداء •• ويربحون المعارك ، بأوزان ، ولا أفخم ! فيعودون ، وقد أنهكهم الكلام ، الى ليلى ، تطوف بين مضاربهم ، كالنغم الرائع •• تحوم فوق خيامهم ، كآهة من ناي حنون ! ويمضي الليل •• ويتورد الأفق ، قبيل الغسق •• فتتورد وجنتاك ، وتفركين عينيك في صحو ناعم بطيء ••

هذا بلدي ! ما أجمله ! وما أتعسه !

هل أسمعك تقولين ان هذه ليست أحلامك ؟ لا بأس ! فهذا عالمها •• ومنها تأخذين الاحجار التي تبنين بها القصور ، ومـا تظنين أنك تبتكرينه من أحـلام !

هل جال في خاطرك يوما ان تسأليني عن أبعاد عوالمي الداخلية ؟ هل لاح لك يوما أن هنالك في الشـرق من لا يستسيغ القوافي ، ولا الآهـات الشرقية التي تعرفين ؟! ولئن سألتني رأيي فيها ، لأجبتك بأنها سمٌ يتعاطاه شرقنا منذ أجيال ، كقات اليمن !!!

ستندثر مدينتنا هذه عما قريب ، ولن يبقى فيها غير صور خيالك عنها !

مدينتنا،التي عرفها آباؤنا •• ستبيد ! وآثارها التي غذَّت طفولتنا ، ستمحى الى غير رجعة ! لكم أحببت بلدي ! أحببته طفلا ، وعشقته حدثا ، حين كنت أظن أن له أبعاد نفسي وشمولها ! ماذا يمكن لأولى سني المراهقة أن تعرف عن عالم المال والسياسة ؟•• كنت ، وأخاك ، نجوب شوارع مدينتنا ، نسير في دروبها القديمة ، الضيقة ، وبين جدران قلعتها ، كأن ليس فيها سوانا ، كأنها قصر لنا ، ومن فيها من الناس ، نفوس تطوف ، أو تطير ، مثلنا ، لابطون"، ستصرخ يومـا من الجوع ، فيستقطب عويلهـا نحيب عشرات الألوف من الجائعين ! فيهرعون ، زرافات ، ليقتلعوا الأخضر منها واليابس •• في ايقاع جاهل ، تاريخي ، محتوم !!

بلدي هذا الذي تركت البارحة مساء ، أودعه ، فيك ، وداعا لا أسف فيه !

تعلمين أن ليس معي من المال سوى مـا يكفي لايصالي الى باريس ! وأن ليس ما ينتظرني هناك سوى قدر مجهول ، قاتم الوجه ، اذا تبسم لي ، لم يمنحني أكثر من فرصة للعمل تقيم أودي ، وتكفيني العوز ! ورغم ذلـك أراني سعيدا •• سعيدا بالابتعاد عن عالم ضقت فيه بعاصمة ليس في مكتباتها سوى ما يسمح به رقيب جاهـل ! ولا قراءة فيهـا سوى بما يسمح بـه ، آخرون ، يخافون على وظائفهم ! ضقت بالسرقة ، والنفعية ، والفوضى ، في

عالم يُتّهم فيه ، بالعمالة ، كل من نادى بالنظافة ! وبالرجعية ، كل من تكلم في هدوء !! ضقت بدعاة الحرية ، ينقلبون الى سجانين ، أو حراس لسجون أسيادهم ! ويصيبني الغثيان ، اذ أرى من كانوا ينادون بالمساواة الاجتماعية ، يصبحون رؤساء لعصابات أشد تكتلا من المافيا ، حتى باتت ثروات أقلهم شأنا تعد بالملايين

* * *

تعالي أرو لك ما مر بي ، منذ لحظات •• لم يبق من المسافرين في هـذه الردهة الكبيرة غيري ، أوى الجميع الى أسرّتهم ، بعد هرج ومرج ووداع للأحبة والاقرباء ، على رصيف المرفأ ، تلاه عشاء مبكر ، جمع المسافرين في غرفة طعام فسيحة ، فراجوا يراقب بعضهم بعضا ، وجلين في البدء ، حذرين ، مصطنعين تصرفات واشارات تعلموا أنها لا غيرها ، هي اللازمة « أمام الناس » ! الى أن تجرأ أحدهم وصاح : « شو ما في صحن حمص » ! ثم أبدى انتقادا لما كان يقدم لنا من طعام غربي ، فقهقه آخر ، وما لبث الجميع أن اشتركوا في تعليقات قادتهم الى تعارف سريع ، ثم الى أحاديث ، ما ان انتهى العشاء ، حتى كانوا قد تكتلوا في ردهة المسافرين هذه ، يتسامرون من جديد ، كأن صداقات تجمعهم منذ سنين طوال ••

متى أسقط الشرقيون آداب المائدة والحديث من عاداتهم ، أم ان أمجادهم لم تشمل يوما مثل هذه الكماليات الحضارية التافهة ؟! كنت في غرفة الطعام ، أرى بعض الايدي تغوص في الصحون ، وبعضها مرتبكة ، تحار بأية يد تلتقط الشوكة أو السكين ! أنظر مرغما الى أفواه لا تعرف كيف تبقى مغلقة ، وهي تمضغ الطعام ! أصرف نظري عنهـا ، مشمئزا ، فتعيدني قرقعـة اللوك ، والمضغ ، الى أصحابها ، يتكلمون ، بل يصيحون أحيانا رغـم ما امتلأت به أشداقهم من طعام ، يضحكون لصغار لهم يبكي بعضهم أو يصرخ ، لا يرون غضاضة في كل هذا ! يتركون صغارهم يتدافعون بين الموائد ، غـير آبهين لما يسببونه لغيرهم من ضيق وازعاج !

لم يكن بين المسافرين من أجانب سوى عدد ضئيل •• دخل رجل مسن منهم برفقة زوجته يستريحان في ردهة الجلوس هذه •• فلما لم يجدا مكانا منفردا شاغرا ، استأذناني في مشاركتي الزاوية التي أجلس فيها الآن ••

التقت نظراتنا ، مرات على ابتسامات انتقاد مشترك لما ثابر عليه المسافرون من ضوضاء وصخب ، كنت بادي التذمر لانشغالي بالضجيج عن متابعة رسالتي هذه اليك ! فتبسم جاري في صلف ، وبادرني مهدئا ، يتكلم بالافرنسية ••

ـ لا بأس عليك •• انهم في الواقع قوم طيبون •• لعلها الرحلة الاولى لمعظمهم على البحر ••

وأومأت زوجته في لهجة متعالية حزّت في نفسي ••

ـ انهم قوم طيبون ! تجب معرفتهم عن قرب ! ثم سألتني •• وابتسامة مهذبة عـلى شفتيها ••

ـ هل كنت في عطلة الصيف في هذه البلاد ؟

ترددت •• وأنا أجيب ••

ـ بل •• أنـا •• أنا أقيم في الشرق !

ـ يا له من حظ •• لا بد أن لوالديك عملاء هنا •• أمنذ أمد طويل ؟

قلت متحفظا ••

ـ نعـــم ••

تدخّل زوجها حينئذ ، طالبا منهـا أن تتركني الى كتابتي ، فتبسمَت ، وهي تشد على يد زوجها ، وتقول ••

ـ هيا يا عزيزي ، لقد أدركني التعب •• أو لعلها أولى عوارض دوار البحـر •• يستحسن أن نعود الى مقصورتنا •

وإذ همّا في النهوض ، ألقت الي بنظرة ملؤها الحنان ، وتابعت ••

ـ اعذرني يا بني •• ان أقلقت وحدتك بحديثي •• انك تذكرني بولدنا الذي تركنا مهاجرا الى كنـدا ! انهـا نعمة أنّ لنـا ولدا آخر ، يقيـم في

الاسكندرية ، مع زوجته المصرية •• نحن في طريقنا الى زيارته الآن •• لعلها لحيتك الصغيرة ! انها تشبه لحيته •• انك تعلم قلب الأم ••

أجبتها على عجل ••

ــ لا •• أبدا •• لم يزعجني حديثك في شـيء ! على العكس !

أشرقت أساريرها وقالت ••

ــ الى الغد اذن •• الى الغـد ! آه ، نسيت أن أسألك •• أمن أصل افرنسي أنت ؟ أليس كذلك ؟

فوجئت •• رغم توقعي لسؤالها ! ووجدتني أقول بعد أن علا وجهي بعض الاحمرار ••

ــ نصف •• افرنسي ••

ــ أمن طرف والدك ؟

ترددت بضع ثوان واتتابتني جرأة مشوبة بالخجل لما كنت على وشك أن أقول ، ثم سمعت نفسي أردد في حزم ••

ــ والدي •• كا نلاجئا •• من روسيا البيضاء •• لقد توفي منذ أعوام !

دهِشَت السيدة لمـا سَمِعتْ ، وغمغمت ••

ــ من كان يظن ذلك !

وكادت تعود الى الجلوس لتستأنف الحديث ، لولا إصرار زوجهـا : قادها عني برفق ، وهما يستودعاني الله ، حتى الصباح !

* * *

لست أدري ، هدباء ، لماذا أروي لك هذه الحادثة وقد جرت معي منذ لحظات ! أحسست كأنني أقترف فعلة ممنوعة ، ثم أُسرّ بها ! غلبني شعور بأنني فقأت دملة ! ثم استرحت ! وأسأل نفسي الآن ، حائرا •• ما الـذي أراحني فيما قلتُ ؟! ألأني أنكرت والدي في ضربة عشواء ؟ نقلتـه الى العالم الآخر ، بكلمتين ؟ بينما لم أُبْقِ على والدتي التي أحب ، إلا بعد أن كسوتها

رداء فرنسيا ؟! لعلي لا أروي لك هذه الحادثة سوى لأعيد على نفسي ما أدركت وأنا أُنكر شرقيتي أمام تلك السيدة !!

أنا لم أنكر أصلي ! بل صلتي الحضارية بمن كان حولي من بشر في غرفة الطعام ، بكم ! بكِ ! وبجميع من أحاط طفولتي !! فأنا لم أع شرقيتي •• وأحبها ، إلا ظنّاً مني أنها امتداد لأحلامي ، وعوالمي الداخلية ! مجاهرة بما خلقته ، وكونته ، أثناء طفولتي من رؤى عن الشرق والعروبة ! واقع الشرق ، كان واقعي أنا ، وواقع من حولي من الناس ، ومستقبل الشرق ، كان ما نتمناه نحن له ، وما نطمح أن نسير به اليه !!

من الذي أعطاكم حق فرض شرقيتكم على شرقيتي ؟ أهو قانون الأكثرية ؟ متى كان الذكاء من صفات الحشود ؟! والنبوغ من صفات القطيع ؟!

لم تسمح لي نشأتي بالاحتكاك بمن كانت لهم صور بعيدة الاختلاف عما كنت أراه في الشرق ! ولئن كنت أعلم أنّ البعض ميسور ، والبعض الآخر كادح ، فأنا لم أكن قد قرأت « ماركس » بعد ، لأعلم أنّ ذلك واقع اقتصادي ، له ما يرادفه لدى الطبقات ، من اختلاف في المفاهيم الاخلاقية والعادات الاجتماعية •• كل ، بما تفرضه عليه ظروفه الحياتية !

أنا لا أُخالف « ماركس » في نظرته للاقتصاد والجماهير •• ولا أتطرق الى ما يراه رؤوس النقابات من مصلحة العمال •• فهم لا شك أصلح من أي انسان لمعرفة ما يناسب واقعهم ! أما عن معايير الذوق ، والنظافة ! معايير الفن ، والجمال ! فهل لكل من قال أنا « ماركسيّ » أن يحوم في مثل هذه الآفاق ؟! وهل كل من قال أنا « ماركسي » ، على مستوى « ماركس » من الثقافة ، ليفهم ويقرر ما هو صالح في مثل هذه الحقول ، للعمال والجماهير ؟! هل يصح لكل من قال أنا مسلم أن يصبح مشرّعا في الاسلام ؟! حتى إذا ما أمسك ببندقيته •• جاز له أن يفرض تفاسيره على الآخرين ؟! هنالك واقع لا يمكن أن يبدله أو يزحزحه إنسان ، وهو أنني ابن تلك الارض ومن نطفة تلك الشواطيء التي تركها مركبي منذ حين ! أما أن تُعرّف هذه الأرض

بأسماء تُقيِّد من عليها بمفاهيم وتواريخ ، فمن الذي له الحق أن يقوم بذلك ؟

ما معنى أن أقول « أنا الشرق » إن كان في وسع أي انسان ، بصرف النظر عن تدني مستواه الحضاري ، أن يصيح « لا بل أنا الشرق » ! وبصوتٍ أقوى من صوتي ، وأجهر ! ما معنى أن أُصحّح قوله ، فأُكرر ، « لا ! بل أنا الشرق » ، مشفقا على الشرق مما لا يعرفه ابن الشارع من حضارة ، ما معنى ذلك حين يستطيع هذا! أن يجمع حوله ، من أمثاله ، عشرات ألوف الأصوات . بل مئاتها ، في رنين مدوٍّ ، يطغى على أصواتٍ قد تؤازرني ، فيخفيها ؟!

ما معالم الشرق ، وما حدوده ؟ ما الذي يحدد طموحه الحضاري إن كان في وسع أي انسان ، بما ينوء تحته من جهل وتخلف ، أن يقرر هذه الحدود ! أن يفرضها بقوة البندقية ! بانقلاب عسكري ! فيُسَيِّر المجتمع بما يتلاءم مع نفسه ، وما ينسجم مع ما يراه هو من خطوطٍ وأصولٍ لمفهوم الحضارة ذاته !!

أحسست أن كلمة الشرق والعروبة ، مظلّة هائلة يودّ لو يقرر أبعادها ، بنفسه ، كلّ انسان من مائة وثلاثين مليونا من المتخلفين ! تنوء حضارة أرقاهم تحت رزح أربعمائة سنة من الجهل والاستعمار التركي ! مظلة ، تظلل الملايين من الناس ، بعضهم مترفٌ أو جائع ، سيّان عنده وجود هذه المظلة وعدمها ، وبعضهم الآخر ، ساهم ، ضائع ، يرى فيها خاتم سليمان ، ولا يرى اذا نظر الى السماء غيرها ! أدركت أني لن أقبل بعد اليوم بهذه المظلة ، أو غيرها ، هوية لكياني ! كياني قائمٌ كالصخر ، بغير ما حاجة الى هوية ! والهوية ، أية هوية ، إطار وحسب ، إنها مظلة ، مهما تكبر ، وينبسط ظلها ، فهي لن تعدو كونها مظلة ! أداة .. قد تنتقل من يد الى يد ، قد تضيق يوما بمن يقبل ويعتاد ظلّها ، فتدفع الغالبية المتزاحمة ، بالأقلية من أمثالي ، نحو العراء !!

تدركين حبّي ، بعد كل هذا ، أنني أودّع فيك أكثر من حبي ، والوطن ! الشرق الذي أرفضه ليس مفهوما مطلقاً أتعامى عنه ، أو واقعا تاريخيّا أجبن عن المساعدة في حمل عبئه ! لئن كانت القومية واقعاً .. فان ما أرفضه هو

تحديد صفات هذه القومية على أيدي أناس متخلفين ! أنا لا أرفض الشرق .. أنا لا أرفض العروبة ! بل المفهوم الذي صاغه عنها أساتذة متخلفون ! والهوية التي تتبعهم في استحسانها جحافل المتخلفين ! أنا ابن هذه الأرض ، وابن القرن العشرين بكل ما فيه من تناقضات ، وما فيه من علم ، وفلسفة ، ومن موسيقى ! فما شأني بالخيمة والكوفية والخنجر ؟! إنها ذكرى من ذكريات بدو حكمهم أجدادي !!

أأنا الغريب العجيب إذا ما تطلعت الى ما وراء الحدود ، أم أنت التي تسترشدين لواقعك اليوم بهدي أحكام ومفاهيم كُتبت أو لُفّقت على ألسنة أناس ماتوا منذ ما ينوف على ألفي عام ؟!

هدباء .. أودع فيك بعض نفسي .. أبترها عني .. فأتمزق في ذلك بين قسوة .. وحنين .. لا يرحمان ! ولا بأس عندي أن تري في رفضي لشرقيتي ما قد ترين ! فأنا في هذه الردهة .. طائر وجل .. ينفّض ما نبت عليه من زغب ، عرفه ، وأحبه .. طائر بات يخاف العراء .. فيتحسس نفسه متوجسا متفائلا ، جاهلا لما سينمو على جناحيه من قوادم !!

* * *

أتريّثْ قليلا لأعيد قراءة ما كتبته لك ، فأسخر من نفسي ، ومن قدري ! كيف تجذبني رومانسية القرن التاسع عشر ، وأقبلها ، ثم أنهض ، وأرتمي في واقعية القرن العشرين ...

ألم أكن منذ لحظات أخبّ في ضباب القرن التاسع عشر ؟! أسمع الأمواج تئنّ على أصداء « شوبان » ، وتدوّي بألحان « فاجنر » ؟ وإذا وقفت على سدة المركب .. ألم أكن « الهولندي الطائر » ؟ أحضّ الأشرعة على مقارعة الأعاصير ؟

ثم أنظر الى نفسي من منظار آخر .. مَنْ أنا في هذه اللحظة ؟! كيف تتراءى لي تجربتي معك ؟ أليس من دواعي السخرية أن تبدو لي كتجربة ابن القرية المثقّف ؟! فلاّح .. توسم في نفسه طموحا ، فعاف فلاحة محافظة أحبّها !

ضاق ببدائية مَن حوله من الناس ، فحزم متاعه ، أو رمى به بعيدا •• وهجر قريته ، قاصدا العاصمة !!

علوت عما أنا فيه الآن •• فلم أبق فراساً ، وأنت لم تبقي هدباء •• بتّ أي « محمود » أو « حسن » أو « وعلي » !! وأنتِ ، أية « عائشة » أو « مريم » أو « ريا » •• قصة تتكرر كل يوم •• وعلى جميع المستويات !!

بالرغم من هذه النظرة المتعالية على تجربتي أقول ، لا ! فكما أني حصيلة قرنين متباعدين في الزمـــان •• كذلك هي تجربتنا ، ممتدة •• متكاملة •• متناقضة ، أعجز عن تبسيطهـا أو تحديدها ضمن قـالب فكري أو عاطفي معروف !

آه حبي ! لو كنتِ حقاً « عائشة » ، لتفطّر قلبي لبعدي عنك ! ولو كان سكان مدينتنا أهـل تلك القرية البسطاء ، لمـلأ رحيلي عنهـم عينيّ بالدموع ••

لو كنتِ « عائشة » ، وقبّلتك في ذلك الوداع المقيت ، على باب داري ، لوقفتِ حيرى ، أو لصفعتِني ، غضبى ، على وجهي ، أو •• لأقبلت تقبلينني دون فهمٍ أو محاكمة لما كنتِ تفعلين !!

لو كان سكان مدينتنا على براءة أهل تلك القرية ، وجاء مَن يحدثهم عن الحضارة والثقافة التي لا يعرفون •• لمجّوا ما يفرض عليهم ، أو ، حاولوا تفهمّه ، أو ، لسدوا آذانهم عنه •• لكن ، هيهات أن يقف من أبناء أية قرية ، قوم أدعياء ، صلفاء ، ينصّبون أنفسهم أساتذة جهابذة في علم ما لا يعلمون ، ويصيحون ، صوتا واحداً : « لدينا من التراث ما يكفي ! ما لنا ولما هو أجنبي ! إن لفي عاداتنا ، وتقاليدنا ، معالم لحضارة تضاهي أكبر الحضارات ! حسبنا إحياء التراث •• » !!

أليس هذا ما في مدينتنا اليوم ؟

لئن قيل موسيقى ، تبارى للدفاع عـن « الموسيقى الشرقية » أناس

لا يعرفون حتى كتابتها ! ألأنهم ولدوا في الشرق ، جاز لهم أن يلقبوا ما يدمدمونه من تفاهة ، بالـ « الموسيقى الشرقية » ؟! وإذا اختلفوا •• فالى مَنْ مِنَ الناس يحتكمون ؟ أليس الى رجال السياسة ؟ وليس لمعظمهم هؤلاء من حسٍ موسيقي ؟! مـاذا يعرف أي عربي متوسط الثقافة « عن » الموسيقى ، أو « من » الموسيقى ، سوى ما يسمعه من محطات اذاعاته ؟ ولم ينشأ هذا الجمهور ، ولم يترعرع ، إلا على سماع هذه الاذاعات نفسها ! اتناج تافه ، لقوم أميِّين تافهين ! حلقة مفرغة من التخلف ! تطربون لـ « زمرد » و « فيروز » و « ياقوت » وتقفون صفـًا واحداً للدفاع عما يطربكم ! ناسين أن حسّ الطرب ليس حدسا من بنات عبقريتكم ، بل ملكة ، يشكلها ويغذيها عندكم واقع وأناس متخلفون ! فتقتنعون بما تجترون ، مقصين من يحاول رفع مستوى هذا الفن في بلادنا ، تنعتونه إمّا بالعمالة ، وإمّا بفقدان ما تلقبونه بالـ « أصالة الشرقية » !!

مَن منكم قرأ ابن رشد ؟!
مَن منكم قرأ الفارابي ؟!

أسفي عليكم يا أبناء أمتي ! أيكم الأصيل ؟ وما هذه الأصالة ؟ أهي القرب ، أو التقرب من عيار ذوقكم المتخلف ؟!

والفن ؟ ماذا أقول وأساتذة الفن في بلادنا لا يصلحون طلابا في أولى سنيّ المعاهد العالمية ! في حين أن نقادنا •• نقاد الأدب ، والفن في بلادنا •• محررون ، مرتزقة •• سياسيون !!

والأدب ؟ لست أدري أية معجزة فرضت على الشرقيين الاعتراف أن الأدب يستطيع تجاوز الحدود الجغرافية والسياسية ! لكن ، ما نفع هـذا الاعتراف ، حين لا يعرف الشرقي عن الأدب العالمي سوى القليل ، القليل ، مما تُرجم ، أو سُمح بترجمته من الآثار الأدبية العالمية ؟!

إنها مدينتنا •• طبقة كبيرة من عالمنا •• أخذت المسمّيات من الغرب ، وأفرغت فيها ما يطفو فوق نفوسها من قذى وتخلف ! كيف لا أشعر بالغربة

في وطن وجد المحتالون فيه ستارا لتخلّفهم في كلمة « شعب » ، فأسموا نكاتهم القميئة « نكاتا شعبية » ! حِكَمهم المتدنّية العثمانية « حِكَما شعبية » ! ومسرحهم الضحل المخزي ، « مسرحا شعبيا » ! يقلدون القردة والحيوانات ، على المسرح ، ويعلّمون الصغار أن في هذا ما يُسلّي ويُضحك ! تصل دررهم الشعبية هذه ، عبر وسائل الإعلام ، الى جميع البيوت ، رغما عن أنوف أصحابها ! حتى بات مَن يعاف التدني في الذوق ، لا يعرف أين يذهب ، هربا منه ! ولا أين يتجه ، للاعتراض عليه ! وحيثما تلفّت أو اتجه ، أنصار لقميص عثمان .. « قميص الشعب » ! أو أناس لا مبالون ، يكسبون أرزاقهم في هذا السوق .. يتسلون ويدافعون عن وجوده ...

* * *

هدباء .. ليتك « عائشة » الحبيبة ، الخفرة ، لأحبها كما لا يستطيع انسان ، أضمّها الى صدري .. فترتجف لأنها بين ذراعيّ شاب تحب ... تخاف عين الرقيب .. أو عيون أهلها .. لكنها أبدا ، أبدا ، لن تخاف أنها لا تعرف « فن القبل » !

حبيبتي .. لا يراودنّك لثانية واحدة أني أقصد الإساءة اليك ، أو أرمي الى اهانة مبطنة ! تعلمين حبّي ، واحترامي لك ! لئن ثرتُ .. فعلى عالمك ، ولأن هنالك بوناً شاسعاً بين عالمينا ، لم أعرف كيف أتخطاه !

ما لي أقرر ما يصلح لك ، أو لغيرك ، وما لا يصلح ! وما شأني إن كنتِ تطربين لهذا اللحن أو ذاك ! عشرات المعجبين بك يطربون للأنغام ذاتها ! تهزهم القوافي نفسها ، يتعشقون عبير الياسمين ، ويسيرون على خطى سجلها « ابن عساكر » ! لست أثور على الواقع ، بقدر ما أثور على نفسي لأني لم أفطن الى واقعي قبل اليوم !

هل أتطلب الكثير من سنيّ الثمانية عشرة ؟ لعلها طفولتي .. وحدتي .. سنيّ حداثتي الطويلة في معهد ليليّ قصيّ ، بين أشجار الصنوبر ..

هدباء .. أسمعك تقولين « وما ذنبي أنا في كل هذا ؟ » وأرددها معك .. لا ، لاذنب لنا سوى أنك ، أنت .. وأني أنا !

إن كان الأمر كذلك ، فلكل منا عالمه ومقاييسه الداخلية ، وعندي من الوعي ما يمنعني عن ملامتك ، لأنك رهن شروطٍ حياتية لم تصطفيها ، فعلام أقسو عليك وأشتد ؟! ما لي أعدد عللاً في بيئتنا ، كأنك مسؤولة عنها ! أتشفّى بوداعك ، كمن هرب من مصيبة كادت تحيق به !!

ثقي حبيبتي ، أنك لو كنت « عائشة » لما جسرت على انتقادك ! لكنك هدباء المثقّفة الجامعية ! تعلمين نواقص مجتمعنا ، وما تحملين في نفسك منها ، ثم تظنّين أن علمك بالعيب يستر قبحه ! يكاد يصفح عن وجوده !

لو كنتِ على مثل « عائشة » من الجهل ، لبانت براءة محببة على وجهك ! ولعوّض جمالَ الفطرة فيك ، بعض الشيء ، عما تجهلينه من علم !

إنها « ابتسامتك » هدباء ! ابتسامة من تعرف بعض الشيء ، عن كل شيء !

إنها جميع البسمات التي تُجيدين .. ما عدا البسمة الحيرى !

* * *

عذرك هدباء !

لم أدر حين بدأتُ هذه الرسالة أنها ستطول ، وتطول ! أو إني سأضمنها كل ما ذكرت ! ولم أعد أدري ما إذا كان من الخير أن أبثك إياها .. فتبعث في نفسك الكدر ، وما أسأتِ إليّ في يوم من الأيام ! آه هدباء ! ينتابني الآن شعور بالحزن والتعب ، يهيأ لي أنه سيلازمني الى الأبد !

ها قد طلع الفجر !

كنتُ لدقائق طويلة أنظر اليه .. رأسي المتعب بين يديّ .. وعيناي مغرورقتان بدموع لا رادع لها ! كنت الى حين ، أبدد غضبي ونقمتي في

جوف الليل •• أكاد أنسى أين أنـا ! لا أدرك من أنـا ! ها قد أعادني الفجر الى الواقع ! ينحدر بنوره الوردي فـوق مويجات هادئة ، طروب •• فأذكر أمي ، ومن تركتُ •• والوطن ••

ترى هل أفـاق مَن حولك مِن نيام ؟ هل أفاقت ليلى تحضّر الإفطار بصمتها المعهود ؟ مسكينة ليلى •• غريبة ! نشأت بصمتٍ •• أحبت بصمت •• ثم فقدت من أحبته بصمت ! ما أقسى قـدرها ! ترى اليوم من عبدته ، زوجا لأختها الكبرى ! أباً لأولاد أختها •• فتتابع صمتها •• تقوم بأعمالها المنزلية ، لا تعرف غـير النافذة ، تجلس إليهـا لتستريح ، فلا ترى عبرها إلا طريقـا واحدة ضيقة مسدودة ! فتتابع النظر إليها بصمت ••

لست أدري لمـاذا تعاودني الدموع وأنا أذكر أهـلي ومدينتي التي تركت ! لا ، ليس هو الحزن ! يجـول في ذهني أن هـذا المركب ماضٍ بي نحـو « مرسيليا » ، وأني سأكون في باريس بعـد أيـام ، فيمتزج التفاؤل بالخوف ، في نفسي ! أنـا أدرى الناس في هذه اللحظة بما خلّفْتُه ورائي في الشرق ، وأنّ لي في ذلك راحة أكبر من أن أستطيع وصفها !

لكن الغـرب خضّم ، أراني مقبلا على الخوض فيه ، وليس في مركبي من زاد سوى مؤونة أيـام !

كيف أغفر لوالدي الميسور رفضه مدّي بالمـال لأن دراسة الرسـم ، والموسيقى لا تروق له ! لكم أبكى ذلك والدتي وأتعسها ! لكم توسّلت إليه ، وتضرعت ! دون جدوى ! لكم قبّلت يديه ، تسترحمه ألا يتركني بلا عون ، دون جدوى ! طـار لبها ، حين رأتني مزمعا على السفر ، وليس معي غـير تذكـرة السفر ! هرعَتْ تودّ بيع حليٍّ لهـا لتساعدني بثمنها ، فمنعهـا ! وهـددها بالطـلاق !!

ما لي ولـكل هـذا الآن ! المركب ماض ، ماض بي •• وأنا كالمخمور •• قلمي يخط هذه السطور •• ونفسي وجلة تطير على غير هدى •• تنزع الى الغرب ، لاجئة •• وتودّ في سرّها لو تجنح عائدة نحو الشرق !

أيدهشك هـذا الاعتراف ! لعـلّ مبعثه وهـن أصابني ! سـتركك حبي لأنام ..

متى سأعاود الكتـابة اليك ؟ أظن أنني في هـذه الرسالة سأطوي فصلا من حياتي لست أدري ما إذا كان الحنين سيحضّني يوما إلى نبشه !

لا أخـال إلا أن هـذه آخر كلمات « فراس » الذي عرفت .. فراس الذي سيعاود الكتابة إليك يوما..سيكتب من بلاد « سيزان »و« رودان ».. من بلاد « ديبوسي » و « فرانك » ، من بلادٍ أنشأت « بروست » و « بودلير » و « رامبـو » ...

وداعـا هدبـاء ! وداعـاً ....

فراس

الفصل الثاني

وضعتُ آخر صفحات الرسالة جانبا ، ورحت أنظر الى مضيفي •• متمعنا ، متعجبا ، مذهولا•• لقد مضى على كتابة هذه الرسائل ثلاث سنوات•• ثلاث سنوات ! وهي مكتوبة باللغة العربية الفصحى ••

هززت رأسي كمن يفيق من وهلة حلم ، وعدت أنظر إليه متفحصا ، متشككا ! كان مستغرقا في العزف على البيانو •• يدرس « البلاّد » الأولى « لشوبان » •• يعيد المقاطع الصعبة منها •• يكرر جملها الموسيقية ، عشرات المرات في حزم آليّ يثير الانتباه والنزق ، فما إن توقف قليلا ليريح أصابعه •• حتى انتهزتها فرصة ، لأسأله ، مخفيا ما يجول في نفسي من إحساس متضارب نحوه !

قلت ، في شيء من العبث ••

ـ « فراس » ، صاحب الرسالة هذه ، هو بالطبع •• أنت •• أنت « مكسيم » !

استدار نحوي مع مقعده اللولبيّ الصغير ، وأجاب ، وعلى شفتيه ابتسامة خبيثة منتصرة ••

ـ طبعا ! هذه هي المفاجأة التي حدثتك عنها ! ألا تراها جديرة بالاهتمام ؟

نظر إليّ متفحّصا ينتظر الجواب ، ثم قال كمن يود تجاوز التساؤلات والنقاش ••

ـ قل ! ألم تجد صعوبة في قراءة العربية ؟

أخفيت امتعاضي ، ودهشتي •• وأجبت

ــ لا ! فلا هــذه الرسالة تحتوي من المفردات ما هو صعب ، ولا في أسلوبها من المحاولات البهلوانية الحديثة ما يصعب فهمه على إفرنسي مثلــي درس اللغــة العربية الفصحى في « السوربون » ! إن أي مستشرق قادر على كتابة مثلها ! لكن ، ما صعب عليّ تقبّله ، هو الفارق الشاسع بين شخصيّة كاتب هــذه الرسالة ، شخصية « فراس » ، و •• وما عرفته عنك ، خــلال السنوات الماضية ، منذ عرفت « مكسيم » ! فلئن كنتَ حقاً صاحب هــذه الرسالة ، فإما أنك كنت تفتعل ذلك الزخم الرومانسي الذي فيها وإما أنــك اليوم ، إنسان آخر ، لا يمت لتلك الشخصية « الفاغنيرية » بصلة !!

ــ •• صحيح لكن هذا بحث سابق لأوانه ! لنرجىء الحوار عنــه حتى تنتهي من قراءة بقية الرسائل !

قال هــذا •• ثم استدار بمقعده عائدا إلى حيث كان ، قبالة البيانو •• تسبقه أصابعه الى ما كانت عليه من دراسة ، وتكرار ••

* * *

كان ذلك في آخر الشتاء ، جلستُ في شقة « مكسيم » ، أقــرأ رسالته والرياح تعصف بين شوارع باريس ، تحت سماء متلبّدة بالسحب الداكنة ، ورذاذ المطــر يلفح زجــاج النافذة في زخات متتالية ، تقوى موجات بعضها على بعض ، فتلذّ لي مراقبة نار الموقدة المتوجهة قربي •• وأطمئن إلى ماكنت أنعم فيه ، في تلك الغرفة ، من راحــة ودفء •

رحت أُمعن النظر في صديقي ! ما أبعد « مكسيم » الذي كنت أرى أمامي ، عن شخصية كاتب تلك الرسالة ! لماذا أراد لي صديقي أن أتصوّره في قالب شرقي ، يسطر كلمات محمومة في مركب يمخر عباب البحر ؟! ثم أيّ تشابه يربط هاتين الصورتين ، « فراس » ، « مكسيم » ، بذاكرتي عن صورة أخرى له ، صورة كانت قد تشكلت في ذهني ، حين سعيت الى معرفته ، في الحيّ اللاتيني !

أسندت رأسي الى الوراء ، منساقا مع أفكاري ••

متى عرفت « مكسيم » ؟ أمنذ سنتين ؟ ثلاث سنوات ؟ كان ذلك خلال منتصف الصيف ، وكنت كعادتي في فترات بعد الظهر من شهر آب ، أتمشّى في شارع « السان جرمان » ، أسعى الى الجلوس في احدى شرفات المقاهي العديدة التي فيه •

كنت قد تعودتُ ، في الفصول الباردة من السنة ، ألاّ أرتاد من المقاهي سوى « الفلور » ، في إطارها الخاص القديم ، أو « الدو ماغو » ، لما كان يتنادى اليهما من شخصيات الفن والمسرح ! أتسلّى بمشاهدة تلك النماذج الإنسانية الطريفة عن كثب ، بمراقبة حركاتهم •• وأتعرّف أحيانا الى من كنت في شوق للتحدث اليهم ، أو أكتفي بمراقبتهم من بعيد !

أما في الصيف ، أثناء شهر آب بالذات ، فلقد درجت باريس على أن تُغلق معظم مرافقها ، ومؤسساتها ، في عطلة طال ترقبها ! يهجر الباريسيون مدينتهم المحبوبة ، فلا ترى في شوارعها سوى السواح •• يقصدون هذين المقهيين ، أو غيرهما مما ذاعت شهرته الفنية ، يتراصّون داخل المقاهي •• وعلى شرفاتها •• منتظرين وصول أهل الفن ، وهؤلاء لاهون عنها ، يستجمون، ويمرحون على شواطيء فرنسا ! فلا يشاهد السائحون ، سوى غيرهم من السواح ، يكاد حِوار المتسامرين منهم يجري في جميع لغات أهل الارض ، ما عدا الفرنسية !

بُعَيْدَ ظهيرة ذلك النهار ، وصلتُ قبل غيري من المتسابقين الى منضدة خالية على رصيف مقهى « الفلور » ، شغرت لحظة بلغتها • فجلست ، رافعا وجهي ، مغمضا عيني ، أتلقّى أشعة الشمس ، أستريح برهة ، أتهيأ لقراءة صحيفتي اليومية ••

لحظات ، واذا بصوت آلة الـ « أورغ دي بارباري » ينبعث من مكان غير بعيد عني •• أسمعه عبر أصوات الناس ، ومن خلال هدير محركات السيارات • فأنسى أنني في صيف عام ١٩٥١ ! أنسى أن باريس قد تحررت

من الاحتلال النازي ، وأن ست سنوات بكاملها قد انقضت على انتهاء الحرب !! تعيدني موسيقى تلك الآلة الى سنيّ الحرب ، فأحس أن من يتكلمون الألمانية حولي، هم جنود احتلال نازيّون، أكاد أنسى أنهم سائحون ، تناسوا ما خلّفه أبناء أمّتهم من كره وحقد في نفوسنا ! عادوا مع زوجاتهم وأولادهم اليوم ، يحتسون الجِعَة على شرفات مقاهينا ! لاهين عما لا يزال يغلي في نفوس معظمنا من ضغينة ، وحقد عليهم !

كان صوت « الأورغ دي بارباري » يأتيني كناي سحري ، يردد أغنية باريسية قديمة : « تحت جسور باريس » ، « تحت جسور باريس » •• فأعود مع كلمات تلك الأغنية الى أيام طفولتي •• أيام الاحتلال المريرة •• حين باتت أمثال تلك الأغاني رمزا ، كنشيد « المارسييّز » ، يثير سماعها في نفوس الفرنسيين شوقا الى باريس الحرة النضرة ، التي لا تعرف للحياة من قانونٍ ، سوى الحب والمرح !

كنت قد لمحت عازف تلك الآلة مراراً ، في الحي اللاتيني ، وكنت أعرف أنه وسيم الطلعة ، طويل القامة ، فرحت أتصوّره وأنا مغلق العينين •• لكم راودتني فكرة التعرف اليه ! هممت بذلك مرّات ! أتراجع دوما ، في اللحظة الأخيرة ، أخجل من تلك المبادرة ، أنتحل لنفسي الأعذار ، فأثنيها عن محاولة الاقتراب منه !

كان في ودّي أن أكلّمه ، ولم أكن أدري متى ، أو كيف أبدأ ! أحين يدنو مني غير عابىء بأحد ؟ متقلداً ابتسامته الساخرة الحزينة ، مادّاً قبعته البحرية ، لأضع له فيها قطعة النقود الصغيرة ، كسائر الجالسين من حولي ؟ كان الكثيرون يتبسّمون له في مودّة ظاهرة دونما حرج •• يجزلون له العطاء ، يطرحون الأسئلة عليه تباعاً ، فيجيبهم ، في لهجة عابثة ، عابرة ! أمّا أنا ، فكانت رغبتي في التعرف إليه تحدّ من حرية تصرفي إزاءه ! أرى في زيه البحري ، وفي تلك اللفافة على طرف أذنه ، حائطاً أمامي !! كيف أكلّمه ؟ وأنا لا أجرؤ حتى على النظر اليه صراحة ! كيف أتغاضى عن نظرات مَن حولي من الناس ؟

هل ألحق به حين يبتعد عن المقهى ؟ لا بد أنني أكبره بأعوام ! كيف سيبدو مظهرنا للمارة ؟ هو ، في لباسه البحري ، وطابعه البوهيمي ... وأنا ، في ثيابي المدروسة الأنيقة ؟! لا تكاد هذه التساؤلات تدور في خاطري ، حتى أتراجع عن أية مبادرة من هذا القبيل ! أحسد جرأته في الظهور ، في شارع عام ، وتحت أنظار الجميع ، في ذلك الإطار الذي كنتُ أتمنّى ، في سرّي ، لو أظهر ضمنه !

وتضخمَتْ أفكاري عنه في رأسي ! يا له من فنان افرنسي حق ! إنسان بوهيمي ، لا تهمه المظاهر ! ولا يشكو من عقد نقص اجتماعية ، أو من قيود السلوك مثلي ! يمدّ يده ، دونما مواربة أو استحياء ، يطلب أجره على ما أسمعنا إياه من موسيقى ! ولِمَ لا ؟ إنما ، هي موسيقاه ، قبل أن تسمعها باريس ، ومن بعدها ، عواصم العالم ! لا بد أنه من « مينيلموتنان » ، قلب باريس الدافىء ، وهذه ألحانه ، ألحانها ، إذا تجمّع الفنانون ، في « الفلور » فللتحدث عن هذه الموسيقى ، للكتابة عن أمثال هذا البوهيمي من الأصيلين .. لنقلِ وقائع حياتهم اليومية الى خشبة المسرح ، للتمثّل به .. فالناس يدرسون الفن سنوات ، ليحاكوا ، بالتمثيل ، ما يعيشه أمثاله في تلقائية ، وعفوية !

فتحت عيني ، وقد اقتربت ألحانه مني .. معجبا به ، ناقما عليه ، لما وضعه هو ، أو العرف الاجتماعي ، من فوارق بيننا ! حواجز ، تحول دون أن أطلب منه الجلوس الى مائدتي ! دون أن نتمشى معا في دروب باريس القديمة المنسيّة ، يطلعني على ما يعرفه من ماضيها ، يدلّني على أجواء لها ، لا يمكن لمثلي ، ممن يرتدون ربطات العنق الأنيقة ، أن يتعرفوا يوما إليها !

كانت ترافقه ، على الدوام ، فتاة بوهيميّة ، طويلة القامة ، سوداء العينين وجدائل الشعر ، يلف جسدها الفتيّ زيٌ أسود يحاكي طريقته البوهيمية في اللباس ! وقفت الى جانبه تبيع رسوما مائية ، استحسنتُ صنعها ، فما إن علمت أنها من رسم ذلك العازف ، حتى أُعجبت لموهبته ، وما كنت أظنه رساماً ، فابتعت عدداً وفيراً منها ..

* * *

هل من الغريب إذن ، بعد أيام ، أن أُصعق اذ أرى ذلك الرسام البوهيمي وفتاته ، في ردهة دار الأوبرا ؟ عازف « الأورغ » ورفيقته الساحرة ، أراهما أثناء الاستراحة .. هي ، في لباس للسهرة ، طويل أنيق ، وهو ، يرتدي زيّ الحفلات الرسمية ، ذا ربطة العنق الفراشية ، وسترة « الفراك » السوداء ، الطويلة الذيل ؟

تسمّرَتْ نظراتي عليهما .. وترددتُ فيما أفعل !

رأتني الفتاة ، ولاحظت ما كنت فيه .. فتبسمت لي ! قلتُ في نفسي ، لا بد أنها قد تذكّرت ما ابتعته من رسوم رفيقها ، دفعة واحدة ! طفقت أُشجّع نفسي وأنا أردد تلك الفكـرة حتى زال عني تردّدي ، وتغلبتُ على حيائي ، فتقدمت منهما ، دون وجـل ..

لم أكن تلك الليلة غريبا يتجول في الحي اللاتيني ، دخيلا ، آخر ، على عالمهما .. سائحا ، يستمع الى ألحان « مينيلموتتان » ! ألحان باريسهما !

كانا في « المسرح الوطني للأوبرا » .. وداري ، على بضع مئات من الأمتار من ذلـك القصر التاريخي ! كنّا نستمع الى موسيقى عـالمي أنا .. وشتان ما بين أجـواء هـذه الموسيقى ، وأجـواء أغان شعبية ، مثـل .. « تحت جسور باريس » !

تقدمت منهما .. أعرّف الفتاة بي ، بالشكل التقليدي ، مدليا باسمي ، وبلقبي .. بل زدت بعض الشيء من عبارات اللياقة المألوفة ، متعمداً أن أبدو على ثقة كبيرة بنفسي ..

ــ اسمحي لي أن أقدم نفسي .. « شارل غوستاف دو بواسي » .. « كونت ، دو بروفانس .. » .. في خدمتك ، أيتها الآنسة ..

رفعَتْ الفتاة حاجبيها ، ثم بادرَتني ، في بساطة ..

ــ أما أنا .. فأدعى « جينيت » ! فقط ! دون ألقاب !

ثم أشارت الى رفيقها ، معرّفة ..

ــ وهذا صديقي •• « ماكسيميليان » •• ندعوه « ماكسيم »، للاختصار ! تعرفه ، من الحي اللاتيني ، قبل أن يعرفك !

أظن أن احمرارا علا وجهي ! قلت متمسّكا بلهجتي السابقة •• مصرا على أناقة الألفاظ ••

ــ مناسبة طريفة ! من كان ليظن ••

وكنت على وشك أن أبدي تعجبا ، لوجودهما في « دار الاوبرا » •• لكني تداركت نفسي بسعلة خفيفة ، وتابعتُ متوجها الى « مكسيم » ••

ــ كنت أظنك بحارا ، أيها السيد « ماكسيميليان » •• أو رساما •• أو شيئا من هذا القبيل •• أما الموسيقى الكلاسيكية ! في مثل هـذا الاطار الأنيق ! وأوبرا « دو بوسّي » ••

وصمتْتَ متعجبا ، كأني أود أن أقول •• « هذا لم يكن على بال » !

نظرا اليّ مليّا ! ثم تبسم الشاب مني ، وقال ••

ــ حقّا ! إنها مفارقة كبيرة ! تدعو للعجب والتفكير !

لم أتنبه الى نظرة الاستغراب التي بادَرَتْه بها الفتاة ! كنا في ازدحام شديد قرب « البار » رغم سعة ردهة الاستراحة ، مئات الرؤوس المشرئبّة تتعالى بعضها على بعض ! فوق بعض ! أيدٍ أنيقة •• وأخرى متأنقة •• أو دميمة •• بعضها يحمل جواهر ثمينة •• وأخرى ، تتحرك بكؤوس الشراب ، ترتفع لتظهر نفسها فوق الأكتاف ••

كنتَ أحجبُ « البار » عن محدثتي ، وأراد « مكسيم » أن يسدّد ما عليهما من حساب ، فمدّ ذراعه فوق كتفي بالدراهم ، فاستدرت أسبقه الى ذلك ، مستأذنا ••

ــ أرجو أن تقبلا ضيافتي •• أرجوكما ! أصر !!

وسدّدتُ الحساب ، على عجل ، قبل أن أسمع جوابهما ••

تعجّبَتْ الفتاة ، ثم تبسمت ، وقالت ••

ــ •• حسنا •• على أن تقبل ضيافتنا لكأس ، بعد انتهاء الحفل ••

* * *

طربْتُ لتلك الدعوة !

لحظات ، وكنا في طريقنا خارج ردهة الاستراحة •• نسير عائدين الى الحفل ، عبر الصالة الكبرى ، نصعد السلّم الرخامي الكبير المتّجه نحو مقصوراتنا ••

ما جاء ذكر دار أوبرا باريس يوما في حديث لي مع إنسان ، إلا وجدتني مدفوعا ، إن لم يكن لوصف جمالها ، فلذكر بعض ما أكنّه من إعجاب بتكامل نقشها وإتقانه ، ونحتها ، وزينتها ••

صعدنا الهوينا ذلك السلّم المرمري الرائع ! أتلمس اخضراره الناعم براحة يدي •• وصدري يفيض بسعادة طفولية كدت أنساها ••

كنتُ في ذلك القصر •• كعبتي •• أنقّل النظر ، مرة بعد مئات المرات ، بين أجمل القاعات في العالم ، وأحبّها الى نفسي •• تنساب عاطفتي وراء إحساسي بالجمال •• لا أشعر ، كعادتي ، بوحدتي يثقلها ذاك الجمال •• لا يؤرق غبطتي شعور غامض بأنني إنما أتجول في عالم الخاصّة من الناس ••

كنت أرقى هذا الجمال برفقة إنسانين غريبين عنه •• بوهيميّين ، من صلب عالمٍ آخر ! عالم ينشد البساطة ويمقت الزينة والبهرج ! عالمٌ طالما أحببته ، ورهبته ! إنسانان من الحي اللاتيني •• خير ممثّلين له ! وها هما •• لا يدبّان على هذا السلّم كغيرهما من الوجوديين ، في ثياب مهملة متحدّية ! بل يتهاديان عليه ، في زي المحبّين له ، المنسجمين معه ، والمراعين لتقاليده وطقوسه العريقة ••

نظرت اليهما ، في عطف وامتنان ••

بالأمس كانا في مخيلتي يجسّدان الحي اللاتيني ، بكل ما فيه من ألغاز

وحقائق ، يبدوان لي ، كصرحين منيعين ! لا بد من تخطّيهما ، للوصول الى أسراره ! أمّا في تلك الليلة .. في تلك الدار .. في ثيابهما الأنيقة ، فلقد باتا جسريّ أنا الى البوهيمية ! أميرين ، من عالم الجنّ ، أتيا متنكّرين في ثياب عالمي أنا ، كي يُحسنا قيادتي الى عالمهما ..

* * *

طفقت أحدّثهما عن حبّي وإعجابي بدار الأوبرا .. يحضني تبسّمهما ، واصغاؤهما لحديثي ، على سرد ما أعرفه من الطرائف عنها ، وعن تاريخ بنائها .. نبشت دقائق حياة مصمّمها « غارنييه » ، أُبدي معرفتي بكتابه « عبر الفن » ، أتكلم دون انقطاع ، أظن أني أفرغت في الدقائق التي كانت قد تبقّت لابتداء الفصل الأخير من الحفل ، كل ما كان في رأسي عن ذلك القصر !

لم أترك رفيقيّ في مقصورتهما إلا بعد أن خفّضت الأضواء ، ثم أطفئت ، فعدت الى مقعدي ، أصغي الى المقدمة الموسيقية ، ثم الى الغناء ، فأحس باستساغة غريبة لها .. تأتيني الموسيقى كأني أسمعها لأول مرة ، فأفهم هذا المقطع ، وأتجاوب مع ذلك ، يدهشني ما أكتشفه عنها .. ويستأثر بي طرب لتلك الاكتشافات ..

ما كاد ينتهي الحفل ، حتى عدت الى رفيقيَّ ، أُغرقهما هذه المرة بالحديث عن « دو بوسّي » والموسيقى الكلاسيكية ! أشرح لهما سعة وروعة أبعادها .. أصف صعوبة ، وعمق علم التأليف فيها ! أُعدد ما يقاسيه المؤلف في سبيل اتقان هذا الفن ! عن .. وعن .. يا الهي ! لكَم تحدثتُ في تلك الليلة ! ينتابني الحياء ، كلما ذكرت كيف بدوت لهذين البوهيميين ، كمن أفلت زمام لسانه منه !

ألححت على رفيقيَّ لقبول دعوتي الى داري ، بعد أن تناولنا كأسا عابرة في أحد « البارات » المحيطة بال « أوبرا » .. كنت بالطبع أرمي الى مفاجأتهما

بفخامة مسكني ، وبما تحتويه شقتي من تحف وموسيقى ، وأدب ! هل كنت أسعى لكسب إعجاب الفتاة ؟ ما معنى أن أحاول ذلك ، و « جينيت » كانت تقف أمامي كجزء من صديقها « مكسيم » ! تبدو لي كأحد أطرافه ، قطعة منه لا يمكن بترها ! أم كنت في مبارزة خفيّة مع صديقها ، مع عالمه البوهيمي ، أسعى الى فوزٍ سهل عليه ، فوز يترك الفتاة في عراء نفسي •• فأتلقّفها منه ، دونما عناء أو جهد ؟

لم يطل تساؤلي ! ولم يترك لي الوقت الكافي لأكتشف حقيقة سعيي ! دخلنا منزلي••أقود ضيفيّ الى الصالة الفسيحة••لست أدري ماذا كنت أتوقّع سماعه من تعليقهما على شقتي المترفة ، المترامية الأطراف ، في باريس الباهظة ، والمكتظة بالسكان ! أذكر أني رأيتهما يتوقّفان برهة أمام المكتبة •• يبديان إعجابا مهذبا بما حوت •• ثم ، اذ شاهدا البيانو الكبير القابع في الركن •• توجّها نحو •• وعلّق « مكسيم » دون أن يخفي فرحه ••

ــ •• آه ! انه « ستاينوي » •• يا للحظ !

ثم جلس اليه •• فتوقّعت أن أسمع محاولة متعثرة في عزف •• « تحت جسور باريس » !

* * *

ينتابني الحياء ، وأنا أكتب هذه الكلمات ، حين أذكر ماذا اجتاحني من شعور وأنا أرى ، وأسمع ، أصابع « مكسيم » ، وهي تجول فوق مفاتيح ذلك البيانو !

أكان ذاك هو البوهيمي الذي عرفت في الحي اللاتيني ؟! أكان ذاك هو عازف الـ « أورغ دي برباري » نفسه •• صاحب الأغاني الشعبية ؟!

أكان ذاك هو « البحار » ، « الفنان بالفطرة » الذي كنت أحدثه عن « الاوبرا » كأنها داري ؟! وكأنها المرة الاولى التي تطؤها قدمه ! أفسر له خبايا الموسيقى الكلاسيكية ، محاولا كسبه الى صفي ، ظانّا أني العليم بها ،

القيّم عليها ! من دون سكان العالم أجمع ! أكان ذاك هـو من استسهلت الفوز عليـه ؟!

كان « مكسيم » قد جلس ، يعيد عزف مقاطع طويلة دقيقة ، من الأوبرا التي انتهينا من سماعها ! مقـاطع ، لا سبيل الى وصف صعوبتها ، يعزفها في اتقان محترف ، كأنها أُعدت للبيانو •• لا للأوركسترا !

جلس يضبط تناغم المتوافقات •• تساعده « جينيت » على تركيز النغم الأساسي •• تضطر ، من حين الى آخر ، الى غناء نغم دقيق تعجز عن أدائه ! فيضحكان من خطئها ! ويعاودان المحاولة •• في غير ما ارتباك أو تعقيد ••

سألتْه « جينيت » أن يعزف مقطوعة تحبها ، قصيدة ، قصيرة سريعة ، « لشومان » •• فعزفها ، ثم توقف بعدها ينظر اليّ •• يسائلني ••
ــ •• لمن تكون هذه المقطوعة التي سأعزف ؟

وانطلق يعزف مقطوعة ، بدت لي غير بعيدة عن « ليليّات شوبان » ، فبادرته ، في صوت خفيض ، وبعد تمهل ••
ــ أليست مقطوعة « لشوبان » ؟!

ولم يكن « مكسيم » قد أنهاها ، فهز برأسه نافيا •• وهمس ••
ــ إنها لي •• هل تستغرب ذلك ؟!

ثم تابع العزف •• حتى أنهى مؤلفته ••
لست أدري ما اذا كان قد سمعني وأنا أهمس لنفسي ، قائلا ••
ــ لن أستغرب منك شيئا بعد اليوم !!

* * *

« مكسيم » •• « فراس » •• هذا الانسان العجيب ، الذي رحت أراه أمامي يعيد عزف مقاطع « البلاّد » عـلى البيانو ، بدا لي ، في تلك الشهور الاولى ، عملاقا يضرب بذراعين مديدتين هائلتين ! ذراع البوهيمية من جهة ••

وذراع ، ماذا أسمّي الذراع الأخرى ؟ كيف أُعرِّف ما هو عكس البوهيمية ؟ دون أن ألجأ الى تعريف مثل « العرف » •• أو « التقليد » ! لا يهم ! كنت أحار في فهمه ، أُرْجع ما أفهمه من تصرفاته الى نصفه الافرنسي ، وما أمجه فيها ، من نزق أو تعال ، أو ما يحيّرني فيها ، من رقة وإرهاف ، أربطه بأبيه الروسي الأبيض ! أما وقد قرأتُ الرسالة ، وبات « مكسيم » فجأة •• « فراسا » ! يحاول أن يقنعني أنه من أصل شرقي ! من أب ، وأم ، عربيين ! فلقد ضعت في محاولة فهمه ! واضطرني خياله لادخال صور عن الشرق لم تكن في مخيلتي •• صور ، فتحت في أثرها أبوابا •• حرضتني ، في النهاية ، على الكتابة •• وهدفي ، في الأصل ، لم يكن سوى تتبع خطواته ، في رحلة ، بدت لي في البدء دونما هدف ! فاذا بي أحس بأني أتقصّى خطاه ، بحثا عما قد يصل بي في النهاية الى منظارٍ جديد ، أرى الحياة من خلاله •• فهمٌ لها ، منعني تناغُم عالمي ، ووحدانية ظروفه ، حتى اليوم ، عن كشفه •

وددت ، في الأيام التي تلت لقاءنا الاول ، لو ألازمه كظله ! كانت ظروفي المادية تسمح لي بالتفرغ لما أريده ، لا سيما ، وأني ورثت عن والديَّ دخلاً منتظما يريحني من اللجوء للعمل اليومي ، لكسب معيشتي •• لكن حياة « مكسيم » كانت متفرعة الآفاق ، شاقة ! لا يمكن تتبعها ، إلا لمن كان على مثله إصرارا ، واندفاعا ، وراء أهدافه ! كان دائم الحركة ، كالدوامة ، يصعب على الواقف في ثبات أن يتأمل سير حركتها ! واذا حاولتَ محاكاة لفّها ، تعبتَ من ملاحقتها ، فاستحالت عليك مراقبتها في ذهن صافٍ جليّ !

أخجلني في البدء أن أبدو كمن يرتمي عليه ، يستجدي صداقته ، وما أوهى الوداد المعقود من طرف واحد !!

سهوت عما يمكن أن يثيره من اهتمام ، من كان مثلي ، لدى شاب مثل « مكسيم » •• ظناً مني أن ملكة الانتاج الفني ، التي لا أملك ، هي كل ما قد يصبو الانسان الى حيازته ! كأنما ينحصر في تلك الملكة جميع ما يُمكن أن يُعجب به فنان مثل « مكسيم » !

أسقطت من حسابي أنه قلّما يحب رسام رساما آخر ، وقلّما يرتاح أديب لمحاورة أديب آخر ! سهوت عن أن الموسيقى ، أو الفيلسوف ، لا يسعى الى تبادل وجهات النظر مع من يسلك مسلكه وجهةً وهوىً !

كنتُ ، دون أن أدري ، أجسّد الصورة شبه الكاملة لما للصديق في مخيلة « مكسيم » ، يرى أن نفسي تعكس ما جمعَتْه داري من هدوء وتنسيق .. وأن ما أعرفه ، وأتذوقه ، عن الفن وتاريخه ، يجعلانني ، بالنسبة اليه ، المحدّث الحيادي المثالي ، في مثل هذه الموضوعات !

* * *

لم يكن قد عزف على « بيانو » من صنع « شتاينواي » ، قبل أن تلامس أصابعه ما في داري من بيانو ! دعوته الى زيارتي ، للعزف عندي ، متى شاء .. فطار طربا ! وصار لايترك فرصة إلا يطلب فيها أن نعود الى شقتي ، بعد لقاءاتنا المعتادة ، في مقهى«المابيون»، أو في غيره من المقاهي ، فأفرحُ في سرّي لطلبه .. أتيح له الجوّ الصامت ، اللازم لدراسته ، فألجأ الى المطالعة ، أو الى النوم ، تاركاً له الخيار في ترك شقتي ، ساعة شاء من الليل ، الى أن وجدته ، في صباح أحد أيام العطل السنوية ، مستلقيا على أحد المقاعد العريضة ، في الصالة ، وعلى الارض ، تحت أصابع يديه المفتوحة ، زمرة كتب كان يطالعها ، قبل أن يغلبه النوم ..

ذلك الصباح ، نظرت اليه طويلا ، وهو مغلق الجفنين ، فبدا طفولياً . وتحرك في نفسي نحوه عطف ، لم أكنّه لإنسان من قبل !

قلت ، ونحن الى مائدة المطبخ ، نشرب قهوة الصباح .. وكان الوقت ظهرا ..

ــ في المرة القادمة .. حين يغلبك النعاس ، وأنت في داري ، عليك بغرفة الزائرين ! ان فيها سريرا معدّاً .. لأمثالك من الضيوف ..

أجاب بابتسامة ، وواقعية ..

ـ المشكلة •• هي أنني عدت لا أشعر أنني ضيف ، في دارك !

أجبته ، مازحا ••

ـ •• ليس في هذا ما يسر ! ومتى بدأ يخالجك هذا الشعور ؟

ـ منذ أن تصفّحت معظم كتبك •• وعرفت كل ما قرأت !

ونظر عبر النافذة يتفحص السماء ، ثم قال ••

ـ لِمَ لا تأتي معي •• الى مرسم « الكوخ الكبير » ؟ تجرّب موهبتك فيه ! أما قلت لي إنك تهوى الرسم ؟

ولم يكن عندي في تلك الظهيرة المطرة مـا أفضله على اقتراحه •• دقائق ، وكنا في طريقنا الى المرسم ••

لكم ضحكت ، وأنا أرى أول أنموذج عار للرسم في حياتي ! كان رجلاً ، في الخامسة والستين من عمره ، متداعي البنية ، ذا لحية بيضاء طويلة ! برزت عظام صدره لشدة نحوله !

همست مازحاً ، ونحن منهمكون برسم لقطات سريعة له ••

ـ •• أمن هذه الاشكال الجميلة •• تستلهمون الفن ؟!

ـ انها •• الخطوط ، والاحجام ، يا صديقي ! إن لها جمالا ، لا غائية جنسية فيه ! الأحجام •• النور والظل •• السطوح ••

وراح يحاضرني ، هامسا ، عما كنت مدركا له •• فبدا لي ، للحظات ، على مثل ما كنتُ معه ، حين أغرقته بمعرفتي عـن الموسيقى الكلاسيكية ، ومؤلفـات « دو بوسي » ، فارتحت في سـرّي لزلته ، وابتسمت !

لعله أحس ما كان يجول في خاطري ، فأدرك ذلك ، وأخلد الى الصمت فجأة •• مبتسما هو الآخر !

* * *

لم تمض شهور ، على تلك الفترة ، حتى باتت صداقتنا وكأنها ترجع الى سنين عديدة ! تأصلت أواصرها ، حتى صرت لا أرتاح لسواه ..

لم أسعَ الى هدم الحواجز الحيوية بيننا .. جلّ ما هنالك ، أن تلك الحواجز ، أصبحت أكثر شفافية .. أرتاح الى أني أرى عبرها ، الى المجهول ، في مكسيم .. لا أكره عدم فهمي للإبهام عنده ، لا أرى الإبهام حاجزا ، قاتما ، مستعصيا ، فأمقت جهلي لفهمه .. وأمقته هو !

بتّ أرى تلافيف عالمه عبر حجب شفّافة ، ما زالت قائمة بيننا حتى اليوم ، تلافيف ، قد لا أفهم قوانين حركتها .. لكنّني أرتاح لكوني أراها ، على الأقل ، جلية المعالم .. واضحة الحدود ..

كنت أتسلى بمرافقته الى معهد الفنون .. نلتقي بصديقيه « غونثر » .. و « جون » ، أجلس الى جانب صديقي في قاعة « روودان » ، أراقب تطور الأشكال ، والأحجام ، على لوحاته .. أنتظر أن يمر أستاذه ، ليدلي بنقده الأكاديمي لها .. أتعجب لنظرة الرسام الى الجسد البشري ، العاري ، لا يرى في النهدين ، أو الساقين ، سوى سطوح ، واحجام ، تخفي وراءها أوتارا ، وعضلات ، وعظاما ، على الفنان أن يدرسها ، من الوجهة التشريحية ، وأن يعرف شكل ، وحجم كلٍ منها ، ثم موضعه الدقيق من الجسم ، كي يحسن إبراز تناسق سكون ، أو حركة ، ما يرسم ! يزيد من تسليتي أن تتمشى ، بعد الدراسة ، في حي « الرو ديسين » برفقة زملاء لمكسيم .. رسامين ، أو نحاتين ، لا تتحدث سوى عن عالم الشكل واللون ! واذا ما جاء ذكر الواقع ، من فتيات ، أو طعام ، تحدثنا عن ذلك ، ضمن طابع ذهني ، فريد ، خاص بذلك العالم التشكيلي !

ثم أقارن ذلك بعدد من الزيارات ، قمت بها مع « مكسيم » الى المعهد الموسيقي .. فأذكر أصوات الآلات المختلفة ، تتجاوب أنّى سرنا ، في أروقة المعهد .. يدور رأسي في ملاحقة أسماء ما كان الطلاب يتدربون على أدائه ،

من مقطوعات .. تتغير الألحان ، من باب الى باب ، عبر الغرف الصغيرة ، المتتالية ، التي يدرس فيها الطلاب !

كنت أُفضّل البقاء بين تلك الردهات ، على سماع المحاضرات النظرية ، أوثر سماع الموسيقى ، على الجلوس الى جانب « مكسيم » ، أستمع الى ما يتلقّاه من دروس في علم التناغم ، أو علم المتقابلات .. علوم نظرية ، معقدة ، تجري دراستها دون الاستعانة بالآلة ، تشمل قوانين الصوت ، وحركته ، بشكل متوافق ، أو متراكب ، أو متنافر ، ثم دراسة هيكلية لبناء الاعمال الموسيقية الكبرى .. قوانين تشابه حساب الحديد ، والاسمنت ، والضغط ، في علم الهندسة المعمارية ! نخرج بعد ذلك في رفقة زملاء لمكسيم ، موسيقيين ، هذه المرة ، تضج رؤوسنا بما سمعناه ! تتمشّى ، وتتجاذب الحديث ، كأن ليس في العالم سوى الأصوات والأنغام ! يضرب أحدهم أيّ جماد في طريقه ، أياً كان ذلك ، أو نافذة ، ثم يردّ ما ينتج عن ذلك من صوت ، الى السلم الموسيقي .. فلا نلبث أن ندرك أن جميع ما حولنا من ضجيج ، وأصوات الشارع ، إن هي ، في الواقع ، إلا أصوات موسيقية ! فيثور بعضنا على النتاج الموسيقي التقليدي ! يضرب بجميع ما كتب ، بين « بيتهوفن » و « فاغنر » ، عرض الحائط ! يحلم بماسيبتكره في المستقبل من آفاق موسيقية طليعية ، حديثة ، تماشي القرن الذي نحيا فيه !

* * *

أين ولّت تلك الأيام التي أصبحتُ أجلس فيها ، كعادتي ، على رصيف مقهى « الفلور » ، أترقّب وصول صديقي ، مع « جينيت » .. فيعزف « مكسيم » على آلته ، كأنه يعزف لي ! وتبيع « جينيت » صوره ، وهي تغمز اليّ بعينها ، خفية ، بين فترة وأخرى ! أجتهد ألا أظهر ما يُنبىء أني على معرفة بهما ! أراقب جميع حركاتهما ، وسكناتهما حتى يصلا الى حيث أجلس ، فيمدّ « مكسيم » اليّ يده ، بقبعته البحرية ، كالمعتاد ، مازحاً ،

أضع له فيها أصغر ما لديّ من قطع النقود .. زامّاً شفتيّ ، كي لا تفلت مني ابتسامة تكشف معرفتي به ، وما أرمي اليه من دعابة !

ما لي أسترجع الماضي ؟ أكتب عن ذكريات لي مع إنسان يجلس أمامي .. أراه قربي ، وأكتب عنه كأنه قد ذهب ؟!

مضت تلك الايام ، وولّت !.. وتقلّب على أفراد ثلّتنا ، الكثير ! لكن هذا بحث يطول ! وسأجيء على ذكر ما مرّ معنا خطوة ، بخطوة ، كل حدث ، متى جاء حين ذكره !

أعادني عزف « مكسيم » الى ما كنت فيه في غرفته ، تلك الليلة ، فعدتُ الى ما بين يدي من أوراق ، وشرعت في قراءة الرسالة التالية ..

* * *

الفصل الثالث

بحر المانش ١٩٥١

هدباء ..

هدباء .. هدباء .. أردّد اسمك الجميل ، لهفا .. وكأني معك ، في عناق ، بعـد أعوام طويلة !

أتدرين أن اسمك هو أول كلمة عربية أنطق بها .. منذ طويت رسالتي الأخيرة اليك ؟.. أليس طريفا ألا أخاطبك سوى من البحر ؟! رسالتي الأولى ، كانت من البحر المتوسط .. وهذه ، من بحر المانش ! وشتّان ، هدباء ، ما بين هذا البحر ، وذلك ! هياج هذا ، وهدوء ذاك !

ما أشد البرد !! أنظر عبر الكوة الى الأمواج المتكسرة .. فأحسّ ببرد داخلي ، رغم ما أرتديه من صوف ، تحت سترتي البحرية ..

المركب محكم الإغلاق .. والردهة هنا دافئة .. لكن البحر في هيـاج مخيف ! يكفي أن يحاول أحد المسافرين فتح كوة أو باب ، ليستنشق هواء نقيّاً يغالب به دوار البحر ، حتى يشقّ القاعة صفير العاصفة ! فتأخذنا الرعشة ، رهبة من الأمواج التي تعلو ، فتقذفنا ! تحطّ ، فتضربنا ! تتكسّر ، ، فتغطّي المركب ، بكامله أحياناً ! نشهق ، في كل مـرة ، كأن اليمّ يود لو يبتلعنا الى الأبـــد !!

ليتك ترينني ! أكاد لا أقوى على التماسك فوق مقعدي لشدة تأرجح السفينة ! ولقد نال الدوار من معظم المسافرين .. نحن بالمناسبة ، في طريقنا الى

« نيو هافن » على شاطىء انكلترة •• لقد انتهزت فرصة هــدوء الركاب : لأكتب لك •• رغم العاصفة وتأرجح المركب !

أتتساءلين كيف أقوى على الكتابة في مثل هذه الظروف ؟ ألا تعجبين كيف لم يصبني دوار البحر ، أنا الآخر ؟! لا تضحكي ! لقد تعودته ! لقــد أصبحت بحارا متمرسا ! أقولها جادا !! إنها اليوم مهنتي ! وأنا أمارس هذه المهنــة منــذ سبعة شهور !

أمور كثيرة ، كثيرة ، مرت بي منذ وصلت باريس !
أبتسم طويلا ، وأنا أستعرضها في مخيلتي •• هل أسوق إليك بعضها الآن ؟ لِمَ لا ! أمامي ساعتان قبل أن نصل الشاطىء •• وما أظن أحدا ، من هؤلاء الركاب المساكين ، سيُقلق خلوتي معك قبل ذلك الحين ••

ما أبعد العام الماضي !

بأيّ شيء أبدأ ؟! أبالقطار السريع الذي توقف في باريس ، في محطة بدت لي هائلة السعة ، مرعبة ؟! هل أحدثك عن الرعشة التي انتابتني ، وأنا أطأ أرض الرصيف ؟! أسير ، حاملا حقيبتي الوحيدة ، أنظر ، وأتلفت حولي ، غير مصدق ، أردد لنفسي •• « أنا في باريس » ! « أنا في باريس » ! لا كأنه حلم تحقق ، بل كأنني تركت الحقيقة والواقع لغيري من الناس •• كأنما نمَتْ لعالم أحلامي جذور واقعية ، غريبة !

أنت •• حين تقولين « باريس » ، يتبادر الى ذهنك تصور مجمل عن هذه المدينة ، هو محصلة خيالك عنها •• كذلك هو حالي اليوم ، وأنا على ظهر هذا المركب • فأنا ، حين أفكّر بها ، بعد أن عرفتها ، أرى في مخيلتي أماكن معينة منها •• أحياء بكاملها ، أو مناطق متفرقة ، أو لربما صورة كاملة عنهــا ! أما في ذلك اليوم ، أول يوم وطأت فيه قدماي أرضها القاسية ، فلقد كنت إنسانا وحيداً ، يسير على أرصفة لم يألفها ، سيان عنده ، أن يتجه ذات اليمين ، أو ذات اليســار ! إنسان غريب •• لا يعرف وســط المدينة ، من ضواحيها ! لا يبحث عن أحد فيها ! ينظر حوله ، فــلا يرى سوى نوافذ ،

وجدران ، وواجهات محلات تجارية متشابهة •• عشراتها ! مئاتها ! بل ألوفها ، لو تابع السير !!

كانت لباريس في ذهني ، صورة ، هي محصلة جميع ما كنت قد قرأته عن أخبارها في الادب ، مضافا الى ذلك ، ما رأيته عنها على شاشات السينما ! صور ، وتخيلات ، لا حصر لها ! ومن هذه التخيلات ، كانت باريس « بلزاك »، أقربها الى نفسي •• أتمنى أن تكون معالمها قد قاومت فعل الحضارة ، والزمان !

أين تلك الصورة ، مما رأيته أمامي ذلك اليوم !؟ طارت من مخيلتي ، في ثوان ، جميع تصوّراتي المسبقة ! ورحت أستوعب ، في بطءٍ عنيد ، ودون فهم ، ما شُرح لي ، فيما بعد ، عما بدّله نابليون الثالث ، من معالم المدينة ، على يديّ « البارون هوسمان » • فهذه الشوارع العريضة ، الأنيقة ، النظيفة ، المتشابهة ! هـذه الصفوف اللامتناهية ، من الأبنيـة المتراصة ، المتشابهة ، المتتابعة ، بطبقاتهـا الخمس الراتبة ! وقرميدها الرمادي ، الداكن ! أهـذه هي باريس ؟! إلهذا المصير الحديث ، آلت قبلة أحلامي ؟!

وحتى هذه ! لم تكن الصورة الواقعية لها تماما ! فهي الصورة الشمولية للناظر الى شوارعها برمتها ! صورة الناظر الى جميع أبنيتها ، مرة واحدة بدءاً من أدوارها الأولى ، وما فوق ! والواقع ، مخالف لذلك ! فالسائر في شوارع باريس ، لا يرى بمخيلته •• بل بعينيه ! ينظر أمامه •• وليس الى فـوق ! يندر أن يعلو بناظريه ، فوق مستوى الإسفلت والجدران ، ورؤوس البشر !

لم أر في ذلك اليوم سوى وجوهٍ تمـرّ بي ، دون أن تراني ! ألوف المخلوقات ، كأنها في سباق ! تسير في اتجاهات متعاكسـة ! سيل لا ينقطع من المخلوقات ، دائما على عجلة من أمرها ! سيل يدخل جوف الأرض ، عبر نفق « المترو » يبتلعه ، من جهـة ، ليلفظه بعـد مئات الأمتار من جهـة أخرى ! سـيل يدخـل الأرض ! سـيل يخرج منهـا ! وسيول تتماوج في اتجاهات فرعية متعاكسـة ، فوق الأرصفة ! كل هذا ، على طرفي شارع ، بدت تميد تحت خضم لا ينقطع من سيل آخـر للسيارات !! مـدّ ، يتهدّر فوق الطرقات

العريضة ، يتوقف ، كل بضع مئات من الأمتار ، فيسمح لسيل البشـر أن يخترقه ، ثم يندفع في هديره المكبوت من جـديد !!

سرت مع السيل حتى أدركني التعب ••

لم أدر إلا والظلام قد حطّ ، لتتلألأ مصابيح الشوارع ، وتشع أنوار واجهات المحلات •• فجلست في أحد المقاهي المتناثرة على الأرصفة ، أنظر طويلاً ، ذات اليمين وذات اليسار •• أحتسي قهوة ، مائعة المذاق ، ذكرتني بأنني جائع ، لم أذق طعاما منذ الصباح •• وأن عليّ أن أتدبر أمـر مبيتي ، قبل حلول الليل !

تحسست نقودي ، فوجدتها مكانها ••

ترى أين الحي اللاتيني ؟

هل كنت قريبا منه ، أم بعيداً ؟ خواطر عديدة توالت على ذهني ، حتى قررت في النهاية أن أستقل أول عربة أجـرة ، الى ذلك الحي ، علّني أتدبر أموري من هناك ••

لم أكن أعلم عن الحي اللاتيني شيئا سوى أنه مركز تجمع الطلاب ، وأن جامعة « السوربون » تقع فيه ، أو بقربه ••

أوقفت عربة أجرة ، ورحت فيها مع سيل السيارات ، أقطع المسافات ، نحو « السوربون » ، أتابع تلفتي ، ألتهم بناظري جميع ما أراه •• أعجب لمـا أرى ، وأردد لنفسي دهشة ، وأسفا •• « أهـذه هي باريس » ؟

هدباء •••

ما إن وصلت « السوربون » وترجلت قرب فندق متواضع كان في طريقنا اليها •• حتى طغى على نفسي احساس بالضياع •• كأني انسان الفضاء ، تركت الأرض ، أقصد القمر •• فاذا بي أحط على الزهرة ، أو زحل !

قادتني صاحبة الفندق المسنة عبر سلم خشبي ، عتيق ، تغرقه الرطوبة ، الى غرفة ضيقة ، باهتة النور ، بالية الاثاث ! فما إن تركتني ، وأغلقت خلفها

الباب ، حتى تمددتُ على فراشي ، أنظر ، عبر نافذة ضيقـة ، الى النوافذ المضيئة على الحائط المظلم في المبنى المقابل ، أقلّب ما يتوجّب علي أن أقوم به في الغد .. أتوثّب لذكر الغـد ، وأتبسّم ، رغـم كآبتي ، لما ستأتيني به الأيـام ..

هدباء .. حبيبتي ..

لن أتابع سرد ما مر بي ، يوما بعد يوم .. فلن تكفي عشرات الصفحات لشرح ما تقلّب على نفسي من شعور متضارب خلال بضع ساعات فقط ممـا توالى عليّ من أيام فارغة .. مليئة ! فكيف بي لو أشرح مشاعري طـوال شهور كاملة !؟

قد تنسين حبي ، وأنت تقرئين هذه السطور ، أنّ دراهمي كانت قليلة ، قليلة ، الى حـد أني أحسست بنقص ما ضاع منها ، من أجرة عربة النقل .. والفنـدق !

كان عليّ ، منذ وصولي ، أن أتجنّب تكاليف الفنادق .. أن آوي الى أية غرفة ، مهما بلغت بساطتها ، أو زاد فقرها وتقشفها .. كان عليّ أن أجد سقفا يرد عني زوابع الليل ، اذا ما نفذت دراهمي ، واضطرني الفقر الى اخلاء غرفتي في الفندق ..

لم أكن قد أنست بعد ، الى طرقات باريس .. أو تعودت التشرد فيها !

لا أنكر عليك أن صورة دارنا الفسيحة في دمشق كانت تعاودني ، وتبرز في خيالي ، كلما ازددت يأسا من ايجاد غرفة ، ألجأ اليها .. وكنت أنهـر تلك الذكريات ، وأجد متعة « ساديّة » في تمزيق بقايا حنـين في نفسي الى بيئة طفولتي المترفـة !

لم أكن في الظاهر سوى طالب ، من بين عشرات ألوف الطلاب ، الذين يؤمون باريس كل عام ، طلبا للعلم . نصفهم ، لا تكفي مخصصاته لسد رمقه ! ومن بين هؤلاء .. لم أكن في الظاهر سوى واحد ، من أربعين ألف رسام ، أتى معظمهم من بقاع الارض النائية ، متوسمين في أنفسهم آفاقا لا تعرفها

بلادهم ! فقصدوا باريس ، عاصمة الفنون ، ليتزاحموا علـى شهرة ، بات الوصول اليها ، ضربا من ضروب الخيال !

لكن معركتي ، كانت غير هذه ! وأجرؤ على القول ، إن لفيها أكثر من ذلك ! كيف أشرح لك فكرتي ؟!

يلازمني شعور متواصل غريب ، منـذ وطأت أرض باريس ، إدراكٌ ، يزداد تأججا ، وأنا أقف بين صفوف مئات المتزاحمين على عنوان غرفة ، أو بين المتسابقين على اسم شركة ، أو رب عمل !

أنا في الغرب ، طالب رفض الأهل والوطن ، أجدّ في البحث عـن الفن والثقافة .. لكني أحس أن في الميزان أكثر من هذا القياس .. وأن على جوهر معركتي ، رهاناً ، لا أعرف واضعه ، ولا أدرك اليوم مدى أبعاده !

هدباء ...

عرفت أياما مريرة لا يمكن وصفها ! عرفت الجوع ، والوهن .. وآلام الأحشاء ، كلما دنا وقت الطعام ، دون أن أجرؤ على سـد رمقي بوجبة ، مهما بسطت ، خوفا من تبذير ما تناقص معي من نقود ! حتى تعودت الألم ، وانتابني الهزال .. فصرت أقضي يومي قاتناً ، مكتفياً بوجبة واحدة بسيطة ، طـول النهار ! أما عن الوحدة ! فكيف أحدثك عن وحدة غلّفتني كرداء أسود ، راح يزداد كثافة ، وثقلا ، كلما نقصت دراهمي ! وحدة ، كانت الفاقة تزيد من مرارة طعمها .. حتى طغت على بصيرتي ، فصرت أسري في شوارع باريس المضيئة ، تائهاً .. لا وجهة لي ! أعدّ ، وأتهيّب الايام التي باتت تفصلني عن الموت ، جوعا ، ومرضا !

أهزأ من نفسي ، ومنك الآن ، وأنا أستعرض الماضي في مخيلتي ! أعود الى الشعور بالمرارة نحـوك ، مرغما ، ليقيني ، بأنني لو أخيّرك الآن ، بين الحديث عن الفاقة ذاتها ، والحديث عما تسببه هذه الفاقة على النفس من ألم .. لاخترتِ الحديث الثاني .. أي لاخترتِ الحديث عن آثار الفاقة على النفس ، وليس عنها وعن وقائعها اليومية !

إنك حبي من اللواتي يفضّلن « الأدب » الواقعي ، على الواقع ! ليست هـذه مذمّة أخرى أكيلها اليك ! بل « مسافة » أخرى ، تزيد البعد بين عالمينـــا !

ثم أسخر من نفسي ! كيف يسكن لي أن أفي تلك الايام الشقية حقها من الوصف .. وأنا في هذه اللحظة بعيد عن جوهر ما أكتب !

أراني أكتب عن لحظات تخطيتها ! لو أني في هذه اللحظة جائع ، مسربل بسواد التشاؤم والوحدة التي عرفت .. فهل كنت أمسك بالقلم كي أكتب إليك ؟ أو لأيّ انسان ؟ أو لنفسي ؟!

هل يصدق كاتب في الكتابة عن الجوع ؟ شتان بين أنيــاب عضوض تمضغ الأحشاء ، وبين أدب يتأنق في تصويره أديب !! أين الشعور .. من الكلمة ، عنه ؟! هل تعرف اللغة ما يحسّ به من يشرف على مفارقة الحياة ؟! جميع الكتاب كاذبون ، مهما برعوا في عملهم !!

* * *

كنت أجهل كل شيء عن زمالة الفقراء ، والمعوزين .. الى أن فطنت ، وأنا في بحثي المضني عن غرفة ، وعن عمل ، أنني أرى بعض الوجوه ، أكثر من مرة ، في اليوم الواحد ..

كنا في البدء ، مئات العيون : لفتية وفتيات ، تتحاشى التعارف ! نفوس : تنطوي على ذاتها ، في خجل من عوزها .. حتى تأنس الى واقعها المشترك ، فتلين كبرياؤها .. ويبتسم بعضها لبعض ، في عطف ، حتى تتبادل التحية ، أو الكلمة العابرة ، ثم الحديث ... فتزداد المودّة ، وتتقاسم التشجيع والنصح.. الى أن يصبح نصر الواحد : أملا للجميع .. وفشله ، مدعاة لنقمة ، وخيبة ، مشتركتين !

هل غريب أن تنشأ الصداقات ، في مثل هذه الظروف ، بين فتيـــة من حضارات وبيئات مختلفة ؟!

أنستُ لشابين حائرين ، مثلي .. فتلازمنا التجوال ، في أنحاء هـذه المدينة القاسية ، تساعد في بحثنا المشترك عن الغرفة والعمل ، الى أن طرأت لأحـدنا فكرة الاشتراك في غرفـة واحـدة تسع الثلاثة !

لم يطل بحثنا ! وُفـّقنا الى عنوان غرفتين ، مع مطبخ ، مستقلتين ، في الدور الاول من دار ، في احدى ضواحي باريس ، تحيط بها حديقة ، وليس فيها ، علاوة على هاتين الغرفتين ، سوى الدور الارضي !

لم نصدق أعيننا ! أيمكن أن نستأجر هـذه الشقة المستقلة في وسط مثل هـذه الحديقة ، بهذا الأجر الزهيد ؟ الى أن طالعتنا صاحبة الدار المسنة ، مع أختها ، بوجهيهما القاسيين ! وحدّدتا لنا الشرط ، الذي من دونه ، لا يمكن أن تؤجرا شقتهما : لإنسان !!

كان شرطهما .. ألاّ يدخل هذه الشقة أنثى ! مهما كانت صفاتها وعلاقتها بأي منا ! هل سمعنا : وفهمنا ؟ لا أنثى في هذه الدار ، بعد الذي أذاقتهما زوجة أخيهما الراحل من عذاب ! ما من أنثى في دارهما ، أكانت أختـا ، لأحدنا ، أم أمّاً لـه !

قبلنا ، بالطبع ، شرطهما ! وجلسنا بعد برهة في شقتنا الجميلة .. غير مصدقين أنه يوجد في باريس من يفرض مثل هـذه الشروط !

* * *

وتوجست في البدء خيفة مما قد أكتشفه من طباع زميليّ ، متى ظلـّلنا سقف واحد ! لكنّ خوفي كان وهماً ، فسرعان ما ثبت أنهما نعم الزميلان ! تعالي أقدمهما اليك ! هذا الشاب الجرماني الشكل ، الأشقر الشعر ، هـو « غـونثر شـولتز » انـه رسـام ، مـن برلين الغـربية .. لا تبتسمي ، مستغربة تقطيب حاجبيه ! إنه يتـّخذ هذا المظهر الجدّي الصارم ، أمام كل انسان ! أو فكرة جديدة ! أو معضلة تعترضه ! يضرب عقبي نعليه ، عقبـاً بعقب ، لدى لقاء الفتيات ! ويُطرق برأسه الى الأمام ، قائلاً ، في لهجـة عسكرية طريفة « غونثر شولتز ، في خدمتك ، أيتها الآنسـة ! »

وهذا الشاب الرياضي ، الهادىء الابتسامة ، هو صديقي الثاني ، انه أميركي •• من « سان فرنسيسكو » الجميلة • إنه رسام ماهر ، هو الآخر •• واسمه الاول « جون » مثل كثير من الأميركيين الذين تسمعين عنهم !

* * *

كنت قد أنفقت معظم ما تبقى لديّ من نقود لتسديد قسطي من ايجار شقتنا المشتركة •• كان من المحتمل ــ لولا معونة هذين الرجلين ــ أن أتضوّر جوعاً أثناء الاسابيع التي انقضت ، قبل أن أجد أول عمل أكتسب عيشي منه •• لكنهما أعاناني •• لا بكرم أهل الشرق الذي تعرفين ، حقيقيا ، كان هذا الكرم ، أم متكلّفا ، بل في بساطة وواقعية أليفتين ! كانا ، كسن يقولان لي •• « انا مصلحة مشتركة •• نعينك •• ما دمنا قادرين على ذلك •• وتردّ لنا مساعدتنا ، متى استطعت ، أو حين نحتاجها •• » !

* * *

ماذا أعدد لك من مصاعب ، واجهتها ، قبل أن أجد عملي الحالي ؟! دعيني أشرح لك بعض ما اعترضني !

لا بد لكل أجنبي من « إذن عمل » رسمي ، يبرزه لصاحب العمل ، قبل أن يقبل هذا استخدامه •• وللحصول على مثل هذا الاذن ، تصرّ ، وزارة العمل ، على أن يبرز الطالب « عقد استخدام » ، مسبق ، موقع من صاحب العمل !

دائرة مفرغة ، يقع في دوامتها معظم الطلاب الأجانب ، يُجبر المعوزون بسببها ، في النهاية ، على القبول بأعمال السخرة ! فيتغاضى صاحب العمل فيها عن إذن العمل ، لقاء ما يقبل به الطالب من أجر زهيد ، مقابل أعمال متعبة حقا ! كغسل الصحون المضني ، في المطاعم •• أو العتالة ، إما في سوق «الهال»، وإما في المسلخ الكبير !

لقد اضطررت في بادىء الامر ، ولمدة أسبوعين ، لمزاولة مثل هـذه الأعمال ، حتى فطنت الى أن استشارة محامٍ ، في كيفية الحصول على اذن العمل ، خير من نصائح الطلاب ! وبالفعل ! آُشير عليَّ بأن أتقـدم بطلب للتجنيس ، يؤهلني الحصول على إقامة دائمة ، تؤهلني هذه ، للحصول على اذن مؤقت للعمل ! وهكذا كان ، فما إن تقدمت في طلب التجنس ، منتحـلا سببا لن أذكره لك الآن ، وتوفـّر لي الاذن المنشود بالعمل ، حتى عكفت على اعلانات الصحف ، أقطع منهـا عناوين الراغبين بعمال •• أسـير في يومي ، عشرات الكيلومترات ، متنقلا بين ما لا حصر لـه من مقابلات مضنية ! الى أن أسفرت جهودي ، في النهاية ، عن قبولي كعامل بسيط ، عامل يدوي ، بين عشرات العمال •• أضبط حركة سير آلة بسيطة ، في مطبعة كبرى !!

أسابيع سوداء ، قضيتها في ذلك العمل ، بين الشحم الاسود ، ورداء العمل الاسود ، والحبر الاسود ! أعمل في الليل •• وأنام في النهار ، فلا أرى من السماء إلاّ سوادها ! أسابيع سوداء قاسية ، لا شك عندي أني لو لم أنتقل الى قسم القراءة والتصحيح ، بعدها ، لأصابني انهيار مما سيطر عليَّ من ضيق ، ومن شعور بالخذلان ، لاستحالة مزاولة عملي ، وتحقيق ما جئت الى باريس من أجـله من دراسة ، في الوقت ذاتـه !

* * *

هـدباء ،

كنت لفرط تعلقي بمتابعة دراستي ، في الموسيقى ، والرسم ، قد أقسمت لنفسي ، وأنا في الوطن ، أنّ أول ما سأقوم به في باريس ، بعد أن أترجل من القطار ، هو أن أقصد معهـد الموسيقى ، لأضع يدي على بابه !

قسم عاطفي ، اضطرني عملي المقيت في البدء الى إرجاء إنجازه •• أما وقد أنست الى عملي ، في القراءة والتصحيح ، ووجدت من فراغي ، بعـد الظهر ، ومساء كل يوم ، متسعا كافيا لمباشرة دراستي ، فلم يعد هنالك ما يحول دون تنفيذ تلك الأمنية •• أتبتسمين ؟ لا بأس !

تتسابق الكلمات على شفتي •• فلا أدري أأحدثك عن ضربات قلبي ، وأنا أقترب من « المعهد الموسيقي » لأول مرة ؟! أم عن الرهبة ، والسرور الجامحين اللذين اعترياني وأنا أسير في أروقة « معهد الفنون الجميلة » ، وبين تماثيله !؟

لن أنسى ، ما حييت •• ضربات قلبي تلك ، وأنا أقترب من باب المعهد ، لن أنسى كيف غصّت حنجرتي ، تأثرا . وأنا أحقق قَسَمي فأرفع ذراعيّ ، وألامس براحتيّ ، كلتيهما ، بابه الخشبي الضخم !

كنت في رفقة زميليّ •• « غونثر » ، و « جون » ، •• وكانا قد استغربا سبب توجهي نحو المعهد ، مؤكدين ، مصرّين على أنه مغلق في تلك الساعة المتأخرة من الليل !

وقفا ينظران الي في صمت •• مشدوهين ! وكنت قد مكثت برهة ، لاصقا بذلك الباب ، ورأسي الى الارض ، بين ذراعيّ ! الى أن أصاب كتفيّ خدر ، فتركته ، وقفلنا راجعين ••

قال لي « غونثر » في هدوء ••

ــ أظنك ستقصد باب « معهد الفنون الجميلة » الآن ؟

تبسمتُ في صمت •• وما كان انفعالي قد فارقني بعد ، فتابع •• يتبسم لي هو الآخر ••

ــ يا لكم من عاطفيين •• يا معشر الروس !

* * *

أتعجبين هدباء ، أن أكون قد حافظت على هويتّي الجديدة ، في باريس ؟!

لا ، أنا لا أناقض نفسي ! إنه أقرب ما وجدت من حلّ الى من أنشده اليوم من اللا هويّة ! وإن سألت ، فسأزيدك عجباً •• فأنا اليوم أدعى « مكسيم » ! وغدا •• من يدري ؟ سأصبح •• « إيفان » أو « أسفالد » أو « غونثر » ! إنها بدعة ، تروقني ! ففي الغرب ،

« مكسيم » ، اسم" عارٍ ، على نحوٍ ما ، من الصفات المسبقة •• لا خلفيّة له ، ولا تبعية ! أب روسي ، وأم فرنسية !! خليط ، لا تاريخ خاص به ، ولا عيوب ، على المرء أ نيجبر على الخجل منها ، أينما ذهب !

* * *

كان قد فاتني المثول لامتحانات القبول ، في كل من معهد « الفنون الجميلة » ، و « المعهد الوطني للموسيقى » •• فما إن أتاح لي عملي الجديد ، فرصة مراجعة المسؤولين عن شؤون الطلاب الأجانب ، في المعهدين ، كليهما ، حتى أدركت أنني في الواقع لم أخسر شيئا ، بسبب ذلك التأخير •• فامتحانات القبول قاسية ، تفوق ما كنت قد هيأت نفسي له من صعوبة ! لذلك ، لجأت الى أستاذ مختص ، في كل من المعهدين ، ليمكنني مما فاتني من تحضير •• وأنا ، الى هذا اليوم ، أي رغم عملي على هذا المركب في بحر « المانش » ، أتابع الدراسة الخاصة معهما ! آملا ، في شهر تشرين المقبل ، ألا يكون أمامي من عائق يحول دون قبولي في المعهدين ، كليهما !

* * *

ما أغلى تكاليف المعيشة ، في باريس •• وما أصعب على من كان مثلي من الطلاب أن يكون ، في الوقت ذاته ، أباً لنفسه ، يكسب الرزق ، وأمّا ، تهتم لشؤونه اليومية وترعاه ! ثم ، إن الدراسة الخاصة للموسيقى ، باهظة التكاليف ، وللرسم أدوات ، ومتطلبات ، لا تنتهي ! وأجري من المطبعة كان متواضعا •• سرعان ما وجدت أنني مجبر ، على البحث إما عن مورد إضافي ، وإمّا على مسخ دراستي ، والإقلال من عدد وجبات الطعام !

كان ذلك منذ سبعة شهور •• وكنتُ في أوج ضائقتي •• أشرح لـ « غونتر » ما أعانيه ، واذا هو يسألني ••

ــ هل تحب البحر ؟

كنا في طريقنا الى الـ « الكوخ الكبير » للتمرين •• فظننت أنه

لا يسمع ما كنت أشــرح له عن وضعي ، وإنما سألني عن البحر ، فيما يختص الرسم منه ، فأجبت ••

ــ رسمت البحــر مرتين •• لا أظن أنني سأختص يومــا في رسمه ••

ضحكلجــوابي ••

ــ أسألك عن حيــاة البحــر ! أتحب أن تعمــل في البحر ؟ بحــارا ؟

تعجبت ••

ــ وكيف يمكنني ذلك ؟! لولا دراستي •• من يدري ؟ لعــل تلك الحياة تروقني ! لكن •• أين البحر من باريس ؟ ومما نحــن فيه ؟

ــ بل إنه في مستطاعك •• ألست تبحث عن مورد إضافي ؟ لمَ لا تعمل يومين ، أو ثلاثة ، في بحر « المانش » ، أيام العطل الاسبوعية مثلا •• ثم تعود الى قراءتك ، في المطبعة ، ودراستك ، بقية أيام الاسبوع ؟

ــ ليت ذلك ممكن ! وهل الأجر كبــير ؟

ــ إن أجر الساعة الواحدة في البحــر يساوي أربعة أضعاف ما تتقاضاه من ساعة العمل في المطبعة ! لئن وافقت •• فإن لي صديقا يعمــل على سفينة ركاب •• إني واثق أن في امكانه أن يرشدك الى كل ما تشاء !

* * *

هــدبــاء •••

قلت لك إن ذلك كان منذ سبعة شهور •• ولم تمض أيــام ، على ذلك الحديث ، حتى كنت في مدينة « دييب » ، في شــمال فرنسا ، أُبحر عنهــا ، مــرتين في الاسبوع ، أو ثلاثــاً ، الى « نيو هــافن » •• بذلك ، أعمــل يومين أو ثلاثة ، فيالاسبوع ، أنام في فرنسا ، أو في انكلترا ، حسب ما تسمح به الأنواء •• أستقل القطار ، في السادسة صباحا ، من مطلع كل أسبوع •• أُكمل نومي ، في القطــار ، على وقــع عجلات الحــديد ، لأكون في الثامنة والنصف ، في باريس !!

أيّ دفعٍ هـذا الذي يسيّرني ، هـدباء ؟! أحسّ كأنَّ محرّكاً قد أفلتت قيادته في نفسي ! أعـدو ، وأعـدو ، كأني لا أعرف غـير الركض واللهاث ! أحبّ تعبي ! وأطرب لشقائي ! أين حريّتي التي جئت أنشدهـا في باريس ؟! أين تمردي ، بين قيودٍ وأصفاد ، أراني كبّلت بهـا نفسـي .. تعوّدتُها ، حتى باتت لكأنها ولدت معي !؟

هـدبـاء ..

أصبحتُ اليوم عبداً للدراسة .. عبدا لأصولها ! لا يفارقني الكتاب ، أينما كنت ، ألتهم السطور ، حيثما توقفت ! أعيش نهماً غريبا ، أحاول إشباعه ، فلا يزداد إلاّ تأجّجا وتسعرا ! أتلذذ بأحاجي العـلوم ، والفلسفة ، لا ينشيني غـير فك مبهماتهـا !!

تعلمين تفـاعل الأدب ، بالفلسفة .. آه حبي .. ليتني أستطيع شـرح لقـاء الفلسفة والأدب ، بالفنون والموسيقى ! إنهـا عوالم لم أحلم بها يوما ، تتكشف اليوم أمـامي ، برؤى مذهـلة الوضوح ! ثم هـل جال في ذهنك يوما ، ماذا يمكن لعـلم النفس أن يكشف إن هـو خاض في أي من هـذه الموضوعات ؟ !

ما أجمل دراستي هـدباء ! وما أقسى ظروفها !

دوامة ، سقطت في عينها ! أعصـار يلفّني .. أطير فيه ، بين الموسيقى والرسم .. أهرع ، لاهثاً ، عائدا الى عملي ، فأغوص في قراءات لا آخر لها !! هل أبدو كمـن يشكو ؟!

معاذ الله أن أتذمّر ! وهذا بالذات ما كنت أتوق اليه .. وأصبو الـى تحقيقـه !

جل ما كنت أخافه ، هـو ألاّ أتمكن من الجمع بين دراستيّ الموسيقى ، والرسـم ! وإن توفر لي ذلك .. كنت أهاب أن أُقصى كليّا عن ميـدان المطالعة الفلسفية ، والأدبية ! أما أن أجد نفسي ، في باريس .. وقد تيسرت لي دراسة الرسم ، والموسيقى ، وفي أعرق معهدين لهذين المجالين في العالم ..

ثم أجـدني ، أكسب معيشتي ، عن طريق المطالعة ، التي أحب ! فذلك هـو حـلمي الأكبر !

ثقي هـدباء ، أني أرى نفسي تائهـاً في حلم أخاف انقطاعه !

لماذا أشقى إذن ؟ ليتني أستطيع شـرح ذلك ! يضنيني ما أبذله من جهد لا متناه للجسم بينما أقوم بـه •• ويشقيني ، وأنا أحقق هذا الحلم ، أنني بت على طريق ، وأن تخبطت ، ضيق طوالاً كي أهتدي الى مشارفها ، إلا أنها طريق •• ولا بد لكل طريق من نهـاية !

صحيح أني لما أكد أخطو فيها ، وأن الرحـلة لم تزل طويلة شاقة •• إلا أنه زمن •• لن يلبث أن ينقضي •• فتنتهي الطريق •• ويتبدد الحلم !

أنا لم أشعر في يوم من الأيام أن الدراسة « مرحـلة » علي أن أتخطاها ، لأقفز الى عـالم العمل ! « وسيلة » في سبيل ما هو أهـم ! يسألني بعض الزملاء عن مشاريعي ، لمـا بعد الدراسة •• فأتردد ، وأتلعثم ! يسألونني عن فرص العمل التي في بلادي ، لا يعلمون أين هي بلادي ، فأهزأ من نفسـي ، وأحار فيما أجيب ! ترى أين هي بلادي ؟ آه لو أعـلم !

لم أسأل نفسي يوما ما « نفـع » دراسة الرسم ، أو التأليف الموسيقي ! أو اذا كان وراء مزاولتهما من غـاية . أنا لا أذكر من أحـلام طفولتي سوى تلك الساعات التي كنت أرى فيها أمي تعزف على « البيانو » •• فأحـدّق طويلا في أصابع يديها •• وأحلم في اليوم الذي ستمكن أصابعي أنا مـن أن تطير ، عصافير مسحورة ، على تلك الآلـة •• فتنطق أوتارها بمشاعر كانت نفسي تتفجّر بهـا !

ها أنا ذا أحقق ذلك الحـلم ! ها أنا ذا غارقة تمل فيه ! هل هـذه حقاً سنو دراسة •• لا بد لها وأن تنقضي ؟! ليتها تستمر •• الى الأبد !!

* * *

ها هي ذي شواطىء انكلترا تبدو من بعيد •• صخورها البيضاء ترتفع كالحائط الشاهق كلما اقتربنا منها •• سرعان ما سينهض المسافرون ، يتهيؤون لمغـــادرة المركب •• وسيبدأ عملي من جديد ••

سأتركك الآن ••• الى لقـــاء قريب ، حبّي •• سأعون اليك ، في هـــذه الرسالة ، ونحن في طريق العودة الى فرنسا •• الى اللقـــاء ••

فراس

* * *

الفصل الرابع

قلت لـ « مكسيم » ، وأنا أعيد الرسالة الثانية الى مكانها ، في المظروف الـذي أمـامي ..

ـ أليس من الغريب ألا تعلم « جينيت » شيئاً عن هذه الرسائل ؟ وهي التي تكاد تقيم معـك على الدوام ، في هـذه الشقة ؟ ألا تعـلم شيئاً عـن « فراس » .. « مكسيمها » ؟!

كان صديقي قد ترك تمارينه الموسيقية ، وقام يعيد صفّ كتب موسيقية، أعـدها فوق « البيـانو » ..

أجاب ، وهو منصرف الى ما يفعل ..

ـ إنهـا لا تعرف سوى أني « مكسيم » ! أظن أن هذا يكفيها !

ـ وأوراقك الخاصة ؟ جـواز سفرك ، مثلا .. ألم تلحظه مصادفة ؟ أو تقـع عليـه ؟

هز رأسـه نافيا ..

ـ ليس لي من أوراق خاصة في شقتي .. عدا ما أمامك من رسـائل ! وسأتخلص منها ، عما قريب ! على أيّة حال ، إنها رسائل كُتبت بالعربية ، كما تـرى ! و « جينيت » لا تعرف حتى شكل حروف هـذه اللغة ! لا .. ليس عندي في الماضي ، سوى هذه الأوراق وجواز سفري ، وهو في مكان لا يبلغه أحـد ، إذ إن السفارة قـد استرجعته !

شعرتُ كأنه سبقني الى سد ثغرة في روايته ، كدتُ أصل ، عن طريقها ، الى طلب الدليل المادي على صحتها ، دون أن أضطر الى كشف شكي في تلك الهويّة التي أنتحل !

سألته ، وأنا أخفي امتعاضي ..

ـ وهل تخرج الى المدينة ، دونه ؟ دون أوراق ثبوتية ؟

ـ إني أحمل بطاقة إقامتي الدائمة ، فقط .. لم يعد لجواز سفري من صفة رسمية بالنسبة لسلطات الأمن هنا ..

ـ وما اسمك المسجّل على تلك البطاقة ؟

ـ الاسم الذي طلبتُ .. « مكسيم فيودوروفيتش نيفسكي » بالطبع ! وهل يعقل أن أحمل الجنسية الفرنسية ، وأعيش هنا ، كمواطن فرنسي ، واسمي « فراس » ؟

أدركت أن صديقي قد أحكم بناء روايته ! فانتابني شعور طفيف بالتحدي ! فقلت ..

ـ ولماذا اختصصتني بالاطلاع على هذه الرسائل ؟ ما دمتَ على هذا الحرص على هويّتك الجديدة ؟ !

ضحك ، هازاً ..

ـ هويتي الجديدة ؟ ! أنت تمزح ! أية هوية هذه ؟

ـ كونك من أب روسي ، وأم فرنسية ! أليست هذه هويّة ؟

استدار نحوي مبتسما ..

ـ أنا لست أحرص على أية هوية ، والعكس هو الصحيح !

إن « جينيت » تظن أنني من أصل انكيلزي !

أجبته ، غير مصدق قوله ..

ـ أنت الذي يمزح هذه المرة !

تبسّم في بساطة ، وجدية ..

ـ على العكس ! ليس مثل الفتيات يحببن التفرد بمعرفة الأسرار ! قلت لها ، إن قصة والدي الروسي ، هذه ، إنما هي حيلة اخترعتها هنا ، بين صداقات الحي اللاتيني •• كي لا أكشف عن أصلي الانكليزي ، الذي يكرهه معظم شباب الحي •• في الظاهر أو في الخفاء ! ووافقتني على ذلك •• فهي نفسها لا تحب الانكليز !

ـ وهل صدّقتك فعلا ؟

ـ لم لا ؟ إن هذه قصة قديمة •• ثم إننا في فرنسا •• ونحن لا نتكلم سوى الإفرنسية •• لعلك نسيت أني أجيد الانكليزية ، باللكنة الأصلية ، أكثر من إجادتي الفرنسية ! ثم ، ما هذا الاهتمام بجنسيتي ، وهويتي ، كما تسميها ؟ نحن ، في الحي اللاتيني •• يندر أن يلتفت أحدنا الى مثل هذه الأمور •• عدا سؤال بسيط عابر !

أعادني « مكسيم » الى حدودي •• حدود عالمي « البرجوازي » كما تروقه تسميته ! ، عالمي الذي يسأل ويهتم بالإطار ، قبل اهتمامه بالجوهر ••

قلت وقد امتقع وجهي ، بعض الشيء ••

ـ وأنت الآخر، مثلي ، يا صديقي ! بورجوازي •• تحس بالاطار ، ولو رفضته ! تئن تحت رزح البورجوازية ، حتى من خلال رفضك لها !

أجاب في بساطة ••

ـ •• قبل رفضها ، نعم •• وأثناء رفضها ، نعم •• أما الآن •• فلا ! ليس بعد أن عشت ومارست حريتي ، بالشكل الذي تعرف ! جميع ما عشته قبل وصولي لباريس ، لم يعد بالنسبة إليّ سوى مرحلة من الماضي •• ذكرى باهتة •• أكاد أنساها •• حتى الجذور ، كادت آثارها تنمحي في نفسي ••

كان في كلامه من الثقة والبساطة ما حضني على السكوت •• لكن جدارا منيعاً من الشك وقف بيننا ! لماذا رماني بتلك الصورة الجديدة عن نفسه •• وتركني أدور في دوامة لا قعر لها !

«مكسيم» ، لايمكن أن يكون« فراسا » ! هذه الرسائل ، باللغة العربية،

ماذا تشكل من برهان ؟ أنا الآخر أقـرأ العربية ! وأكتبها ! ذكرياته عن الشرق ؟ ألوف الغربيين ممن يعيشون في الشرق ، لهم من الذكريات أكثر ما « لمكسيم »! وهذه الحيلة في إخفـاء أوراقه الثبوتية •• جواز سفره ، في السفارة ! وبطاقة إقامته التي تحمل اسم « مكسيم » •• إلامَ يرمي بهذا التخفي ؟ لمـاذا ينتحل هذه الصفة الشرقية ؟! أحسست بضيق ، فتلفتُّ حـولي أنظر الى شيء يغير من مجـرى الحديث ••

قـلت في تـردد ••

ــ « غونثر » و « جـون » لا يعلمان شيئاً مما أطلعتني عليه •• وهذه بالطبع •• ليست شقتكم الأولى ، التي ذكرت في الرسالة ؟

ــ لا •• تلك ، تركتهـا لزميليّ ، بعـد أن تعرفت الى « جينيت » ، وثلـة أصدقائنا التي تعرف الآن •• لقـد حدثتك عن مقت صاحبتيّ الشقة للنساء ! فمنذ المحاولة الأولى •• وقفتا كالحائط ، تمنعان « جينيت » مـن دخولهـا !

تمهّـل « مكسيم » برهة ، يرى في خياله ما يحدّثني عنه •• ثم قال ••

ــ يا له من مشهد غريب ! وقفتا مكتوفتي الذراعين ، كتف ، كـل منهما الى كتف الأخرى ، تسدّان الباب ، كسجّانتين ، تحميان سجناً ! أو حارستين لقدس الأقداس ، تستعذبان الشهادة في سبيل منع الغرباء عنه !!

هز رأسه متعجبا ساخرا •• وتابع ••

ــ لن أنسى تلك الليـلة ! لكني سهوت عن إطلاعك أني لم أكن ، في ذلك اليوم ، قد تعرفت الى « جينيت » بعد ! كنت في الحي ، بعـد أن أنهيت عملي ، أتجـه نحو مقهى « المابيون » الذي تعودت الجلوس فيه •• كـان « المابيون » على أثاثه القـديم ، أثاث ما قبـل الحرب ، يتردد إليه سـكان الحي من فنـانين ووجوديين •• يُقبـل السيّاح على من فيه ، في الليل •• يتفرجون علـى الرسامين والوجوديين منـا ، ويعجبون لآرائنـا وتصرفاتنا اللامبالية ، كأننا مشاهد مسلية من « سيرك » يودون لو يلقون إلينـا بقطع

النقود الى الحلبة !! كنت متجها نحـو « المابيون » ، كما قلت ، حـين لفت انتباهي ثلة من الشبان والفتيات ، مقبلين نحـوي ، يضحكون ، ويمرحون ، فما إن تقابلنا ، حتى أشارت إحدى الفتيات على الجميع بالصمت.. فسكتوا.. وقالت ، مشيرة إليّ ، « ها هو ذا » ! قالت ذلك ، دون أن يتوقفوا .. وكنت قـد تجاوزتهم ، فـلم أفهم قصد الفتـاة .. ولم ألتفت لأسمع تعليقات من حولهـا ! لكني تعجبتُ ، أيّما عجب ، لأن يكـون في الحي من قد لاحظ وجودي ، وأنا لا أرتاد منه سوى مقهى « المابيون » ، ومن فترات بعد الظهر ، حين يكون هادئاً ، يكاد يخلو من الناس !

سـألته مستفسرا ..

ــ أكان ذلك قبـل مزاولتك العزف على الـ « الاورغ دي بارباري » ؟

ــ قبـل ذلك ، بأشهر ! كنت طارئاً على الحي .. أرتاد « المابيون » في الليل أحيانا .. فأجلس الى أحد زواياه ، أرسم وجوهاً لا أعرفها ، أتمرن بقلم الفحم السريع . .لا أتنبه لوجود أحـد !

عاد بذاكرته الى ما كان يقصه عليّ فتابع ..

ــ جلست في « المابيون » أحـل تمارين موسيقية ، واذا بقطعـة ورق ملفوفة ، على شكل حمصة ، تقع على مائدتي ! لم أدر من أين أتت .. نظرت حولي ، فلم أجـد سوى ثلاثة ، أو أربعة أشخاص ، كل مستغرق في عالمـه ! فعدت الى الكتابة .. لحظات ، وإذا بقطعة أخرى تسقط على أوراقي ! نظرت هـذه المرة على عجل ، لأكتشف مصدرها ، فلم أهتد اليه ! كانت في ذلـك الركن ، حيث نظرت ، فتاة في مثل سني .. تشرب قهوتها في صمت وجمود .. قلت في نفسي ، « جميلة هذه الفتاة » .. « مرهفة الأصابع والأنف » ثم عدت الى الكتابة .. توالت قطع الورق في السقوط ! اثنتين ، أو ثلاثة .. الى أن رفعتُ ناظري فجأة ، بعد أن أبديت أني مستغرق في الكتابة ، فاذا بي أضبط تلك الفتاة تحاول رميي بواحدة منها ! أفلتت منها ابتسامة طفولية ، تلاهـا ضحك خفيف .. ثم أقفلت حواجبها ، تهز رأسها في حركة مازحة .. لامبالية !

نظرت حواليّ ، وكنت أنا الآخر أبتسم لهـا ، فأدركت ، أن أحدا لم يلحظ ما دار بيننا ! فأومأت إليها ، في خفة ، أدعوها الى مائدتي •• فسرني ، وفاجأني أن أراهـا تقبـل على الفـور !

تقدمت مني تقـول وهي تجلس قبالتي ••

ــ لقد تعمدت أن أترك رفاقي •• لأتعرف إليك !

فطنتُ فجأة الى أنهـا الفتاة نفسها التي أشارت اليّ في الشارع ، ذلك الصباح ! سألتُها على عجل ••

ــ •• عبارة « ها هوذا » •• ماذا كنت تقصدين بهـا ؟

ضحكَتْ في خفـة ومرح ، وأجابت ••

ــ كنت أحدثهم عنك ! إنك تعجبني ! وإذا بك تظهر أمامنا ! فقـلت ، « هـا هـوذا » ••

قلت ، بحركة تمثيلية متأنقة •• غير بعيدة عن طريقة زميلي « غونتر » ••

ــ أنـا « مكسيم » •• في خدمتك أيتهـا الآنسة !

رفعت حاجبيها وكتفيها ، تهزهما ، بالطريقة الافرنسية اللطيفة التي ألفتها فيما بعد •• وقالت تقلّد لهجتي وتستغربها ••

ــ •• « أيتها الآنسة ! » •• « أيتهـا الآنسة ! » ما هذه الطريقـة في مخاطبة الفتيات ؟ أنا « جينيت » من الحي ! من باريس ! لا دمية ، ذات شـعر مستعار ، في قصر « فرساي » !!

صمت « مكسيم » برهـة •• محتفظا بابتسامته الشاردة •• ثم تـابع قصته لي ، يقـول ••

ــ كنت أحدثك عن الشقة القديمة •• عن الأختين العتيدتين •• وهاأنذا أستطرد الى كيفية لقـائي « بجينيت » •• لا بأس ، لقـد توطدت علاقتي بها منذ اللحظة الأولى ! أمضينا ذلك المساء معا •• فلما أتى الليل •• قصدت شقتي ، آملا أن نصلها بعـد موعد نوم الأختين •• وأدخل مع « جينيت » ،

دون أن تشعرا بنـا •• وإذا همـا تلحظان وجودها ، منذ أن تخطينا بـاب للحديقة •• فتقفان كالسد المنيع ! تمنعانها من الدخول !!

ـ وأين ذهبتما تلك الليـلة ؟

ضحك « مكسيم » مستغربا •• وقال ••

ـ وهل يهمك هذا الأمر ؟ لقد أمضينا الليل في أحـد الفنادق ! قالهـا في لهجة كانت تثير نزقي ، لنبرة التعالي التي كانت تبطّنها ! مسحة من الأنفة ـ لم تكـن كافيـة لإثارة المواجهة في سـامعيها ، يجـد السامع نفسه مكرها على تحملهـا !

ولم يكن ما رواه لي « مكسيم » في تلك الليـلة صحيحا كل الصحة !

كنا في مرحلة مبكرة من صداقتنا ، مازلنا على أخـذ ورد من المحبـة والتحدي ! لم يكن بعد قد أنس اليّ ، في أعماقه •• فابتكر ذلك الجواب ـ عن قضاء الليل في الفندق ، لينهي الحديث ••

أخبرني ، فيما بعد ، أن تلك الحادثة جرت له مع فتاة أخرى •• وأنه لم يدع « جينيت » الى شقته ، في تلك الليلة •• ولا بعد ذلك بأسابيع !

كان في شوق الى اصطحابها الى شقته ، يحمد المصادفات في سـره على أن صاحبتي الشقة كانتا قد وقفتا ذلك الموقف المتعنّت ، من تلـك الفتـاة •• فكانت له ، تلك الحادثة ، عـذرا يرجىء بسببه قضاء « جينيت » الليل عنده ! يرجئه ، ويتمناه ! لعلها صورة فتاته الشرقية •• هـدباء ! ذلك الحـلم •• ذلك الطيف الذي يكلله في رسائله الشرقية ! لعـل طيفها كان يضع أمـامه العراقيل ! لسبب أو لآخر ! حبّـه لها •• أو توجسه من مجابهة تماثل ما حل بينهما ، أثنـاء ذلك الوداع ! لكن •• هل يهذي فراس في رسائله ؟ ما هـذا العـالم الشرقي الغريب الذي ابتدعه ؟ هل أحب الشرق لدرجة ودّ معهـا لو أنه شرقي بالفعل ! من أب وأم شرقيين ! فخلـق لنفسه فتاة يناجيها ، لقّبهـا « هـدباء » •• وكأنها « بياتريشة » •• فتاة أحلام الشاعر « دانتي » ؟!

لم يدْع « جينيت » لزيارته ، إلا بعد أن ترك الشقة لزميليه ، وقد زاد مورده من عمله في البحر ، فاتّخذ لنفسه سكنا مستقلا •• وكانت « جينيت » تستغرب تلكؤه في دعوتها الى شقته •• فانتحلت في إحدى الليالي عذرا ، يمنعها من العودة الى غرفتها ، اضطر « مكسيم » ، إزاءه ، لدعوتها الى داره ••

قال لي فيما بعد ••

ــ كنت أتردد لسبب لا أفهمه ! رغم ثقتي بتلهفها لقبول الدعوة ، وشوقها الظاهر للمضي قدما في علاقتنا ! لكنها كانت أول علاقة لي بفتاة في فرنسا •• أول إفرنسية سأعرف جسدها ! ولم يكن ذلك بالأمر السهل بالنسبة اليّ ! دخلنا شقتي ، ونحن على مرح ، ومزاح ، مصطنعين بعد الشيء ! فأشعلتُ نار الموقدة المكشوفة ، حتى توهجت ، ثم أسرعت أحضر زجاجة « وسكي » كنت أحتفظ بها ، لمثل تلك المناسبة ! قالت « جينيت » حينما رأت الزجاجة •• « وسكي » ؟ « يا للأناقة » ! ثم بدأت تشرب •• فطفقت أزيدها من الشراب ، حتى دار رأسها ••

وتابع يقول ••

ــ كنت على أحر من الجمر للوصول إليها ! لكني لم آت بحركة تدل على ما في نفسي •• حتى قالت ، وقد زال مرحها •• : « مكسيم •• لم يعد في وسعي تحمل أكثر من هذه الكأس •• أظن أنني سأنام في مقعدي •• » فقمتُ حينئذ إليها •• أُعريها •• فترنّحت ، واستلقت على الأرض ، أمام نار الموقدة المتأججة •• فبدت كتمثال نحاسي متوهج الاحمرار ••

أخلد « مكسيم » الى الصمت برهة •• ثم قال مترددا ••

ــ كنت في غمرة التهامي لجسدها حين سمعتها تتمتم في أسف ، وحزن « مكسيم •• إنك لم تكن في حاجة لإغراقي في الوسكي •• كانت تكفيني قبلة كنت في شوق لها •• لقد أفسدت عليّ متعتي •• »

أنهى « مكسيم » تلك الرواية لي بقوله ••

ــ وكان ذلك آخر عهد لي بشرقيّتي •• و « فراس » !

كنتُ في تلك الأمسية في شقة « مكسيم » ، أسمع اعترافاته •• وننتظر معا وصول « جينيت » ، وصديقة لها تدعى « بيبيتا » •• فتاة فاتنة ، سمراء ، من أصل اسباني ، تُنافس « جولييت غريكو » على سدة الغناء الوجودي ، في كهف « التابو » ، في الحي اللاتيني ••

فسألت صديقي ••

ــ متى تتوقع وصول الفتيات ؟ بودّي لو أتابع قراءة هذه الرسائل •• هل هنالك متسع من الوقت للشروع بأخرى ؟

ــ لا عليك •• يمكنك أن تضعها ضمن إحدى هذه المجلات •• فلا يتنبه أحد الى ما تقرأ ••

أخذتُ مجلة ، أخفي الرسائل فيها ، عملا بما ارتآه صديقي •• ثم وضعتها جانبا ، ورحت أنظر الى أرجاء الغرفة التي كنا فيها •• وأتساءل كيف ستتسع لجميع من كنا نتوقع حضورهم ، من فتية وفتيات ، لقضاء الليلة فيها !

لم يكن في أحد أركانها سوى سرير واحد عريض ، هُيّئ على شكل مقعد وثير ، تفصل جانبيه ، عن الحائط ، عشرات الوسائد المتعددة الألوان ، والمحشوة بالريش ، فاذا اتكأ الإنسان على ذلك السرير ، وجد نفسه قبالة نافذة عريضة ، تطل على الشارع ، والى أحد جنبيها ، « بيانو » قائم ، والى جنبها الآخر ، مقعد مخملي داكن الحمرة ، لا يتسع لأكثر من شخصين ••

وكما في معظم غرف الجلوس الفرنسية ، كانت تحتل الحائط الرئيسي ، موقدة رخامية ، تلك الموقدة التي توهج بنارها جسد « جينيت » العاري ، تعلوها مرآة طويلة ، جلستُ الى أحد المقعدين اللذين على طرفيها •• ورحت أنظر الى المقعد الخالي أمامي ، أتساءل ، عمن سيجلس فيه بعد لحظات ، أنظر الى السرير الخالي •• فأرى في خيالي « مكسيم » و « جينيت » ، متمددين فيه ، كعادتيهما ، وأعود الى التساؤل ، عمن سيضجع إزاءهما من القادمين ! عمن سيضم ذلك السرير ، في تلك الليلة ، من أشخاص قد لا نعرفهم !

أين صرت في تلك الليلة ، مما كنت عليه ، حين عرفت « مكسيم » و « جينيت » في لقائنا الأول !؟ أين انسيابي في تلك الليلة مع واقع الحياة ونداء الحواس ، مما كنت أعيش فيه ، من قيود وقوانين العرف ، والمجتمع ، التقليديَّين !

* * *

عادت مخيّلتي الى داري ، ليلة لقائي الأول مع «مكسيم»و«جينيت»‥ وتشبثَتْ بذهني صورته ، وهو جالس يعزف على « البيانو » في تلك الساعة الهادئة من الليل ، بينما « جينيت » ، وكانت قد اتكأت على مقعد عريض وثير ، تنظر الى السقف ، ورأسها الى الوراء ، ينبض الوريد ، في عنقها النحيل الرائع ، بضربات قلبها المتوترة ‥

لست أدري كيف تملكتني جرأة هادئة ، أوحت اليّ بها ظروف لقائي بهما تلك الليلة في « الأوبرا » ، وكان «مكسيم» لازال يعزف على« البيانو » ، فسألتُ « جينيت » في صوت خفيض ‥

ـ ‥ هل تحبين « مكسيم » ‥ ويحبك ؟

جاءني جوابها على مثل همسي ، وكأننا على صداقة وطيدة ، منذ زمن بعيد ‥ أرخت جفنيها ، وقالت ‥

ـ ‥ أنا أحبه ‥ ولن أحب غيره ماحييت ! هذا كل ما أعرفه ! أما هو ؛ فهل يدري إنسان ماذا يمور في قلبه ؟

قالت ذلك ، مغمضة العينين ، دون أن تحرك رأسها ‥ كأنها تسرّ إليّ بأمور تخفيها عن نفسها ! وإذا بي أهمس أنا الآخر ‥

ـ وهل يدري ‥ هو ، ماذا يجول في قلبه ؟!

برهة ‥ ثم فتحت « جينيت » عينيها كأنها تتدارك زلة ! وأدارت رأسها ، نحوي ، تنظر اليّ بتمعن ! كأنها أدركت فجأة أنها تكلم إنسانا غريبا عنها !

قالت متعجبة حـائرة ..

ـ وأنت .. ألست على حقك من الطرافة ؟! كيف تطرح عليّ مثل هذه الأسئلة .. ونحن لمّا تتعارف ؟!

نظرَتْ إليّ طويلا ، كأنها تراني لأول مرة ! ثم تابعت مبتسمة ساخرة..

ـ قل .. يا « شارل غوستاف دوبواسي » .. أيها الـ « كونت دو بروفانس » .. ماذا تريد مني ؟ هل أنت تسعى الى مضاجعتي ؟!

علت ضربات قلبي ، لقولها المفاجىء ! واصطبغ وجهي !

كنت أجلس متكئاً الى الأمام ، أنظر اليها ، ورأسي بين يدي ، فأشحت نظـري عنها وقلت ..

ـ لكم أنت باردة ، قاسية ، مع الذين لا تحبين !

* * *

لست أدري لماذا كانت تتنازعني جميع أنواع العواطف المتناقضة في تلك الليـلة ! كنت أحس بانطباعات متضاربة ، تلمع في نفسي ، كومض البرق .. لا تلبث أن تنطفىء ، لتغمرني انطباعات أخرى ، تناقضها !

كنت لمدى ثوان ، متقلّبا ، أميل الي « مكسيم » ، ثم أكرهه ! أجد فيه ضالتي من الصداقة ، ولم تمض ساعات على معرفتي به ، ثم أعود لأراه كما هو .. إنساناً غريباً كل الغرابة عني ، وعن عـالمي ! أنظر الى « جينيت » فأراها ، تـارة ، هدفي الذي طال بحثي عنه .. وتارة أخرى ، وسيلة عابرة ؛ أراها جـدا جميلا ، غريبا عني .. أغلي للتمدد فوقه .. ثم أحس بأنني لـن أحب فتاة بعد اليوم ، سوى من هي على شاكلتها .. فتغمرني شهوة عارمـة تغريني بهـا ، وأتمنى في الوقت ذاته ، لو أصفعها .. قبل أن أقبل نهديها !!

كنت في غمرة انفعالاتي هذه ، حين أتاني صوت « جينيت » من جديد .. يهمس في أذني ..

ـ هناك غريب على الباب !

نظرتُ الى ردهة المدخل ، حيث أشارت ، واذا بخيال صديقي « باتريس »

يظهر وجهــه محاطا بما خلفه من الظلمة ، فيبدو ضمن إطــار الباب ، كلوحة قديمة لـ « رمبرانت » ••

قلت مازحا ، ساخرا منه ، دونما سبب ••

ــ ••• ها قد وصل الغريب ! هل أنت هنا منذ أمد طويل ؟

لم يحر « باتريس » جوابا •• كان ينظر إلى حيث جلس « مكسيم » : يبــدو مأخوذا بما يعــزفه من ألحان حــائرة ، بين موسيقى « بورودين » و « كورساكوف » •• ألحان ، توحي بشرق لا وجــود له سوى في مخيلات السينمائيين •• شرق ، بعيد عن الواقع ، وبالرغم من ذلك ، يتعرف الإنســان اليه •• يحس بأنه على معرفة أكيدة بأسراره !

« باتريس »، صديق حداثتي ، ورفيق أيام خدمتي العسكرية••عوّدني، خلال معرفتي الطويلة به ، ألا يظهر إلا في المناسبات والأوقات الغريبة !

تقدّم منا ، بقامته المتناسقة ، والمعتدلة الطول ، وخصلات شعره الشقر ، كعادته ، متناثرة فــوق جبينه ••

قلت لـ « جينيت » ، أعرّفهــا بصديقي ••

ــ •• أقــدم لك صديقي •• « باتريس دو غريفيل » ••

تناول « باتريس » يدها ، في حركة من سيلثم أصابعها ، بشكل آلي ••

قالت مازحة ••

ــ ها ؟ نبيل آخر ! إذا استمرت هذه الحــال ، فسوف أخالني في قصر « فرســاي » !

سألها « باتريس » مشيرا الى « مكسيم » ، غــير عابىء بملاحظتها ••

ــ أفارس أحلامك •• ذاك الذي يعزف أحلامه •• في هذه الطلاقة ؟

وألقى بجسده على مقعد مجاور ، رأســه الى الوراء ، يبدو منهوكا ، ينظر الى الفراغ •• ودون أن ينتظر الجواب •• قال يحدث نفسه ••

ــ •• إن من يعلن عاطفته على الملأ ، في هذا الشكل•• ينقصه التحفظ ، بل الحيــاء !

توقف « مكسيم » عن العزف •• ظل برهة على مقعده ، ينظر الينا من بعيد • •سمع ملاحظة باتريس •• فنهض في بطء ، وقال وهو يتقدم منا ••

ــ أتدرون ما إحــدى أمتع اللذات في الحيــاة ؟

لم يكن قد وجــه السؤال الى أحد منا بذاته •• فلم يتلق منا جوابا •• تابع ، ينظر الى « باتريس » ، قائلا ••

ــ إ نهــا ، مقابلة الأشخاص ، لأول مرة ! معرفتهم ، في مثل هذه الساعة من الصباح •• وضمن مثل هــذا الإطار السلفي ! ما أجمل لحظات ما قبــل محاولة التعرف إليهم ! تلك الثواني التي تسبق وصول عبق الوردة الى أنف المتذوق عطرها •• قبل أن يُتعرف العطر •• قبل أن يُتلذذ بمذاقه العذب ! دعونا نبطىء في التعارف •• على طريقة « الأمير الصغير » •• إن هذه فرصة لتذوق الحيــاة •• اذا مرت ، ولّت الى الأبد !

لم يحــر أحــد منا جوابا ••

لست أدري ماذا دار بيننا في تلك الدقائق •• مضت برهة صمت طويلة ، تقرر بيننا ، سرا ، خلالها ، أننا على طريق تعارف سيطول أمده •• وقــد نضيع في متــاهه !

كنت علــى رباط وثيق بـ « باتريس » أحسست كأنه أدرك ما يجــول في خاطري ، وهو يستمع الى كلمات « مكسيم » ••

قال ، وهو يرنو إلى ملامح « جينيت » •• يجيب على انطباعي ، عن تلك اللحظة ، ويقصد قول « مكسيم » ••

ــ •• إن في هــذه الرهافة •• من السادية •• ما يخيف !

* * *

كانت تلك فاتحة لرباط وثيق بيننا ، لم ينقطع حتى هذه الليلة ، « مكسيم » و « جينيت » و « باتريس » •• ثم انضمت إلينا « بيبيتا » صديقة « جينيت » ، ثم « غونثر » و « جون » زميلا « مكسيم » •• هذان الأخيران ، يأتيان من حين الى آخر برفيقات لهما ، يطيلان أو يقصران من صحبة الفتيات ، قياسهما في ذلك راحتهما الجنسية ! تلتقي ثلّتنا هذه•• جميع أفرادها ، معظم الليالي ، في مقهى « المابيون » ••

يندر ألا يتعود الطلاب ، في باريس ، التردد على مقاهي الحي اللاتيني ، ينتقون في مطلع كل عام ، كل منهم ، ما يلائم ذوقه وميوله الفنية ، أو الفكرية ، أو الاجتماعية ، أو حتى الجنسية ! فلا يحل برد الشتاء القارس ، حيث يستحيل التمشي والتسكع في الطرقات ، وعلى ضفاف نهر « السين » ، إلا وتتبنى كل زمرة ، أو عدة جماعات ، مقهاها الخاص •• تكاد لا ترتاد سواه ! تختصّ زوايا معينة منه ، أو مناضد متخيّرة منها•• فلا تركن إلا اليها ، ويأتي المبكرون منهم ، فيحتجزون مقاعد ، تبقى بقية معظمها شاغرة ، لا يحاول التجرؤ عليها أحد من الغرباء ، رغم اكتظاظ هذه المقاهي بالرواد ، حتى تصل سائر أفراد كل ثلة ، في أوقاتها المختلفة ، فيحتل كل مكانه المألوف ، في تعارف ، ضمني ، لا يلبث أن يصبح تقليدا يدوم حتى حلول العطل السنوية الكبرى !

لعل موقع مقهى « الفلور » الخاص ، في شارع « السان جيرمان » ، وبُعد هذا الشارع النسبي ، عن مركز تحشدات الطلاب ، في شارع « السان ميشيل » و « السوربون » ، أعطت مقهى « الفلور » ، وشارع « السان جيرمان » ، طابعهما الخاص المتميز •• أضف الى ذلك ، مسحة القرن السادس عشر ، عبر تلك الكنيسة القديمة الوقور ، المطلة على مقهى « الدوماغو » ، المحاذي « للفلور » ، كل هذه ، عوامل ، جعلت من حي « السان جرمان » ومقاهيه ، خلايا •• يجتمع فيها معظم ثوريّي الفكر في باريس ما بعد الحرب ، فأصبحت مراكز ، لرواد الفلسفة الوجودية ، ومخابر كان المتطفلون من أنحاء العالم يأتونها لمشاهدة مدى تأثير هذه التيارات الفكرية الجديدة في حياة من يعتنقونها ، ويعيشونها ، من فنانين أو مغامرين أو مرتزقة !

وفي شارع « السان جرمان » نفسه ، يتفرّد كل مقهى من هذه المقاهي بطابعه المتميز ، ومستواه الخاص ..

فالحرب أسقطت كثيرا من تيجان مقاهي العشرينات الشهيرة .. فاشرأب « الفلور » ، « والدوماغو » ، مثلا ، لاحتواء شخصيات الأدب والفكر اللامعين ، من مقهى « السيليكت » ، في منطقة « المونبارناس » ، حيث كان يتردد أمثال « أراغون » و « مالرو » و « الدادائيين » ثم « السورياليين » .. من الفرنسيين ، ومن الأجانب ، « هيمنغواي » و « جويس » و « فولكنر » و « ريلكه » ، فنبشت « الفلور » في أمجاد تاريخها القديم .. ذكريات روادها ، من أمثال « رامبو » و « فيرلين » ، مستقطبة بذلك « كوكتو » ، ومن دار في فلكه من سينمائيين وفنانين .. ثم كثيرين ممن أصبحوا فيما بعد ، نجوم المسرح والباليه ، والسينما .. أما مقهى « البيرغولا » بما كان له من أصول إسبانية ، فبدل أن يجمع مريدي « بيكاسو » و « دالّي » و « ميرو » ، كما كان متوقعاً أن يفعل .. تلقّف كتّابا مثل « جان جينيه » و « سارتر » .. وغيرهم ، الى جانب عدد وفير من صغار المسرحيين والشعراء ، يأتونه آخر الليل ، لإشباع ميولهم الجنسية ! أما الفنانون ، من رسامين ، ونحاتين ، فبعد أن تركوا قصة « مونمارتر » و « ومونبارناس » للسياح ، لجؤوا الى زوايا ومقاهي « الرو دي سين » الصغيرة والمنعزلة .. اذا ما خرجوا الى « السان جرمان » لا يستطيعون الجلوس سوى في « المابيون » القديم ، حيث كانت ثلّتنا قد اعتادت أن تلتقي منذ ساعات المساء الأولى من كل يوم !

* * *

أحار في وصف ما كان يجري بيننا أثناء هذه اللقاءات !

أكنا نجتمع لنسمر ونتلهى ؟ أم كان « المابيون » حلبة نزال لنا ، لا نلتقي فيه سوى لنجرّح ويدمي بعضنا بعضا ؟ أكنّا نأتي طواعية ؟ تجذبنا حاجة طبيعية لتبادل الدفء الانساني ؟ أم كنا نترقب ما بين السادسة والسابعة من كل مساء .. يتمنى كل منا لو أن لديه من الاختيارات ما هو أفضل وأجدى

من هــذا الصراع اليومي ، تتقــدم منه ، وجلين•• تقترب من مقاعــدنا ، متحفزين •• يخفق قلب كل منا لأنه سيجلس إزاء هذه ، من الفتيات ، أو ذاك من الأصدقاء •• يتمنى لو أن هذا ، أو تلك ، لن تأتي •• يتمنى لو أنه ينفرد لحظــة بمن يميل اليها •• فيخلو له المجال ، لتبادل نظرة أو لمسة ذات معنى خاص ، علّها تفصح بعض الشيء عما كان كل منا يخفيه من عواطف لا يجرؤ على الإفصاح عنها •• والزمن ، كان زمن عقل ، وإرادة ، وفلسفة•• والعاطفة ، كانت من مخلفات رومانسية قرن مضى ، يلقّب من يضعف منا ، وتظهر مــن عينيه ومضة شوق ، بالـ « الوردة الزرقاء » •• فيصبح ، خلال لحظات ، محط تندر وسخرية الآخرين !! يكيل له السخرية ، حتى ذلك الطرف الآخــر •• ذلك المقصود بالعاطفة •• يهــزأ منه ، بينما يود في ســره لو يبادله نظــرة الحب ، بنظرات !

أكان ذلك قانون كل الصداقات الجماعية ؟ أم قانون ثلتنا نحن ، ومجموع أعمارنا الوسطي لم يزد عن العشرين ؟!

لم يكن بيننا من يجرؤ على اختصاص آخر بالحب أو بالمودة الخاصة ! حتى « جينيت » ، ورغم اعترافها العابر لي ، في داري خلال لقائنا الأول ، كانت تتحاشى أن تظهر الحب لـ « مكسيم » في الحي اللاتيني !

كنت غريبا عن عالم الحي ، في أول لقاء لنــا ، لذلك سهل عليها الإقرار بحبها لـ « مكسيم » أمامي •• فما إن أصبحتُ واحدا من ثلتهم ، فيما بعد ، حتى عادت تنكر حبها في غضب أمــام كل من يسائلها عن ذلك ، وتعيد السائل الى حدوده في قسوة ناهرة ، محذرة إياه ، التدخل بما لا يعنيه !

لم يكن هناك ما يجبر أياً منا على هذا التصرف أو ذاك ! كنا أحرارا ، ليس ما يمنعنا ، لو شئنا ، من التدلّه في حب من نريد •• وما من دوافع لدينا على لقاءاتنا الليليــة تلك ، سوى الرغبة الشخصية لكل منا ! لم يكن هنــالك ما يحول ، بين أي زوجين منا ، دون قضاء الليل في سرير واحد ، لو طاب لهما ذلك ، بل كانت هذه هي القاعدة السائدة ، شريطة ألا ينعكس وفاقهما الجنسي

الموقت ، على تصرفاتهما اليومية ! كأن كلا منا قد وقّع عقدا جماعيا ، خفيا ، لا يشترط فيه على نفسه أن يبتر العواطف ، أو يقتلعها من نفسه ، ففي ذلك « بيوريتانيه » جامدة ، و « انغلوساكسونية » ، لا تليق بحيّنا « اللاتيني » الجذور ! بل يشترط في ذلك العقد ، التعامي عن هذه العواطف.. تصعيدها.. تجاه نفسه ، ونكرانها ! حتى أمام المحبوب نفسه ! ثم الهزء من تلك العاطفة ، اذا لزم الأمر ، أمام الآخرين !

وفي كل ذلك .. لم يكن لنا ، من سلاح في مقارعاتنا ومنازلاتنا هذه ، سوى المطالعة والثقافة !

وفي هذا الصراع تفقد الفلسفة قيمتها الذاتية ، وتغدو نظرياتها معتركاً لنا نلتحم فيه التحاماً ، تذكي العواطف أواره ، وتُشهَر فيه الأسلحة الماضية من أسماء الفلاسفة وأقوالهم .. وغاية الغايات في هذه الخصومة الجدلية ، أن يجيد الخصم استخدام السلاح ، لا أن يظهر على قرينه بالحجة المقنعة !

* * *

الفصل الخامس

كانت « جينيت » من أوائل أفراد ثلتنا الذين يصلون « المابيون » كل يوم .. تعمل صباحا في متجر للألبسة ، متى احتاجت الى النقود ، وتقضي فترة بعد الظهر ، في غرفتها القريبة من المقهى ، فلا يُقبل المساء ، حتى تجدها قد أحكمت ايصاد باب غرفتها .. تسير الهوينا نحو « المابيون » ، وتحتل صدر المجلس في زاويتنا المفضلة .. تنتظر وصول الأصدقاء ، ومحفظة نقودها الجلدية الصغيرة ، على المائدة ، والى جانبها ، علبة لفائف « الكلواز » ، وحلقة مفاتيحها الخاصة ..

* * *

كنت ، كما ذكرت ، أتردد على الحي في فترات بعد الظهر ، أو أثناء الصباح ، أُفضّل الجلوس في « الفلور » ، خلال تلك الفترات الهادئة .. بعيدا عن الوجوديين ، والبوهيميّين ، الذين لا يصحون من نومهم إلا في ساعات المساء الأولى ..

أطللت ذات صباح على « المابيون » مصادفة ، ولم أكن أتوقع وجود أحد من أفراد ثلتنا فيه .. فاجأني أن « بيبيتا » تجلس الى قهوتها وحيدة ، وهي التي تعودت ألا تترك فراشها إلا ظهرا ، تستريح من عناء حفلاتها الغنائية المتأخرة من كل ليل ..

زاد في دهشتي ، حرج ، جَهِدَتْ أن تخفيه عني .. أحسسته في تباطئها بدعوتي الى مشاركتها !

تقدمت منها مترددا ، أبادلها مجاملات عابرة ، أهمّ بتركها وحيدة ، واذا بـ « جينيت » تطل ، هي الأخرى ، في ذلك الموعد الغريب ..

سرني أن أرى « جينيت » .. فجلست ، وأبديت تساؤلي ، مبتهجا بتلك المقابلة .. وإذا بـ « بيبيتا » ترد في تحد أدهشني ..

ــ وماذا .. في أن نلتقي هنا ! وبمفردنا ؟ هل يتوجب علينا لذلك أن نطلب إذن أحد ؟!

لم يكن في خاطر تحديات « بيبيتا » ما يلفت الانتباه .. كانت حادة الطباع ، نزقة ! تبارز من تخاطب . لا تنتبه الى وخزاتها الحادة إلا حين تكلم «مكسيم» .. تعودت ان تكيل الطباع صاعين لكل متحد ، ما عدا «مكسيم» .. يعلو وجهها الاحمرار اذا أرغمت على الصدام معه !

قلتُ ، وأنا أهمّ بالوقوف ، مصطنعا دور من لا يودّ إحراج أحد ..

ــ .. يظهر أني متطفل .. غير مرغوب في بقائه ..

شدّت «جينيت» يدي ، تحضني على البقاء في مقعدي ، وقالت هازئة ..

ــ إن من يسمع « بيبيتا » تقول هذا .. يظن أننا على لقاء غير مشروع !

نظرَتْ « بيبيتا » إلينا بتحد . وأردفت ..

ــ بالضبط ! لعلني لا أبغي من هذه المناسبة المنفردة غير هذا !

قالت « بيبيتا » ذلك .. وأشاحت بوجهها عنا في حنق !

رأيت « جينيت » تنظر نحوي ، تحدجني بنظرة ملؤها الاستغراب من قول صديقتنا ! تسائلني عيناها عما تقصد صديقتنا ! فهززت رأسي ، أفهمها أني أجهل ما ترمي اليه « بيبيتا » ! ثم فتحت عينيّ مستغربا .. وتبسمتُ .. كأني أرمي الى المعنى الوحيد الذي يمكن ان يتضمنه ذلك التصريح المفاجىء !

تخضّبت وجنات « جينيت » الشاحبة ! نفضت لفافتها في عصبية ، وهي تقول ..

ــ .. هراء .. لا .. لا .. حقا ! يا له من سخف !

وتابعت نظرها الى المنفضة ، ثم الى الباب ، والى مَنْ أمامها من الناس .
فلم أفهم مقصدها من هــذا الرد . أكانت تريد التعريض بي ، أو كانت تــرد على تصريح « بيبيتا » .

مرت لحظات صمت مبهمة .. قبل أن أسمع صوتها ثانية ..

ـ حقا ! إنه لا يظهر إلا في الأوقات ، والمناسبات الغريبة !

نظرتُ الى الباب ، لأرى من تقصد « جينيت » بقولها . وإذا بي أرى « باتريس » يطلّ في صحبة صديقة طفولته ودراسته . « آني » ..

أجبتُها ، مبتسما ..

ـ .. جاء « باتريس » يبحث عني ! فأنا على موعد معه في « الفلور » !

وأشــرت اليه أن يدنو منا ..

كانت « آني » كـ « باتريس » ، شقراء الشعر . قصيرته . زرقاء العينين . « اسكندنافية » الجمال ، تميل الى ارتداء ثياب الذكور ، يسرها ألا ترتدي إلا ما يحاكي ثياب صديقها ، فيانتان الأنظار حيثما حلاّ . تبدو . رغــم أنها من لِدانه ، كأخ ، أو صديق له ، يصغره بعامين !

كانا يسيران دوماً ، جنبا الى جنب ، ذراعها تحيط خصره ، وذراعه فوق كتفها ! فإذا ما ارتدت البنطال الضيّق ، مع الكنزة الصوفية المتبدلة فوقه .. بدت ، مع صديقها ، كحدثين ، يلف أحدهما الآخر ! شابان ، في وضع يمجّه العرف ، في باريس ! أما الطــامة الكبرى . فحين كانت ترتدي ربطــة العنق الأنيقة ، والمعطف المشدود على خصرها . تُصرّ على لفّ خصر « باتريس ».. رغم مظهرها المذكّر الأنيق ! متحدية في ذلك أنظار المارة . مستقطبة ســخط المحافظين ، والمسنين ، من سكان الحي !!

لم يكن « الزيّ » ، أو ما يرتديه الشباب ، قد أصبح ، بعد ، رمــزا للثورة على التقاليد ، بين أوساط الطلاب ! كانت ذكريات الحرب ، وويلاتها ، لا تزال حية في أذهان الناس .. يتحدّث البالغون عما عرفوه في أثنائها مــن

جـوع ، ومن كوابيس ثقيلة . كأن خطر الجوع ما زال حيا ، يتربص لهـم خـلف الأبواب ..

ثورة الشباب ، في ذلك الحين ، إنما كانت تستهدف الجذري من حياة الناس .. والخافي عن الأعين .. ورغم أن « هايديغير » . .و « كيركغارد » كانا من القدامى ، نسبيا .. إلا أن « سارتر » جـاء بالوجودية متأخرا الى شباب باريس .. فلم يجدوا ، في حياتهم اليومية ، أعمق من الدين ، يحاربونه ، ومن الجنس ، مجالا ، يمارسون فيه طبيعة الاختيار .. يطمحون الى تحطيم قيود كانت المادية الفلسفية ستقضي عليها على أية حال .. يشهرون في ذلك « سارتر » ، سلاحا عصريا برّاقاً ، يعلمون أنه ليس بعيد الفتك ، أصلا .. فلا يضربون به ، فيما يضربون ، سوى « السلوك » الخارجي ، وآراء المثاليـة التقليدية ، في الدين والجنس !

كنت أشرح لـ « باتريس » ظروف تغيّبي عن « الفلور » ، من الموعـد المحدد بيننا ، حين فطنتُ الى أنه لم يسبق لـ « بيبيتا » أن تعرفت على « آني » حتى ذلك اللقـاء..كانت تنظر إليهـا محـدقة العينين مستغربة ، كأنهـا لا تصدق ما ترى ..

قلت لـ « بيبيتا » ، وأنا أدعو « آني » و « باتريس » للجلوس قبالتها ..

ــ هذه « آني » ، صديقة « باتريس » .. منذ سنين ، ألم تتقابلا مـن قبل ؟ ثم استدركتُ ..

ــ آه .. صحيح .. انهمـا يقطنان في المنطقـة « السادسة عشرة » الأنيقة .. قلما تأتي « آني » معـه الى الحي اللاتيني ، هنا ..

كانت « بيبيتا » لا تزال تنظر الى « آني » ساهمة .. فقالت واجمة ..

ــ ماذا يهم ! ماذا يهمّني من سكنها ؟ أو من أين أتت !! المهم ، هو أنهـا هنا ، الآن ! وتغيرت نبرة صوتها فجأة .. فتابعت في لهجة هادئة ، بعيدة ..

ــ « آني » .. « آني » .. يا له من اسـم جميل ! يجب أن أطير بك الى اسبانيـا !

نظرتُ طويلا الى «بيبيتا» . ثم تحوّلتُ عنها ، لا أود أن أفهم ماسمعت !
رحت أحدث « جينيت » و « باتريس » •• الى أن سألني صديقي في سخرية••

ـ ألن يأتي « مكسيم » •• كذلك . هذا الصباح ؟

ـ قلت لك إني لست على موعد مع أحد هنا ! إنما مررت عرَضاً ! قبل موعدنا في « الفلور » ! واذا ب « بيبيتا » . « وجينيت » هنا ! ثم ، إن « مكسيم » لا يزال في الشمال •• في « ديب » أو لعله في البحر على ما أظن ••

قالت « جينيت » وهي تنهض ••

ـ بل لقد وصل هذا الصباح •• إنه في المطبعة ، أو في دار النشر •• يجب أن أعود الآن الى عملي ••

وطلبَتْ من « بيبيتا » أن تفسح لها الطريق كي تمر ، فنهضت هذه تقول ، وهي تنظر الى « آني » ••

ـ سأعود أنا الأخرى الى « التابو » ، لأقبض من صاحبه دراهم استحقت لي •• « آني » ، هل تعرفين ذلك « الكهف » ؟

جالت « آني» بنظرها ، بين « باتريس » و « بيبيتا » ، كأنها تختار أحدهما •• ثم عادت تنظر الى صديقها •• وقالت في حزم ••

ـ « باتريس » •• إنك لن تبقى وحيدا ، فيما لو رافقتُ « بيبيتا » ! أودّ لو أرى كيف يبدو الكهف ، في النهار ، دون جمهور ، ومغنين ! أتدري اني شاهدت « بيبيتا » تغني فيه مرارا ؟

أجاب « باتريس » ، هازئا ••

ـ أوَتخبرينني عن ذلك •• وأنا الذي كنت أرافقكِ الى « التابو » !؟ أم أنك تُعلِمين « بيبيتا » بذلك ، أنكِ من المعجبات بها ؟

تغاضت « آني » عن لهجة الهزء في صوته ، لم تجبه •• نهضت ، ترافق « بيبتا » و « جينيت » ، وهما تغادران المقهى ••

قالت لين مندهشا لرحيل الفتيات المفاجىء ••
ــ أتذهبنَ •• هكذا •• دون وداع ؟

ردّت « جينيت » ، وهي تبتعد عنا ••

ــ سيأتي « مكسيم » لتناول الغداء في « الينبوع الصغير » ، حوالي الساعة الثانية •• في وسعنا أن نلتقي هناك ، إذا ما قررتما البقاء في الحي ، وإلا ، فإلى النقاء ، في المساء كعادتنا ••

كان« باتريس » ينظر الى رفيقته ، ساهما ، ساخرا ، وهي تغادر المكان••

قال ، كأنه يسألها ، رغما عنه ••

ــ « آني » •• هل ستعودين ؟
ــ •• لست أدري ••

قالت ذلك •• واختفت مع رفيقتيها ، بين المارين ، في الطريق ، خارج باب المقهى ••

* * *

بدا « باتريس » شاردا ، حزينا •• راح يقلّب كتابا نسيته « آني » على المائدة •• نظرت الى الكتاب بطرف عيني • •فضحكتُ ، وأنا أقول ••
ــ •• رواية « ينبوع الوحدة » ! أيّكما يقرأ هذه الرواية ؟ أنت ، أم « آني » ؟

أجاب ساهما ••
ــ انها « آني» •• وهل قرأتها ؟
ــ ليس فيها ما يستحق الاهتمام •• لا بد أن « آني » اختارتها لأجل عنوانها •• ثم •• « الوحدة » و « آني » •• وهل « آني » وحيدة ؟

أجاب « باتريس » ، دون أن ينظر اليّ ••

ــ وهل منا من لا يئن في سره من هذا الداء ؟

اجبته حــذرا •• متربكا ••

وما معنى هذا العتق ! في هذه الساعة المبكرة من النهار ؟! اراك تردف الى بعيــد ••

ـــ أجابني ، وكأن قولي قــد زاد من مرارته !

ـــ أرى ان الشقة تزداد ســعة بيننا ، كل يوم !

ثم صمت •• وأردف ، شاردا ••

ـــ •• هل ستنتظر « مكسيم » ؟

آلمني ما سمعته منه •• هززت راسي بالإيجاب ، دون ان اتكلم •• ولبثنا برهة طويلة ساعتين•• يغوص كل منا في نفسه ، يتلمس أسباب ذلك التباعد•• نمشي في أروقــة الماضي المتناسة ، البعيدة •• نصطدم بذكريات مبعثرة ، فنتعثر بها ! ننهض •• وندفع ، او نرمي بعضنا جانبا •• غير آبهين بما نحطم !

ترى ، ما الذي بدد تلك الآمال الكبار التي كنا نعلقها على صداقتنا ؟

ما الذي عكّر صفو محبتنا ، فبتنا ، لا نكاد نرقع ما تمزّق ، حتى تتفتق عراها القديمة ، من جديد ! اكانت تلك الليلة المشؤومة ، التي قضيناها بــين سكر وعربدة ، في المعسكر ؟!

ما الذي دار بيننا ، بالضبط ؟ أتجاوزنا الحدود ؟ أم لم نجــرؤ عــلى تخطّيها ، بما فيه الكفــاية ؟!

حائط ، منيع ، شفاف ، قام بيننا منذ الصباح التالي ! سور ، تلزمنــا لتخطيه ، جرأة ، لم تنطو عليها ! كنت أحسّ أن « مكسيم » قادر على الخوض في مثل هذه الموضوعات ، فأحســده جرأته ، اما أنا ، أما « باتريس » ! فلا !!

* * *

كان « باتريس » في الماضي ، يتردد على شقتي بانتظام شبه مدروس •• يمر برفقة « آني » صديقــة طفولته ، إما ، وهما في طريقهما الى حفــلٍ ما ،

وإمّا ، عائدين منه •• يصرّان دوما على دعوتي ، فأرافقهما أحياناً ، وأسعد بصحبتهما الطريفة ، هربا من حفلات الوسط الاجتماعي الذي نشأت فيه ، والتي كنت قد مللتها حتى السآمة ! فما إن زارني « باتريس » منذ سنوات ، وشاهد « مكسيم » و « جينيت » •• عندي ، تلك الليلة ، بعد حفل الاوبرا ، حتى تبدد إيقاع زياراته لي •• فبات يطرق بابي في مواعيد متقاربة ، غير متوقعة ، مقلاً من اصطحاب صديقته ، حتى تعرف الى أوقات زيارات « مكسيم » ، فكان يسبقه الى داري •• أو يأتي بعده بقليل ! يجلس هو الآخر في صمت ، يطالع ، أو يتلهى بممارسة هوايته المفضلة •• كتابة الشعر ••

كان « مكسيم » يكثر من المزاح معه •• يميل إليه •• يداعب خده ، أو ذقنه ، بيده ، من حين الى آخر •• فيحتقن وجه « باتريس » ! ويحاول أن يسيطر على ما يصيبه من ارتباك •• فأهزأ منه ! ويبتسم « مكسيم » ، لحرجه !

كنت أعلم أن الشرق ، من دون العالم أجمع ، ما زال يعيش صفاء المفهوم الاغريقي للصداقة والمحبة ! أما نحن ، فلقد نشأنا على تقاليدنا الغربية •• فكان من الطبيعي أن يتسرب الشك الى الصداقات الخاصة ، في نظرنا ••

« باريس » •• لا تعرف الألفة الجسدية الطبيعية بين الشباب ، من الجنس الواحد •• ولا تسمح بها !

يستطيع الشاب أن يقبّل فتاته حيثما شاء من المدينة •• في الشارع •• أو في الحدائق العامة •• على الرصيف •• أو في دار السينما •• يداعب نهديها علانية ، يضمها اليه ، يعصر جسدها ، ويظل على هذا الوضع ساعة •• أو ساعات ، دون أن يلفت ، ما يفعله ، انتباه أحد •• يغضّ المارة الطرف حتى عن الممارسة الجنسية ! في الحدائق ، والأماكن العامة المنزوية ، شريطة أن يتم ذلك في شيء من التحفظ •• أي دون تعرٍّ !

أما الصداقة ! فباريس تكاد تنسى اسمها •• تقطّب ، اذا ما اشتبكت يدا صديقين في الشارع ، أكانا من الإناث ، أو من الذكور ! قلما يلامس

الصديق يد صديقه ، فيما عـدا المصافحة اليومية المتكررة ، واذا ما سارا ، أو جلسا ، حتى في الأماكن المكتظة ، وتلامست أصابعهما ، أو ركبتاهما ، تباعدا في حركة إرادية ظاهرة ، بل ، وفي تململٍ وتأففٍ مدروسين !

كنت و « باتريس » ، واثقين من أن « مكسيم » لا يرمي الى هدف ما من مزاحه هـذا ! لكن صديقي ، كان ما يزال يعيش تحت وطأة ذكريات حياته العسكرية ، يودّ لو ينساها ! ذكريات ، لا يعلم « مكسيم » عنهـا شـيئا •• لذلك ، لم يكـن يرى سببا للتحفّظ في مداعبته •• ولا يجـد « باتريس » طريقا للتغلب على حرجه !

أمور ، أعادت فتح أبوابٍ ، ظنّ « باتريس » أنه قـد أوصدها في وجه قدره ، الى الأبد ! ولم يكن « باتريس » حدثا ، يسهل نصحه ! لم يأتني يوما ، طالبا العون !ورغمٍ أني كنت لا أكبره إلا بأعوام قليلة ، إلا أنّ لي من طبيعتي ، ما أرشدني الى ما كان يحس به صديقي !

أدركت أنه على أبواب أزمة نفسية •• يجلس صامتا ، يستمع الى عزف « مكسيم » •• أو يبدو ساهما عنه ، لولا معرفتي الطويلة به ، لفاتني التنبه الى ما يعتمل في نفسه ، ولما فطنت لما كان يتنازعه ، من إقدام وإحجام !

* * *

جلست في « المابيون » ذلك الصباح ، مع « باتريس » ، بعد أن تركتنا « آني » •• أشفق على صديقي الحزين ، ولا أعرف الطريق الى تسليته !

مر ما يقارب ساعتين ، ونحـن جالسـان في ذلـك المقهى ، ساهمين ، لا نتحدث إلا قليلا ! لكن غياب « جينيت » لم يطل •• بدت من جديد قرب باب المقهى ، يطل « مكسيم » من ورائها •• وأشارا إلينا بالخروج إليهما ••

كانا برفقة « جون » ، فتبسم « باتريس » للقادمين ، وسأل « مكسيم » ، في لهجة من يصحو من سُبات عميق ••

ــ •• وأين « غونثر » ؟ ألن يذهب معنا لتناول الغداء ؟

هــز « جــون » رأســه ..

ــ .. ليس مع أحدنا من نقود ! سيأتي « غونتر » بعد قليل .. وننتظر عودتكم هنا .. على مقعد الرصيف العام ! إلا اذا تكرم ، ودعانا أحـدكم ، الى قهوة ! فننتظركم في المقهى !!

أمددت « جون » بما يلزمه من نقود .. فعلّق « مكسيم » ، ضاحكا ، مازحـاً ..

ــ .. يالها من ثلة مسرفة ! أترككم في خير ، منـذ أيام .. وأعود مـن البحر ، لأراكم على الحضيض !

ثم أضاف ، جاداً ، موجها القول لـ « جون » ..

ــ لاعليك .. سأقوم بجولة هذه الليلة ، مع « الاورغ دي بارباري » .. فأجمع ما يكفينا لمصاريف أسبوعٍ كامل !

ثم التفت الى « باتريس » ، سائلا ..

ــ .. وأين « آني » في هـذا النهـار المشمس الرائع ؟!

أجاب « باتريس » .. في لا مبالاة متكلفة ..

ــ لقـد اختفت منذ ساعات .. مع « بيبيتا » ..

صمت « مكسيم » ، يحاول أن يفهم سـر الوجوم في إجـابة صديقه ، ثم قـال ، منفرج الأسارير ..

ــ .. وهل اختطفتها ؟! حسنا ! لكل علة دواؤها .. سأقوم هذا المساء ، اذا ، بجولة مضاعفة الجهد ، على « الاورغ دي بارباري » ! تكفي ، كلاً من « جـون » و « غونتر » ! وتكفينا مصاريف سهرة عارمـة ، حتى الصباح ! في « التابو » ! سنفاجىء « بيبيتا » في وكرها !!

* * *

لم أكن ، بعد ، قد ربطت جديّا ، بين جولات « مكسيم » الموسيقية ، وما كان « الاورغ دي بارباري » يدره عليه من نفـع مادي .. ولم أكـن

غافـلا ، بالطبع ، عن قصد تلك الجولات ، العماي •• لكنني لم أهتم لغـير وجهها البوهيمي ، ظنّا مني ، أن التحدي ، واللفتة المسرحية ، كانا المحرضين الأساسيين لـ « مكسيم » على القيام بها ••

دُهشتُ ، إذ أحصيت في ذهني ما كان صديقي يجمعه من نقود في جولة واحـدة ! عشرون مائدة ، على رصيف المقهى الواحد •• وحول كل مائـدة منها ، أربعة أو خمسة أشخاص •• كان يأخذ ، وسطيا ، فرنكا واحدا مـن كل منهـم !

مائة فرنك ! لقاء عشر دقائق ، من عزف ، ما كان يكلّفه من جهد ، سوى لف عجلة آلته « الميكانيكية » ، بيده ! فاذا ما تجول أمام خمسة ، أو سـتة ، من مقاهي الحي وحـده ، كسب ما لا يقل عن خمسمائة فرنك ، في جـولة واحدة ! أضف الى ذلك ، ريع ، ما كانت تبيعه « جينيت » ، من رسومه !!

* * *

ما كاد « مكسيم » ينهي جـولته ، في الحي اللاتيني ، ذلـك المساء ، ويودع رسومه غرفة رفيقته ، حتى قال لي ••

ـ ألا تودّ مرافقتي ، الى بقيـة الجولات ؟ ألا تودّ أن أطلعك على ما لا تعرفه عن مدينتك ، باريس ؟

وما كنت أحـلم بغير ذلك !

* * *

صحبته في جولة ، تعمّد أن تكون طويلة ••

مررنا بحي « الأوبرا » •• وشارع « الرودولابي » ، بمقاهيه العديدة •• ثم بالـ « شان اليزيه » المكتظ بالمقاهي ، والسـياح •• ثم بالـ « التروكاديرو » ، وقمة « المونمارتر » •• فما إن حل الليل ، حتى كان قد جمـع ما يربو على

ثلاثـة آلاف فرنك •• مبلغ ، كان في تلك الأيام يوازي أضعاف ما يتقاضاه مهندس معماري ، من مرتب شهري !

عدنا الى الحي ، وقد أدركنا الجوع ، والتعب ••

دخلنا غرفة « جينيت » ، حيث اعتاد مكسيم أن يودع آلته ، فألقاها على الخزانة ، ثم ارتمى على ظهره ، يستريح فوق سرير صديقته ••

دقائق ، ودخلت « جينيت » غرفتها ، تقول ••

ـ أما كان في وسعكما الإشارة إليّ بأنكما قد وصلتما ؟ من حسن حظي أني لمحتكما ، وأنا جالسة في المقهى ! وإلاّ لمكثتُ حتى الآن ، مع بقية الرفاق ، أنتظر وصولكما الى « المابيون » !

وارتمت الى جانب « مكسيم » ، على فراشها ، تلفه بذراعها ، وتداعب صدره المكشوف •• رأسها على كتفه ، يلامس خده •

برهة ، ثم تمددتْ ، وظهرها الى السرير •• فأصبحتْ في وضع موازٍ لوضع « مكسيم » •• رنَتْ إلي ، جانبا ، بطرف عينها ، وقالت ، وعلى ثغرها ابتسامة عذبة متحدية ، لم أعرفها من قبل ••

ـ ألا تستلقي معنا •• هنا ؟ أم أن « الكونت دوبروفانس » لا يعجبه هذا السرير المتواضع ؟

كنت أسترق النظر اليهما ، شبه مغمض العينين •• فأجبتها ، هامسا ، دون أن أفتح عيني ••

ـ أهذا عرض •• أم تحد ؟

ـ افهم كلامي على النحو الذي يرضيك ••

وأردفت ، في صوت هادىء ، خبيث ••

ـ تعال ! ان لفي استلقاء ثلاثة معاً ، في سرير واحد ، متعة كبيرة ! هل حقاً انك لا تعرفها ؟ عجيب ! ان طبقتك متخصصة في هذا النوع من الممارسات !

كان « مكسيم » مستغرقا ، في فترة راحة ، لا يبدو أنه يهتم لما تقول ••

تقدمتُ منهما ، مترددا ، ثم جلست على حـافة السرير ، أسمع طرقات قـلبي ••

وبدلا من أن أتمدد الى جانبهما •• نظرت الى ساعتي مرتبكاً ، وقلت ••

ـ إنها تقارب العاشرة •• أليس في ودّكما أن نأكل شيئاً ، قبل الذهاب الى « التابو » ؟

ماكدت أنهي كلامي، حتى فتح «باتريس» باب الغرفة ، وهمَّ بالدخول••

لم يكـن في وضعنا ، على ذاك السرير ، ما يثير ريبـة الناظر ، لكـن « باتريس » توقف فجأة لدى مشاهدتنا ، ورفع حاجبيه في دهشة وهلع ! ثم استدار خارجا ، وصفق الباب خلفـه !

تسمرتُ في مكاني ! ثم نظرت الى « جينيت » نظرة رجـاء ••

نهضَتْ مسرعة •• وخرجت لاحقة بـ « باتريس » ، وهي تقول ، على عجـلة ••

ـ •• قوما الى عشائكما ! ثم اتبعاني الى « التابو » •• سأتدبر أمري كي أقوده الى هنـاك !

* * *

ملهى « التابو » ، نفق ذو سقف على شكل قوس مكسورة ، بُني تحت أحد مباني الحي اللاتيني القديمة ، وظل مـدة عشرات السنين ، مستودعا ، لا تصلح برودته لغير حفظ النبيذ ، حتى تقرر استثماره ، بعد الحرب ، كملهى ليـلي للوجوديين ، ولم تكن بعد فكرة استغلال مثل هـذه الامكنة القديمة قـد طرأت على بال أحـد !

لو كنتُ أكتب عن « التابو » ، أثناء سنيّ مجده ، لرأيتُ فيه كعبـة الوجودية ، ولرأيت في الوجودية ، تلك •• محط أنظار الشباب ، ومحراب

ثورتهم الفكرية ، ثم أمل الفنانين ، والشعراء الجدد ، في الخروج من دائرة الرتابة والتقليدية ، التي كانت « باريس » تسعى الى الخلاص منها بعد الحرب ! أما اليوم ، وقد شاعت فكرة استغلال مثل هذا الكهف ، للتسلية الليلية •• حتى اكتظت بأمثاله باريس ، ومن بعدها ، معظم عواصم العالم ، فلم يعد لوصف « التابو » ، أول هذه الكهوف ، من معنى !

يحار المهندسون اليوم كيف يزيّنون مثل هذه الكهوف ، لاعطائها اللمسة العتيقة الأصيلة •• تراهم يقومون بنفس الاكتشافات ، يكررونها ، حتى صار الإنسان اذا دخل أحدها ، ظنّ نفسه ، في أحد أقبية القلاع القديمة •• أو في أحد « الصالونات » الحديثة الفخمة !

لعل سر « التابو » ، الذي لم يعرف كيف يقلده أحد ، كان في انعدام الزينة منه كليا ، لا في البساطة الساذجة •• ولا في الإكثار من الزينة المتكلفة ! ففي أيام « التابو » الاولى ، تركَتْ جدرانه الحجرية على ما عمّرها البناء ، وعلى طول طرفي تلك الجدران ، مُدّ صفان من المقاعد الخشبية البسيطة ، يقودان النظر الى نهاية الكهف الضيقة ، حيث رُفعت منصة متهالكة صغيرة ، كان يتناوب الوقوف عليها فنانون ، يقومون بأداء ما عندهم ، لا غرف خاصة لهم ، يتهيّؤون فيها قبل الخروج الى الجمهور ، كما هي العادة اليوم ، بل ، يخرجون من بين صفوف المتفرجين •• يتركون رفاقهم ، برهة تأدية أدوارهم ، ليعودوا الى الجلوس معهم ، بقية السهرة ، يشاهدون من يليهم من فنانين !

دخلنا « التابو » ، تلك الليلة ، نبحث في عتمته عن « جينيت » ، و « باتريس » ، واذا بهما مع بقية أفراد الشلة ، يومئون لنا أن نسرع الى حيث جلسوا ! كانوا قد بدؤوا شرب النبيذ ، يضحكون ، ويتسامرون ، إلا « باتريس » ، فقد جلس واجما •• يبتسم •• بين الفينة والأخرى •• يتفحص من حوله ، في صمت ، ثم يعود الى وجومه ••

همست « جينيت » في أذن « مكسيم » ••

ــ •• انه على هذه الحال منذ الصباح ، منذ أن ذهبت « آني » مع

« بيبيتا » ! وتتلد بحث « جـون » عنهما •• فلم يجـد لهما من أثر ؟

ــ •• وهل علق على ما شاهده من وضعنا في غرفتك ؟

ــ •• لا ! لكن وجومه زاد حين وصلنا هنا •• ولم يجـد « آني » ! لا أحـد ، حتى هنا ، يعرف أين اختفت « بيبيتا » !

أُخفيء النور الكاشف •• وخرج أحد الشبان الى المنصة ••

أنزل قبعة « البيريه » عن شعره الأشعث ، بكلتا يديه ، فتساقطت خصلات على جبينه المتصبب •• رفعها بأصابعه عن عينيه ، وقال ••

ــ سألقي عليكم •• شعرا •• عن الحب ••

وتكلم عن الموت ، والحرب ، والنار ، والدم !

كان الجمهور ينظر اليه متعاطفا ، مشفقا على ارتباكه ، وما ند عن جبينه من عرق •• فما أنهى « قصيدته » حتى علا التصفيق ••

هز الشاب رأسه ، متأسفا لحماسة الجمهور ، وقال ••

ــ •• كنت على وشك أن ألقي عليكم قصيدة أخرى ! أما الآن ، فلا ! لو أنكم فهمتم •• قصيدتي الأولى •• لبكيتم ، ولما صفقتم !

ونزل عن المنصة •• وعاد الى مائدته متأثرا ، حـزينا •• فعلا تصفيق الجمهور ، أكثر من المرة الأولى !!

وتتالى العرض •• يتخلله غناء ، وإيماء ، وهزل ، ومأساة •• ولا من « بيبيتا » ، التي جئنا نسمع غناءها !

رحت أبحث عنها بين الحاضرين ، بعيني ، آملا أن تكون قد وصلت •• فلم أجدها •• عدنا الى العرض ، ثم الى البحث من جديد ! يفتش كل منـا بدوره عنها ، يود ألا ينتبه الآخرون الى ما يساوره من قلق •• دون جدوى •• حتى جاء صاحب « التابو » نفسه •• يبدي قلقه لغيابها ، ويسائل « جينيت » عنهـا ••

أجابت هـذه ، دون اكتراث ••

ــ •• « بيبيتا » ؟ لم أرها منـــذ الظهيرة !

ــ لكن دورها قــد اقترب ! ان عليهــا أن تغني قبل « جولييت » كما تعلمون ! والا بدا للجمهور أنها تتقــدم عليها في المكانة !

وأردف في خبث ، طغى على قلقــه ••

ــ •• وهذا ما لا تقبله صديقتكم ، « ملكة النحل » الشهيرة !!

ونظر الى حيث كانت تجلس ، « جولييت كريكو » ، في زيها الأسود الشهير ، شعرها يتهدل على جبينها وكتفيها ! يحيط بهــا عدد من الشبان ، في مثل سنها •• يحاولون الظهور على مثل مستواها الفني ، لا سلاح لهــم في ذلك سوى مظهرهم الغريب ، ونظراتهم ، وحركاتهم المبتكرة !

وتتابع العرض ••

غنى عــدد من الفتيات ، بمصاحبة ثلاثة عازفين ، كانوا يجلسون قرب المنصة ، أغانيَ من القرون الوسطى ، أثار صفاء كلماتها وألحانها ، في نفوسنا ، حنينا حزينا ، الى حب لا نعرفه اليوم !

ثم قــام من أدّى مقــاطع من مسرحية « هملت » •• ألقى فيهــا دور « اوفيليا » •• في طريقــة مذهــلة •• واذا بحبيبة « هملت » ، التقليدية ، العفيفة ، التي يعرفها الجميع ، تختفي ، لتظهر مكانهــا « أوفيليا » أخرى ، شبقة ، يحرّقها صــدود « هملت » عن سريرها ، حتى أودى ذلك بهــا الى الجنون والانتحار •• كل ذلك ، دون أن يحيد الممثل قيد حرف واحــد عن النص الأصــلي !

قام زميل « لمارسيل مارسو » بدور إيحائي ، يرسم فيه على الهــواء ، لوحــات ، أدهشنا اننا كنا نتتبّع مهارة رسمه لها ! نكتشف أصحابها مــن الفنانين ، بأنفسنا •• فنصيح إعجابا ، تارة ، لـ « ليوناردو » •• وتــارة ، لـ « غوغان » ، « فان غوخ » •• « كندنسكي » •• أو « بيكاسو » •• حتى جــاء دور « بيبيتا » ، فلم يبد لهــا ، ولا لـ « آني » من أثر ، فتوقف العرض بانتظار معجزة تعود بهــا فجــأة !

جاءت الثانية عشرة والنصف •• والواحـــدة •• والواحدة والنصف ، وما من إنسان يعرف أين اختفت نجمة السهرة الثانية •• أو يرشد عنها !

وقف صاحب الكهف ، يعلن أسفه لتغيّبها •• يكاد يقدّم « نجمة الحي اللاتيني الأولى » •• « جولييت كريكو » ، فانتصب « باتريس » واقفـا ! وصاح أمـام الجميع !

ــ لا •• لا •• أرجوكم !

بدا ثملا •• لكنه تقدّم من المنصّة في ثبات ، شاقّاً طريقه عبر المقاعـد المتراصة •• ليقف أمـام صاحب الكهف ، تحت الاضواء ، ويقول ، وهـو يرتعد ارتباكا ، في لهجة ، حاول أن تبدو مسرحية ، هادئة ••

ــ سيداتي ، سادتي ••

ثم انحنى الى الامام ، ذراعاه الى الوراء ، يمثّل دور من يرفع قبعـة وهمية ، ويلفها في الهواء ، كما كان يفعل أهلُ القرون الخالية •

قال •• ينشد ابتسامة على وجهه ، وجبينه يتفصد عرقا ••

ــ •• لماذا لا تحل الضحية هذه الليلة •• محـل الجلاد ؟!

أدرك ، من في الكهف، أن أمرا غريبا يجري على المنصة ! فشد انتباههم•• أطبق الصمت على الجميع !

وقف صاحب الكهف ، متعجبا •• ثم فتـح فـاه ليقول شيئا •• واذا بـ « مكسيم » •• يسبقه ، فيصيح ••

ــ برافو ! « باتريس » ! نود مشاهدة دور الضحية !

وصفق بكفّيه مدويا ، مومئا الى « جولييت كريكو » •• بأن تحـذو حذوه •• فتشـكت اعتراض صاحب الكهف ••

صفقت هــذه •• وصاحت ••

ــ لم لا ؟ لقد سئمنا الأدوار المدروسة•• أعطنا ما في قلبك ! «باتريس» ! ابتكـر !

وإذا بجميع من في القاعة يشتركون في التصفيق ، متحمّسين لهذا التحدي المفاجىء •• ملؤهم العجب ، وكأنهم قد انتهوا من مشاهدة عرض ناجح ، لا كأنهم مقبلون عليه !

أمسكت قلبي بيدي !

كان « باتريس » قد طلب من الموسيقيين عزف مقطوعة إسبانية معروفة•• فأغرقني الخوف عليه من الارتباك في حرج ، واضطربت وتوثبت ، وسمعت ضربات قلبي تدوّي في رأسي ، فيعلو صداها على صوت الموسيقى •• الى أن هدأت المقدمة الموسيقية •• وإذا بـ « باتريس » الحيي ّ، « باتريس » الحائر ، المتردد ، يتمتم الكلمات الأولى لقصيدة « لوركا » الشهيرة •• رثاء « اغناسيوساناشيز » التي كتبها ، إثر موت صديقه المصارع في حلبة الثيران ••

ــ •• « في الخامسة من بعد الظهر » ••

وسرعان ما علت نبرته •• وانتظم صوته ••

وراح يصف في تلك القصيدة مقتل الصديق الحبيب ، مصارع الثيران ، يلقيها بصوت عميق متين •• يعيد المقاطع مرة ، بعد مرة ، يتهدج صوته ، إذا ما وصف الدم الحبيب ، تشربه الرمال •• وتحرقه شمس مدريد المحرقة !

ظننت أن في الأمر حيلة ! توهمت أن « باتريس » قد تمرّن على أداء تلك القصيدة ، لا انه يرتجلها الآن ! كدت أشك في عفوية كل ما جرى أمامي ! حتى وصل صديقي ، في أدائه ، الى حيث كتب « لوركا » ، في نهاية المقطع ، صيحة« آي »•• مديدة ، وكان قارؤو الشعر يلقونها في لهجة متناغمة طويلة•• يحارون كيف يقلّدون الـ « آي » الموسيقية المأساوية التي تتردد في الغناء الإسباني ، الملقب بالـ « فلامنكو » ••

فما إن وصل صديقي الى تلك الـ « آي » •• حتى أطلقها صرخة أليمة ، مروعة ! ممسكا رأسه بيديه ، يهزّه في عنف ! يترنح جسده •• حتى كاد يسقط على الأرض !!

أوقف الموسيقيون عزفهم دهشة لما سمعوا ورأوا !

لحظات •• وتمالك « باتريس » نفسه ، بعدها ، بصمت ، ثم أومأ إليهم بأن يتابعوا العزف •• وبدأ المقطع الثاني ، ثم الثالث •• وفي نهاية كل مقطع من هذه المقاطع ، كان يعيد صرخة الـ « آي » •• وكأنها تتدفق دما من فمه ! حتى أكمل المقطع الأخير •• فما كاد يصرخ الـ « آي » حتى تهدج صوته بأسى حقيقي •• وسالت الدموع غزيرة من عينيه !!

* * *

الفصل السّادس

حبيبتي هدباء ..

أبثك ما بي ، وأنا لا أدري ما اذا كنت أود فعلا أن تقرأيني !

ما إن أجلس اليك حتى تنتابني أحاسيس أود لو أتركها طليقة ، غير مكبّلة بقيود الكلام ! أحاسيس اذا تداعت ، تطورت ونفرت ، فكيف ألحق بها وأعتقلها ، وكيف أتصيدها من آفاق النفس ، وأسجنها في سراديب اللغة !

كيف أحدّثك عما يجتاح نفسي من « أعاصير » .. وهل الحديث إلا كلمات ؟ وما الكلمات إلا أطر واهية ، هيهات ، أن تقوى على الاحاطة بالنسمات منها !! ثم ، هل تنسين أنها أطر عربية ، أبدعتها الشمس ، وصاغها سعير الرمال ؟!

ماذا تعرف الصحراء عن سحر الضباب الذي يلفّني اليوم في باريس ؟ وكيف أحدّث نور الشرق الساطع عن خفايا درجات الظلال الرمادية ؟! أو أقلّب معك اليقين .. والمطلق ، عندي ، غاب في نفسي ، بات تابعا لدرجات وضوح الرؤى ؟!

إن تقرئي كلماتي هذه ، يوما ، فتحت زرقة سماء بلادنا الصافية ، أو مختبئة من رذاذ سحابة تائهة ، عابرة ! كيف أحدّثك عن هواجس عالم قد يعيش شهورا لا يرى الشمس فيها ! أو أسابيع ، متواصلة ، تحت رذاذ دائم !!

هدباء ،

النور هنا ، زرقة رمادية ، باهتة •• ويقين الشرق ، وشمسها ، ليسا سوى إحدى وجهات اليقين ؟!

هدباء •• هدباء !

أكاد أشدّك معي في رحلة مجهدة •• أكاد أغوص بك في أغوار لا شأن لك بها •• لكني بتّ موقناً أنك لن تقرئي هذه الرسالة •• فلا بأس عندي في أن أسامر طيفك ، وهو كل ما تبقّى لي من ربيع عاطفة لم أعد أدري كيف تبددت ، وغدوت عاجزا عن التشبّث برمالها !

من الذي يسطّر لك هذه الرسالة ، في هذه اللحظة ؟ ولو قدّر لك أن تقرئيها ، في يوم من الأيام •• فماذا ستفهمين منها ؟! رسالتي هذه ، ورقة بيضاء أمامك •• عليها خطوط سوداء ، متشابكة ، ملتوية •• « كلمات » •• رموز واهنة •• ترمي الى حصر ما لا حصر له من هواجس وآمال ! رموز لانفعالات تسابق آفاقا ، لا سبيل الى حصرها ، تجمع الكون ، وما فيه ، في رعشة !

هذا في كفة •• وفي الكفة الثانية سؤال ، أبعد من ذلك ، وأدهى !

من الذي يسطّر لك هذه الرسالة ؟ من الذي يصوغ هذه الرموز وينحت الكلمات ؟ أنا ؟ من هو هذا « الأنا » ؟ في أي « مرحلة » أقع ، في هذه اللحظة ، من « مدى » نفسي ؟

وهذا « الأنا » الذي يكلمك في هذه اللحظة •• أهو ما « أبحث » عنه في نفسي ؟ أهو مصدر الينبوع ؟ أولى قطرات مائه الشفافة ؟ أهو « أصل » ما يمكن أن ألقّبه بالأنا الاولى ، بلا زيف ؟ أم هو سيل الأنا ، بما يجره كل سيلٍ ، من رواسب وحصى ؟!

لا ريب في أنها مشكلة كل من تكلم ، ومعضلة كل من حاول الإيضاح عن مشاعره بالكلمات !

لكن ما تجهلينه ، حبي ، هو أن لصيغة الكلام ، من التأثير على ماهيّة

الشعور ، ما للشعور ، من قدرة على خلق الكلام ! ولغتنا ، هدباء ، لا تسمح سوى بالتعبير عما « فوق الأنا » ! لا تعرف سوى وصف الصور العليا التي لنا عن أنفسنا !

ان علم تركيب اللغة عندنا يشمل عالماً فسيحاً من الأطر الفوقية ، أطر لا تقبل ، بل لا تصلح لأن تحيط بغير صور فوقية .. لا تقبل ، غيرها ، من مدى لذاتها !

لماذا أحدثك عن هذه الأمور ؟ ألكي أثقل رأسك بحديث قد يبدو لبعض الناس بعيدا عن الحياة اليومية ؟

ما إن بدأت أسطر لك هذه الرسالة ، وقد مضى وقت طويل على مزاولتي للعربية ، حتى شعرت بثقل مُرْزِحٍ ، ما كنت أتصور أنه جاثم على كتفي منذ أن تعلمت الكلام والكتابة !

تسألين ، أي رزح ؟

إنه رزح عجزي عن التحدث إليك ، في البساطة ، والطلاقة ، التي أحدّث به رفاقي ، ومَن حولي من أناس في باريس ؟ أقول ، التحدث ، ولست أعني ، الكتابة !

ان التحدث أمر ، والكتابة أمر آخر !

ألستُ أكلّمك بالعامية ، حين ألقاك ؟ وأكتب لك الآن بالفصحى ؟ إني أعيش ، في باريس ، جنة لن تعرفيها في يوم من الأيام ! ولن يعرفها عالمنا العربي ، قبل مئات السنين ! إنها نعمة من يستطيع أن يكلّم جاره ، باللغة نفسها التي يسمع بها محاضرة فلسفية ، في « السوربون » ! إنها « أعجوبة » أن يطلب الجالس في المطعم ، طعامه ، من النُدُل ، بنفس اللغة التي يسمع بها رئيس جمهورية بلاده ، يلقي خطابا على المذياع ! إنها معجزة .. أن يحدّث الفتى فتاته ، باللغة التي يبادلها بها الحب ، فيستعمل ، في السرير ، دون تكلّف، المفردات التي يتداولها الأدباء والشعراء ، في أرقى أعمالهم !

ها أنا ذا أكتب اليك ، بلغةٍ ما تحدثنا بهـا قط ! إنه « فوق الأنا » ،

عندي ، يحدث « فوق الأنا » ، عندك ! أجمع للوصول اليك ، أطرا غريبة عن حياتي اليومية ! هي أفكاري نفسها ، لا تتبدّى ، في العربية ، إلا من خلال هذه الأطر ذاتها !

أتدرين أني أضحك أحيانا عليها ، وهي تتوضح في ذهني ؟! كأنها ألبسة « كرنفال » •• لحفلة تنكرية •• أمتعة « دون كيشوت » ! وليس لي غيرها من وسيلة للكتابة ! فيصبح لزاما عليَّ ، كلما أردت الظهور أمامك ، ألا أبدو متدثرا غيرها !! يا لي من « دون كيشوت » بائس !

هدباء ،

ما إن أشرع في الكتابة إليك ، حتى أراني ، في قطار ، يبتعد مسرعا عنك ! أعجز عن الكلام باللغة التي تفكرين بها •• فيزداد البون بيننا بعداً •• كأن قدرا ساخرا محتوماً قضى علينا بالتنافر ! وإلا ، فلماذا أجدني أقرب في التعبير والفهم ، الى أناس غرباء عني ؟ افرنسيين ، لا أعرفهم •• فاذا احتدم النقاش ، حتى ولو اختلفنا ، أجدهم أسرع الى فهمي منك••أنت التي أحببت ، ولا زلت أحب !

ها قد ألفت هنا الكتابة بالبساطة التي أحدّث بها من حولي من افرنسيين •• فما إن أعود الى العربية ، حتى أراني أبحث ذات اليمين ، وذات اليسار ، عن مفردات ، فاذا ظفرت بها ، نفضت غبار عشرات السنين عن بعضها !

قد أعثر ، في بحثي هذا ، على تحف يهون التعب للوصول اليها ! وبعد استخدامها ، ماذا يحل بها ؟ تغوص في عالم النسيان •• تنتظر أن أمسك بالقلم مرة أخرى ، علّني أحتاج اليها !

عالم التعبير ، عندنا ، مرتبط بمتحف الفصحى •• صرح أثريّ كبير ، لا حاجة يومية لنا به •• متحف ، تتلكأ أمام أبوابه ، خاشعين ، وكأنه من دون التمتع بأرجائه ، ببطاقة باهظة الثمن ! فيتعثر المعنى في نفوسنا ، وقد يختنق ، أو يهرم ويفنى ، قبل أن تَفتح له الأبواب •• قبل أن تسنح له فرصة تنشّق الهواء •• وكيف له أن يظهر وينطلق ، في غير رسالة ، أو مقال ، أو كتاب ؟!

أما هنا .. فالكلام والفكر وحدة رقراقة ، في متناول الجميع ! ليس عند الافرنسي ما نعرفه نحن من انفصام بين ما يكتبه ، وما يقال .. فهو يكتب ما يتكلم .. مفردات ، جلاها التداول ، فغدت مشرقة ساطعة ، واضحة ..

أنا لا أقول إن الجميع هنا على مستوى واحد من البلاغة ، أو المقدرة على التعبير ! فهنا ، كما في العالم أجمع ، لغة صالونات ، ولغة رعاع .. لغة للعمال ، ولغة للبورجوازيين ! لغة للسياسيين .. وأخرى للبوهيميين ! لكن بين هـذه العوالم تفاوت في الغنى والصياغة ، وليس في النوع ! فـوارق في مدى تمكن الفرد من لغته ، وليس في مدى رحابة الحيز اللغوي ذاته ، ومقدرته على سد حاجاته اليومية والذهنية ..

لن أشرح لك أكثر من ذلك .. ليتك تدخلين معي ذات ليلة مقهى الـ « مابيون » الذي ألفت ارتياده .. تجلسين الى جانبي في احدى زواياه .. ألفّك بذراعي ، كما لم أفعل يوما في دمشق .. فتسندين رأسك الى كتفي ، ونغيب في صمت واع ، ننظر الى مَن حولنا ، ونترقب وصول الاصدقاء !

عليك بالإصغاء لما يدور حولك ، كي تدركي في لحظة معنى ما ذكرت .

أليس جميلا أن يُسمع أي حوار ، بين أي متسامرين بسيطين ، بلغة « سارتر » ؟ أتنصتين الى هـذا البوهيمي الأشعث الشعر ؟ أليس حديثه صفحات من « كامو » ؟! وغزله ، مقاطع من « بودلير » ؟

هل أتعبك حديثي ؟ لا بأس ! عذركِ هدباء ، إن كررت ، أو أطلت ! لعلي أُجري في هذه الرسالة حوارا داخليا ، يُظهر مني تناقضات أحاول أن أمحو آثارها من نفسي !

ان « الحب » ، في فرنسا ، أمر يمارس في الفراش .. فلئن دعا الفتى ، فتاته ، الى « ممارسة الحب » .. فهو يدعوها الى ممارسة الجنس ، أمر يحبه ويفخر بالقيام به ، « يمارس الحب » ، أي الجنس ، وفي الوقت ذاته ، يقول « أحبك » ويعني بذلك العاطفة .. ان الأمرين عنده متداخلان .. وهما في نفسه على مرتبة أخلاقية واحدة !

لكم يحزنني أن أرى البعد يزداد بيننا ، كلما طال الحوار !
لماذا حرمتني قبلة ، كم كنت تواقاً اليها قبل سفري !

لماذا يجلس أي فتى ، الى فتاته ، في باريس •• يقبّلها ، ولا يحمر وجهها خجلاً مما تفعل •• ولا يعيرهم أحد أي التفات ؟ أما آن الوقت كي نضيف الى حساباتنا ، علاوة على ما نعلمه عن جذور القيود في مجتمعنا ، أن القبلة هنا تظل « قبلة » ، اذا ما طُبقت في الشارع ، وفي بلادنا ، تصبح « القبلة » المحترمة « بوسة » في الشارع ، أي ، تسمية لأمر سوقيّ مبتذل !! فتخجل الفتاة من « اقترافه » أمام الناس !

ثم هناك « قبلة طاهرة » ، هذا أمر مسلّم به ، لأنها في عالم الفصحى طبعا ! أما في عالم العامية ، أي عالم التطبيق ، فهل من « بوسة » « طاهرة » ؟!

هل من انسان في بلادنا ، لا يزاول الجنس ؟ فلماذا تتستر عليه بهذا الشكل الجبان ؟ لماذا نخجل من حاسة طبيعية ، كأنها برص ، لا نجرؤ على التحدث عنه ؟ مَن الذي وضع على رقابنا هذا النير ؟ ولماذا نتابع النوء به ؟!
أليس تراثنا خلواً من هذه القيود ؟!

لكم قلتِ لي فيما مضى ، « انما هو مجتمعنا •• انها بيئتنا •• وتربيتنا »••الخ• كأن كلمة « مجتمع » و « بيئة » آلهة ، تخافين ، إن عصيتها ، أن تطبق عليك فتوردك الموت !
أما عندنا •• فالويل لنا مما عندنا !!

نحن نعرّف الحب على أنه ميدان العواطف •• أما « ممارسة الحب » •• فهو تعبير مترجم ، قد يعني ممارسة الجنس ، في عالم الفصحى •• ولو جئنا الى الواقع •• لو عدنا الى عالم التعابير العامية ، الذي نعيش في كنفه ، فهل من جملة صريحة ، عامية ، أستطيع أن أدعوك بها الى ممارسة الجنس ، دون أن تتمنّي لو تصفعينني على وجهي ، لدى سماع مفرداتها ؟! هل من صيغة عامية أستطيع أن أتفوه بها ، وأنا أدعوك الى ممارسة الجنس ، دون أن تشعري أني أنتقص من احترامك ؟

أفليس في كل هذا ما يدعو الى العجب ؟

أما آن بعد وقت التغيير ؟ اذا تحدثنا عن العلم أو الثقافة ، سارعتِ الى القول ، في بساطة .. « اننا أبناء مجتمع متخلف » ، « علينـا التصبّر عليه ، ومحاولة النهوض به » .. وكأنك بهذا القول ، تتميزين ، تترفعين ، على هذا التخلف ! كيف لا تدركين أن التخلف ليس مرضا يصيب عضوا واحدا من أعضاء المجتمع ، يصيب « أحد فعالياته » ، ويعفو عن الأخرى !

ان التخلف وضع شامل عام .. « سن حضارية » ، لا يمكن للمجتمع فيها أن يجمع عـدة أعمار ! كيف تفهمين التخلف ، وتتسامين عليه ؟ أليس بوساطة فهمك وفكرك المتخلفين ؟!

تعترفين أنك من بيئة متخلفة ، اذا ما احتدم النقاش بيننا حـول أي موضوع .. أما آن لك أن تدركي أن « أخلاق » .. « تربية » .. « بيئة » .. كلمات جوفاء عندنا ، تتستر على واقع أخلاقي وتربوي متخلف ؟

أما آن لك ، أيتها المتحررة ، أن تضربي بكل هذا عرض الحائط ؟!

لا ، ليس هدفي أن أذكرك بأنك جزء من مجتمعك المتخلف ، وأن ليس في وسعك أن تثوري عليه ، إلا بقدر ما يسمح لك تخلفك نفسه !

هدباء ،

لم تكوني قادرة على هجر المستنقع الذي عشت فيه .. فآثرت أن تبقي طافية فوقـه .. وحصّنت نفسك بمفاهيم ومعتقدات ، تظنين أنك قد اخترت الأفضل منهـا !!

كأني بك في فلك بناه نوح شرقي .. حمّل فيه من معتقدات تاريخنا ، ومن مبادئنا المتوارثة ، أزواجا ! أزواجا !

أما أنا .. فكأني ، في هذه الرسالة ، « يام » بن نوح ، المنسي ! ابنه الذي رفض ارتقاء الفلك .. رفض النجاة ، على فلك أبيه .. ورفض أن يحمل من الماضي « أزواجا .. يتزود منها » ، للمستقبل !

ثم ، ها أنا ذا أعدو بعيدا ، بعيدا ، هربا من الطوفان ! هربا من فلك أبي ! أعدو على غير هدى ! وأحدثك عما يمزق قدمي العاريتين ، وأنا أطأ هذه الصخور !!

أتراني أبحث عن غير فلك أبي ، فلك الشرق ، سبيلا للنجاة ؟!

أتراني ما قصدت الغرب ، إلا سعيا وراء فلك غـربي ؟!

لئن كان هذا هو هدفي .. فويل لي !! ماذا لو أدركني اليم والطوفان ، قبل أن أهتدي لما أبحث عنه ؟!

لئن أقبل الطوفان .. فهل ينقذني ، ما أقف عـليه الآن ، من رفض ، وصخور ؟!

وداعا .. هدباء .. هل سأكتب لكِ بعد اليوم ؟

فراس

* * *

الفصل السابع

كان « غونثر » معتدل القامة ، رياضي الجسم ، لا يرتدي سوى القديم ، المستهلك ، من ثيابه ..

ظل يتعمّد نمطا خاصا من اللامبالاة ، في مظهره الخارجي ، وتصرفاته ، حتى بات العبث ، طبيعة ثانية له ، يطفو فوق كل ما يقول أو يفعل ، فيخفي بذلك عمقا ، يتبدّى ، أو يغيب عن الناظرين ، كل ، حسب درجات قربه أو بعده منه .. فلا شعره الأشعث الذهبي . كان ينقص من وسامة داخلية تند ّ عن تقاطيع وجهه المقطبة .. ولا تطرّفه ، أو تهوره ، كانا ينطليان على المحبّ له ، المتفحص لطباعه .. فاذا بادل انسانا المودة والألفة ، أدرك صديقه ، بعد حين ، أن « غونثر » ، انما يعاني من علة دفينة في نفسه ، تناقض" في طفولته ، تضارب" في ثقافته ، أو سبب قد لا يعرفه هو .. ولا يدركه ، أنه يشكو منه !

كان « جون » ، أطول قامة من زميله « غونثر » ، وأصلب عودا .. أسود الشعر ، منتظم تقاطيع الوجه ، تبدي صلابة فكّه الاسفل ، قوة شكيمة ، قلما يحتاج للجوء اليها .. له من دماثة خلقه ، وابتسامته الدائمة ، ما يفصم أي خلاف مع الآخرين ، ينصاعون اليه ، أو يجاريهم ، في بساطة ، دونما حاجة الى نزاع ، أو قراع ..

ليس من عادة سكان الحي اللاتيني الاهتمام بخلفية من يرتاده من فنانين أو زائرين..ولم تكن تلك بدعة وجودية ، أو عدم اكتراث متعمّد بالآخرين.. بل واقعاً ، تعوده الجميع ، يرجع سببه لانصراف الطلاب الى مشاغلهم ،

والفنانين الى هدفهم ، وكسب رزقهم •• يندر لاثنين أن يجتمعا على خلفية واحدة ، فبات من البديهي أن لكل من سكان الحي ، جذورا وماضياً ، لا علاقة لغيره به ، ولا وقت لدى الآخرين للاهتمام بتفاصيله •

ورغم ذلك ، كان لا بد للاصدقاء ، من وقت الى آخر ، من ملاحظة أو سؤال عابر •• يكشف أن لكل منهم ، رواسب ، قد تفسر ما يجري بينهم من منازعات خفية ، أو تناقضات ، فيدركون ، كومض عابر ، أن واقعهم الحالي ، أن الحياة في الحي اللاتيني ، على تكامل عناصرها ، ليست بداية الكون •• ولا يمكن أن تدوم الى الأبد !

كان لقرب انتهاء الحرب •• ما يذكّر الكثيرين بأنه ما من شاب الماني ، في باريس إلا من أهلٍ ، نازيين ، أو على علاقة بهم ! وأنه ما من أمريكي ، إلا من أهلٍ ، حاربوا هؤلاء ، أو هم أقرباء لمن حاربوهم ! لذلك ، كان في زمالة « جون » و « غونثر » ، ما يدعو ، من وقت الى آخر ، لتظهير علاقة الامريكيين بالالمان ، ولربط هذه الصداقة ، بما يجمع المنتصر ، والمهزوم •• ولإثارة النقاش ، والتساؤلات أحيانا ، حول ما اذا كان لنزق وعبث « غونثر » ، الدائمين ، علاقة بشعوره الخفيّ بالهزيمة ، ومن ثم ، ما اذا كانت ابتسامة « جون » الدائمة ، وصبره على نزوات صديقه ، مرجعها ، ثقة ، أضفتها عليه نتيجة الحرب !

كانا دائمي الحركة ، كثيري التنقل •• يتبادلان الفتيات ، أو يشتركان على واحدة منهن •• قلّما يعجب أحدهما بفتاة ، حتى يعجب بها الآخر ! أو تسقط من دائرة أحدهما ، حتى يتبرم بها الآخر ! فلما اقترب موعد حفل « النبيذ الأحمر » في معهد الفنون •• وكانا قد سمعا عما اشتهر به ذلك الحفل من صخب ومجون ، باتا باديي الترقب ، والتلهف •• يحلمان بالحفل ، ولا يلذ لهما سوى التحدث عما يقومان به مع « مكسيم » وبقية الزملاء ، من تحضيرٍ لأشخاص ، وتماثيل ، هائلة الحجم ، يعدّونها للمسيرة الشهيرة !

كان طلاب الفنون يصنعون تلك التماثيل من سائل الورق ، المغلي ، والمجبول

بالغراء ، ما إن يجف ، حتى يطلونه بالالوان الزاهية البراقة •• يضعون هذه الاشكال على عجلات ، أو على سيارت تسير عبر « الرودي‌سين » ، وأزقته الجانبية الملتوية •• يشربون ، ويهزجون ، يلتقطون من المارة ، من تودّ مصاحبتهم ، من فتيات لا يأبهن لما قد يأتيهن به الليل وهن في صحبة فنانين سكارى !

لم يتسن لي في الماضي مشاهدة ما يدور داخل قاعات المعهد ، بعد عودة المحتفلين من الشوارع ! كان ذلك محظورا على غير طلاب المعهد من الذكور ؛ أو على من ليس له ، من بين الطلاب ، من الأصدقاء من يمكنه التستّر على دخوله الحفل ••

كنت توّاقا ، أنا الآخر ، للمشاركة ، ولو لمرة واحدة ، في مثل هذه الاحتفالات ، رغم ما كنت قد سمعته عن احتمال وقوع حوادث الشغب فيها !

كنت أكتفي بملاحقة تلك المشاهد من بعيد •• مئات الشبان ، في يد كل منهم ، زجاجة من النبيذ ، يشرب واحدهم بيد ، ويلوّح بالأخرى للسماء •• يرددون أغاني الشراب والعبث والمجون••يصيحون ، ويضحكون ، ويطربون ! أحسدهم جرأتهم ، ومجونهم ! وأتعجب !! الفتيات ، ينتظرن وصولهم •• يصعدن معهم ، في سياراتهم المكشوفة ، فينهالون عليهن بالتقبيل ، ويغرقون بالمداعبة المكشوفة والشراب !

فما إن حل ذلك اليوم المترقب •• حتى قررت مرافقة « مكسيم » ، الى موعد لقائه مع « غونثر » و « جون » ، ومن ثم ، الانخراط مع حشود الفنانين ••

وصلت قبل الموعد المحدد للقائنا •• وكنت قد تحسّبت لمظهري الخارجي ، فارتديت ملابس رثّة ، وحملت على كتفي ، كيسا أزرق اللون ، تعوّد الرسامون وضع حاجاتهم فيه ••

أحسست ، للمرة الأولى ، بمدى تأثير اللباس على تصرف الإنسان •• فما إن تركت سيارتي في أحد المنعطفات ، ووقفت بين المتفرجين ، أنتظر حضور

الموكب ، حتى شعرت أني واحد منهـم ، يخاطبني مَن حولي من الناس ، وأخاطب من لا أعرفهم ، في عفوية ، لم أعرفها في الماضي !

دقائق وبدا « مكسيم » الى جانبي .. فسألته ..

ـ ألن تأتي « جينيت » معنا ؟

ـ وهل جننت ؟ لا يأتي مثل هذا الحفل ، من الفتيات ، إلا المتشوّقات الى الرجال ، أو المتمرسات في فنون المصارعة ! والدفاع عن النفس !

وبدا الموكب من بعيد .. ثم اقتربت منا قافلة العربات المزركشة .

ضحكنا للتماثيل الغـريبة .. الأشكال المخيفـة .. للنكات المصورة اللاذعة .. وليس « غونثر » أو « جون » فوق أية عربة من هذه العربات .. الى أن صاح « مكسيم » ..

ـ ها هما !!

وأشار اليّ بأن أتبعه ، ثم اندفعنا نحوهما ..

لم أدرك للوهلة الاولى، معنى الشكل الذي كنت أتسلق جنبه المقوّس.. فما إن علوت ، مع صديقي ، فوق قبة قيادة السيارة المتخفية ، وبتّ الى جانب « غونثر » .. حتى نظرتُ الى الوراء ، فاذا أنا بالقرب من رأس تمثال امرأة هائلة الحجم ، طولها عشرون مترا ، على الأقل ، عارية ، مضطجعة على ظهرها ، وساقاها مفتوحتان ، كأنهما تستقبلان السيارة التي تليها ! وعلى تلك ، تمثال آخر ، هائل الطول ، لعضو الذكر ، مشرّع نحو الأمام ، وعلى جانبيه وقف الطلاب يشربون ، ويرشونه بالنبيذ ، ويرشقونه بأوراق الأزهار ، كأنهم في احتفال وثني من « كارمينا بورانا » !!

لا سبيل للانسان للوقوف موقف المتفرج ، في مثل هذه الأجواء ! شعرت منذ أن تسلقت قبة قيادة تلـك السيارة ، أنني أمام أحد اختيارين .. فإما أن أقفز عائدا الى الارض ، هاربا منها .. وإما أن أنساق مع تيارها الجارف ، كبقية المحتفلين !

وسرعان ما وجدت نفسي ، أشارك « غونثر » الشـراب •• نضحك ، ونطلق ما نبتكره من شعارات •• نصيح للفتيات على جانبي الطريق ، نغرف ، مما اشتبك أمامنا ، من قصاصات الأوراق الملونة ، نلقي بها على رؤوس المارة ، جذلين بما نفعل •• نذوقها لذة ، ما حلمنا بها قط !

طاف الموكب بجميع شوارع الحي اللاتيني ••

كنّا عدة مئات من الشباب ، مع رفيقات لنا •• التقطنا في طوافنا ما يربو على الخمسين فتاة ، فبات عدد الفتيات يقارب عدد الشبان •• وفي النهاية ، عدنا أدراجنا ، نحو المعهد ، فتوقفت السيارات أمـام باب سوره الخارجي العريض ، ونُقلت الأشخاص والتماثيل الورقية الى فنائه الواسع ، فجُمعت في وسطه ، في شكل هرمي هائل ، وأضرمت فيها نار" ، ما لبثت أن علت ، عشرات الامتار ، فوق مستوى الأبنيـة المحيطة بالمعهد ، فاحتشد حولهـا المحتفلون ، والزوار ، بعد أن أتوا على مؤونة كبيرة من النبيذ كانت قـد هُيّئت ، وتركت في أحد أركان الفناء •• ومن الركن الآخر ، تعالت موسيقى « الجاز » من آلات فرقة ، كانت بانتظار النار ، لتصدح بايقاعها الموتور •• وأنغامها الشبقة السوداء ••

لم يحدث في تلك الليلة من عذر لإثارة الشغب ••

فلا فتاة خرقاء ، تعجبت لأنها وجدت نفسها فجأة بين ذراعي شاب ثمل ، ثم فاجأها أنه يعريها من الثياب !

ولا رجل ٌ ، على درجة من الغباء ، بحيث اصطحب زوجته الى مثل هذا الحفل ، ففاجأه أن يعرّيها الشباب •• ولا من يحول دون مضاجعتهم لها !

أغلق باب السور المحيط بذلك الفناء الفسيح ، من الداخل •• وبينما تداعى أوار النار ، وخبا نورها •• تهالكت الأجساد النشاوى •• وغابت في عناق طويل •• فاذا احتدمت فيها الشهوة ، قامت أزواجا ، أو أكثر ، تختلي في القاعات المتناثرة •• فما إن حلّت أولى ساعات الصباح ، حتى لم يبق في

ذلك الفناء إلا آلات موسيقية ، وحيدة ، جاثية في ركنه •• وفي وسطه ، بقايا ما خبا من نار ، في بقعة رماد كبيرة ، تذويها الرياح !

* * *

أحسّ « غونثر » بألم في ركبتيه •• نهض عن الفتاة التي كانت برفقته وهمس بتثاقل ••

ــ عاد المكان لا يناسب ما نحن فيه !

كان « جون » مضطجعا على الأرض ، نصف عارٍ ، حذو الفتاة ، يداعب ظهرها •• فقال موافقا ••

ــ لنذهب الى الشقة ••

كانا قد أبدلا شقتهما القديمة ، المحرمة على النساء ، بأخرى في الدور الخامس ، في بناء يطل على حديقة « اللكسمبورغ » ••

قالت الفتاة ، وهي تنهض ، وتجمع ما تبعثر من شعرها ، في عقدة خلف رأسهـا ••

ــ هل أستطيع قضاء الليل عندكما ؟

نظرا الى وجهها ، وما كانا قد تمعنا بعد في تقاطيعه ••

كانت على صباها ، تكبرهما بأعوام •• بدت كمن قطعت صلاتها بأهلها منـذ زمن بعيد •• فقال « جون » ••

ــ •• ليلة واحدة ، لا أكثر !

كان النبيذ قد نال من ثلاثتهم ••

قطّبت الفتاة •• وتمتمت ••

ــ •• تخطئان الظن بي !

ثم أردفت بازدراء ••

ــ حسنا •• انذهب !

* * *

دخلوا الشقة مترنحين •• شدّها ، كل منهما ، الى غرفة نومـه ، يريدها لنفسه •• فتملّصت من « جون » ؛ وهي تبتسم له •• وتهاوت وراء « غونثر » على سريره •• فتركها « جون » ، وتابع سيره المتثاقل نحو غرفة نومه •• واستلقى على فراشه ••

سألها « غونثر » مغتبطا ، لانتقائها إياه ••

ــ •• أنت تفضلينني على « جون » أليس كذلك ؟ لماذا ؟

لم تجبه ، خلعت ثوبها وألقت به جانبا ، تودّ أن تستلقي على ظهرها •• فتلقّفها من شعرها ، دون عنف ظاهر ، وجذب رأسها نحو صدره !

ــ لم لا تجيبينني ؟

شد قبضته قليلا على شعرها ، يدفع رأسها الى أسفل ، نحـو ساقيه !! فتألمت ••

ــ لا •• أفضل زميلك !

هزأ منهـا ••

ــ تكذبين ! ولِمَ أتيتِ معي اذن ؟!

حاولت أن تتملّص منه ! أن ترفع رأسها ! لكنه شد قبضته وعلى فمه ابتسامة باردة •• فقالت ••

ــ أوه ! ليتني بقيت في المعهد !

ــ أجيبيني !

ــ أفضّل أن نكون ثلاثتنا معا ! هذا ما أفضله ! فهل هذا يرضيك ؟!

ــ أجيبي ! لِمَ تركته ، وجئت معي ؟!

ــ كي أنتهي منك بسرعة ! وأمضي بقية الليل معه !

« معه » !؟ ومضت في ذهنه صورة « جون » •• رآه في ذهنه مستلقيا على فراشه ، فاتحا ساقيه ، يشبك ذراعيه خلف رأسه ، ينظر الى السقف ، ويتصور مـا يجري في فراشه ، هـو ، مع الفتـاة •• وينتظر في صبر أن يأتيـه الدور !

لم تعتوره غيرة ما ، من صديقه ! بل كره الفتاة ، وأحس بعدائية طاغية نحوها ! ما شأن صديقه ، اذا كانت تلك البلهاء تفضله عليه ؟ إنه ذوقهـا المتـدنّي !

كانت قبضته ما تزال متمكنة من شعرها ، فعاد الى دفع رأسها بعنف ، نحو ساقيه ، وقال ..

ـ لننته اذن ! وبسرعة ! ما دمتِ في عجلة للعودة اليه !

أطاعته الفتاة صاغرة .. دقائق .. وهـدأ توتر جسده .. واسترخت عضلاته ..

تمتم في سـأم طاغ ..

ـ .. قومي اليه . .اليك عني !!

وأدار لها ظهره ، يكاد يدفعها عن السرير ، وأغمض جفونه .. مستسلما الى النـوم ..

* * *

أفاق بعد برهة ، لم يدر مداها .. فتنبه الى أصوات تنبعث من غرفة « جـون » ..

كم انقضى من الوقت ، وهو نائم ؟ انه صوت الفتاة .. ترى ما اسمها ؟ ظنها تتأوه .. ثم أدرك أنها تضحك .. سمع صوت « جون » العميق يأتيه خافتا من وراء الباب .. إنهما يتحادثان .. يا للغرابة ! ترى ، عمّ يحـدثها ؟ في تلك الساعة ؟!

فتح عينيه بامتعاض !

نور الممر الخافت ، يضيء بعض غرفته .. نظـر الى النافذة .. أنوار الشارع ما زالت مضاءة .. الساعة لمّا تتعد الرابعة صباحا !

عادت الأصوات .. سمع الفتاة تغرق ، بين ضحك وتأوه .. أثاره تأوهها من جـديد !!

نظر الى جسده العاري وراح يشدّ عضلات صدره الممتلئة ، ويتأملها •• ثم عضلات ساقيه •• ثم ذَكَره •• فأعجبه ما رأى !

•• ماذا أعجب تلك الحيوانة بـ « جون » •• وليس لصديقه نصف ما له هو ، من جميع ما رأى !

عادت التأوهات •• فاستوى من فراشه •• نزقا •• ثم قفز من السرير ، واقفا ، وتقدم من غرفة زميله ، يمشي على رؤوس أصابعه ، يسترق السمع !

أراد أن يفتح الباب لمشاركتهما ، كما كان يفعل في السابق •• لكنه تردد ، فغاظه أنه لم يقو على ذلك !

لماذا لا تودّ يده ادارة قفل الباب ؟ لماذا يتردد •• ويشعر بالمهانة فجأة ؟! ألأن تلك الحيوانة قالت إنها تود قضاء بقية الليل مع « جون » ؟ أيكفي قولها هذا ، لصده عنها ؟ ومنذ متى كان يعبأ بآراء الفتيات ؟ ألأنها بدَتْ له ثاقبة النظـــر ؟!

تعاظم حمقه فجأة ! واشرأبّ في نفسه كرهٌ لصديقه ، وللفتاة !!

أحس بالبرد يلسع جسده العاري •• فاستدار ، واتجــه نحو غرفــة المطبخ ، يغلق نافذتها ، فاذا هو يسمع باب غرفة « جون » يفتح ، والفتاة تخرج منها فهمّ بالدخول الى المطبخ ، متراجعاً في خطى سريعة ، واختبأ خلف الباب !

أضاءت الفتاة النور ، ودفعت بالباب تفتحه على مداه ، فغطى ذلك مكان « غونثر » ، وأحكم هذا التستر وراءه !

سمع الماء يجري ، فأدرك أنها قبالة الحوض ، ظهرها اليه ، لا تستطيع أن تراه •• فمدّ رأسه قليلا ، يرى ما تفعله ••

كانت عارية تماما •• رآها تغسل شيئا على الحوض •• تنهمك في ازالة الصابون عنه •• ثم ترفع ذراعيها ، وهي تلفه ، لتعصره •• فأثاره ما رآه من ظهرها العاري ومن ردفيها ، وهي إزاء الحوض ! أثاره انصرافها عنه •• وأن

هذه الأرداف ليست في السرير •• بل في غير مكانها •• أمام حوض ماء عادي ! وتدفقت في عروقه رغبة جارفة ما عرف مثلها من قبل !

استدارت الفتاة قليلا ، تتجه نحو النافذة المفتوحة ، لتنشر ما غسلته خارجها ، فأخفى رأسه ، واذا هي تفطن الى أنها عارية ، مكشوفة الصدر ، تقف أمام النافذة المفتوحة ، فعادت نحو مفتاح النور ، وأطفأته ••

ثوان ، مرت في الظلام ، ومدّ « غونثر » بعدها رأسه ثانية •• فرأى نور الممر الباهت لا يسقط سوى على عجزها الأبيض المتراجع ، بينما مدت رأسها ، وذراعيها ، خارج النافذة ، تبحث في الظلام عن وسيلة للنشر ••

تلاشى في ذهنه كل ما كان بينهما منذ ساعات •• لم تبق تلك الفتاة التي ضاجعها منذ برهة ! بدت غريبة ، كل الغرابة عنه ، شهية ، يتحرق لامتلاكها !

تسمّرت عيناه على عجزها المتوركّ ، فتضخّمت صورة ردفيها ، وتعاظمت في خياله ، لحظات ، ولم يبق في الكون سوى ذلك العجز الأبيض الناعم ! راح يحسّ نبضات وريديه المتوترين •• فتقدم منها يدوّي صدغه بما فار من دمه في رأسه ! ثلاث أو أربع خطوات •• ثوان •• وكانت ذراعاه ، ككلاّبتين فولاذيتين ، تحيطان بخصرها من الخلف•• يشده اليه•• يمتلكها حتى الاحشاء ! يجامعها ! يكيل لها الدفعات المتتالية ، يشهق ويزفر ، ورأسه تارة الى السماء ، وتارة الى الارض ، كأنها أول وآخر أنثى في حياته !!

صُعقت الفتاة ، في البدء ، لما نابها ! واتنابها ذعر حل أوصالها ، فتهاوت ، تحملها ذراعا مغتصبها المحيطتان بجذعها ، ويداها مستندتان على أفريز النافذة الخارجي ! فما إن استرجعت بعض وعيها ، تحت وطء ضرباته ، حتى كادت تصرخ ! لكنها أدركت أن رأسها خارج نافذة مفتوحة على الفناء •• في الليل !!

صار لدفع « غونثر » المجنون ، المتواصل ، ايقاع يدكّ جسدها •• فيختل توازنها مع كل دفعة منه ، فيتداركها الحاجز الحديدي المنخفض الارتفاع ، تحاول أن تمسك به ، لتدفع بمغتصبها الى الوراء ، فيضربها

« غونثر » على ذراعها ، فيفلت الحديد من يدها ، وتهوي ثانية الى الامام ! تحت رحمة دفعه المعسور !

لم تجد ما تفعله كي تخرج من قبضته !

لجأت الى إهانته !

كالت له ما لا حصر له من سباب وشتم ! يخرج صوتها كالفحيح •• دون جدوى ! فما ان تسمّر عن الحركة ، في تشنج محموم ! وأدركت أنه أفرغ شهوته ! حتى تمالكت نفسها •• وحاولت أن تستدير ، لتدفعه بذراعيها ، لتضربه بقبضتيها المشدودتين على وجهه !!

لم يدرِ « غونثر » ، إلا وذراعاه القويتان ترفعانها عاليا ، وتدفعان بها خارج النافذة !!

لعلها همّت بالصراخ ! لكن رأسها اصطدم باطار النافذة الخارجي ، ثم بالحائط ، وهي تهوي ، فغاب صوتها !!

ثوان ، وسُمع بعدها صدى أخرس بعيد لوقع ارتطام جسدها على الأرض !

مدّ « غونثر » رأسه ينظر الى الفناء حيث سقطت •• فلم يرَ ، من حيث وقف في الدور الخامس •• إلا الظلام ! توقف برهة لا يعرف ماذا جرى له •• ثم عاد كالمذهول الى سريره !

تمدد فيه وهو يرتعد ••

كيف حصل كل هذا ؟•• غطّى رأسه ، لا يفيده ما لف جسده به من غطاء ! وأقفل عينيه •• يود لو يغيب عن العالم ، يود لو أنه يحلم ! يود لو أنه يبكي في سرير أمه •• ويتشوّق لصدرها الأبيض الدافىء •• يود لو يبكي على ذراعيها •• يود لو يبكي ! يبكي ! ولا دموع تنهمر من عينيه !

* * *

مضت دقائق طويلة ، طويلة ، وهو على تلك الحـال •• سمع صوت « جون » على باب غرفته •• يقول ••

ــ •• ظننت أن « لويز » عادت اليك •• أين هي ؟

ــ أجاب « غونثر » دون أن ينظر اليه ••

ــ « لويز » لست أدري •• لم أرها منذ ذهبت الى غرفتك ••

همس « جون » ••

ــ لعلها في دورة المياه •• قد تعود اليك •• فلا تطيلا الحفل !

وضحك ، ثم أغلق باب غرفة « غونثر » •• وعاد الى سريره •• دون أن يمر على دورة المياه ليتأكد مما قـال ••

* * *

عند الفجر •• سُمِعت صفارة الإسعاف ، وجلبة وصول رجال الأمن !

مضت برهة •• سُمع بعدها طرقٌ على باب شقة الشابين •• فقـام « جون » يفتح الباب ••

تعجب ، اذ أدرك أن النوم قد غلبه ، قبل عودة « لويز » الى سريره •• وذُهل أن سمع رجل الأمن يسأله عن فتاة ما ، سقطت من أحد الأدوار ••

ــ ماتت •• ومن هي ؟!

نحن نسألك ، أنت ! من يسكن في هذه الشقة غيرك ؟ من فيها الآن ؟

ــ •• زميلي ، مع صديقة له ••

ودخل يستدعي « غونثر » ، يتوقع أن يرى « لويز » في فراشه •• لكن « غونثر » استوى في فراشه متثاقلا •• يسأل « جون » في عجب ••

ــ « لويز » ؟ وأين هي ؟ أليست معك ؟

كان رجال الامن قد تجمهروا في شقة الشابين ، ووقف عـدد منهم في غرفة « غونثر » قرب سريره ، قطّب أحدهم ، ونظر في إمعـان الى كل من « غونثر » و « جون » ••

قال ، يهز رأسه متعجبا ••

ــ يجب أن ترافقاني الى المخفر ، مع أوراقكهما الثبوتية •• أنتما أجنبيان •• أليس كذلك ؟

* * *

وتساءلت الصحف اليومية ، في المساء ، على صفحاتها المعدّة لأخبار الشغب •• « جريمة » ؟! أم « انتحار » ؟! « حفلة المعهد الوطني للفنون الجميلة ، تنتهي بمقتل فتاة ، سقطت من الدور الخامس ، بعد حفلة جماع مع شابين دامت طوال الليل ! » وتوالى التحقيق ، والتعليقات ، ولا أحد يثبت أو ينبىء عن دافع القتل ••

* * *

لم يوجّه الى أحد من الشابين اتهام صريح ، لذلك ، أُطلق سراحهما ، بعد أيام ، رهن التحقيق ، دونما حاجة الى كفالةٍ ماكان في مقدورهما ، أصلاً ، الحصول عليها !

أخذ المحققون بعين الاعتبار أن لا سوابق لأي منهما •• أجنبيان ، يدرسان الفن في باريس ، ولا معرفة سابقة لهما بتلك الفتاة ، فلا دافع يحضهما على قتلها ، ولا علاقة عاطفية قد تحرض أحدهما على غيرة ، أو انتقام ! أثبت الفحص الطبي للفتاة أنها كانت سكرى •• ورغم ما كشف في جسدها من آثار الجماع ، إلا أن جسدها كان خاليا من آثار العنف !

كانت جثتها ممدة على الأرض ، في فناء البناء ، وقبضتها لا تزال مشدودة على سروال داخلي ، كانت تغسله ، قبل سقوطها •• تحاول نشره ، خارج النافذة التي سقطت منها ، وكانت سكرى •• قدماها عاريتان •• أدارت رأسها •• لابد أنها انزلقت ، فهوى بها ثقلها •• لتلاقي حتفها !

أخبار باريس ، ملأى بمثل هذه الحوادث !!

فأطبق ملف التحقيقات !

* * *

بقي سرّ ما حدث في تلك الليلة مطويا لزمن بعيد !

كان من الطبيعي لـ « غونثر » و « جون » أن يتغيبا ، يومين أو ثلاثة ، عن سهرات الحيّ .. فلم يلتفت أحد منا ، بادىء الأمر ، الى غيابهما !

عادا للظهور في اليوم الرابع ، أو الخامس ، لتلك الحادثة ، فصعّقنا ما سمعناه منهما ، ورحنا نقرأ ، متأخرين ، ما كانا محتفظين بـه من صحف يومية تروي تلك القصة ! لا نصدق أن مثل هذه الحوادث قد تمر بواحدٍ من معارفنا !

قلت ، لا أصدق ما قرأت ..

ــ .. أهي تلك الفتاة التي كانت معكما في المعهد ؟

هز « جون » رأسه بالإيجاب ، مبتسما .. ثم قطّب متأسفا ..

قال وهو يتنهد في لوعـة حقيقية ..

ــ إنها الفتاة الوحيدة التي استمرأت الحديث معها .. من كل مَن عرفت في باريس ، من الجميلات ، حتى الآن ..

علّق « غونثر » مستغربا ..

ــ حقا ؟ وهل اتسع لكما الوقت ، للحوار ، والألفة ؟ أنا لم أسمعكما تتبادلان غير بضع كلمات مقتضبة في المعهد ؟!

أعاد « جون » هز رأسه ، وقال في شرود ، كأنه يرى الفتاة في مخيلته ..

ــ .. بل تحدثنا طويلاً ! كانت تدرس التمثيل ، في المعهد الوطني ، ثم تركَتْه منذ سنتين .. لقد أدهشتني ثقافتها الأدبية ! كانت تتكلم الإنكليزية ، في طلاقة تثير الإعجاب ! ولها اطلاع واسع بالأدب الاميركي ، كأنها ناقدة ، من صحيفة « النيويورك تايمز » !

كنّا في « المابيون » .. ننظـر الى « غونثر » ، ونستمع الى ما يقوله « جون » ، .. كأننا نتعرّف اليهما من جديد !

وضعت « جينيت » الصحيفة جانبا .. وسألت ..

ـ هل كانت جميلة ؟ إنهم لم يضعوا لها صورة في الصحيفة ..

زمَّ « غونثر » شفتيه .. وقال ..

ـ .. جل ما اذكره من وجهها ، عيناها ! ما أظن أنني قادر على التعرف اليها ، لو قدر لي أن أراها الآن ، سائرة في الطريق ..

قالت « جينيت » ساخرة ..

ـ .. أليس من الغريب أننا لا نسمع خبر انتحار شاب ، أو سقوطه من نافذة شقة فيها امرأتان ، قضى الليل معهما في مجون ؟!

قلت مازحا ..

ـ وهل في هذا ما يسرّ ؟

أجـابت متبرمة ..

ـ .. لا ، طبعا .. لكني أعجب لمثل هذه الحوادث ! فما السبب في أنها دائما من نصيب النساء ؟ حوادث الاغتصاب مثلا ! لماذا لا نسمع أن امرأة اغتَصَبَت ، أو حاولت ، اغتصاب رجل ؟! ثم ، ليست هي مسألة قوة جسدية وحسب ! فأنا أعرف الكثيرات من النساء .. ممن هنّ أقوى جسدا من بعض الرجال ! على أية حال .. أقوى من شاب في الخامسة ، أو السادسة عشر من عمره ! فلماذا لا نسمع عن مثل هذا النوع من الاغتصاب ؟ مع أمثال هؤلاء الأحداث ، مثلاً !

تبسّم « جون » ساخرا ، وقال ..

ـ وهل يكفي لاغتصاب الرجل ، أن تلقي به المرأة على الارض ؟! أو أن تتمكن من كتفيه ، في وضع المصارع ؟!

تدخّل « غونثر » ، نزقا ..

ـ وما علاقة الاغتصاب ، بقضية « لويز » ؟ وهـل منّا من حـاول اغتصابهـا ؟!

واذا « بجون » يقول ، متعجبا ..

ــ أنا أغتصبها ؟! يا إلهي ! لقد قالت لي في المعهد « أتتما تخطئان الظن بي » •• ولم أكن أتصور آنذاك ، مقدار الصحة في كلامها ! لقد كانت تختلف حقا عما بدت لنا عليه في المعهد ! لو زادت معرفتي بها •• لكنت قادرا علــى طلبها للزواج ••

بهتنا لكلامه •• وفتح « غونثر » عينيه دهشة ، ثم قطب ، وقال ••

ــ •• وتودّني ألا ألاحظ وأسخط على عاطفتك الوردية اللون ! هاكم « الوردة الزرقاء » ، كما يلقبون أمثالك ، هنا في باريس ! إن مصرع فتاة ، قضيت معها بضع ساعات قبل أن تموت في ظروف غامضة ، يدفعك الى أن تسبغ عليها زخمك العاطفي الرومنسي ، والى أن تحيطها بهــالة من الحب ، تشبه ما يحاط به أبطال السينما في هوليود !

هز « جون » رأسه ، غير مكترث بهجوم صديقه ، وتابع ••

ــ •• ولقد أسمعَتْني أبيات شعر لـ « ادغار آلان بو » •• لم أقرأها من قبــل ! إن صوتها لا يبرح سمعي •• لا أزال أسمع لكنتها الفرنسية ، وهي تتكلم الإنكليزية •• لكم كانت محببة !

وتتالت الأيام •• وتحولت قصة « لويز » ، من قضية مصرع فتاة ، في ظروف غامضة •• الى عنصر مناقشات نظرية ، لدى ثلتنا ، وتحولت قصة موتها الى ومضة غرام مفاجىء موتور ، لدى « جون » ، لا يكاد يستعيد ذكريات في نفسه عنها ، حتى ينبري له « غونثر » ، يناوئه على تلك الذكريات ، ينازعه عليهــا ، ثم يحتقرها •• كأنما يود لو يمزقها إربا !

* * *

الفصل الثامن

لم تكن تلك القصة ، شاغلنا الوحيد •• تواردت في ذهني جميع هـذه الصـور ، مما رويت ، وأنـا في شـقة « مكسيم » ، أقـرأ رسائل فراس الشرقية ، وكانت قـد مرت ثلاثـة أو أربعـة أيـام على سهرتنا الأخـيرة في « التـابو » ••

رحت أقرأ تلك الرسائل ، أتململ لضيق أصابني بسبب تلكئي في مفاتحة صديقي بحقيقة رأيي فيها ••

أحسست أن لادعـائه تلك الهويّة الشرقية المفاجئة ، سبباً لا يود أن يطلعني عليه •• فضقت فيما أقوله أو أفعله ، واذا بـ « جينيت » تصل وحيدة ، دون بقية الرفـاق ، تقول ، في ضيق ، وهي تلقي إزارها الصوفي جانبا ••

ــ •• يحسن بنا أن نخرج لتناول عشائنا ! فإن الأصدقاء لاهون عنا ، في « المابيون » ، مـع رهط من السياح •• وقـد يتأخرون ، أو قد لا يأتون البتـة هذه الليـلة !

قلت على عجـل ••

ــ •• ولماذا لا نذهب الى شقتي ؟ نهيىء فيها عشاءً هادئا ، لثلاثتنا ؟

ــ •• ونترك الآخرين ••وهم يجهلون مكاننا ؟

ــ •• بل نترك لهم ورقـة على الباب •• فما عليهم ، إن أتوا ، إلا أن يلحقوا بنا ! إني في الواقع أفضّل ذلك ، فإن شقتي لم تعرف أجواءنا الصاخبة ! لماذا لا ندشّنها هـذه الليلة ؟!

قلت ذلك ، ومددت يدي ، الى « مكسيم » ، بالظرف الذي كان يحتوي على رسائل « فراس » •• فتناوله مني ، وهو يبتسم •• وبدلى أن يضعه في مكان أمين ، ألقى بما فيه في الموقدة ، فاستعر لهيبها !

رحت أحدّق الى النار ، تلتهم أطراف الصفحات ، ثم تنبهت لما بدا من خط غريب على ماتناثر من وريقاتها الملتهبة ، وما تطاير منها فوق ألسنة اللهب ••

تعجبَت « جينيت » لما اشتعل من أوراق في المدفأة ، وسألت ••
ــ ما هذه الأوراق ؟ هل هي مخطوطات قديمة ؟
ضحك « مكسيم » ، وأجاب ••

ــ •• بل رسائل غرام بالية •• لإنسان من غير هذه البلاد !

قلت ، كمن يثب على هذه المناسبة ، للكلام ••
ــ بل رسائل إنسان وهمي •• من خيال لا يفهمه إنسان !

هز « مكسيم » رأسه حائرا متعجبا •• ثم قال ••
ــ •• ما صلتنا بها ؟ ليس الماضي سوى أثر ما نحتفظ منه في خلايا أدمغتنا ، من ذكريات ! وأنا ، فيما يخصّني •• فإن أثر هذا الماضي قد ذهب من دماغي ، وولّى ! لنذهب الى دارك يا « شارل غوستاف » فنعرّف مقرك ، مقر الكونت « دوبروفانس » ، ما خفي عنه حتى اليوم ، من ليالي الحي اللاتيني !

* * *

جلست ، تلك الليلة ، الى « مكسيم » و « جينيت » ،في شقتي ، نتحدث عن « باتريس » ، وسهرة « التابو » ، ننتظر وصوله ،ونقلّب ما دفعه للارتماء تحت أضواء منصة « التابو » ، يضارب الكون من خلال الجمهور ، كأنه ألقى بنفسه لينتحر في نهر « السين » ، حتى قالت « جينيت » ، في ابتسامة ماكرة ••
ــ لقد عادت « بيبيتا » ، البارحة ، للظهور ! هل وصلكما النبأ ؟

سألتها متلهفا ••

ـ •• ولمْ تخبرينا عن ذلك من قبـل ؟ و « آني » ؟ ما أخبارها ؟

ـ لقد كانتا معا •• مختبئتين !

ـ مختبئتين ؟ وممـن ؟

ضحكت « جينيت » ، طربة لعجبنا •• وتابعت ••

ـ منا ! منكم ! من الجميع ! من العـالم أجمع !!

ـ وهل أخبرتك أين كانتا ؟

ـ •• في غرفة ! في أحد الفنادق الصغيرة •• وعلى بعد عشرات الأمتار فقط من « المابيون » نفسه ! إنها لقصة عجيبة حقا ! لقد توارتا عن الأنظـار ، في تلك الغرفة ، طوال ثلاثـة أيام ! لا تخرجان منها ، إلا لتناول وجبة طعـام عاجلة •• ثم تعودان •• الى الفندق •• والسرير •• والحب !

صمتت برهة •• تتلاعب على شفتيها ابتسامة مبهمة •• فقال « مكسيم » ساخرا منها ••

ـ •• لقد اختطفتْها إذن ! حطت على « آني » كملكة الليل•• كمصاصة الدمـاء !!

هزأت « جينيت » منه •• وقالت ••

ـ •• لكم تجهل النساء يا عزيزي ! رغـم ذكائك ! لكم تجهلونهن ، جميعكم ، يا معشر الرجـال !

سألتُها ، في تحـدّ ••

ـ وماذا تقصدين ؟ أتزعمين أن « آني » ، هي التي اختطفت « بيتا » ؟

ردّت « جينيت » ، في نزق ظـاهر ••

ـ « اختُطفت » ! « اغتُصبت » !أهـذا كل ما يدور في خاطرك ؟! إنما هذه كلمات من عالم الرجال •• لقد أرتني « بيتا » ظهرها •• كشفت ثوبهـا وأرتني آثـار أظافر تلك الهرة ! لقد خلتُها ، للوهلة الأولى ، آثار ضربات

سياط ! « مكسيم » •• لو رأيت ظهرها ، لخلت مخالب هـرة مجنونة كانت تمزقه ، شـر تمزيق !!

ــ •• أظـافر « آني » ؟

ــ •• ومن غيرها ؟ أظافر « آني » بالذات !

قلت مستدركاً ••

ــ •• ومتى حصل كل هذا ؟ أعنى •• كيف تم بينهما مثل هذا الوفاق ؟ ألم تقولي : إنهما ما تقابلتا قط قبل لقائهما الأول أمامنا في « المابيون » ! إني أذكـر جيدا أنهما لم تتحادثا ، قبل ذلك ، بل إنهما لم تتبادلا كلمـة خاصة وحيدة ، أثنـاء ذلك الاجتماع !! ثم ، ألم تخرجا ، ووجهتهما « التابو » ؟ ألم تصلاه ؟ فما الذي قادهما بعد ذلك الى الفندق ؟!

ضحكت « جينيت » ، جذِلة •• وقالت ••

ــ هـذه أسرار النساء يا « شارل » ! لقد أطلعتني « بيبيتا » أن عينيهما تبادلتا أسرارهما ، منذ أن حطت العين على العين ! ما إن جلست « آني » قبالة « بيبيتا » ، في « المابيون » ، حتى تشابكت أقدامهما تحت المائدة ! إنكـم لا تعرفون مدى تأثير النظرات في النساء !!

قطع « مكسيم » قولها ، في ضيق ، وقـال متبرّما ••

ــ حسنا •• حسنا •• وماذا نفهم الآن ؟! هل ستواصلان ما هما فيـه من علاقـة ؟

كادت « جينيت » تغضب للهجته •• لكنهـا تمالكت نفسها •• فردت في أنـاة ••

ــ •• طبعا •• إنهما يحب بعضهما بعضا •• يعشق بعضهما بعضا ! لو أنه حب بين شابين ، صداقة قوية ، كما يحلو لكم أن تلقّبوها ، أنتم الرجال ، لسهل فهمها عليكما ! ألأنهما امرأتان ؟ ألذلك تثار حساسيتك ؟!

ــ •• وأية حساسية هذه التي تتكلمين عنها ؟ ومن أنبأك أني أرى في حب شابين ، أمراً أقرب الى الفهم ؟! ثم ، ما هذا الخلط بين التعاريف ؟ وهـل

الحب •• هو صداقة قوية ؟ ثم ، أين الصداقة القوية ، من الشهوة الجنسية ؟

ضحك « مكسيم » ساخرا منها •• وأردف ••

ـ حقا إنه عقل المرأة غريب ! وليس غيركن قادراً على مثل هذه الالتباسات !

سخرت « جينيت » ••

ـ لا عليك •• سترتاح منا •• أنت مزمع على الذهاب ، أليس كذلك ؟

وأردفت ، في شيء من الغضب ، والدلال ••

ـ ستفتقد عقولنا الصغيرة •• يا عزيزي •• وقلوبنا الكبيرة •• لكن •• بعد فوات الأوان !

عجبتُ لقولها ، فسألتُ ••

ـ وأين يذهب « مكسيم » ؟!

ردّت ، على الفور ••

ـ ليلتحق بـ « الفرقة الاجنبية » يا « شارل غوستاف » ! مع زميليه العزيزين ، « غونتر » و « جون » •• ألم تكن على علم بذلك ؟!

نظرتُ الى « مكسيم » ، أستغرب أني أُقصيتُ عن هذا الخبر •• أنتظر أن يردّ عليها •• فقال مترددا ••

ـ إنما هي فكرة قيد الدرس وحسب •• لم أتخذ قراري النهائي بشأنها بعد ••

أدهشني الخبر •• وتعجبت لأن « مكسيم » لا بد قد تعمد ألا يطلعني عليه !

* * *

قام «مكسيم» يضع أسطوانة لـ « باخ » على الحاكي ، ثم جلس يدخن •• قال موضحا ••

ـ إنها في الأصل فكرة « غونتر » •• ولست أدري من الذي أوحى بها

اليه ! لقد رفضها « جون » ، بشدة ، في البــدء ! فما شأنه ، بالـ « الفرقــة الاجنبية » ، وبحروبها ؟! وقد جــاء يدرس الرسم في باريس ! لكن « غونثر » أكّد له أنه إنما ينوي الالتحاق بهــا ، لفترة قصيرة •• أشهر الصيف ، عــلى أكثر تقــدير ! يزور بذلك إسبانيا ، وشمالي افريقيا •• ويحصل على مرتب لا بأس به •• ويطّلع عن كثب ، على ما تحوي تلك الفرقة من عناصر مشوقة ، ومن مغــامرة !

قلت ، أستغرب ما أسمعه ••

ــ •• وماذا يفعل ، بعــد أشهر الصيف ؟ وهل الالتحاق « بالفرقــة الاجنبية » نزهــة ؟ أو دعــابة ؟ ! إن من يدخل فيها يوقّع عقدا أبديا مــع الشيطان !! عقداً ، لا رجعة عنه ، قبل انقضاء مــدته !!

ــ مهلك ! مهلك ! لقد صمّمنا على الهرب ، بعد أشهر الصيف ! ننتهز فرصة ، نهرب فيها من الفرقة •• ونعود على دراجاتنا ، الى باريس •• هــذا كل ما في الأمــر !

ــ •• لكن ، ما الذي حرّضك أنت ، على هذه الفكرة ؟ لا بأس عــلى « جون » الامريكي ، إن خدعَتْه ثقافته السينمائية ، عن حقيقة الفرقــة ! و « غــونثر » ••

تدخلت « جينيت » ••

ــ •• لا تسل عن دوافــع « غونثر » ، يا « شارل » •• ولست أدري ما إذا كان جميع الألمــان على مثل طباعه ! لكن الفرقة الأجنبية خلقت لــه ! أليس مؤسسها ألمانياً ؟ أو من أصل ألمــاني ؟

قلتُ ، مؤكدا كلامهــا ••

ــ •• بالضبط ! لقد أُبدعت لتخدم حروب فرنسا •• رغم أن تسعين بالمائة من أفرادها ، هم من الأجانب ! ومعظم هؤلاء ، من الألمان ! لكني أعود وأســأل ، ما شأن « مكسيم » بهــا ؟

أجــاب « مكسيم » ••

ــ •• أنا ؟ إنهـا مقامرة ، بالنسبة إليّ ! واحتمال نجاحهـا ، ستون بالمائة ، لا أكثر ! كل مافي الأمر •• هو أنني قد أحصل على الجنسية الفرنسية ، في مطلع العام القادم •• ويتوجب عليّ ، حينئذ ، أن أؤدي الخدمة العسكرية ، في الجيش ، لمــدة سنتين ، ككل الفرنسيين ! ولست ، بالطبع ، توّاقا لهـذا المصير ! لقد قيل لي إنني إذا ما أبرزت ما يثبت أن لي خبرة عسكرية سابقة ، فيحتمل أن أُعفى من الخدمة الإلزامية ! إن أوراق عقد ، مع الفرقة الاجنبية ، قــد تفي بهـذا الغرض !

أطرقت رأسي حائرا ، ممتعضا ، مستغربا ما سمعت ! أهكذا ينفرط العقد ؟ أهكذا يختفي « مكسيم » في شمالي افريقيا ؟ وربما الى الأبــد ؟! أهكذا أُقصى عن الحي اللاتيني ، وما ••

واذا بـ « مكسيم » يسألني ••

ــ ما لك تبدي هــذه الابتسامة المستغربة يا « شارل » ؟ ألا تصدّق ما أقــول ••

ــ •• بلى •• أصدقك ! إنما ، أستغرب خبرك العجيب ! ثم أتساءل ، هل هو قدرك حقا ، أم إنهــا قدرتك الغريبة على مزج الواقع بالخيال ! إن في باريس ، ما يزيد على المـائة ألف طالب ••فكم طالبـاً من هؤلاء يعزف على الـ « اورغ دي بارباري » ليكسب المال ؟ وهل غيرك من الطلاب تجرأ عــلى هذه الفكرة ؟ وعذرك في ذلك ، بالطبع ، بالــغ البساطة ، إنه كسب العيش ! كذلك « الفرقة الاجنبية » •• تتقدم على خطوات ، هي « هدف » في ذاتها ! خيال ، صعب التحقيق •• « نهاية المطاف » ، أحيانا ، لكل من يحاول الوصول اليها ! وتستخدمها أنت ، لمسوّغ عمليّ ، عابر ، في حياتك ! للحصول على أوراق الخدمة العسكرية ، كما تقول ! إنهــا لقدرة غريبة ، ساحرة !!

قالت « جينيت » ، ضاحكة ••

ــ •• إنه بطل أسطوري •• يا عزيزي « شارل » !

أجبتُها في لهجة جـادة ، غير آبه لمزاحها ••

ـ •• إن ما تقولينه ، أقـرب الى الواقع ، مما تظنين ! فما الأسطورة ، إن لم تكـن مزجاً ، شبه منطقي للواقع ، والخيال ؟ إن الفـارق الوحيد في نظري ، بين نمط حياة « مكسيم » ، والاسطورة ، هـو أن للاسطورة سياقاً يخططه هـدف ، أو نهـج خفي ، قـد يطغى على الهـدف ، أما في حيـاة « مكسيم » •• فإما أنه لا نهج لحياته •• ولا هدف لها •• وإما أن له هـدفاً يخفيه عنا •• فيتركنا في عتمة مقصودة مما يُقدم عليـه من قرارات غـريبة مفاجئـة !!

ضحك « مكسيم » مليـّا لقولي ، وما كان في ما قلت شيء من المـزاح ! واذا بنا نسمع جرس الباب ، فقام يفتحه •• وعـاد ، مصطحبا « باتريس » . محيطا كتفـه بذراعه •• وقال ••

ـ •• ليس من ينجدني غيره ! ها قد أتى الصديق المنقذ !

ـ سُرّ « باتريس » ، لقول « مكسيم » ، وعـلا وجهـه الاحمرار ، كعادته ، لاقتراب « مكسيم » منه ••

قال يتعمد أن يبدو مرحا ، لا مبالياً ••

ـ ومن ذا الذي تجرأ عليك ؟ عليَّ به !

امتعضت « جينيت » للقائهما الحار •• فقالت ، في لهجة أنثوية واشية ••

ـ •• صديقك، يا« باتريس »، سيهجرك عما قريب ! ولا علم لك بذلك ؟ أهذا هو الذي تناطح للدفاع عنه ؟ إنه سيتركك ، ربما الى الأبد !

فتح « باتريس » عينيه ، مذهولا ••

ـ •• سيتركنا ؟ متى ؟ والى أين ؟

ـ •• سيلتحق « بالفرقة الأجنبية » !

* * *

تبادر لـ « باتريس » ، آنذاك ، أنه يسمع صوت أمه ، ينبعث من ذاكرته البعيدة ، فجأة •• لتقول •• « والدكما سيتركنا •• للدفاع عن الوطن » ••

أعاد قول « جينيت » المفاجىء ، حقبة دفينة من طفولته •• تذكر أمه •• رآها تمسح الدموع عن خديها ، جاهدة أن تبدو متجلدة ، صلبة العــود ، أمام طفليها الصغيرين •• وهي تنبئهما برحيل أبيهما •• رحلته التي لم يعــد منهـــا !

تمتم « باتريس » لنفسه ، ساخرا ••

ـ •• « مكسيم » سيتركنا ، إذاً •• للدفاع عن الوطن !

وعــاد بخيــاله الى الغــابات ، المحيطــة بقصر والده القــديم ، في الـ « جورا » •• حيث كان يلعب مع أخيه •• يختبئان وراء الصخور الكبيرة ، وخلف جذوع الأشجار الباسقة •• يصغي ، كلما سمع صوتا يناديه •• صوت أمــه بالذات •• ينتابه خوف مبهم •• ذعر ، من نداء أمه له ! « باتريس » •• كان صوت أمه حادا ، يتخلل الأشجار ، فيصله خافتا ، ناعما ، دون صدى •• « باتريـــس » •• « إن جنود الالمان » •• « غير بعيدين عنا » •• لا تنأ عن القصر ! فينظر حوله ، وجلا ، يشعر أن وراء كل جذعٍ ، جنديا نازيا ، يتربص له ، يود أن يطبق على عنقه الغضّ ! « باتريــس »••« باتريــس » •• يصغي الى ندائهــا •• رافعا رأسه مــن مخبئه •• كحيوان بري ، يلتقط أصوات الغاب •• « لا تمعنا في الغاب » « إن فيه حيوانات شرسة » ••

* * *

ـ •• هيه •• « باتريس » أين حلّقت ؟

تنبّه الى صوت « جينيت » ، قربه •• كان قد جلس غير بعيد عنها ••

رأيتُ شروده •• فقلت على عجل ، أحاول أن أخفي لهجتي المواسية ••

ـ •• لكنه ، لن يغيب عنا أكثر من ثلاثة أشهر !

لم أفهــم ما الذي حضّني على طمأنته ! لمــاذا اختصصت « باتريس » بالطمأنة عن غياب « مكسيم » ؟! سرعان ما استأت من نفسي لمــا قلت ! وفي الوقت ذاته •• أحسست أني ما قمت إلا بتأكيدِ أمر بات واضحا للجميع ••

فـ « جينيت » ، كانت تحب « مكسيم » ، فيكسبها ذلك حقا لا ينازعها عليه أحد ! لكن الحب مدى واسع الأرجاء ، رحلة بعيدة ، كانت تحسّ في قرارتها أنها لن تقطع من مداها سوى شوط يسير ! كذلك أنا .. لقد كنت الصديق ، الصدوق لـ « مكسيم » ، رغم أني لم أقطع في مدى الصداقة البعيد ، أكثر مما قطعته « جينيت » ، في مدى الحب ..

ضحكتُ لأفكاري ، لو صح هذا التقسيم الجغرافي لعالم العلاقات الإنسانية .. ترى أين موقع « باتريس » ، من تلك الحدود ، التي رحت أبتكرها للحب ، والصداقة ؟

كنت أرى من الودّ والتطلع ، في نظرات « باتريس » لـ « مكسيم » ، ما يشعرني أنه يجوب معه ، في غير مدى الصداقة ، أو الحب !

أكان لعاطفته مدى واضح المعالم ، يمكن تعريفه ، أو تعرّفه ؟ أم كان يضارب ، تارة أمواج الحب ، وتارة أخرى ، الصداقة ، فلا يعرف نحو أي شاطىءٍ يمكنه الاتجاه ؟!

أوليس من الغريب ألا أعرف أين كان يقف « مكسيم » من كل هذا ؟ هل كان يبادل « جينيت » الحب ؟ أكنت حقا صديقه ؟ ولم يكن مردّ جهلي لعاطفته أنه كان يخفيها ، أو يموه معالمها ، أو أنها كانت من التعقيد بحيث صعب عليّ فهمها !

كان جلي الأحاسيس ، واضحها .. لا يمسك عني أي جواب ، ولا يلجأ الى المداورة أو المواربة ! لكن عالم العواطف ، عنده ، كان نائيا قصيا ! أتكلم عنه ، فأشعر أني أخطط معالم قطبٍ ، مديد ، بعيد ، يترامى الى أقاصي الأرض ! فأهزأ من نفسي ، في سري ، وأنا أجدني أُحدد ، ما لي ، من الصداقة منه ، وما لـ « جينيت » ، من الحب ، ونحن على مئات الأميال منه ، بينما « باتريس » ، وإن يكن حائرا في مكان موقفه منه ، إلا أنه جوّالة في طبيعته ، لا يكتفي من المجهول بوصفه ، من بعيد ، بل يُقدم على الجوب في أرجائه ، مستكشفا ، واعيا ، أو ضائعا ، على غير هدى ، لا يعرف سوى

أنه أمـــام مجهول ، يجذبه ، ويتحداه ، وأن في نفسه من دفع الحياة ، ما يحضّه على المسير ، حتى ولو كان مغمض العينين !

* * *

أفقت الى أني كنت أبادل « جينيت » النظر ، وأنا غافل عنها •• وانتابني امتعاض طفيف لشيء من الاستخفاف علا ابتسامة باردة على شفتيها ••

أشحت ناظري عنها ، بهـدوء ، لأكلّم « مكسيم » ، فإذا هو مستلق ، رأسه الى ظهـر المقعد ، مغمض العينين ، يحرك أطراف أصابعه ، مع إيقـاع موسيقى « باخ » الهادىء ، بينما « باتريس » مستغرق ، هو الآخر ، يقلّب صفحات مجموعة لوحات فنية بين يديـه ••

عدت الى نظرات « جينيت » •• كمن لم يجد مخرجا للهروب منهـا ، وسألتها ، في إصرار هـادىء ••

ــ حسنا •• هـاتي ما عندك !

لم تجبني ، بادىء الامر •• لعلّها فوجئت بسؤالي !

كانت تجلس ملفوفة الساقين ، فشرعت تهز قدم ساقها العليا ، في تحفز وعصبية ، وقـالت ••

ــ قـل ! يا عزيزي « شارل غوستاف » ! ألستَ تنطوي على بعض النفـــاق ؟!

فوجئت بدوري لقولها ! وامتعضت ، لكني أخفيت شعوري ••

لطالما شغلني غموض « جينيت » •• وكثـيرا ما تساءلت عما تخفيه ، وراء سكوتها ، وابتسامتها الساخرة ! لكن الصمت والابهام كانا من مقوّمات عالمهـا الداخلي ، لا مرحـلة عابرة ، تود الخروج منها ! لم يكن السكوت ستارا أو غمامة تظلل أفكارها ، اذا ما انقشعت ، تجلت من تحتها الأفكار بينة واضحة ! لا •• إن أفكار « جينيت » كانت شـديدة القرب من أحاسيسها

المبهمة ، كلاهما يعيش في الظل .. يؤذيه النور المسلط ، واذا ما أقلق سكونه شيء ، تحرك ، مرغما ، في توتر وعصبية !

تبسمتُ منها وقلت متأنيا ..

ـ ألستِ تبالغين في حكمك ؟ أين تجدين النفاق ، عندي ؟

ـ في طبيعة علاقتك .. بنا .. جميعا ! إنك لست من عالمنا .. تبدو أحيانا ، أنك منا .. غارقاً في هواجسنا ! إن هي إلا نزهات نفسية ، تقوم بها معنا ! سرعان ما تعود ، بعدها ، الى إطارك هذا .. شقتك الفخمة ! وكتبك النفيسة ! أنا ، مثلا .. لو كان عندي مثل هذه الدار ، لما وطئت أرض شوارع الحي اللاتيني ! قد أزور « المابيون » من فترة الى أخرى ، لأرى الأصدقاء ! لكن .. لهفي عليهم ! أهم حقا ، أصدقاء ؟! لا .. لو كان عندي مثل دارك ، لهجرت الحي تماما ! ثم .. من هم الذين كانوا أصدقاءك.. قبل أن تتعرف الينا ؟ أين هم ؟ أتدري .. أنك تبدو لي أحيانا كالمنفي من عالمه .. كمن نبذه أصدقاؤه البرجوازيون .. لعلك نبذتهم أنت ، لأنك ارستقراطي .. لكن الأمرين عندي ، سيّان .. وإلا فأين هم ؟!

فتح « مكسيم » عينيه .. وقال ..

ـ مهلك « جينيت » ! مهلك ! ألا يمكن لبرجوازي ، أو لأرستقراطي ، أن يتشرد ؟!

أجابت على الفور ..

ـ ليس هذا ما أعنيه ! ثم .. لا ! إن التشرد يُفرض على الإنسان ! فإذا ما اختاره ، هو .. فليس هذا تشرداً بالمعنى الحقيقي للكلمة ! لعله ، « تشرد على الطريقة البورجوازية » .. لذلك ، يحسن بالبورجوازيين أن يقيموا نادياً خاصاً بهم ، فيأوي إليه أمثال هذا النوع من المتشردين !! أما نحن .. فنحن نحيا واقعاً آخر .. وليس معنى هذا أنني فخور بواقعي هذا ! إنه واقع ، من نوع آخر .. هذا كل ما في الأمر ! جميعنا ، غرباء عن هذه المدينة .. نجتمع في « المابيون » ، لا حبا بالوجودية ، بل لأن ما من مكان

آخر نستطيع أن نلجأ إليه ! يضحكني من يظنون فينا أمثلة حيّة للوجودية !! ويرون في سهراتنا الوجودية .. « قدوة » تحتذى ، في رفض الأجواء البورجوازية ! يرون فينا التطبيق الناصع ، لمقدرة الانسان على « الاختيار الحر » ! أي اختيار هذا ؟! أية مهزلة هذه ؟ أين أذهب اذا رفضت«المابيون» ؟ هل الى « البرغولا » ؟! وما الفارق بينهما ؟ أين أذهب ، لو رفضتهما معا ؟! هل أسهر على قارعة الطريق ؟! تحت الأمطار ، والثلوج ؟! هل في وسعي خلق أسرة لي تتبناني في باريس ، فأمضي عندها سهراتي الأسرية ؟! نحن البوهيميين ، إذن .. نحن ، « أبطال الاختيارات الحرة » .. ليس لنا الخيار في حرّية تقرير حريتنا ! أليس في هذا ما يضحك ؟! إن نمط الحرية الذي نعيشه .. مفروض علينا ! حتى صداقتنا ، مفروضة علينا ! هذا عالمنا .. ولا خيار لنا في قبوله ، أو رفضه ! أما أنت .. « الكونت شارل غوستاف دوبواسي !! كونت دو بروفانس » .. فما الذي يدفعك الى ترك عالمك ؟ نحن لم « نختر » بعضنا بعضاً .. ولم نختر الحيّ اللاتيني ! أما أنت .. فلماذا اخترت نمطنا في الحياة ؟!!

كان انفعال « جينيت » يزداد ، باطراد هجومها ! حاولَتْ ، في البدء أن تبدو هادئة ، لا مبالية ، على نمط من يتناقشون في الحي اللاتيني .. لكنها لم تكن ميّالة الى الأفكار الطويلة .. لا تحسن السيطرة عليها ! تعودت ، في الحي ، أن تختصر هجومها ، أو إعجابها ، تطلقه في جملة قصيرة .. فترمي بأفكارها المقتضبة ، أثناء سكوت المتحاورين في « المابيون » ، فتأتي منسجمة مع إيقاع الصخب الليلي فيه .. ويبدو كلامها كأن له دلالة أكبر ..

في تلك الليلة .. بدا كلامها ، غريبا ، في ردهة داري الكبيرة .. غريبا ، على أنغام « باخ » العذبة ، البعيدة .. وتملّكني إحساس بأن « جينيت » ، نفسها ، غريبة ، كل الغرابة عني ، أكلّمها لأول مرة ..

لعل إحساسي هذا بدا من نظراتي .. فبادر « باتريس » الى القول ، بهدوء ..

ـ إن للأمر في نظري شقين •• أولهما ، يتعلق بمعنى أسئلة « جينيت » •• والثاني بالطريقة التي طـُرحت بها هذه الأسئلة ! أما عن معنى الأسئلة ذاتها •• فلا أجـد غرابة ، البتة ، في أنهـا طـُرحت •• لكن •• ما يحيـّرني ، هـو طريقة الهجوم المباغت هذا ؟! « جينيت » •• لماذا الهجوم في الأصل ؟ وليس في أسئلتكِ ما لا يمكن طرحه في بساطة وأناة ؟

نظر َت « جينيت » إليه شذرا ، وقالت ••

ـ تعلم جيدا أنك وراء كل هـذا ! ثم ، إن جميع ما قلته لصديقك •• ينطبق عليك ، وأكثر ! صحيح أنك علم من أعلام الحي ! لكنك علم متميـّز •• ولست جـزءاً لا ينفصل عنه !!

أجابها « باتريس » في تحدّ ، واستخفاف ••

ـ إذا كنتُ أنا المعنيّ منذ البـدء •• فلماذا اللفّ والدوران ؟! هـل لك أن تشرفيني ، وتطلعيني على سبب عدائك المفاجىء لي ؟!

ضحكت ، في سخرية ، ومرارة ، وأردفت ••

ـ لا هو عـداء •• ولا هو مفاجىء ! قل لي ، إذا سمحت •• لمـاذا تركتَ « آني » ؟ صحيح •• لقـد أقمت الأرض وأقعدتها ، تلك الليلة التي هجرتك فيها ! لكن •• ماذا فعلتَ في اليوم التالي ؟ ثم في الأيام التي تلت ؟ هل حاولتَ استرجاعها ، من « بيبيتا » ؟

قاطعها « باتريس » ممتعضا ••

ـ وهل هي قطعة أثاث ، لتؤخـذ وتـسترجع ؟ لقـد ذهبت ! وهـذا كل ما في الأمر ! لقد اختارت غيري •• فماذا بوسعي أن أفعـل ؟!

هزأت ، قائلـة على الفـور ••

ـ •• لا تؤخذ ، ولا تسترجع ؟ إذن •• كيف تَقبَـل أن تـُعـار ؟

وحدّقـَتْ إليه ، تنتظر الجواب عن سؤالها المبهم ، المفاجىء !

سألتـُها ، متعجبا ••

ـ وماذا تعنين بقولك « تـُعـار » ؟!

ثـم استدركتْ ••

ـ إنك تتكلمين عن « آني » ، أليس كذلك ؟

ـ بالضبط ! وسل صديقك يا « شارل » •• كيف أعار « مكسيم » ، « آنـي » !!

قال « باتريس » في حـزم ••

ـ ليس في الأمر سـرّ ! فأنا لم أعرها أحـدا ! وأكرر قولي ، بأنهـا ليست سلعة تعـار ! لقد اختارت « مكسيم » بنفسها •• ليفضّ بكارتها ! هذا كل ما في الأمر ! ولم أقم أنا في كل هـذا ، بغير دور الوسيط ، المبلّغ ! ثم ، من الذي أطلعك على هـذا ، أهي « آني » ؟!

ـ من غيرها ؟ أتظن « مكسيم » يفعل ذلك ؟ لا يا عزيزي ! « مكسيم » يعرف غير المرأة •• يُظهـر البوهيمية ، واللامبالاة •• ويُخفي رومانتيكية القـرن التاسع عشر !

تدخل « مكسيم » ، في شيء من المـزاح ••

ـ ولماذا تثورين على « باتريس » ؟ وهو لم يكن سوى الوسيط ؟

ثارت « جينيت » للهجتـه ••

ـ الوسيط ؟ يا إلهي ! هل جننتم ؟ وكيف يكون وسيطا ، لفتاة يحب ؟!

أجاب « باتريس » ، على عجـل ••

ـ وما شـأن الحب في كل هـذا ؟ كانت « آني » حائرة ، فيمن يفض بكارتها •• تعلم أني أمقت القيام بمثل هذا العمل الوحشي ، رغم تعلّقي بها ، لقد رفضت ، لأنني أحبها ! فاختارت « مكسيم » لهذه المهمّة ، ووافقتُها في الرأي ، وأظن أن اختيارها كان في محله ! وأكررها الآن !

هزّت « جينيت » رأسـها ، متعجبة ، حـائرة ، يائسة من فهم منطق الرجـال ، ثم تابعت ••

ـ أنت ، ألم تشعر بغـيرة ما من ضجيعها « مكسيم » ؟ لا أخالك إلا معهما ! تشاهد العملية ، وتباركها !!

أدرك « باتريس » ضياعها •• فقال متبسما ، مصرا على موقفه ••

ــ لا ! كنتُ في الغرفة المجاورة ، إن كان في ذلك ما يخفّف من غضبك ! كنتُ مع « آن ماري » ، وفتاة أخرى ، لا تعرفينها ••

هزت رأسها حائرة •• ثم قالت ••

ــ لئن كنت تتقبّل هذه الأمور ، في مثل رحابة الصدر هذه ، فلماذا جنّ جنونك تلك الليلة •• حين اختفت « آني » ، مع « بيبيتا » ؟! لماذا ؟!

وجم « باتريس » برهة ، ثم نظر إليها مليّا •• وقال ••

ــ لمثل السبب الذي يجنّ جنونك له ، حين تجدين « مكسيم » على ألفة زائدة معي !! لأن « آني » دخلت مع « بيبيتا » عالما مبهما ، بالنسبة إليّ ، عالماً حالك الظلمة •• لا أستطيع اللّحاق بها ، لأنتشلها من قبضة « بيبيتا » ، وهي تشدها بعيدا عني ، مغرقة في التخفي بين تلافيفه !!

ضحكت « جينيت » في عصبية وتشفٍّ ••

ــ ماذا ؟ « بيبيتا » تقود « آني » ! ألم يُخبرك صديقك ؟ لقد كانت « آني » هي التي تقود الطريق ، يا عزيزي ! لا « بيبيتا » !

ونظرَتْ الى « مكسيم » في حنق ، وتابعت ••

ــ بل لعلكما أنتما اللذان دفعتما بها الى تلك الطريق ! انه هذا المنطق الأخرق ! هذا المنطق المتفوّق ، المتعالي !! لا شك أنها وجدت فيكما كليكما ما تحبّ •• فقبلت أن تتبادلاها ، كي تكون على مثل مستواكما الفكري المميّز ! لكن ذلك كان مخالفا لطبيعتها ! فما إن أحست بدفء عاطفة إنسانية ، طبيعية ، مثل « بيبيتا » •• رغم غرابة ميولها •• حتى انساقت وراءها ! وانصاعت لقيادتها ! قد أبدو قرويّة في نظركما •• فأنا من « سولونج » ليس إلا ، وهي قرية بالقياس الى « باريس » ، هربتُ منها لضيق محيطها ، وتحجّر مفاهيم أسرتي ! يا إلهي •• ظننت أني بلغت الذروة في التحرر ، حين تعودت المضاجعات الجماعية ، هنا ! أما هذا ! أما ، أن أحبّ شاباً ، وأختار صديقه ،

ليفضّ بكارتي ! ثم أهرب ، من الاثنين ، مع فتاة ! فهذا ما لم يسمع به أحد ! لتذهبوا ، جميعا ، الى الشيطان !!

وانتفضت واقفــة ! وقالت ••

ــ أنــا ذاهبــة !!

واتجهت نحــو الباب •••

* * *

رن جرس الباب ، في تلك اللحظة ، فقمت أفتحه ، فإذا « آني » ، عــلى عجلة من أمرها ، تبحث عن « باتريس » ••

طلبتُ إليها الدخول ، فاعتذرت بأن « بيبيتا » تنتظرها ، أمــام مدخل البنــاء ، على ناصية الشارع ••

كانت « جينيت » قد وصلت الى الباب ، تودّ الخروج ، فاجأها وجود « آنــي » معي ، تحدثني •• فتوقفتْ ، كأنهــا عدلت عن رأيها •• وسألت « آني » في غضب ••

ــ « آني » ! أنت هنــا ؟ وأين « بيبيتا » ؟

ــ إنهــا تنتظرني •• أرجو ألا أكــون قــد أزعجت أحــداً !

أحسست كأنه قد شقّ على « جينيت » أن تكشف « لآني » أنهــا على خصام معنا ، وحيدة ، في تلك اللحظة ، مهزومة ، فقالت ••

ــ على العكس ! ألا تدخلي ؟ تعــالي !

ونظرت إليّ •• فبادرتُ قائلا ••

ــ بل أصرّ على ذلك ! هل أدعو « بيبيتا » ؟ أين هي ؟

ــ أمــام مدخل البناء •• لكن كيف يمكن ذلك ؟ كنت أبغي مفتــاح غرفة « باتريس » •• ليس غــير ••

وتلكأت •• ثم قالت ، على عجــل ، وهي تبتسم ••

ــ سأطلعكما عــلى حقيقــة الأمــر •• اسمعا •• لقــد مررنا عــلى

« المايبـون » فاذا « غـونثر » و « جون » ، برفقة فتاتي « اسكنديـنافيتين » رائعتين ، على جمـال لم أر مثـله من زمـن بعيـد ! كان الشابان يبحثان عـن « مكسيم » ، لقضاء الليل عنـده ، مـع رفيقتيهما ، فهما لا يجرؤان على اصطحاب أحـد الى شقتهما بعـد موت تلك الفتاة فيهـا ! فجـال في خـاطري أن أسبقهما الى مفتـاح غرفـة « باتريس » ، علّ الغـريبتين تؤثران قضاء الليـل معي ومـع « بيبيتا » ، بدل أن تذهبا برفقـة « غونثر » و « جون » ! أما وأن « مكسيم » و « باتريس » هنا ! فكيف أخفي الأمـر عنهما ، أو عن أحـدهما ؟

ضحكت « جينيت » طربة •• وقالت ••

ــ الأمر إذن معركة علىمن سيفوز بالفتاتين، هذه الليلة ! أنت و« بيبيتا » •• أم « غونثر » و « جـون » !!

ضحكت « آني » بدورها •• وهزت رأسها ، موافقة ، وقد علا وجهها الاحمـرار ••

قلت ، أقلب الفكرة في ذهني ، وأنا أعرضها على « آني » ••

ــ لماذا لا تأتون جميعا ! فنمضي السهرة عندي ، هنا •• وبعد ذلك ، ينصرف كل الى داره•• وتنصرف الفتاتان مع من يروقهما•• أنت و « بيبيتا » ! أو « غونثر »و « جـون » ! ليكن نزالاً عادلاً ! ما رأيك ؟!

لست أدري ما الذي أثار حماسة « جينيت » بالضبط ، لفكرتي هـذه ، فراحت تحضّ « آني » على قبولهـا •• حتى وافقت !

لحظات •• وكانت « آنـي » و « بيبيتا » ، تدخلان الردهة ، برفقـة « جينيت » ، العائدة اليها •• بينما رحت أكلم « غونثر » ، على الهـاتف ، أدعوه ، مع « جون » ، لمرافقة الفتاتين « الاسكنديـنافيتين » الى داري ••

* * *

الفصل التاسع

المـأدبـة اللاتينية

دخلت « بيبيتا » ، ترتدي ثوبا أســود هفهافا ، يلف كتفيها بوشـاح عريض من الحرير •• نبيذي اللون •• موشح بخيوط الذهب ••

لم أكن قد التقيتها ، منذ اختفت مـع « آني » ، ولم أكن قد شاهدتها في مثل هذا الزي من قبل •• فبهتّ لمـا أصابها من تبدل ••

لم تعـد تشبه فتـاة « الحيّ اللاتيني » التي كنا نعرف ، في شـيء ! فنجمة « التابو » •• كانت لا تعرف من الألوان سوى الأسود ، شعرها المتهدل على كتفيها ، يغطي جبينها ، دوما ، ويحيط وجهها بدائرة سوداء ، لا ترى في وسطها سوى محجري عينيها ، محاطين بجفنين مدبجين بالسواد !

شعر « بيبيتا » ، في تلك الليلة ، كان معقوصا الى الأعلى ، يرفعه مشط إسباني ، من العاج ، تتوسطه وردة حمراء ، قانية ، تحاكي في لونهـا ، لون شفتيها المتلثتين •• بينما ، بياض جبينها المكشوف ، يتوج سواد عينيها اللتين بدتا ، وقـد أعفتهما من الكحل ، كماستين غريبتين ، لا شبيه لهما ! تنيرهمـا سـعادة داخليـة !

كانت « آني » كعادتها ، ترتـدي بنطالا يشد وركيها ، ويلف ساقيها ، فيزيد من رشاقة جسمها المشوق •• فما إن تبـادل الجميع ، قبلات الودّ ، حتى اتجهت نحـو « باتريس » وارتمت على المقعـد الى جانبـه ، مسندة رأسـها الى كتفـه ••

أعـــاد تشابههما ، صحبتهما السابقة الى الأذهان •• فلفهـــا « باتريس » بذراعه ، في حنان وألفة قديمين ، وراح يداعب وجهها بيده الطليقة ، فتعض « آني » على أصابعه ، ضاحكة متسلية ، فيبعدها ، ويضرب خدّيها في دعابة ، ورفـــــق ••

قمت أوزّع الشراب ، فسألتُ « آني » و « باتريس » ، عما يفضلان منه •• وكانت ألفتهما المفاجئة قد استحوذت على انتباهي ••

فقـــال « باتريس » ، جـــذلا ••

ـ نفضل النبيذ الأحمر ، يا صديقي ! هذه ليلة الحقيقة ! ولا يصح فيها سوى شراب الآلهـــة !

لم تك « بيبيتا » قد استوت على مقعد •

وقفت في وسط الغرفة تنظر الى حيث جلس « باتريس » و « آنـــي » ، تحاول أن تخفي ما تحسه من تساؤل ، وامتعاض ! ثم اتجهت نحو « جينيت » ، في خطى ثابتة ، وجلست قربهـــا ، تكشف إزارها النبيذي عن صدرها العارم الأبيض •• تعلق على قول « باتريس » وهي تبـــدي اهتمامها « بجينيت » ، وترفع خصلة شعر تهدلت على جبين صديقتها ••

ـ •• حقيقة الآلهـــة ؟ أم حقيقة البشر ؟!

ضحكت « جينيت » عاليـــا •• وقالت ••

ـ صحّحي يا عزيزتي ! صححي ! « حقائق » الآلهة ، أم « حقـــائق » البشـــر ! ان للأمور أكثر من وجه واحد •• أو حقيقة واحـــدة !

سخرت « آنـــي » ، مبتهجة ، وســـألت ••

ـ •• أنتما لا تتكلمان إلا عن الآلهـــة أو البشر •• والشيطان ؟ أليس من مكان صغير دافىء له ، في هـــذه السهرة العارمة ؟

قلت ، مغتبطا لما رُفعت عنه ستارة تلك الليلة ، من حوار ••

ـ بل أماكن ! أماكن عـــدة ! فلكل آلهـــة ، شيطانها ! أما آن الأوان لنصحح ما ســـها عن ذكره الأقدمون ؟!

أجـاب « مكسيم »

ــ •• « شـارل غوستاف » ! لقـد أحسنت ، يا عـزيزي ! فآلهـة الإغـريق •• كانت تحتوي شياطينها ، في تصرفاتها ذاتهـا ، لذلك لم يكـن من حاجة للتفريق بين هاتين النزعتين ، عند تلك الآلهة ! الخـير ، والشر ، كما نفهمهما اليوم •• فكرتان ، شرقيتان •• جاءتا من الشرق البعيد ، عن طـريق الفـرس ••

أردف « باتريس » قائـلا ••

ــ ليت هذه المفاهيم بقيت هناك •• فسلمت منها أوروبا ! وهل أجمل ، وأنبل من آلهة الإغريق ، تعيش جميع نزعاتها ! تحيا ، وتتصرف ، كأنها بشر ؟! وشعوب البحر المتوسط ، تحيا وتتصرف ، كأنها آلهة ؟! إن مفهوميّ الخـير ، والشر ، في شكليهما المطلق ، وباء ، أصاب أوروبا ! إن فكرة الخير ، المطلق ، شدت صورة الآلهة نحوها ، فأصبحت الآلهة ، إلهاً واحدا ، كله خير ، ثـمّ وجب أن يتجمّع الشر في حيز واحد فتجمعت الشياطين ، في شيطان واحـد ، كلّه شـر •• وها نحن في أوروبا ، بما لنا من جذور إغريقية ، تشعرنا أننـا ممثلو الآلهة على الأرض ، ها نحن ننوء تحت حمل هذا الانقسام السماوي ، نعيش هـذا الانقسام الآلهي ، فنتمزّق بين ما فينا ، من الآلهة ، من خـير ، وشـر !!

ضحك « مكسيم » ، وقال ••

ــ وهـل الوباء يفتك بغـير من أصابه الوهن ؟ إن جميع الحضارات سعت الى السعادة والرقيّ •• فجسدت هـذه المفـاهيم في نظـم مسلكيّة أخلاقية •• لست أعرف سوى أوروبا ، تعمقت في دراسة الشر ، حتى أوهمت سكانها أن الأرض ليست سوى موطن له ، وجعلت منها ، منفى للإنسـان •• مملكة ، يرتع فيها الشيطان ، كما يشاء ، تكاد ملائكة إله الخير لا تقوى على رفـع صوتها ، في حضرته !!

سألته ، مستوضحا رأيــه ••

ـ أنت تعني الدين ، في أوروبا ، بالطبع •• لكن جميع الديانات ، عـلى ما أعـلم ، تعالج الأمر من نفس المنظار •• فالخير ، والشر ، يتصارعان على هذه الأرض ، حلبتهما ، هي الإنسان ! فالموسوية ، والمسيحية ، والاســلام ، من أصل توحيدي واحد •• ليس من تباين كبير بينهما •• تكاد تجدها متفقة على مبادىء واحدة ، تلخصها هذه الوصايا : « لا تقتل ، لا تكذب ، لا تزن » الخ •• أليس الخير ، والشر ، عندها واحــداً ؟ وكذلك البوذية ، والتاوية •• فلماذا تستثني أوروبا ؟

هز « مكسيم » رأســه ، مبتسما ••

ـ الأمر يا عزيزي من الاختلاف بنسبة ما للناظر من مقدرة على التعمق ! فلو أنك جمعت اليوم أربعة مثقفين •• بوذيا ، ومسيحيا ، ويهوديا ، ومسلما ، ولنقل ، أربعتهم ، على مستوى دراسة جامعية واحد •• لوجدت ، أن مايجمعهم من النظرة الواحدة الى مفهوم الدين ، وما يرتبط بالدين من مفاهيم الخـير والشر أعظم مما يفرّقهم ! لكن ما أعنيه ، من اختلاف ، هو فيما يتعلق بأصل الدين ، وبجذور الأسطورة !ترى هــذه الاختلافات كامنة في رواسب لا تصل اليها العــين المجردة •• ولا يُحسن التمعن فيهــا ، سوى المتعمق في عــلم النفس ، ومدارسه المختلفة ! صحيح أن الأرض حلبة يتصارع قليها الخـير ، والشر ، في نظــر الديانات التوحيدية الثلاث •• لكن هذا الصراع لا يتخذ شكلاً مأساوياً مزمنا ، إلا في أوروبا !! فآدم ، في الديانات الثلاث ، واحــد ، والتفاحة واحدة ، لكن معنى عقاب الإنسان الأول ، هو من الفداحــة ، حسب المفهوم الأوروبي ، بحيث لا يمكن لعقل متفتّح ، في القرن العشرين ، أن يقبل شموله ، أو تدرّجــه المنطقي !

قالت « جينيت » متعجبة ••

ـ صحيح ! فأنا متديّنة في إحساسي ، حتى الأعماق ! فما إن أســأل نفسي •• ما معنى الخطيئة الأولى •• وأتساءل ، لماذا يقال لي إنني ولدت على

هذه الأرض وأنا في حالة خطيئة ، حتى أشعر بأنني مظلومة ، مهانة ! أودّ لو أنتقم من أحد ! كيف تلصق بي تهمة لا يد لي ، فيها ؟!

علّقتْ « آني » ، موافقة ..

ـ وكيف يغضب الله من آدم ، اذا أكل التفاحة ، وهو الذي خلقه أصلا من تراب .. فوضع فيه ما شاءت إرادته الإلهية ، من قوة ، وضعف ؟! خلق له حواء ، وخلق له جهله ، والتفاحة ! بل خلق له الشيطان ، وما له من مقدرة ضعيفة ، في الأصل ، على مقاومة الإغراء والشر ! حقا ! كيف يفاجىء الإله بما قام به آدم ، أو الشيطان ، وهو العالم ، سلفاً ، بكل ما سيكون ؟! كيف يعاقَب الانسان على فعلة ، قُدّر له أن يقوم بها ؟!

قلت ، على عجل ..

ـ لقد أعطى الله ، آدم ، القدرة على الاختيار !

سخِر « مكسيم » من قولي ..

ـ هذا كلام يسهل قوله .. ولا يمكن فهمه ! أليس الاختيار مشروطاً بالفهم والإدراك ؟ فكيف يملك الانسان مقدرة ما ، دون أن يملك شروطها ؟ هل يملك الإنسان شروط فهمه ، وإدراكه ؟ وفي حالة آدم .. هل كان لهذا ، يد في تقرير نسبة ما خلقه له الله ، من مقدرة على الفهم ؟ أو ما خلق الله فيه ، من سعة إدراك ؟ وهل سعة الإدراك ، هذه ، واحدة عند الجميع ؟!

ضحك « باتريس » وأضاف ..

ـ أنتم تنسون الشيطان ، دوما ، في أحاديثكم الرفيعة ! أليس ينطبق ما تقولونه على الشيطان ؟ فما ذنبه ، إذا عصى الله ، والله كان عالماً بمعصيته قبل خلقه ! وبالرغم من ذلك ، خلق فيه تلك المقدرة على العصيان !! فما ذنبه ، اذا خُلق على هذا القدر من « الشيطنة » ؟!

قال هذا ، وأكبّ على « آني » أصابعه ، على رأسه ، بشكل قرنين ، يقبّلها ، ويلعق عنقها ، مازحا ، يقلّد الشيطان !!

تابع « مكسيم » ، على مهـــل ..

ـ إنها أسطورة رمزية ، لم تَخْلِق سوى ذيول فلسفية ، في الشرق ! جعلت من الأرض محطة ، يعيش عليهـا الإنسان ، فترة مؤقتة ، قبل الرجوع الى ملكوت ربه ! أما في أوروبا ، فالأمر مختلف تماما ! كيف يقبل العقل أن أكل التفاحــة ، ذنب ، أوقع الانسانية في « حــالة خطيئة أبدية » .. يقتضي نزول الإله ، على الأرض ، بصورة إنسان ، فيصلب نفسه ، ليكفّر عنه ؟ أليس في هذا تفاوت لايعقل ، بين درجة الخطيئة وفداحة العقاب ؟ فالدين ، في أوروبا، يرى في الأرض منفى للإنسان، ومقرا للرذيلة والفساد ! ويرى في وجود الإنسان، على الأرض ، أمراً خاطئاً منذ البداية !! عليه ، وعلى ذريّته ، أن يكفر عنه ، الى الأبــد ! يخلق الله ، إنسانا ضعيفاً ، معرضا للخطــأ .. يعلم الله ، سلفاً ، أنه مخلوق ضعيف ، سيخطىء ، فيتركه ، عامدا ، في تلك الطريق ! حتى اذا ما أخطأ الإنسان ، عاقبه خالقه ، على خطيئة ، كان قد قضى عليه ، هو ، أن يقترفها ! يرميه بلعنة الخطيئة الأولى ، التي لا ذنب له فيها ! ثم ينزل الخالــق الى الأرض ، في صورة إنسان ، فيصلب نفسه ، ليكفر عن خطأ ، كان هو في الأصل ، قد قدّر على الإنسان أن يرتكبه !! لعمري إنها خطيئة الإله ! لا خطيئة الإنسان !! ولئن نزل ، ليكفّر ، عن خطــأ ما .. فلا بد أنه فعل ذلك ، ليكفر عــن خطئــه هــو !

ولو أن الامر اقتصر على ذلك ، لما تعدّى ، كون هذه القصة ، حــلّة أخرى ، لأسطورة بابلية قديمة ، أسطورة الإله « تموز » ـ وهذه كلمة تعني « الابن الحقيقي » ، في اللغــة السومرية ، والملقّب « بالرب » ـ الــذي قدّم ، قربانا ، للبشر ، ثم أحيَتْه أمّه ، « عشتار » ، وأعادته الى السماء ! أسطورة ، لهــا ما يماثلها عنــد قدماء المصريين ، في قصة الإله « إزيس » ، و« أوسيريس »، أو الاسطورة الفينيقية ، عن بعث « عشتارته » لـ«أدونيس»! كل هــذه أساطير ، عن الآلهة ، فيها ما يودّ الإنسان أن يجــده من رموز ! أما الدين هنا اليوم ، فإنه لا يعطي للإنسان من سبب ، لوجوده على هــذه الأرض ، إلا أنه خـُلــق ليكفّر عن خطاياه ! فاللذات محرمة علينا ! والمتعــة

الدنيوية ، أيــة متعة ، هي طريقنا الى جهنم والعذاب ! حتى الجنس ! لا يحق لنــا أن نتعاطاه ، إلا في سبيل متابعة الخليقة ، اذا ما تعاطاه أحدنا ، وهــدفه في ذلك اللذة الجسدية ، اقترف خطيئة ، توجّب عليه الاعتراف بها ، والقيام بالكفــارة عنهــا !

قالت « بيبيتــا » ، ساخرة ••

ــ على هذا •• فليس على هذه الأرض من متديّن حق ، واحد !

أجــاب « مكسيم » على الفــور ••

ــ بل مئات الملايين منهــم ! والكل ، في قرارته ، يعرف أنه بعيد عــن الدين ، مخالف لتعاليم كنيسة ، هي في الأصل ، في حيازتها على الثراء المادي ؛ مخالفة لتعاليم المسيح !

ــ ومن يدريك أن الموسويين ، أو المحمديين ، هم أقرب الى دينهم منا ؟!

ــ قد يستوون في الشعور بأنهم بعيدون عن تطبيق تعــاليم دينهم ، اذا ما تقاعسوا في تطبيــق هــذه التعاليم ، لكــن ذلك لا يبعث في نفوسهم ما نشعر به نحن ، من قلــق جذري ! نمضي حياتنا في مصارعته ! والسبب في ذلك بسيط •• فليس في الموسوية ، أو المحمديــة ، من الشروط المسلكية ، ما يصعب على المؤمن تطبيقه •• وليس فيهما من الفرضيّات الدينية ، ما يناقض الشروط الحياتية اليومية •• الطبيعية ••

نظرَتْ « آني » ، الى « مكسيم » ، في شيء من التحدّي ، وقالت ••

ــ « مكسيم » •• أراك تخوض في تفاصيل ، لا أظنك تعرفها ، حــق المعرفة ! أتعــلم أني يهودية ؟ وأؤكد لك ، أن في التلمود ، من التعــاليم ، والشروط ، أضعاف ما في التعاليم الكنسية ! وقلائل منــا ، من في مقدورهم تطبيق هــذه التعاليم ، بالحرف ، ثم الشعور بالرضى عما يفعلون !

ــ إنما هي شروط كمية ، يا « آني » ، لا كيفية ! لئن قصر الإنسان في تطبيقها ظلّ في قرارته ، على قناعة ، أن ما ينقصه هو مزيد من الجهــد ، كي

يصل الى الهدف المنشود ! فليس ما يمنع المحمدي ، من أن يحيا حياة جنسية متكاملة ، وهو في كنف تعاليم دينه ! أين هــذا ، من تعاليم الكنيسة ؟ التي تفرض على الشاب المتديّن أ ن ينسى ، أن له عضوا ذكرا !! ألا يمسه ! ألا ينظر اليــه ، كي لا يفكّر بــه ، فتغزوه الأفكار الجنسية ، الشيطانية !! ســلي « باتريس » ، إن كنت لا تصدقين ما أقول !!

ضحكت الفتيات مليّاً ، لما سمعن ! ونظرت « آني » ، الى « باتريس » ، في دهشة •• تسأله ••

ــ •• أحقا ما يقوله «مكسيم» ؟ ومن فرض عليك هذه التعاليم ؟! وأين ؟

ــ في الدير ! لقد قضيت سنتين ، من طفولتي ، أتهيأ لحياة دينية ! سرعان ما تركتها ، هاربا !! كنت أومن حقا أنني في تناولي للقربان ، آكل من جسد المسيح ، كل صباح •• وأشرب من دمه ! ولا أفهم سبب ذلك !! كان القصد ، بالطبع ، من هــذه الطقوس ، هو أن نشعر أننا في التحام عضوي ، دائــم ، مع القوى الإلهية •• ولعل هذا هو ما يحسّه الكاهن ، أو الراهب ، أو أي رجل بالغ متديّن ، يعرف مسبقا ما المقصود « بالإله » و « القوى الإلهية » ! أما أنا •• حينما كنت طفــلاً في العاشرة من عمــري ! فتلك ، كانت كلمات جوفاء ، بالنسبة إليّ ! في حين أن عملية الأكل من جسد المسيح ، كانت حقيقة ملموسة ، كنت أقوم بها ، كل صباح ، وأنا أرتعد من خوف مبهم داخــلي ، فأشرب من دمــه ، لأبتلع لحمه ، الحلو المذاق ، فأشعر ، أن ما أقوم به ، أقرب الى السحر ، والجريمة ، منه الى الصلاة والعبادة !!

قــلت مفسّرا ••

ــ لا بد أنها طقوس مستوحاة من طرق قديمة في العبادة •• فيها ما يفتن الإنسان ، ويهز جذورا بدائية ، في حيز اللاوعي ، عنده !

ــ لعل هذا كان صحيحا ، منذ ألفي سنة ! لئن كانت الطقوس ، نافعــة من ألفي عــام ، فما حاجة الانسان اليها اليوم ؟! أين الحضارة في مثل هــذه الطقوس ؟! وما المعنى من ربط مثل هذه الطقوس البدائية بإحساسات الإنسان

السامية ؟! لا يا عزيزي ! عليك بقراءة رســائل « جيد » الى « كلوديل » •• فلو أنك أمعنت البحث ، والتفكير •• لوجدت أن الديانة ، في أوروبا اليوم ، لم تبــق قضية إيمان بالله ، إيمان بقوة عظمى خلقَتْ هــذا الكون •• بــل أصبحت ، في معظمها ، قضية تأدية طقوس !!

قلتُ على عجل ، وقد أمضّني ما أوحى إلي كلامه ، من شعور ••

ــ هذه طقوس ، ليس إلا ! أنت تعرف بالطبــع أن الرسالة المسيحية ، براء في الأصل ، من مثل هذه الطقوس !

هز « باتريس » رأسه في حزن بعيد ، وقال ••

ــ ألم يُقل لنا ، إن المسيح قال « إن لم تأكلوا جسد ابن البشر ، وتشربوا من دمه ، فلا حياة لكم في أنفسكم » ! وحتى لو اعتبرنا أنه ما أراد ، مــن كلامــه ، سوى الدلالة الرمزية ، وأن ما أتى بعــده ، من تطبيقٍ لكلامه ، لم يكن سوى طقوسٍ لا علاقة للمسيح بهــا •• فلو حذفنا هذه الطقوس •• لو قبلنا جــدلا بأن جميع الطقوس مستحدثة على رســالة المسيح •• فماذا يبقى من المسيحية ؟ ماذا يبقى من الرسالة العظيمة ؟

ــ تبقى الوصايا ! ورسالة المحبة الإنسانية !

ــ الوصايا ؟ وهل هــذه في عرفك أمور دينيه سماوية ؟ « لا تقتــل » « لا تسرق » « لا تكذب » •• هذه أمور أخلاقية ! قوانين أرضية بحتة •• أصبحت اليوم جزءا من كتب القــانون ! يعاقب من يخالفها ، كالسائق ، اذا خالف إشــارة السير !

ــ •• تبقى رسالة المحبة !! وهل أعظم وأسمى منها ؟!

قال « باتريس » •• يكاد يكلّم نفسه ••

ــ الهذا نزل الإله الى الأرض ؟ أليقول للناس أحبوا بعضكم بعضــا ؟ أتظن أن الإنسانية كانت باتنظار الأديان ، كي تعرف هذا الشعور ؟ أتظن حقا أنهــا لم تعرف الحب ، أو المحبة ، قبل ذلك التاريخ ؟! وأن الناس تحابوا بعد نزول هذه الرسالة أكثر من ذي قبل ؟! كم من مئات ألوف الأرواح ، زهقت ،

باسم رسالة المحبــة هذه ؟! كم سبّبت من حروب ؟ كم من المعابد ، والهياكل بُنيت ، تعددت أزياء كهنتها •• وتباينت طقوسها ، وتبدّلت ، لتفرض تفاسيرها المختلفــة لجميع رسالات المحبة !! كم من الأحقاد ، والكراهية ، غلت وفارت ، في نفوس دُعاتهــا واتباعها ! دعــاة المحبة !! ألف وتسعمائة وثلاث وخمسون سنة من الحقــد ، والكراهية ، والقتل ، والتدمير ، اجتاحت عالمنا الغــربي ، باسم رسالة المحبــة والغفران !! بتّ اذا سمعتُ من يقول « أحبوا بعضكم بعضا » ، أسمع صدى التاريخ يردّد ، « اقتلوا بعضكم بعضا » !!

ــ والمحمدية ؟! هل انتشرت بالإقناع ؟ أم بالفتوحات ، وحدّ السيف ؟!

ــ صحيح ! لكن « الفتح » ، و « الجهــاد » في مفهوم المحمدية ليسا على نقيض مع التعاليم المسلكية لذلك الدين ! وهي القائلة بـ « العين ، بالعين » و « السن ، بالسن » !!

وتدخّل « مكسيم » قائلا ••

ــ هذا ما كنت أعنيه بالضبط ! فالمحمدية لم تخترع مُثُلا ، وطرقا في السلوك ، تنافي طبيعة الإنسان ! تشعره أنه على تناقض مع ذاته ! تشعره إنــه ملوث باحساساته الطبيعية ، وشهواته ! موصوم بهــا !!

صاحت « جينيت » نزقــة ••

ــ كفى ! أرجوكم ، أنا لست على مثلكم من الطلاقة الفكرية أو التحرر من الرواسب ! كلما جــاء ذكر الدين ، أحسست بغمامة تطبق على نفسي عند سماعي مثل هذا النقاش ! ألا يكفي للإنسان أن يعتقد بالله ، وتنتهي المشكلة عنــد هذا الحد ؟! هنالك خليقة ، وهنالك إنسان لم يخلقها •• إذن هنــالك خالق ! ما حاجتي الى الدين ، الى أيّ دين ، ما دام إدراكي بخالقي ، أمــراً مباشراً ؟ ما حاجتي الى الوساطة ، ما دامت ، علاقتي به ، مباشرة ؟!

تدخّلت « بيبيتا » ، تشد أزر صديقتها ••

ــ فما حاجة الإنسان الى أكثر من هــذا ؟ هل يزيد من قدر الإله ، أو

ينقصه ، أن آكل من جسد المسيح ، كل صباح ؛ أو أن أعاف الأكل ؟ ! وهل يزيد جلال الملكوت الآلهي ، لو سجدت له ، خمس مرات في اليوم ؟! ما حاجة الإنسان الى الوسطاء والأوصياء ، يقفون بينه وبين خالقه ، يفسّرونه له ، كل ، بحسب علمه أو جهله !! فينقصون من صورة الإله ، بمقدار نقص إدراكهم لسرّه ولملكوته الفسيح !

ضحكت « آني » ، وقالت ..

ـ وكيف يعيش رجال الدين ، إذا تخلّوا عن وساطتهم بين الإنسان والإله ؟ إنهم اليوم ، ملايين في العالم ، نصّبوا أنفسهم وسطاء بين الإنسان والإله ! مؤسساتهم ، تضاهي في ثرائها ، وتنظيمها ، وتكتّلها ، كثيراً من المؤسسات العسكرية .. وألبستهم ، تضاهي في غرابتها ، ألبسة الممثلين !!

قال « مكسيم » ..

ـ صحيح ! وإن هذه المؤسسات ، لفي تقلّص مستمر .. في العالم اليوم ، حوالي ثلاثة مليارات من البشر .. ثلثاها ، غير مكترث للدين ، يعيش في ظل معتقدات وأنظمة سياسية تنفي فلسفتها أصلا ، وجودَ الإله ! لكن المشكلة أبعد من هذا .. فالدين ، في تاريخ الإنسانية ، سابق لوجود الكهنة من رجاله .. والحاجة المبهمة الى تأدية الطقوس ، هي التي أوجدت صورة هذه الطقوس ، على اختلاف أنواعها ! وطوّرتها ، حتى أصبحت على ما لها من تعقيد ، في ديانات اليوم ! الدين ، كما نفهمه اليوم ، ليس سوى جواب ، متطوّر ، لحاجة الإنسان البدائي ، لفهم المبهم من قوانين الطبيعة ، والمخيف من ظواهرها ! إنه جزء من جهله ! جواب ، يرجع تاريخه السحيق ، الى الشعوذات ، والسحر ، عند الإنسان البدائي .. والطوطمية ، عند إنسان ما قبل التاريخ ! كان ساحر القبيلة يعرف كيف يهدّىء مخاوف الآخرين .. فيفسر كل أسرار الطبيعة ، بألغاز ، أعقد من تلك الأسرار ! يدمج تفسيراته ، بطقوس ، يوهم الجهلة أنه يفهمها ، وها هو ذا الكاهن ، اليوم ، يقوم بالتفسيرات نفسها ويحيطها بالألغاز نفسها ! كان للساحر دوماً ، زيّ غريب ، يضفي عليه هالة يتفرّد بها عن بقية أفراد القبيلة .. وها هم الكهنة اليوم ،

وجميع رجـال الدين ، لا يمكن أن يتخلوا عن تلك الهـالة •• لا يمكن إلا أن يتفرّدوا ، هم الآخرون ، بألبسة تخالف ما يرتديه بقية أفراد المجتمع •• كأن اللباس المختلف ، إشـارة الى تفرّدهم بمعرفة الغيب ، وأسراره !

أضاف « باتريس » قـائلاً ••

ــ وهذا يفسر ما كنا تتعلّمه ، من طقوس الدين والصلاة •• فكما أن التقرب من القوى المجهولة ، المحركة لعوامل الطبيعة ، كان يستلزم التضحية بما هو غـال •• والقيام بحركات ، وطقوس معقدة ، غريبة ، كذلك الصلوات في دور العبادة اليوم •• تنوب الصدَقَة فيها ، عن القرابين •• وتنوب ذبائح الخراف ، خارج المعابد ، عن الذبائح داخلها •• ويقوم جميع المصلّين ، على اختلاف أديانهم ، بحركات غريبة ، وبترديد أقوال ، يظن أنها تُقرِّب الإنسان من الإلـه ، المحرك الأول ، لما لا نزال نجهله من قـوى الطبيعة •• فنسميها « قوى ما فـوق الطبيعة » ••

عادت « جينيت » الى القـول ، بنزق ••

ــ أما وقـد غصتم ، في الطبيعة ، وما فوق الطبيعة ، وما تحتها ! فأنا ما زلت طبيعية جداً ! وأود مزيدا من النبيذ ! أليس من فارس ينجدني ؟!

قمت أملأ كأسها ، فإذا بـ « بيبيتا » تنبري واقفة •• فتأخذ الزجاجة من يـدي ، وتقول لهـا ••

ــ جميع فارسات « الأمزون » في خدمتك ! فما حاجتك الى الفرسان ؟ وملأت كأسا ، تناولته « جينيت » قائلة ••

ــ هاتي ! عزيزتي •• هاتي ! هذه أول كلمة ، حقيقية ، تقال في سـهرة الحقـائق هـذه !

تعجبتُ لقولها ، فأردفَتْ على الفـور ••

ــ •• وإلا ، فما هذا اللف والدوران ؟! تودّون نفي الآله ! أو لعـن الدين •• فافعلوا ذلك صراحة ! أو ناقشوا في ذلك ، رجال الدين !

قالت « آني » موافقـــة ••

ـ بالضبط ، فأنا لا أهاجم أحـــداً ! أو أنفي وجوده ! على العكس •• إني بحاجة الى وجود الله ، أطمئن ، إذ أعلم أن هنالك حياة ما ، بعد الموت ! ! ألا يرهبكم أن تشعروا أن لا شيء بعد الموت ؟ سوى العدم ؟!

قـــال « مكسيم » ، ••

ـ ••ليس أصحّ مما تقولين ! ألا ترين ما يستتر من دوافع وراء كلامك ؟ والحاجة أمّ الاختراع ! إنها حاجتك لقوة تدرأ عنك المجهول ، إن خوفك •• هو الذي يدفعك للتشبث بوجود لا يقبل به عقلك ! ولئن كان هذا هو حـــال إنســانة مثقفة مثلك ، من القرن العشرين •• فكم تتصورين كان عظم خـــوف الإنســان البدائي ، وحاجته النفسية ـ العضوية ، الماسة ، الى خاق هذه القوى في ذهنه ؟! يحتمي وراءها ، ويختبيء مما يخيفه من مجهول !

قلتُ متعجبــا ••

ـ إذن •• ليس بعـــد الموت سوى العدم ! على حد زعمك !

ـ « العـــدم » ؟ هذه كلمة كبيرة ! لا معنى لهـــا ••

سألته متعجبــا ••

ـ « كلمة » ؟ انهـــا تصور لحالة انتهاء الوجود •• أتسمّي هذا كلمة ؟

ـ « حـــالة انتفـــاء الوجود » ، تعريف ، يناقض نفسه ! يعود ليؤكّد وجوداً آخراً ، من نوع آخر ! يؤكّد وجود « حـــالة » واقعية ، ينتفي فيها الوجود ! حيّز سلبي ، أو ، سمّه ما شئت •• يمكن أن ينتفي فيه الزمـــان ، والمكان ، فكيف نشترط مثل هـــذه الحالة لوجود العـــدم ؟ ثم نقبل تصور العـــدم ، المطلـــق ؟

ـ لم أفهـــم ما تقـــول !

ـ إن « وجود العـــدم » يا عزيزي ، يعني « وجود » ، « اللاموجود » ! فكيف يمكن ذلك ؟ إن مئات صفحات الشرح لـ « العدم » عند « سارتر » لم تنجح إلا في وصف العـــدم ، على أنه « شعور » بانتفاء الوجود ! شـــعور !

لا « واقــع » ، موجود ! أما أن تتكلم عن « العــدم » ، على أنه « واقع » ••
فليس لذلك من معنى ، سوى أنه وجــود" ، من شــكل آخر ! كيف نسمي
« وجوداً » ما تتحدث عنه ، بـ « العدم » ؟!

ــ إذن ، فالوجود ، ومفهوم العــدم ، صنوان ••

قال « باتريس » ضاحكا ••

ــ بالضبط •• فبدل أن تقول ، اذا « زال الوجود » ، « بقي العدم » ••
نقــول ، اذا زال الوجود •• زال العــدم ••

ــ •• لأن العــدم « لا يمكن أن يبقى ، » •• وإلا أصبح وجــودا في حــد ذاتــه !!

أضاف « مكسيم » ، مبتسما ••

ــ لذلك ، فبما أن العدم ، مستحيل •• فالوجود ، إذن ، أزلي ! لأنــه لا يمكن تصور حالة « خلقه » ! فـ « الخــاق » يتضمن معنى وجود حــالة « عــدم » ، سابقة لوجوده ، أي « وجود العدم » ، و « العدم » كلمــة ، لا معنى لهــا ! إن القول بـ « وجود العدم » انما هو تعريف يناقض نفسه ! فـ « الخلق » ، بكل بساطة ، أمر مستحيل !

صاحت « جينيت » نزقــة ••

ــ كيف خلق الكون ، إذن ؟ من الذي أوجده ؟ ألم يخلقــه أحد ؟!

أجبتها مستنداً الى حوار « مكسيم » ••

ــ لو أنكِ فهمتِ قول « مكسيم » لأدركت أن الكون أزلي ! الكون لم يخلــق •• لأنه موجود منــذ الأزل •• وسيبقى الى الأبــد !

قالت ، هــازئة ••

ــ أليست هــذه صفات الإله ، التي استكثرتموها عليــه ؟

أجابهــا « باتريس » ،

ــ إنها صفات استنبطها الإنسان لما أبدعه من آلهة ، عندما وقع في أشكال

« من خلـق الله » ! وكان قد قَبِل ، خطـأً ، بديهية أن « ليس هنالك من سبب ، دون مسبِّب ، إذن ، فإن للكون مسبِّباً ، أي خالقـاً ، هو الله ، أو قوة ما ، نسميها الله ! فلما تساءل ، بعد ذلك ، عن المسبب الأول لهذه القـوة ذاتها ، طال به البحث ، حتى خلص الى نتيجة ، غريبة •• استثناء ، ينـاقض نفسه ! قال ، « إن الخالق ، هو نفسه ، سبب وجود ذاته » •• هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، فالإنسان لم يطرح مشكلة وجود الله ، بشكل منطقي ، إلا منذ أن تساءل عن المسبب الأول للوجود ، والحياة ، والكون ! وهذا ، منطلق ، يغاير تماما ما كنـا نحن بصـدده ••

قالت « جينيت » سـاخرة ••

ـ بما أنني ، في هذا الجمع الرفيع ، لا أُمثّل سوى الإنسان البسيط ، بل الإنسان البـدائي ، في عرفكم ! فلا ضير أن أعترف أنني لم أفهم وجهـة الاختـلاف !

أجـاب « مكسيم » متأنيـاً ••

ـ أنا لم أطرح مشكلة الألوهية ، أو الإلحاد ! بل لم آت على ذكر الإله إطـلاقاً •• إن ما كنا نعالجه ، هو مشكلة « الوجود » •• و « العـدم » ، فاذا استحال « وجود » العدم •• ثبتت « أزلية » الوجود ! هل هذا ، مفهوم ؟ وفي هـذه الحال ، أي ، اذا كان الكون موجوداً ، منذ الأزل •• تصبح عملية الخلـق ، مستحيلة !! معنى ، وفعلا !!

ضحكت « بيبيتا » •• وقالت ••

ـ فاذا لم يكن هنـالك « خَلْق » فكيف يكون هنالك ، خالق ؟!

عقبت « جينيت » ، سـاخرة ••

ـ هكذا ! وبكل بساطة ! أما أنا •• أيهـا الأعزاء ! فسواء كان مبعث الأمر عندي ، عن حاجة ، أو غير ذلك •• فأنا أؤمن بأن هنالك شيئاً ما وراء قوى هـذا الكون ! شيئاً أكبر من فهمي وإدراكي !! أكبر من عقولكم المليئة بالادّعـاء !!

قطعت « بيبيتا » قولهـا ••

ـ لا •• لا ! مسألة « الإيمان » ، هذه •• أمر آخر !! أنت ، « تؤمنين » بما لا تفهمينه ، وغيرك ، يؤمن « بزيد » ، وآخـر يؤمن « بعمرو » ! تطرحين قيما ، تودين إثباتها ، لمجرد أنك تؤمنين بها ! هذه بساطة ، في التفكير ، قـد تصـل ببعض الناس الى الإيمان بالجنّ ، أو بالعفاريت ! بل بمخلوقات من محض تصوراتهم •• خطوة أخرى ، وتؤمنين بالهلوسة يا عزيزتي !!

وافقت « آني » قـائلة ••

ـ أليس معنى كلمة « إيمان » هو ، التصديق ، أو الاعتقاد ، بأمر ما ، عن غـير طريق المحاكمة ، والعقل ؟

سـألتها متعجبا ••

ـ وهل تقبلين بسلوك مثل هـذه الطريق ؟

ـ أنا ؟ مهما قصرت محاكمتي ، وضاقت سعة إدراكي •• فلا يمكن لي أن أطمئن الى رأي ، ما لم أهضمه عن طريق العقل ! ما لي أرى « مكسيم » يتبسّم ؟ هـل فيما قلته ، من خطـأ ؟

أجـاب « مكسيم » على الفـور ••

ـ وبما أن هـذه ليلة الحقائق ! فيجب ألا تتوقف عند أي منها ، مهما صعب تقبل نتائجه ! إن كلامك عن العقل ، يا عزيزتي ، هو الصواب ، عينه ! لكن الإنسان لا يملك سوى عقـله ، أداة لفهم الطبيعة •• والعقل ، في الوقت نفسه ، جـزء من هـذه الطبيعة •• يتغذى بوسـائل الإحساس التي لدى الإنسان •• وهي أدوات ناقصة ! إذن ، فالعقل ناقص ! وكل محاكمة تنتـج عنه ، إنما هي ، بالضرورة ، ناقصة ! هـذه هي الطامة الكبرى ! فالإدراك ، محدود بالجسد ، كالنبات المحدود بوعائه !

صاحت « بيبيتـا »

ـ يا آلهي ! ما هـذه المتاهات ؟ لا نملك سـوى أداة ، ناقصة ، لفهم الحقائق ! فنصل الى نتيجة منطقية محتومة •• وهي ، أن جميـع محاكماتنا

ناقصة ! إذن ، كل ما نكتشفه ناقص ! فإذا كان الأمر كذلك •• فكيف أصدّق مثل هذا الاستنتاج الأخير ؟! اذا كان كل ما يقال ، مشكوكاً في صدقه •• فكيف أصدق هـذا الحكم ، نفسه ؟ كيف في وسعي ألا أشكّ في حكمي هذا الأخير ؟! كيف لا أشكّ ، في شكي ؟!

ضحك « مكسيم » من ضياعها وقال ••

ــ بل تشكّين ، في شكك •• وكفى !

ــ أعرف أنها عقدة فلسفية قديمة •• كيف أتخلص منها ؟!

ــ وماذا تعطيني مقابل ذلك ؟ ماذا تعطيني إذا خلّصتك منها ؟

لمعت عينا « بيبيتا » ، وقالت ••

ــ في هذه اللحظة ؟ أي شيء تطلبه !

ــ تكفّين عن مغازلة « جينيت » ، وتعيدينها إليّ !

بان ومض خيبة على عينيها ، لما سمعت •• صمتت برهة ، ثم قالت •• كأنها تتذكر أمراً فاتها ••

ــ وإن قبلْتُ ، فهل يكفّ « باتريس » ، عن مغازلة « آني » ؟! وهل يعيدها إليّ ؟!

توقّف « باتريس » عن مداعبة « آني » •• وهمّ بالكلام ، لكن « آني » بادرت الى إجابة « بيبيتا » ••

ــ أنا ، التي أغازله •• يا عزيزتي ، وليس هو ! أنا التي أُبادر أيّا كان ، بالغزل ! ولا أقبل أن يبادرني به أحد ! ورغم ذلك •• فإنني ••

تدخّلت « جينيت » ، هازئة ••

ــ تظنين أن « باتريس » على غزل معك ؟تتوهمين ! ألا ترين كيف يتبادل ، و « مكسيم » ، الأفكار •• كأنهما يتبادلان القبل ؟

* * *

تملّكني كمــد مفاجىء ! كنت منذ بدء الحوار مرحا ، سعيدا ، أرى ثلة الأصدقاء ، في داري ، فأحس ، كأني قد ربطت صلة حقيقية مع عالم الحي اللاتيني ، وإذا بي ، أحس فجــأة ، أني على بعد أميال ، طويلة ، منه !!

عالمي ، من قبل ، كان منفصم الجذور •• يشب ، ويترعرع فيه ، نوعان من العلاقات •• إما الفكرية والإنسانية ، من جهة •• أو الاجتماعية والعاطفية ، من جهــة أخرى •• ليس من السهل وصف ، أو تحــديد ، معالم شــجرة ، مزدوجة الجذور والاغصان •• تجيء ثمارها ، دوماً ، مخالفة لقوانين الطبيعة ! أحسست بكمد ، لأني فطنت ، فجــأة ، الى أني لست على ذلــك الاتصال المتكامل ، الذي ظننت أنني قــد أوثقت عراه مع أصدقائي ! وإلا ، فأين كنت أقف مما بــدؤوا يتراشقونه من نبال عاطفية ؟! لمــاذا أُقصيت عن متاهاتهم الحياتية ؟! ألم يكــن لي بينهم ، من مكان ، سوى رحاب النقاشات الفكرية !؟

كنا في مركب واحد قبل أن يستلّوا سهام العاطفة •• ما لي أحس نفسي وحيدا ، في المــاء •• وأرى مركبهم يبتعد عني في الضباب الكثيف ؟!

* * *

وجدتني أســأل من حولي ، حائرا •• نزقا ••

ــ كيف تتكلمون عن مثل هذه الأمور •• لماذا ؟ لماذا تكشفون •• من••

قطــع « باتريس » كلامي •• هبّ واقفا •• كأنّه أدرك ما ينتابني ، فقال ، في بطء شديد ، وبلهجة مسرحية ••

ــ لماذا تكشفون •• للشمس ، ما وُلد •• ليعيش في الظلام ؟

كان لكشف ما يعتمل في نفسي ، على لسان صديقي ، وقع غريب عــلى سمعي ! تنازعني شــعور بالشلل ، وإحساس بالهياج ، والغضب ! فشدّدت على أسناني ، أتبسّم ، وأجاهد في ضبط أعصابي ! لعل النبيذ كان قد نــال منّي ، لكني وقعت تحت سـيطرة إحساس مبهم بالتحدّي ! وطفت عــلى

مخيلتي ، صورة ما قـام به « باتريس » تلك الليلة في « التابو » ، فقلت له ، ابتسم ، بمرارة ، لهزئه من وحـدتي ..

ـ أنا ، الآخر .. عندي قصيدة من شعر « لوركا » لهـذه اللحظة !

صفّقت « بيبيتا » ، وصاحت ، مشيرة الى قيثارتي .. ثم تابعت قولها ، تحضني على الكـلام ..

ـ عليّ بهـا ! هات يا « شارل » ما عندك .. هات من شعر بلادي !

فما إن أوقفتُ موسيقى « باخ » ، عن الحاكي ، حتى راحت تضرب على الأوتار بمقدمة أندلسية ذات هدير متّصل ، يتمازج مع إيقـاع ثلاثي ، يعلو ، ويتصارع ، في توتر ظـاهر .. يتوقف فجـأة .. ثم يعود الى الهدير المتصاعـد ..

أُخذتُ بسحر المفاجـأة !!

أحسستُ كأني ، فعـلا ، تحت أضواء « التابو » ! تنظر إليّ عيـون المتفرجين في الظلام ! فما إن سمح لي ايقاع ما تعزفه « بيبيتا » ، أن أرافقها ، حتى وجدتني ألقي لـ « لوركا » قصيدة ..« .. وحيداً .. وقع على الطريق.. وفي صدره خنجر ! آيـي !! كيفارتعد المصباح ، يا أمي . آيـي !! كيفارتعد المصباح !! » ثم أفلت مني ضحك ، عصبيّ ، متوتر . كدت أنزلق بعـده في رغبة بالبكاء ! لولا أن هبت « جينيت » إليّ ، تعانقني ! وتحضني على الرقص معها ! فانقلب توتّري ، ضحكا طبيعيا ! ورحنا ندور وندور ، نقلد الإسبان .. بين « فلامنكو » و « تانغـو » . أقوم بحركات عنيفة تلقائية ، غير آبه بوقعها على غيري ، حركات ، ما كنت أظن أني قـادر على التغلب على حرجي أمـام الناس ، حتى أجرؤ على القيام بهـا ! فانتابني شعور طاغ ، بأني انتصرت على خجل دفين في نفسي ، بأني تغلبت على وحدتي !! وأني ارتميت ، لأول مرة في حياتي .. مع تيـار الحيـاة !!

* * *

رن جرس الباب ، في تلك الأثناء •• فلم أعره التفاتاً •• كان النبيذ قد نـال منّا جميعا •• قام « باتريس » يفتح للطارقين ، واذا هم ، ضيوفنا الذين كـدنا ننساهم ••

لم أر ، إلا « غونثر » يحيط خصر فتاة شقراء بذراعه ، يقفان قـربي ، ثم يشرعان في محاكاة ما كنت أقوم به ، من رقص مع « جينيت » ، بينما صاح « جـون » ، وهو يصب النبيذ لنفسه ••

ــ أرجو ألا تكونوا قد سبقتمونا الى النشوة بزمن طويل !

وجرع جرعة كبيرة ، تناولَتْ مثلها ، صديقته ، التي كانت على مثـل نضارة رفيقة « غونثر » ، وجمالهـا !

وقفت « آنـي » : مبتهجة ، لوصول الضيوف الجـدد ، ولاندماجهم بمرحنا ! فصاحت تخاطبنا ، مشيرة الى رفيقة « غونثر » ••

ــ أيها الأصدقاء ! هـذه الإلهة الشقراء تدعى « هيلدغار » •• إنها كما ترون ، لفي رقص « جرماني » مـع زميل لهـا ، من « الفيلهاللا » ! لا وقت لديهما لمصافحة البشـر !!

كانت عيون الجميع قد تعلّقت على جمال الزائرتين الجديدتين •• لا تود مفارقتهما !

راحت « هيلدغار » تميـل برأسها بخفـة ، يميناً ويسارا •• فتتماوج خصلات شعرها ، كالذهب ، على كتفيها •• ضحكَتْ بدلال ، لمقدمة « آني » وقالت بصوتها الرقيق ••

ــ •• لا •• أمي فقـط ، « جرمانية » الأصـل •• والدي من صلب « الفايكنغ » الأوائل ، من أقاصي الشمال !

تابعت « آني » مشيرة الى رفيقة « جـون » التي وقفت ، كأنّ الكأس قد اعتلق شفتيها ، تبتسم ، رافعة حاجبيها ، تنتظر ما ستقوله « آني » ••

ــ •• وأنت ؟ هل تدرين من أنت ؟ أنت كل ما أود ، وأشتهي ، في هذه اللحظـة !

تلا قولها لحظة صمت ، بانت الدهشة فيهـا على وجوه الجميع ! كانت « جينيت » أول من أفاق منها ، ضحكت عاليا لما عدّته مزاحاً ، من « آني » - وجـرأة مسرحية !

توقفت « بيبيتا » عن العزف ! وضعت القيثارة جانبا ، تقول ، هازئـة مـن « آنـي » ••

ــ قولك هذا ، لم يعرّفنا إلا على عواطفك وميولك المتقلّبة ! نحـن ما زلنا ننتظر أن نعرف اسم الآنسة الجميلة !

ولما لم يحر أحد جوابا ، قالت الفتاة بصوت ناعم ، وباستحياء •• دهشة من الصراحة المفاجئة التي بدت في عيني « بيبيتـا » ••

ــ أنا •• « هيلينـا » ••

واحتست ما في كأسها ، دفعة واحدة •• ثم رفعتها الى « جون » ، كي يمـلأها من جـديد ••

قال « جون » ، متمتما ، وليس مثله من يعرف كيف يبدو عالما بما يدور حوله ، غير مكترث به ••

ــ كنت أقول •• لئن سبقونا بكثير ، الى الشراب •• فعندي مفاجـأة لكم ! إن معي ، من المحظور ، ما يوصلنا الى النشوة في لحظات ! فهـل من شـريك ؟

وأقبل على علبة سجائره ، يذرّ ما فيها على ورقة ، ثم يعيد لفّها مـن جديد •• ثم راح يفرق اللفائف على من حوله من الأصدقاء ••

* * *

أمسكتُ بمفتاح النـور ، أود أن أخفت من حـدة توهجه •• فقـام « باتريس » على عجل ، وأدار مجموعة « الليليات » ، « لشوبان » ، علـى الحاكي ، قبل أن يعود الى حيث تمدد على الأرض ؛ حذاء « آنـي » ، التي جلست قرب « هيلينا » و « جون » •• وفي المقعد التـالي ، المقابل ، جلس

« غوتر » ، بين « بيبيتا » وصديقته « هيلدغـار » ، وكانت الأولى ، قد أحاطت كتفي « غوتر » بذراعها ، وراحت تداعب في الخفاء ، شعر الضيفة الجـديدة ••

أدرتُ المفتاح ، أخفف التيّار الكهربائي ، فخبَتْ جميع مصادر النور في الشتة ، مرة واحدة حتى بدا المكان ، كأنه مضاء بشموع برتقالية ، داكنة ، متفرقة في أرجـائه !

تقدمتُ من « جون » ، وأنا بطريقي الى مقعدي ، فأخذتُ منه لفـافة ، أشعلتها ، وحبست دخانها في صدري ، وأنا أرتمي لصق « جينيت » ، التـي أحاطت عنق « مكسيم » بذراعهـا ••

* * *

مضت برهـة ، لا أذكر مدى طولهـا ••
قال « جـون » في صوت مسرحيّ ، مفتعل ••
ــ •• أكون •• أو لا أكون •• هـذا هو السؤال ••

قهقهتْ « بيبيتا » عاليا لقـوله ، فبُهت هذا ، وكان قد ألقى جمـلة « شكسبير» ، الشهيرة ، في صوت عميق أخّاذ ، وفي لهجة من يود أن يطلع الآخرين على ألمـه !

قال ، متأثرا ، لما سمعه من سخرية ، يحاول أن يردّها ، بما عُرف عنـه من مقدرة على ضبط الشعور ••

ــ وهل تفقد ، خامسة « بيتهوفن » ، قيمتها ، لأننا نسمعها كل يـوم ؟! هل تصبح « الموناليزا » دونما قيمة لو عُلّقت نسخ عنها في جميع البيوت ؟! إنني أستغرب هـذه الطريقة اللاتينية في التعالي الثقافي ! كأن الجذري من المشكلات ، في نظركم ، عاد لا قيمة له ! تفضلون تمضية الساعات ، في بحث عـلم « الظواهر » عنـد « هوسيرل » •• أو بحث « الوجـود » ، عنـد « هايدغر » ، على محاولة فهم المعاناة الحياتية الانسانية عند « شكسبير » !

تمهّلت « بيبيتا » ، مبطئة من ضحكها العصبي ، وقالت ، بعد أن رشفت بعض النبيذ ..

ــ مهلكَ .. مهلكَ .. يا عزيزي ! فأنا لا أضحك منك ، او من جملة « شكسبير » الجليلة ! فالأمر أعقد من ذلك ! لقد أعادتني جملتك الى ما كنا ننتف شَعْرنا بصدده ، قبل أن تأتي ! المشكلة كبيرة ، بما فيه الكفاية ، لو أن الأمر اقتصر على ما طرحه « شكسبير » من اختيارات ! « أكون » .. أو « لا أكون » ! المعضلة ، الآن ، تحولت الى مجرى آخر .. بفضل أصدقائنا هنا ! إذ يظهر أنه توجد استحالة . على الإنسان ، في أن « لا يكون » !

صفّقت « آني » مبتهجة ..

ــ أترون ، كيف أن فارسات « الأمزون » قادرات على طرح الأحاجي ، والمتاهات ، لكم يا فلاسفة « الاكروبوليس » !!

قلتُ لها متعجبا ..

ــ لكن قصد « شكسبير » في « أن لا أكون » .. هو على الصعيد الفردي ! فهو لا يطرح مشكلة الوجود والعدم ! إنه موت الإنسان ، أو حياته .. وهربه ، من معاناة ظروف الحياة المأساوية !

أجابت « بيبيتا » هازئة ، جذلة ..

ــ بل لهو كذلك ! انه يطرح مشكلة الوجود ، والعدم .. انما في دائرة حياة الانسان الفرد ! فالانسان ، لا يعي لحظة ولادته .. سواء حدّدنا لحظة انبثاق الحياة فيه ، بساعة الولادة ، أو بتلقيح النطفة ، في رحم أمه ! إن ذاكرته ، هي التي تفرض عليه إدراك أنه طفل" ، أو حدث ، أو شاب في هذه الحياة .. له من العمر ، عشرون ، أو ثلاثون ، أو سبعون سنة ! أما احساسه بذلك ، فهو لا يملك سوى مقدرة الاحساس بالحياة .. وكل ما يعرفه ، عما قبل ولادته نظري" ، لا قيمة له ! كأنه موجود منذ الأزل .. كمن كان نائما في رحاب الزمان ، واستفاق يوم ولادته ! فشعور الانسان بالحياة إذن شعور أزلي" ! فما رأيكم لو برهنت لكم على أن هذا الشعور ، أبدي" كذلك ؟!

لم تقو « آني » على كبح جماح إعجابها بصديقتها •• فصفقت بيديها طربا •• كذلك « جينيت » ، تململت في مقعدها ، اعجابا ، ونظرت جانبا الى « مكسيم » ، كأن فيما تسمعه ، تحدياً له !

قلت ، مبتهجا ، أنا الآخر ، لما أسمع ••

ـ •• حسنا •• ومشكلة ما بعد الحياة ؟ مشكلة الموت •• كيف يكون مستحيلاً على الانسان أن « لا يكون » ؟

أجابت « بيبيتا » متحدية ، متمهّلة ••

ـ انما الموت « كلمة » ! « حالة » ! « وصف » ، أو ما شئت من التعريفات ! لكن الأمر الأكيد هو أن الموت ، « حالة » ، لا يمكن أن يدركها غير الحيّ ! غير الانسان الذي يرى الميت •• لا الميت نفسه ! قد أدركُ الآن ، أنني سأموت في يوم من الأيام •• لكنني لن « أعرف » أو « أُحسّ » قط أنني ميتة !! ان الموت « خواطر » ستراودني الى « الأبد » !! كيف ؟ لأنها ، في دائرة حياتي الخاصة •• لن تنقطع قط •• فإذا انقطعت يوما ، بموتي ، فلن أدرك انقطاعها ! سأعيش الى الأبد ، لأنني لن أعرف يوما أنني ميتة ! فهل يمكن لي أن « أعرف » أني « ميتة » ؟! طبعا لا ! وبم نصف مَن لا يعرف الموت ؟ أليس من لا يعرف الموت ، أبدياً ؟! يموت غيري •• وأنا أزلية ، أبدية !! وعيي بالحياة لن ينقطع قط !!

نظرَتْ « آني » الى « مكسيم » ، متحفزة ، وسألته رأيه •• فقال ••

ـ وأنا •• أودّ أن أسأل « جون » رأيه ! فالموضوع ، في الأصل ، من اقتراحه ••

قال « جون » •• مبتسما ••

ـ « أكون راضيا » أو « أكون مرغما » ! « هذه هي المشكلة » !! هذا إذن ما وجب على « شكسبير » أن يعالجه في نظركم !!

وعقّبتْ « بيبيتا » على الفور ••

ـ •• واذا كان لا بد من أن أكون •• فكيف أكون ، على أحسن وجه ،

في هذه الحياة التي لا فيما سبقها ، من وجود ، بالنسبة لي ولا فيما يلحقها ، من عــدم !!

قال « باتريس » متشائما ••

ـ إن من تعلم في صغره ما تعلّمنا •• من أن هذه الحياة « مرحــلة » •• لها ما قبلها ، وما بعدها •• ولو توصل الى نفـْي هذه التعاليم ، فيما بعــد ، بما له من عقــل •• لا يستطيع أن يصل الى ما نسعى اليه ، من طمــأنينة : لقــد نُفخت رؤوسنا ، في حداثتنا ، بصور الأساطير عن الآلهــة •• وبمنشأ الخليقة •• وبالجنــة ، وبجهنم •• فزاد حجم خيالنا بها ، وتضخم ، وطــار كالمنطاد ، الى حد نجــد فيه أنفسنا اليوم ، ونحن نُقـْصي ، بالعقل ، هــذه الأساطير ، ونطرد ، بالعلم ، هــذا الخيال ، نجدنا نطيِّر هــذه الشعوذات : كالغاز الذي كان يحمل المنطاد ، فيهبط بنا المنطاد ، عائدا الى الأرض ، وقــد يهوي ، ويسقط أحيانا ! وفي كــلا الحالين ، يذبل سطحه اللامع ، ويتجعّد ، وتتهدل جوانبه على ما لنا في الاصل من جوهر العقل ، فيبقى العقل ، رغــم صلابته ، وأصالته ، رازحا تحت حمْل تلــك القشرة القبيحة ، من تجاعيــد الخرافات التي تداعت ، وتراكمت فوقــه ! يكاد يختنق لمــا عليه أن يزيح ما تساقط فوقه من تلافيفها اللزجة ، كلما نشد النور ، والهــواء الطلق ! هذه القشرة التي أتحدث عنهــا •• ليست تعاليم ، يمكن طردها بالعقل •• إنهــا الندوب •• إنها الفراغ الذي يبقى ، بين القليل مما نعرفه ، من علم وتفسيرات علمية ، لهــذا الكون •• وبين الكثير مما تغذت به أذهاننا في طفولتنا ، مــن خيــال •• فإذا لم يَعُـد الإنسان الى نفخ هذه القشرة ، ولم يقو على إعــادة هذا الغلاف الخارجي ، الى سابق حجمه ، وألَـقِـه ، مغذيّا اياه بعلم ، يعادل حجم ما فقده من أساطير ، يبقى هذا الفراغ ، عرضة للهواجس ، ومصــدراً ، لما يعانيه الانسان المثقف ، في هــذا العصر ، من قلق مبهم ، وغربة لا يعرف لهــا من تفســير !

قــالت « بيبيتــا » ••

ـ لعل هذه حال من قضى سني طفولته في تلك التعاليم الغريبة ! أمــا

أنـا •• فلقد خـلّت طفولتي ، تماما ، من مثل هذه الشعوذات ! لا ينقصني الكثير كي أتخلص من قلقي •• أعني ما أعي منه ، على الأقل !

قلتُ ، موافقـاً ••

ــ إنها مشكلة البديل ! فالبديل ، عند « باتريس » ، لما تعلّمه في طفولته من أساطير وطقوس دينية ، لمـا توسعت ، وتضخمت به ذاكرة الخيال عنده •• أمر صعب ، أو مستحيل ! أما عند أمثالنا •• من المخلوقات المتوسطة الحجم •• فالبديل ، هو ، كيف نعيش في عالم واسع الأرجاء ؟ ورثناه فجأة ، عن آلهـة ، تحطمت عروشها ! وأدركنا ، أننا في كون لا نهـاية له ! نجهل معظم أسراره ! بماذا نزرع هذه السهول الفسيحة التي باتت ملكنا فجـأة ؟ ونحن لا نعرف حدودها ! ولا نـدرك من طبيعة تربتهـا ، إلا النزر اليسير ؟ ما هو البديل ، لما تخلينا عنه ، من شعوذة •• ولما أدركنا ، أننا نعيش فيه ، من فراغ ؟!

كان « غونثر » يداعب عنق « هيلدغار » •• يقبل شفاهها •• فرفع رأسه وقال ، وهو يتابع النظر الى تلك الشفاه التي بللتها القبل ••

ــ وماذا لدى الإنسان ، من طريقة ، للاتصال بهذا العالم •• الفسيح •• المخيف ؟ ما وسيلة الإنسان ، للتعرف الى مدى ملكه ؟ الى نوعية أرضه ؟

قال هذا ، وعاد يقبل « هيلدغار » •• فضحك « جون » منه ، وقال ••

ــ إن « غونثر » يقصد ، أن ليس لدى الانسان ، من وسائل ، للاتصال بالكون المحيط به ، سوى حواسّه الخمس !

قطع « غونثر » قبلاته ، وقـال ••

ــ •• أو الست •• أو السبع ، أو أكثر ، مما سيكتشفه أو سيُنمّيه في نفسه ، في الأجيال القادمة ! المهم ، أن الانسان يعيش في كون ، ليس لديـه ، من وسيلة ، سوى حواسه ، للاتصال به ، ولفهمه ! ومن ثم •• فهو لا يملك سوى هـذه الحواس ، أداة لمعرفة ذاته ! ثمّ لتحقيق وجوده فيه !!

أنهى كلامه ، وعاد يودّ متابعة تقبيل « هيلدغار » •• فأبعدته هـذه عنها عاتبة ، ضاحكة ، وقالت ••

ـ لا •• يا عزيزي ! عد الى الحديث عن الإحساسات •• فأنا ••

وكادت تتجه نحو « بيبيتا » ، التي كانت في لهفة لتلقّفها ••

هزّ « غونثر » كتفيها ، وامسك برأسها ، فكاد وجهها الصغير يختفي بين كفّيه الكبيرتين ! أسكتها بشفتيه •• ثم قال مقطّبا ••

ـ « هيلدغار » ! أنا لست ممن يتحدثون ، حبّا بسماع أصواتهم ! إن ما قلتُه هو التعبير الفكري عما كنت أقوم به معك الآن ، منذ ثوان ! عما أقوم به ، هذه اللحظة ! إن شفاهك ، هذه •• هي التي دفعتني الى قول ما قلت ! وليس من إحساساتي في هذه اللحظة ما هو أجمل وأكمل مما يعتريني نحوك من تحرّق لامتلاكك !

ضحكت « هيلدغار » ، بصوتها الرقيق •• وأسلمت نظراتها الى بريق عينيه •• فتابع ، يحدّق في عينيها ••

ـ أليس رائعا أن تتجمع قوى الإحساس عندي •• فلا تتّقد ، وتتناغم ، إلا على حب امتلاك هذا الجسد الإلهي ؟! ها أناذا أراك ، وأشمك ، وأسمعك ، وأذوق شفتيك ، وألمسك !! ليس لدي سوى هذه الجسور الخمسة ، أعبُرها ، لأتصل بالعالم الخارجي ! ولا أرى حواسي ، هذه ، تتضافر ، وتتكامل ، في آن واحد ، إلا حين أسعى اليك ؟ أتفهمين ، لماذا أنت العالم بأسره ، في هذه اللحظة ؟! لأن إحساسي بالعالم ، لا يكتمل إلاّ فيك ؟ ولا أستطيع الوصول الى النشوة الكبرى ، إلاّ من خلالك •• أتدركين لماذا أودّ أن أعيش هذه اللحظات ، الى الأبد ؟! أتفهمين لماذا أودّ أن أزكي شهوتي لك •• ولا أودّ اشباعها ! ان في سعيي الى اشباعها ، لسعياً الى ذروة الحياة ! وفي إشباعها •• في الوصول الى الذروة ، وانقطاع شهوتي المفاجىء ، بعد ذلك ، خوف من السقوط في غياهب الموت !!

قال « غونثر » هذا •• وأغرق رأسه في صدرها ، يضمّ نهديها على خديه !!

رفعت « هيلدغار » رأسها مغلقة جفنيها ، مفترة الشفتين •• فبدت كأنها غارقة في غيبوبة بعيـدة •• فإذا بـ « بيبيتـا » تقترب منها ، كالمسحورة •• وتطبع قبلة على شفتيها المفتـرتين ••

فتحت « هيلدغار » ذراعيها •• ترتجف أصابعها ، كأنها تبحث عن الهواء ، ثم ضمتهما ، في عصبية ، على كلا الرأسين المطبقين عليها ! لحظات••وتملّصت ، بعـدها ، منهما كليهما ، ثم نهضت ، تنظر حولها ضائعة ، حتى اذا ما رأتني ؛ تمتمت ••

ـ أود أن أستريح •• هل من مكان ؟

فأشرتُ الى ممر يقود نحو غرف النوم ، المجاورة •• فانحنت ، تمسك بيدي « غوتر » ، و « بيبيتا » •• واتجـه الثلاثة نحو الممر ••

* * *

مضت برهة طويلة ، بدت لي مصادر النور البرتقالية ، مشاعل ، يرتجف لهيبها البعيد لنسمات عذبة ، دافئة ، تبثّها أنغـام « شوبان » ••

كان دخان اللفائف يتكاثف ، وينتشر عطره الخاص ، فأرى نفسي ، عـلى بعد ملايين من السنين الضوئية من الأرض •• أطير •• أطير •• نحو مركـز الكون •• تدخـل الموسيقى في مسامّي ، وتتسرب الـى جملتي العصبية ، فتعيدها هذه الى ضلوعي ، فتحيل ذراعيّ الى جناحين ، مديدين ••يتحركان مع الإيقـاع ، ويتماوجان مع تطورات النغم •• يصدح الوجود بما تحركه ذراعي في الكون ، من موسيقى •• فأُغمض عينيّ •• غير آبه لما أطـير في أحشائه ، من ظلام •• أمرّ ، في خيـالي ، بتلك المشاعل البرتقالية ، التي خلفت ورائي في داري •• فأعرف •• أني في دفء بيتي ، الذي طرت بعيدا عنـه •• والذي أراه ، على بعد مئات ملايين السنين الضوئية •• وأحس ، أني كما لو كنت أقبل نهدي « جينيت » العاريين •• جسـدي •• ينعـم بحرارة أجساد ، لا أميزها •• يغلي ، بلذة لا أعرف مصدرها ••

* * *

ـ هــل من طعــام ؟

ـ •• إني عطشى ••

ـ يوجد جميع ما تريدين في المطبخ ••

ـ هل من يدلّني على الطــريق ؟

ـ أنــا أقودكِ ••

ـ اجلسي أنت •• أنا الذي قادهــا الى هذه الدار •• وأنا أقودهــا الى الطعــام ••

ـ إنهــا فتاة •• وأنا أعرف ماذا تريد •• أنا فتاة ••

ـ أنا أعرف ماذا تريدين •• أنت كذلك •• تعالي معنــا ••

ومرت أمــامي ثلاثة تماثيل إغريقية عاريــة ••

* * *

ـ هل تشرب بعض القهــوة ؟

ضحكتُ طويلا ، لصوت « مكسيم » •• لكني لم أسمع صوت قهقهتي ! ثــم هززت رأســي ، بنعــم ••

صُعقتُ للسرعة التي تحرك فيها صديقي ! وكيف عــاد بالقهوة ! أين بقية الأصدقاء ؟ آه •• إنهم في غرف النوم المجاورة ! كم الساعة الآن ؟ لا بد أنهــا الثالثة صباحا •• سيأتي « جاك » ، غدا •• ليقودني الى دار الأمــير « يوسوبوف » •• أريــد أن أستضيفه هنا ، بعــد الظهر •• يجب ألا يرى أفراد هذه الثلة عندي ! آه ، لو دخــل الآن !

قهقهتُ بأعلى صوتي ، لمــا سيراه الأمير « يوسوبوف » •• لا ! لــم يسمعني « مكسيم » !

نظرتُ الى « جينيت » ، لصقي •• إنهــا عارية ! آه •• يا للمصادفة ! و « مكسيم » كذلك ! يحمل القهوة •• وهو عار ! قهوة عارية !!

لا •• لن أضحك من صديقي ! فهو لا يدخن اللفائف المحشوة ! جميع

الروس يخافون إظهار ما يخفون في باطنهم •• لذلك •• فهم لا يدخنون هذه اللفائف ! أنا سخيف ! إنهم يشربون « الفودكا » كالمـاء ! إنهـا كاللفائف ! كيف لا يخافونها ! « مكسيم » ، لا يشرب « الفودكا » •• إنه روسي عجيب !

لقد عطشتُ •• لا ! لا أود قهوة ! سأذهب الى المطبخ •• عندي عصير برتقال هناك •• أف ! ما أطول المسافة !!

أين •• أين وضعته •• ها هو ذا •• ما ألذه !! سأحمل بعض العصير الى الفتاتين الجديدتين •• سيكون ذلك عذري لمشاركة « جون »، و« غونثر » ! لم لا ؟ إن كلاً منهما محـاط بفتاتين ••

عجيب ، ليس من أحد في غرفة نوم الضيوف ! لعلهم في غرفة نوم الضيوف الأخرى •• أرجو ألا يكونوا قد احتلوا غرفة نومي ، أنا ! وسريري ! أكـره رائحة الآخرين في سريري •• ها هي ذي غرفة النوم ••

عجيب ! لا أرى سوى الفتيات « آني » و « بيبيتا » جاثمتين ، تراقبان « هيلدغار » و « هيلينا » ! هـذه لوحة •• يا لها من لوحة •• والألـوان البرتقاليـة •• الحمـام التركي لـ « آنغـر » ! ما أشـد بيـاض بشرتهما « الاسكندينافية » •• آه •• لقد رأتني « بيبيتا » •• إنهـا تتقدم مني •• وتبتسم ••

ــ •• جميلات •• أليس كذلك ؟ هل أعجبناك ؟ لكنك في عالم آخر •• « شـارل » أفـق ••

ــ •• ألم تصيبا من جمالهما شيئاً ؟

ــ بل كنـا نحن ــ الأربع ــ معاً !

ــ والذكور ؟ أين هـم ؟

ــ كانوا معنا •• منـذ حين •• واشتركنا في سداسي ، « جرماني » ، رائـع ! كما في موسيقى « براهمز » ••

ــ والشابان ؟ أين اختفيا ؟!

ـ إنهما في ثنائي •• في غرفتك !

ـ « غونتر » •• و « جون » •• معا ؟ أميركا •• وألمانيا ؟ ها ! ها ! بودّي لو أرى من سينتصر ، من الدولتين ، على سريري !

ـ لا تحاول •• يا عزيزي ! فالغرفة موصدة •• من الداخل ••

ـ « جون » •• و « غونتر » ؟ حقا ؟ هل يُعقل ذلك ؟

ـ ولـم لا ؟

ـ إن رجولتهما ظاهرة •• إنهما رياضيان ؟

ـ وهل كان الإغريق ، غـير ذلك ؟

ـ لكن •• لماذا ؟ و « هيلدغار » و « هيلينـا » •• أمامهما ! في متناول أيديهمـا ؟

ـ آوه ! وما علاقة هـذا ، بذاك !! وأنا ؟ هـل تعوزني الرجـال ؟ و « آنـي » ؟ أليس لديها « باتريس » ؟ أو غيره •• لو شاءت ؟ ثم •• إنهما كانا مع « الاسكندنافيتين » قبل ذلك •• ولقد أبليا معهما ، بلاء حسنا !

ـ •• ألا تجدين غرابة •• في كل هـذا ؟ هل أنتِ حقا •• تجدين هذه الأمور طبيعية ؟ وعلى هـذه الدرجة من البساطة ؟

ـ •• وهل تراني غير ضاحكة •• راضية ؟ أنت الذي تجدها معقدة •• صعبة الفهم •• لمـاذا ؟ ماذا يهمك ، من أمر غيرك ؟ هل أسألك ماذا تأكل ؟ أو ماذا تلبس ؟ فماذا يهمك من الطريقـة التي أجـد بها لذتي ؟! ثم •• إننا جميعا هنا ، بالغون ، راشدون !

* * *

أعادتني الدهشة الى بعض رشـدي ••

وقفتُ أنظر الى « بيبيتا » العـارية ، وكانت في وقفة ساكنة أمامي •• فبدت كتمثالٍ رخامي ، إغريقي ، رائع •• في أحد ممرات المعابد ••

تبسمَتْ من حيرتي •• وقالت ••

ـ ما لك تهز رأسك ؟

قلت ، هامسا ، لا أود لغيرها أن يسمع صوتي ••

ـ « بيبيتا » •• أرجوك ! أجيبيني دون مواربة ! هذه الجرأة •• هذا الذي تتكلمين عنه ، بهذه الطلاقة ، والحرية •• أليس في جرأتك ، هذه ، بعض التمثيل ؟ لا •• عفوا •• لا تمتعضي من كلامي •• لعل كلمة « تمثيل » ليست مناسبة •• أليس فيما •• فيها ، « تحد » ؟ نعم •• هذه البساطة في ممارسة التحدي •• لا •• لم أعد أفهم شيئا ! لم أعد أفهم شيئا !!

اقتربت « بيبيتا » مني ، تلاطفني •• ثم قالت ••

ـ ولماذا تضطرب ؟! أفهمْ ، ألا ترضى عما نقوم به ! وأفهم ، أن تمتعض لفكرة ان اميركا والمانيا ، في فراشك الآن ! ينهيان آخر معاركهما ! أو يوقعان بالدم ، معاهدة الصلح ! ولنقل ، جدلا ، أن هنالك بعض التحدّي ، والتمثيل ؛ في كلّ ما نمارسه ، من حرية جنسية •• فلماذا تهتم لتمثيلنا ، أو لتحدياتنا ؟! فلماذا تضطرب ، أنت ؟!

ـ وكيف لا أضطرب ؟ أعرف إلامَ تغمزين ! نعم ، إن لفي جميع ما تقولونه •• وتفعلونه •• أصداء ، موازية ، في نفسي ! لكنها أصداء ، لهواجس ، لا يمكن أن أسمح لها أن تنضخم ، وتعلو برؤوسها الخبيثة ، الى حيّز الوجود ، والفعل !! وإلا ، فماذا يبقى من الأخلاق ؟ ماذا يتبقّى من العرف والتقاليد التي تسير عليها المجتمعات ؟ لئن ضربنا بجميع القيم ، عرض الحائط •• فماذا يبقى لنا ؟

ضحكت « بيبيتا » ، وأربكني أن يلفت ضحكها التفات الآخرين •• لكنها عادت تكلّمني في هدوء •• وهي تغالب ضحكها ••

ـ انظر الى نفسك في هذه اللحظة •• وانظر إليّ مليّاً ! أنت عار تماما ! واذا كنتَ لا تدري ذلك ، فأنا الأخرى عارية تماما ! وها نحن أولاءِ في أحد ممرات دارك ، جالسون على الأرض •• نتحدث عن القيم الأخلاقية ••

وتضطرب دفاعا عنهـا !! هل كان هذا وضعاً مسموحا به ، منذ ثلاثين سنة ؟! أتعرف بماذا تذكرني ؟ إنك تذكرني بهؤلاء الرجال الذين لا تلذّ لهم ، ممارسة الجنس ، إلا مع بغـايا « بيغـال » ، لا يكادون يصلون الى شهواتهم ، حتى يسألون المومس عن سبب احترافها مثل تلك الصنعة الشائنة !! فيوبّخونها ، ويحاولون إرجاعها الى الطريق القويم ! عزيزي ! إن حرية كل جيل ، كانت ، من محرمات الجيل السابق لـه ! أتدري ، أن ما من امرأة كانت تجرؤ على التعري أمـام زوجها ، في القرن الثامن عشر ؟! لقد كان ذلك فسقا ، لا تجرؤ على اقترافه الا المتحررات ، من أمثالنا ، في ذلك القرن ! كان الزوجان يقضيان العمر ، جنبا الى جنب ، دون أن يرى الواحد منهما ، جسد زوجه العاري ! كذلك كانت الخمر من المحرمات ، في اميركا ، وكانت تدعى ، بلاد الحـرية ، في العشرينات ! ثم سمح بها .. اليوم تحرّم المخدرات ، وغـدا يُسمح بها !! وهـذه هي حـال المحرمات ، والموبقات ، هل تريد درسا في التاريخ ؟ لا أظن أن المكان ، مناسب لهـذا ! ثـم ، هـذه الشياطين التي تداعب هواجسك ؟ ألا تظـن أنها تزداد ضررا ، وخبثا ، كلمـا ازداد كبتك لهـا ، وكلما تفنّنت في محـاولة خنقهـا ؟!

ـ .. لا أستطيع ! لا أستطيع !

ـ هوّن عليك .. لا تستطيع ، ماذا ؟ ومن الذي يحضك على .. على ما لا تستطيعه ؟! أوه .. إن شياطينك ، يا عـزيزي ، من الخبث على قـدر أكبر ممـا تظـن !!

ـ قد يكون ذلك صحيحا ! « بيبيتا » ! ألا ترين إذن كيف قـد يسيء للآخرين ، ما تقومين به ، جهـارا ؟! هاتان الفتاتان .. لعلها المرة الأولى التي تمارسان الحب فيها ، بهذا الشكل ! ألا يحتمل أن تكون قبلتك ، هي الأولى ، التي تذوقتْها « هيلدغار » ، من فتاة ؟ فاظري الامَ قادتها جرأتك !

ـ عزيزي !! لئن كانت الطريق مرسومة ، معبدة .. فما أهمية ما قمت

به أنـا ؟! وهل قمت بغير قص شريط الافتتاح ؟ ثم لماذا أُلامُ على ما تهـواه نفسي ؟ إنها طبيعتي !! وهل أنا التي اخترتها ، لنفسي ؟!!

علا الغضب بغتة وجـه « بيبيتا » •• وتابعت ، وقد احتقن وجهها ••

ــ •• ثم •• قل لي ! أرجوك ! لمـاذا لا يهتم أحد بما أفعل ، لو قَبَّلتُ الحائط ؟! وما علاقة الجنس ، بالأخلاق ؟ نعم ! أود أن أطرحه سؤالا صريحـا دون مواربة •• ما علاقة الجنس ، بالأخلاق ؟ هـذه الحاسة ، التي نلقبهـا « الجنس » •• هـذا الاحساس « النفسي ــ الفيزيولوجي » •• ما علاقـة حاجة إروائه ، بالأخلاق ؟! هنالك من يحرّم أكل الخنزير ، ونحن نأكلـه •• هنالك من يأكل الثعابين ! وهذا يثير اشمئزازنا ! وفي « نيويورك » ، يأكلون النمل ، « بالشوكولا » ، وهؤلاء ، أنفسهم ، تشمئز نفوسهم ، من الصينيين ، الذين يستسيغون أكل أدمغـة السعادين ، وهي لا تزال حية !! بل يأكلون الكلاب !! ان لكل مجتمع عرفه الخاص ، فيما يتعلق بالأطعمة •• جميعهـا ، تتفق على رفض بعض أنواع الطعام ، أو ، تقبل غيرها ! لكني لم أسمع ، يوما ، أن مجتمعاً زجر بعض أفراده ، أو وضعهم في السجون ، لأنهم أكلوا طعاما ، لا يتقبل العرف أكلـه ! فما ذنب الجنس ؟! أي ضرر أُلحـق ، بغيري ، اذا مارست حاجتي الجنسية بالطريقة التي أشتهي ؟! شريطة ألا أُجبر أحداً على ما لا يشتهيه ، طبعا ! وما علاقـة الأخلاق ، بما أتبادله من حب ، مع إنسانة واعية مثلي ، دون الإساءة الى أنظار ، أو مصلحة أحـد ؟!

ــ ألا تجدين أن ذلك مخالف لقوانين الطبيعة ؟

ــ ها ! ها ! ها !! وهل أنا مخلوقة من المريخ ؟! ومن الذي توّجك ، ملكا ، على هـذه الطبيعة ، كي تسنّ قوانينها !! ثم تدافع عنها ؟! نحن نعيش « قوانين حضارات » هي على بعـد مئات ألوف السنين مما نسميه « قـوانين الطبيعة » !! لقد وُلدنا عراة ، والحيوان عار ، ونحن نرتدي جلود الحيوانات ، نقتلها في سبيل ذلك ، لندرأ برد الطبيعة ، فهل نخالف قوانين الطبيعة في ذلك ؟! الحيوان يموت ، متى جـاء أجله ، ونحن نبعد الموت ، بالعقاقير والجراحة !

فهل نخالف القوانين في ذلك ؟! الطبيعة تجذبنا ، نحو مركز الأرض •• ونحن نخلـق ما يشلّ جاذبية الطبيعة ، وننطلق بالصواريخ نحو أجـرام السماء ! جميع ما نقوم به ، من عـلم واختراعات ، إن هو إلا وسائل ، للتغلب عـلى قوانين الطبيعة ! وحين يأتي ذكر الجنس •• تشهر في وجهي قوانين الطبيعة !! أيّة قوانين ، هـذه ، التي تتحدث عنها ؟

ــ أنا أتحدث عن طبيعة الجنس في الطبيعة ! أليست غـاية الجنس ، هي متابعة الخليقة ؟!

ــ بالطبع ! كذلك الأكل •• غايته المحافظة على الحياة ! والتنفس •• غايته تزويد الجسم بالأوكسجين ! لكن ألا يهدف الإنسان من أكله ، كلما أكل ، الى هدف غير الحفاظ على حياته ؟ إن حاجـة الإنسان الى الغذاء ، أمـر •• وطلبه لنوع خاص من الطعـام ، أمر آخر !! أمن أجل الغـذاء ، والحياة ، يتفنن الإنسان في أكل الحلوى ، وفي تعداد أنواع الطعام ؟! هـل يستعمل الإنسان ، العطر ، ليزيد من مقدار الأوكسجين في رئتيه ، أم للتمتّع برائحته ؟ يا إلهي !! أنا لا أفهـم كيف يحتمي الانسان وراء هـذا الحائط الهائل من النفاق ، كلما جاء ذكر العرف والأخلاق ، والعادات المتبعة !

ــ نفاق ؟ أي نفـاق هذا ؟ عجيب ! ها أنا ذا أصبحت ، فجأة ، في قفص الاتهـام ؟

ــ طبعا ! وإلا فقل بربك •• لو أننا قدّرنا ، حصرا ، عـدد المرات التي يمارس فيها الانسان هذه الحاسة في حياته ، ولنقل أنها قد تتراوح في حيـاة الفرد بين ثلاثة آلاف وأربعة آلاف من المرات ، فكم مرة من هذه المرات يقوم فيهـا بهـذه العملية ، وهـدفه إنجاب الأطفال وإعـادة الخـلق ؟! كـم مـرة ؟ هـا ؟ ثلاث مـرات أو أربـع فقط ، خـلال سني عمره كلهـا ؟! فكيف يكون الهدف الوحيد للجنس ، هو إعادة الخلق ؟ وما معنى الجنس ، بعد أن يكون الإنسان قد أنجب كفايته من الأولاد ؟ ها ؟ وما هدف الجنس ،

عنـد المرأة ، بعد أن يدركها ، ما تسمونه ، بسن اليأس ؟ ولماذا لا تتعطل عندها اللذة الجنسية ، بعد أن تكون قد أدت وظيفتها ، في إعادة الخلق ؟!

قلت ، حـائرا فيما أجيب ..

ــ حسنا .. وما تفسير ذلك في نظـرك ؟

ــ الأمر بسيط .. لكنه يحتاج الى نظرة لا تفترض الجواب عن نفسها.. قبل طـرح السؤال !

ــ حسنا .. ومـا هي ؟

ــ ان أكثر الحاجات ترسخا في بناء الانسان النفسي ، هي حاجة الجنس ! وهي الحاجـة الوحيدة التي تفرض وجـود إنسانين .. فالإنسان ، ما كثر وتوالد ، إلا لأن عملية الخلق قـُرنت عنده بهذه الحاسة الملحاح ! هذا معناه .. أن الإنسان لا يسعى وراء الجنس لأن هدفه التوالد .. بل إنه يتوالد ، بعملية لاحقـة للذته الجنسية ! وهذه ليست حال الإنسان فقط ، بل حـال جميع من شابه الإنسان من المخلوقات .. أو بالأحرى ، جميع المخلوقات التي ليس الانسان سوى واحـد منها ! والتي تعود جميعها في الأصل ، الى « آميب » ، حقير ، في مستوى المخلوقات ، كانت عملية التكاثر ، عنده ، تجري عن طريق الانقسام الذاتي !

ــ كل هذا صحيح ! لكن هنالك واقعاً لا مفرّ منه .. وهو أن الجنس ، والتكاثر ، عمليتان متلازمتان عند الإنسان ..

ــ طبعا .. طبعا ! أو يجحد ذلك إلا مجنون ؟! لكنهما ثنائي ، غريب ، في تفاوت نسب حاجة واحدهما الى الآخر !! فـ « التكاثر » عملية تكاد لا تتم اليوم إلا عن طريق الجنس ، ولعلها ، في المستقبل ، ستتم في المختبرات ، لانتقاء الفصائل الأفضل .. فحاجة عملية « التكاثر » الى عملية « الجنس » ، اليوم ، لا تناقش .. أما حاجـة الجنس .. فما حاجته الى عملية التكاثر ؟ ما حاجـة « اللذة الجنسية » الى « عملية التكاثر » ؟ أنا لا أقلل إطلاقا من أهميـة هدف التكاثر ! كل ما أود منك أن تفهمه ، هـو أن الانسان ، في أكثريته الساحقة ،

في نظري ، لا يسعى وراء الجنس إلا رغبة في تحقيق هذه اللذة المباشرة ، التي لا بديل له عنها !! لذة ، يلجأ الى يده ، لتحقيقها ، حين لا يجد الشريك المناسب لمارستها معه ، فان أيــة مقولة ، أو فرضية ، عن « وظيفة أخلاقية للجنس » ، تحاول أن تبعده عن غايته الواعية ، وهي اللذة الجسدية ، هي فرية سخيفة ! هــذا الزعم شبيه بدعوى من يحاول أن يجــد وظائف لجميع الإحساسات ، والمخلوقات ، كأن يقول ، مثلا ، خُلق الكلب للدفاع عن الإنسان ٠٠ والحصان ، كي يمتطيه الفرسان ، ثم يحار كيف يفسر وظيفة الجراثيم ! أو يقول كما كان الناس يقولون في العصور الوسطى ، لقد خُلقت الشمس كي تنير الأرض ، وتدور حولها ، كي تدفىء البشر ! ثم يحار كيف يفهم ، أن الارض هي التي تدور حول الشمس ٠٠ وأن الشمس ، في الصحراء ، تحرق الزرع والبشــر ، ولا تدفئهم !

* * *

تبسمت « بيبيتا » ٠٠ رأيتها تبحث عن شيء ترتديه ٠٠ فنظرتُ خلفي ، وكنت أظنني وحيداً معها ، في الممر ، فإذا بـ « جينيت » تلف خصر كل مـــن « مكسيم » ، و « باتريس » بذراعيها ، يقفون خــلفي ، ينصتون الى كـــل ما كانت تقــوله « بيبيتا » ٠٠

لست أدري لماذا أحسست بحرج في ذلك الموقف ٠٠ لعلي لم أكن أود أن أبدو لرفاقي مناهضاً لنمطهم في التفكير ٠٠ فقلت ٠٠

ــ إنها محاضرة في الإباحية ٠٠ ما رأيكم فيها ؟

أجابت « جينيت » ، وهي تشد رفيقيها إليها ٠٠

ــ ٠٠ بل محاضرة في حرية الرأي ٠٠ أيها « الكونت دو بروفانس » ! وليس من يرغمك على القبول بهــا !

كانت « بيبيتا » قد اهتدت الى وشاحها النبيذي ٠٠ فلفّت صدرها به ، ورمت طرفه فوق كتفها ٠٠ فبدت ، بشعرها الأسود المتهدل ، تحت الضــوء البرتقالي ، الخافت ، كملكة بيزنطية ، رائعة الجمال ٠٠

تملّصت «جنيت» من رفيقتها.. رفعت إزاراً مطرزاً كنتُ قد علقته على حائط الممر ، للزينة .. لفّته على جسدها ، تحذو في ذلك حذو « ببيتا » ، وتقدمت معها ، عائدة الى الردهة الكبيرة ، وهي تقول بلهجة مسرحية ، هازئة ، جادة ..

ـ أحبّ « آثينا » ! وكلما سمعت أنغام « ليسبوس » ، يراودني الحنين الى دفء لم أعرفه حتى اليوم ! هلمّوا إليّ ، لا تتركوني ، طويلا .. مع قدري !!

ضحكنا لقولها ، وارتدى كل منا بنطاله ، بعد أن جد في البحث عنه ..

سألت ، وقد أدركني الجوع ..

ـ هل من يودّ مشاركتي بعض الطعام ؟

ـ لقد سبقناك ، الى مؤتتك ..

كان « باتريس » ، و « مكسيم » ، قد لحقا بالفتاتين .. فصحت في « باتريس » أن يضع مجموعة أسطوانات « مونتيفيردي » على الحاكي .. ودخلت المطبخ ، أبحث عما آكله ، في تلك الساعة المبكرة من الصباح ..

* * *

نظرتُ الى الباب ، وكنت لاهياً في تقطيع بعض اللحم البارد ، أدندن ما أسمعه من موسيقى ، فاجأني أن أرى « آني » ، عارية ، تستند الى اطار الباب ، بيد ، وتمسك باليد الأخرى ، بنطالها ، تمسح به دموعاً تسيل صامتة على خديها ..

صحت ، لهفا .. خائفا ..

ـ .. « آني » .. ماذا جرى ؟! هل تشتكين من أمر ؟!

ـ ...

ـ « آني » .. « آني » ..

واقتربت منها ..

ـ مما تشتكين ؟ تعالي ! تعـالي !

وضممتها الى صدري ، أمسك السكين في يد ، وقطعة اللحم ، في اليد الأخـرى ••

كانت ترتجف •• وتتمتم كلمات لم أفهمها !!
رفعت رأسي ، نحو الباب ، فكدت أشهق رعباً !!

رأيت « غونثر » يقف أمامي ، عارياً ، يستند الى جنبي إطار البـاب ، بذراعيه المرفوعتين ، صدره ، ورأسـه الى الأمام •• يحدّق بي •• ينقـّل ناظريه ، في بريق غريب مرعب ، بين السكين التي في يدي ، وبين ظهر « آني » !!

لحظات •• وبـدا رأس « جـون » ، خلف كتف « غونثر » •• وكان يبتسم ، وهو يحاول تنحية صديقه ، ليتمكن من الدخول ••

جمدت ابتسامته ، إذ رأى نظـرة الرعب في عينيّ •• ولمس ، بيديه ، ما تقلص من عضلات صديقه ، الذي تسمر ، وراح يرتجف قرب الباب !!

ثوان ، ورأيته يلف صدر « غونثر » بذراعيه القويتين ، ويشده الـى الخاف ، في بطء وإصرار !

ـ تعال •• تعـال •• « غونثر » •• تعال ! لنعد الى « مكسيم » •• أنت في باريس لقد مضى زمن « برلين » •• مضى ! تعال معي ••

وغابا في ظـلام الممر !

وضعت ما في يـدي جانباً ، وأجلست « آني » قربي ، أسـألها لهفـاً ، مضطرباً ، عما ألمّ بهـا ••

ـ •• هل هو « غونثر » ؟ قولي ! هل أساء إليك ؟ « آني » لاترددي •• قولي ! نحن كثرة هنا •• لا تخـافي !

عادت الى مسح دموعها ، ثم نفضت رأسها ، ورفعته نحوي ••

ـ لا •• لا •• لم يمسني بسوء •• انه مهذّب ، دمث ، كما تعلم ، لا !

لست أدري لمـاذا أخافني ! كنت مع « هيلديغار » و « هيلينا » ، نتحدث في غرفـة النـوم ••

تبسمَتْ قليلا ، وهي تقـول ••

ــ رقصتُ لهما ، قليلا •• ولما فتحتُ الباب ، أهم بالخروج الى الممر ، وجدته فجـأة أمامي !! من يدري ، لعله كان يسترق إلينا النظر !

قطبَتْ ، وهي تصمت برهة •• ثم تساءلت ••

ــ •• لكن •• لمـاذا يسترق النظر ؟! وكان معنا قبل أن يذهب مـع « جون » •• وكنا قد أمضينا معاً ، خلوة رائعة !!

ــ أهذا كل ما في الأمر ؟ هل كان يسترق النظر •• فقط ؟

ــ لا •• لا ! وما ان فتحتُ الباب ، ورأيته أمامي •• حتى انقض عليّ !! ضمني إليه ضمة عنيفة ، حسبتها ستكسّر ضلوعي بين ذراعيه !!

ــ وكيف تركك ؟!

ــ لا بد أنه سمع « جـون » يخرج من غرفتك ، ووراءه •• أم لعـله ناداه •• لست أدري •• كل ما أعلـم هو أنه تركني ، بالسرعة التي انقض بهـا عـليّ !

لم أدر كيف أفسر ما سمعت ! ولم أفهم معنى تلك النظرة التي أخافتني في عيني « غونثر » ! قلت في نفسي ، لا بد أنه انطباع عابر ، أن أنهـا مخادعة النور الخافت •• أو بريق ، طبيعي ، في عينيه •• أو لعلها اللفائف •• مـن يـدري ؟

سمعتني أتمتم لـ « آني » أطمئنها ••

ــ •• لا بد أنهـا اللفائف ! سحقا لها !! يجب أن ننقطع عنها •• وإلا فسوف توردنا ما نكرهه ، عاجلا أو آجـلا ••

هزت « آنـي » رأسها ، موافقة ، وهي ترتدي بنطالها ، ثم قالت ••

ــ سأسبقك الى الردهة •• الى الآخرين !

عاد « جون » بعد هنيهة ، بقامته الفارعة العالية ، ومنكبيه العريضين •• ولما لم أبادره الكلام ، وضع كأسه جانبا ، وجلس قبالتي ، مسندا ذقنه على كفّه المغلقة ، فبدا كتمثال المفكر لـ « رودان » ••

رفع رأسه ، يبتسم ، يحكّ شعره ، حائرا •• ثم قال ••

ـ •• لست أفهم ما الذي طرأ عليه منذ تلك الحادثة ! صحيح •• لم يكن مثلاً يقتدى بهدوئه واتزانه ، قبل ذلك ! كانت تنتابه الكوابيس المروعة ، بين فترة وأخرى •• لكن أعصابه كانت دائمة الهدوء ، أثناء النهار •• ينتابه التوتر ، والغضب ، من حين الى حين •• ككل إنسان •• أما منذ تلك الحادثة ، وأقصد بذلك حادثة انتحار « لويز » ، أو سقوطها المُبهم •• فلقد أصبح دائم التوتر ••

كان لـ « جون » طريقة في الكلام ، تضفي عليه مظهر من هو في تناغم كامل مع نفسه •• لم يكن مردّ ذلك ، معنى خاص ، في جوهر كلامه ، بل طريقة خاصة ، يتكلم فيها ، وكأنه في شبه حوار مع نفسه ••

رفع إبطيه ، يسندهما فوق حافة الكرسي ، وانزلق بجذعه ، الى الامام ، فاتحاً ساقيه الطويلتين حتى كاد يلمسني بقدميه ، ثم راح يداعب شعيرات صدره ، وهو يكلمني •• ينظر الى أظافر يديه ، أو أطراف قدميه المتناسقتين•• يتبسّم لأعضاء جسده العاري ، أو للسقف ، أو للفضاء •• أحسست أنه إنما يتبسم لأفكار موازية لما يقوله ، تطرأ له في الخفاء •• تُشعِر السامع ، أنه في الأصل ، لا يعير من الاهتمام لرأي الآخرين ، إلا ما تفرضه عليه اللباقة !

أغفلت موضوع « غونثر » •• وسألته فجأة ••

ـ « جون » ! قل لي صراحة •• ما معنى أن تجلس أمامي بهذا الشكل ؟! مسترخي الجذع ، منفرج الساقين ، عارياً ، كما أنجبتك أمّك ؟!

تبسم مني باستغراب! مر بناظريه ، على جسده •• وتوقف برهة ، على ذَكَرِه •• ثم عاد ينظر اليّ •• يتبسم ، ويهزّ رأسه ••

ـ •• أنتم في أوربا غريبون حقا ! هل تدري أنهـا المرة الثانية ، التي أسمع فيها نفس الملاحظة ؟! لقد سمعتها من « غونثر » •• في أولى مراحـل صداقتنا •• يظن السامع أنكم تخافون النظر الى الجسد البشري العـاري •• هل تكرهون أجسادكم ؟

امتعضتُ للهجته المتعالية •• وقلت ••

ـ نحن •• نكره الجسد البشري ؟! وهل حدّد غيرنا مقاييس الجمال ، عبر العصور ؟! هل نسيت الإغريق ؟ وعصر النهضة ؟!

ـ •• حقاً •• انهم أجدادكم ! نحن ، أبناؤكم ! لكنا ، في هذه الأمور ، أقرب الى الجدود منكم ! لعلها روادع الدين •• وتخلّصنا منها •• فعـدنا ، في هذه الأمور على الأقل ، الى جذور الثقافة الإغريقية •• لكن ، دعك مـن كل هذا •• فالسبب يرجع الى نمط نشأتي ! لقد رُبِّينا على هذه الطريقة •• إن الشباب عندنا ، في الولايات المتحدة ، يستحمّون ، في المدارس ، دونمـا حاجة الى التستر •• ولا حواجز تفصل بين المستحمين •• بل ، لا حواجز بين دورات الميـاه !! لكن سؤالك غريب ••

قال ذلك ، ونهض قليلا ، ثم تربع على كرسيّه ، وتابع ••

ـ •• كيف تستغرب عُرْيي •• ونحن في هذه الشقة •• عراة ! نمارس الجنس ، منذ ساعات ! ألم تكن عارياً ، أنت الآخر ! أم تراك نسيت ؟

قلت موضحا ••

ـ لا •• لا •• لم أنس ! كنا عراة ، وكان لنا في ذلك قصـد ! نحسّ أننا عراة •• وننعم بما نفعل ! إن الأمر الغريب فيك •• هو أنك تجلس الآن أمامي ، عارياً •• ويحسّ الناظر إليك أنك لا تعي ذلك •• تحدثني ، وكأنك كامل اللباس •• فيبقى الناظر وحيـداً في إحساسه •• يشعر بالذنب ، كأنـه يعرّيك ، هو بنظراته ! أو يسترق النظر إليك ، وأنت عار !!

صفّر « جون » ، دهشة ، لما سمع ! نهض ، يتمطّى ، وهو يقـول ••

ـ العلة إذن فيك ، أنت ، يا صديقي ! وليس فيّ ، أنا !! كانت هذه حال « غونثر » ، في البداية ! لا يعجبه ، من الفتيات ، سوى التي تقبل أن تكون لي وله في الوقت ذاته ! نقضي الساعات الطوال معا ، عراة •• لا يهتم أثناءها ، إلا بما يمارسه مع الفتاة ! فما إن ينتهي الحفل ، ويرتوي ، حتى يحار كيف يتجنب النظر اليّ •• يتجنبني •• ينتقد مظهري •• وسلوكي ، في عبارات مبهمة •• أرى عدائية ، في عينيه ، ولا أفهمها! إلى أن بقينا ، مرة ، وحدنا •• وكانت الفتاة التي اصطحبنا الى الشقة ، مضطرة الى تركنا في ساعة مبكرة •• فما إن أقفلت الباب خلفها •• حتى أدركتُ ••

دخل « غونثر » ، في تلك اللحظة ، الى المطبخ ، يحمل بنطال « جون » ، فرمى به إليه ، قـائلا ••

ـ •• كفاك ما أدركت آنذاك ! ثم •• أما كفاكما هذا الانفراد ؟ تعالا ! فنحن على وشك بنـاء « الجمهورية الفاضلة » ، من جديد !!

ثم ضحك وأردف ••

ـ •• أو دكّ أسسها !!

نظرتُ الى عينيه •• فكأن « غونثر » آخر ، مثل أمامي !

كان يراقب « جون » ، في دماثة ، وهو يرتدي بنطاله ، فيلوّح برأسه ، في هدوء •• يبتسم لصديقه ، وكأنه يراقب طفلاً كبيراً يعود عن غلط اقترفه ••

سألته ، مرحاً لهذا التغيّر المفاجىء ••

ـ ومن الذي يبني هـذه الجمهورية ، منكم ؟

ثم هممنا بالخروج الى الممـر •• فما إن دخلنا الردهـة على موسيقى « مونتيفيردي » •• حتى أشار « غونثر » الى « مكسيم » و « باتريس » ، قـائلا ••

ـ ومن يبنيها غير تحالف روسي إفرنسي ؟! من يناهض «الانكلوسكسون»، في العالم ، سوى الروس والفرنسيين ؟!

ـ •• وهل فاتنا الشـيء الكثير ؟

ضحك « باتريس » ، وقـال ..

ــ وما أهمية ما فات في لحظات ، والعمر كله ، لحظات ، من قياس آخر ..

هزأتْ لقـوله ..

ــ .. أعلى هذه الأسس الرومانسية ، إذن ، تقوم جمهوريتكم الفاضلة ؟

ــ .. ومن الذي يتكلم عن « جمهورية » ؟ ثم .. اني العـدو الاول لمفهوم « الاسس » .. « رومانسية » ، أكانت ، أم غير ذلك ! لئن كان لا بد من جمهورية ما ، فالخطوة الاولى ، في نظري ، هي دك جميع ما بني من أسس ، ونظـم حتى اليوم !! وتقويض ، جميع أسسِ نظمِ المفاهيم ذاتهـا .. دون اسـتثناء !!

صفّقت « جينيت » مرحة ، ساخرة ..

ــ .. وتعمّ الفوضى ! ويسود الخراب !!

تدخل « مكسيم » ، مهدئا ..

ــ مهلك .. مهلك .. يا عزيزتي ! فلا أحد يسعى وراء الفوضى .. ولا عاقل ينشد الخراب .. الأمر ، بما فيه ، هو أن الحضارة الغربية ، قائمة عـلى « العـلم » .. قائمة على العلوم ومنجزاتها .. واشتدت الصلة بينهما ، حتى بات من العسير ، الفصل ، في أذهان الناس ، بين مفهوم الحضارة ، ومفهـوم العلم ! أنا بالطبع لا أخفف من أهمية العلوم وفائدتها لرفاهية البشر .. لكني أعجز عن فهم علاقة العلم ومنجزاته ، بمفهوم الحضارة ، بالمعنى الاوروبي الاغريقي الذي تفهمه !! فللعلم ومنجزاته ، شقان .. الاول ، هو الرياضيات والاكتشافات العلمية .. والثاني ، هو المخترعات الآلية .. فاذا قبلنا أن الاختراعات الآلية ، تزيد من رفاهية الانسان العلمية ، دون أن توسّع ، بما يذكر ، قدرة الإنسان على الادراك .. بقيت ، الرياضيات ، وسيلة الانسان الوحيدة لتوسيع مداركه ، وبقيت اكتشافات العلم ، باباً فسيحا ، يدخل عبره الانسان ، طريقا ، يدلّـه على ما خفي عنه من قوانين الطبيعة .. يرشده ، الى فهم ظروفه .. الى دحض

الشعوذات ، والتفسيرات الخرافية ، التي حمّله اياها تراث ماضيه الجاهل ! طـريق ، لا نزال في أوله ، الا انه درب قويم ، سنعبر قريبا فضاء الكـون الخارجي ، بوساطته •• وسيقودنا ، دون شك ، الى فك الكثير ، الكثـير ، من الأحاجي التي ما تزال أمامنا •• والسؤال المطروح ، هنا ، هو التالي •• ما نهاية هذا الطريق ؟ ما غاية هذه الحضارة ؟

ــ •• وما معنى هـذا السؤال ؟ أليس بالعلم ، نزداد علماً ؟! ألا يكفي هذا جواباً عن سؤالنا المطروح ؟

ــ •• بل وجب عليك القول •• « بالعـلم ، ينقص جهلنا » •• ولسنا نزداد علمـاً !!

ــ أليس للعبارتين التاليتين دلالة واحدة ؟ « نصف كأسي ممتلىء » •• أو « نصف كأسي فـارغ » ؟!

أجـاب « مكسيم » ••

ــ •• وهل ابتدأ الانسان طريقه من « حـالة علم » ليزيدها علمـاً ، ونوراً ؟! أم فتح عينيه ، على ظلام الطبيعة الدامس ، فاستنار بالعلم ، ليحاول كشف أسرارها •• ويحدد موطىء قدمه ، ثم طريق مستقبله فيها ؟!

ــ •••

ــ إذن •• إن الانسان ، بالعلم ، يُنقِص من جهـله •• وبمزيد من العلم •• يسدّ المزيد من ثغرات جهـله ••

قال « باتريس » ••

ــ •• إنه كمن ورث الديون عن أبيه •• يتعب ، ويشقى ، سـعياً وراء سدادها •• فاذا ما وصل الى غايته ، يوماً •• فماذا سيكون لذلك من معنى ؟! إلام سيكون قد وصل ؟! الى حـالة الصفر ؟! سيصبح إنساناً لا ديون عليه ! لا أكثر ولا أقل !! وفي هـذا راحة لا شك فيها •• إنما أين تلك الحالة من حـالة الغنى •• أين الغنى من حـالة انتفاء الديون ؟!

تدخـــل « مكسيم » ..

ــ صحيح .. وأُضيف الى ذلك أن الأمـــر ، لو اقتصر على ما ذكرتَ ، لأصبح الغنى في ذاته ، غاية جديدة ، يسعى اليها الإنسان ، بعد أن وصـــل الى غايته الأولى .. وهي القضاء على فقره ! إني أفهم أن الحضارة يجب أن تقوم على أسس المعرفة .. ولو كانت المعرفة تقاس بالمقادير والأرقام كما يقاسُ المـــال ، لتابع الإنسان جمعها ، حتى بعد سداد ديونه .. ولمضى يجمع المعرفة ، كما يجمع المال ، الى الأبد ! ولما كانت حضارة الغرب ، لاتعرف سوى العلم من هدف تسعى إليه .. فالمعرفة عندها ، اليوم ، مرادفة ، للكشف العـــلمي ، وتفسير ما نجهله من أسرار الطبيعة .. وليس في الدنيا أسرار تهمّ الغـــرب ، غـــير الأسرار العلمية !! ومعنى ذلك ، أحد أمرين .. إما أننا في هذه الطبيعة الأبدية ، لن ننتهي أبدا من الكشف عن هذه الأسرار .. أي إننا سنبقى الى الأبد ، على الرغم من محاولتنا الأبدية عاجزين عن ســـداد الديون !! وإما أن العلم سيصل بنا ، يوماً ، الى اكتشاف آخر هذه الأسرار ، فتقف الانسانية ، عندئذ ، مكتوفة اليدين ، في حـــالة عقم !! تنظر الى كونٍ ، بلغ فيه العـــلم غايته ، ووصلت فيه المعرفة الى نهـــاية المطاف .. فإذا تناهى العلم الى غايته ، تداعت أسس الحضارة الغربية ، وتداعت بتداعيها معاني المعرفة الإنسانية !

قالت « بيبيتا » .. حـــائرة ، سادرة ..

ــ .. ولماذا لاتكون تلك نقطة بداية جديدة.. للبحث عن معرفة أخرى ؟!

تبسم « مكسيم » منها ، وقال ..

ــ كأنك لست ابنة الغرب ، فيما تقولين ! إن العقل الغربي ، يا عزيزتي ، لا يقبل تعدد أشكال المعرفة !! ليس في الغرب من « معرفات » .. وإلا فماذا تعني كلمة « معرفة » ؟! إنهـــا عكس الجهل .. « كل الجهل » .. فاذا سدّت الحضارة الغربية ، جميع ثغرات الجهـــل ، التي تعيها ، فماذا يمكن أن يتبقى عليها لكي « تعرفه » ؟! إن الجهل في الغرب معناه جهل « العلم » .. والمعرفة معناها معرفة قوانين العـــلوم ..

وجم « باتريس » ، ثم قال ..

ــ نظن اليوم أننا ، بالعلم ، سنصل الى آخر طريق المعرفة .. في حين أننا ، سنصل فيه الى لحظة مسدودة ، لا نعرف فيها كيف نبحث عن طرق أخرى !! سنصل الى لحظة لن نرى فيها سوى « مدىً » ، يمتد أمامنا ، لا هدف لنا للحركة فيه ، ولا زاد في جعبتنا مما جمعنا على مر العصور ، تتأمله وتتمتع به أو تتزوّد منه ، ونحن في رحلة الإنسانية التي لا نهاية لها ..

أطبق الصمت علينا ، برهة طويلة ، تواقتت فيها ، مصادفة ، « آريا » ، « دعوني أموت » صدح فيها صوت « بنيامينو جيلي » ! فأحسست كأنه نداء من الماضي .. يشير ، كالنذير ، الى ما سيأتي به المستقبل ..

قالت « بيتا » ، مبتئسة ..

ــ .. أنتم ترسمون للمستقبل صورة متشائمة ، تدعو الى اليأس والضياع ! من قال إنكما صادقان في ذلك .. إني أرفض هذه السلبية في التفكير ! ثم .. من قال إن نبوآتكم هذه صحيحة ؟!

أجاب « باتريس » ، وهو ما يزال على وجومه ..

ــ .. نحن ، لا نرسم ، ولا نخطط .. يكفيك أن تنظري جيدا لما حولك ! إننا في منتصف القرن العشرين .. فماذا أنتجت أوربا ، من فلسفة ، خلال خمسين عاماً ؟! ما الحركات الفلسفية التي أمدتنا بها لفهم المستقبل ؟ أتقبلين بمحاولات « برغسون » « المهلهلة » ؟! وهل في الدنيا عاقل لا يهزأ من بهلوانيات « تاليار دو شردان » بإضفاء النقوش العصرية على جبّة اللاهوت البالية ؟! ماذا تبقّى للغرب ، من جحافل مفكريه ؟! من فرسانه اليوم ؟ « هايدغر » ؟! و « سارتر » ؟! هل بزاد هؤلاء ، القدامى ، ننهي القرن العشرين ؟! هل بسلبيتهم ندخل المستقبل ؟!

قالت « آني » متعجبة ..

ــ وما شأنك أنت بزاد هؤلاء ؟ أتقول هذا .. وأنت الـ « ماركسي » ، المتطرف ؟! أين فلسفتك المادية ؟!

ـ صحيح •• إني مادي ، « ماركسي » •• وفي نفسي ، حنين الى غيرها ! إن للماديين منطقاً ، متماسكاً ، أصلب من الصخر ! لكنها لولا « الماركسية » لأصبحت فكراً ، يقوّض ، بالفكر ، دعائم الفكر !! أليس في هذا اقتراب من « برغسون » الذي أرفض ؟!

استوى « مكسيم » في جلسته •• وقال مبتسماً ••

ـ •• إنها ، هذه الساعة المتأخرة من الليل ، التي تجعلك تقول هـذا •• إنه الضوء البرتقالي ، الخافت ! ونزعات « مونتيفيردي » الأخيرة !!

نظـر « باتريس » في عيني « مكسيم » ، يبحث عن أمل يتمسك به ! فتـابع هـذا ••

ـ دعائم الفكر ، التي تقوّضها المادية •• هي دعائم بالية ، في الأصل ، نخـرها سوس البرجوازية ، واللاهوت •• « الفكـر » ، « والفلسفات » المرفوضة ، هما من نتاج الصالونات ! والجلسات الهادئة ! كحالنا ، في هـذه اللحظة ! لقـد تعوّدنا أن للفكر طقوسا •• كما تعوّدْنا الوهم ، وعبـادة المجهـول ••

ـ هـذا صحيح •• لكني ما نجحت من التخلص من رواسب طقوس العبادة ، إلا استناداً الى طقوس الفكر ! والآن •• وأنا أرى طقوس الفكـر تذوب عني •• أخاف أن أذوب أنا معها ، كتمثال الشمع !

ـ هدىء من روعك « باتريس » ! إن هذا « الأنا » الذي تخاف عليـه أن يذوب ، ليس سوى ما تبقّى من معبد مفاهيمك المرفوضة ، والتعـاليم والثقافات البالية ! لا يكفي أن نقول ، كما يقول « يونج » ، إن « مشـكلة الانسان العصري » تكمن في أن ثقافته ، وعقله ، يحضانه على التخلي عن جميع ما ورثه عن الماضي ، فلا يتمكن من التخلي عن الثقافات القديمة إلا اذا أزاحها ، مستعيناً بمفاهيم جديدة •• وإن كل جـديد ، لا يمكن أن يبقى جديداً إلا لحظـة تبنّيه ، ومتى تبناه جهاز العقل ، صار قديماً ! لا •• لم يعـد يكفي هذا القول ! فهو جزء من هموم الغرب ! والمشكلة أعم ، وأكبر •• فقـول

« يونج » . هــذا ، يتكلم عن « الثقافة » ، ويهمل ذكر « الهياكل » الثقافية ! فالفكر الغــربي ، مجهّز بقوالب « هيكليّة » ، محدودة ، ماذا أقول .. إن الفكر الغربي لا ينمو إلا على هذه « التراكيب الهيكلية » .. تتغير الفلسفات ، وتتبدل قواعــد المنطق ، لكن حاجته الى « قواعد » ما ، تظــلّ راسخة في لا شعوره ! ليس في استطاعته أن يعي ، ولو في خياله المجرد ، أنه قادر عــلى الوجــود دونهــا !!

ـ أراك تدمج « لفي شتراوس » ، بعــلم النفس !

ـ بالضبــط ..

قالت « بيبيتا » ، متعجبة ..

ـ لا أخالك تعني أن للغربيين ، أدمغة ، تختلف عن أدمغة بقية البشر ؟

ضحــك « مكسيم » ..

ـ .. لا يا عزيزتي ! فهــذه درجــة من العنصرية لــم تتجرأ ، حتى النــازية عــلى الوصــول اليهــا ! لا .. أنا أتكلــم عــن « هيكليــة » لاحقــة لولادة الإنسان ، تأتي من البيئة ، والتقاليد المتوارثة ، والثقــافة ! ومن يدري ، لعل الإنســان يرث استعداداً لتنميتها ، كما يرث استعداده لتنمية « الســاتتاكس » اللغوي ! المهم .. هو أن هذه الهيكلية ، تنمو ، مع نمو بنــاء الإنسان العقلي .. تأخذ أشكالاً لا علاقة لها بما تحتويه ، أو ما ينمو عليها .. من ثقــافات ..

ـ ولماذا لا يستطيع الغربي ، تبني أنمــاط أخرى من التفكير ؟ هل يرجع ذلك الى خلل في هذه « الهيكلية » ، أو نقص فيها ؟

ـ بل الى تبــاين في الشكل ، والمعطيات ..

نهضت « بيبيتا » واقفة تبتسم ، وتنظر الى الجميع ، كأنها تحثهم عــلى مؤازرتها .. قالت تهز إصبعها متوعــدة ..

ـ اسمع ، « مكسيم » ! إنهــا المرة الثانية ، هــذه الليلة ، التي تطرح فيها علينا الأحاجي .. أو إنك تطرحها عليّ أنا ، على الأقل .. دون أن تدلني

على الجواب ! ما معنى ما تقول ؟ وما الهدف من هذا الحديث ، اذا لم أفهم ماذا تعني من ورائه ؟!

ـ هوني عليك ، يا عزيزتي ! فالأمر ليس على مثل هذه الدرجة من التعقيد .. على الأقل ، في شرح رؤوس الأقلام ، عن هذا الموضوع .. سأطرح عليك مثلاً بسيطاً عسى أن يكشف لك أول الطريق ! لقد توصل « سارتر » الى فكرةٍ ، عن « الوجود » ، لم يتمكن من التعبير عنها ، بمنطقه الغربي ، إلا بصورة تناقض نفسها ! إنها فكرة الوجود ، في عدم الوجود ، موضوعٌ يشابه ما كنا نتحدث عنه منذ قليل ، أي « الوجود ، في العدم » .. فأحتاج الى مئات الصفحات ، لشرح ، إيجابية ، هذه السلبية !! أو .. استحالة وجود غير هذه السلبية - الايجابية .. الخ !! وسيلزمني مثل عدد ما كتبه ، من صفحات، لأشرح الفكرة نفسها، هذا، لو اقتصرتُ في شرحي على هيكلية المنطق الغربي ! ولو أراد حكيمٌ « بوذي » أن يشرح تلك الفكرة مؤكداً واقعية الوجود ، في لحظة يجتمع فيها الوجود ، والعدم ، لقال لتلميذه .. « انظر الى هذا النهر ! فالنهر في كل لحظة ، موجود ، وغير موجود ! والحياة فيه ، وحوله ، قائمة على حالة التناقض هذه .. حالة الأبدية في وجود العدم » !! هل فهمتم مما أقوله شيئا ؟

صفق « باتريس » وقهقه عالياً !! بينما تعالى النقاش بيننا ، كلّ ، يشد الحديث الى وجهة نظره ، يحاول أن يفسر ما رآه هو ، في هذه الصورة !! الى أن صاحت « بيبيتا » ..

ـ .. لنترك هذه القضية جانبا .. أرى كلٌ منا ، يظن أنه فهم مايريده.. والآن ، فسر لي ، لو سمحت ، أحجيتك السابقة ..

ـ أية أحجية هذه ؟ أتظنينني أتسلى بهذه الأمور ؟ أطرح الأحاجي للتسلية ؟

ـ لا .. لا .. أنا أمزح ! إنما ، أرجوك أن تفسر لي ، قولك ..

« العقل ناقص » •• فأي حكم ، ينتج عن العقل ، الناقص !! كيف أستندُ ، إذن ، على هذا الحكم ؟ اذا كانت كل الاحكام ناقصة ؟!

ـ وهل ستحبينني كثيراً •• كثيراً •• اذا ما فسرته لك ؟

ـ نعـم ! نعـم !

ـ وهل تعطينني قبلة ، كبرى ، لم تعطي أحداً مثلها ، هذه الليلة ؟

ـ نعم •• نعم ! أوصلني الى الجواب ؟!

ـ وهل تقسمين بـ « آنـي » !!

وقبْل أن تجيب « بيبيتا » •• صاحت « آني » ••

ـ ولماذا تقسم بي ؟ دعها تقسم بـ « هيلدغار » •• وبعـد الذي رأيته منها هذه الليلة ! وبـ « غونثر » كذلك !

صاحت « بيبيتـا » ••

ـ أقسم لك بهم جميعاً ! هات •• قل ما عندك !!

ـ حسناً •• الجواب بسيط ، يحتاج منا الى قفزة بسيطة ، في الثقافة •• كما حدث في بداية قرننا •• نستند الى نسبية « أنشتاين » •• فنقول « إن مقدرة العقل ، على المعرفة ، نسبية •• إذن ، فكل الأحكام الصادرة عنـه ، نسبية •• »

صاحت « بيبيتـا » ••

ـ وهـذا الحكم الأخير ! كيف يكون « مطلقـاً » ، اذا كانت جميـع الأحكام ، « نسبية » ؟

ـ هذه مسألة « سيماتيكية » ! فكلمةُ « مطلق » ، « كلمةٌ » عفـاها الزمن ! إنها من تراث الماضي ، دُفنت ، في القرن التاسع عشر ، ذلك القـرن الذي وقع في مثل هذه الأحاجي ! نحن في القرن العشرين•• قرن « النسبية »•• فحُكمي الأخير ، هـذا ، يمكن أن تلقبيه بـ « ثابت » ، كما هي حـال سرعة النور •• الثابتة ••

قلت ، متعجباً ••

ــ ألم تستعض عن كلمة « مطلق » بكلمة « ثابت » ؟!

ــ لا •• فالمطلق ، « ثابت » ، في جميع الظروف ! و « الثابت » ، إنما هو ثابت ، نسبة الى شروطه المحدودة ، فحسب !! بمعنى آخر •• إن كل نسبة تفترض نقطة ، « ثابتة » ما ، تنطلقُ منها قياسات هذه النسب•• صحيح ؟

ــ صحيح !

ــ وهذه النقطة الثابتة ، التي نقوم بقياساتنا ، نسبة إليها •• ليست مطلقة •• لأنها يمكن أن تكون متحركة ، « نسبة » ، الى نقطة أخرى ! أي ، إن نقطتنا الثابتة ، إنما هي « ثابتة » ، نسبة الى ما نقيسه اليها ! ومتحركة ، هي ، وما يقاس إليها ، نسبة الى نقطة أخرى ! وهكذا ، دواليك ! بذلك ترى ، أن الثابت ، في النسبية ، لا علاقة له إطلاقا بمفهوم « المطلق » ، الوهمي ، في الفلسفة !!

قال هذا ، وقام الى « بيبيتا » ينشد القبلة التي وعدته بها ! فشدّته « جينيت » ، من ذراعه ، قائلة ••

ــ لا ! كفانا قبلاً هذه الليلة !! ثم إن أمر القبل ، يجب أن نبتّ فيه اليوم !! ليس غيري يعطيك إياها !! أو ، لنفترق ، نهائيا ، هذه اللحظة !!

نظرت« بيبيتا » الى ساعتها ، متجاهلة غيرة «جينيت» المفاجئة ، وقالت••

ــ •• إنها الخامِسة •• يا إلهي •• كم مضت مسرعة ، هذه السهرة ! إنه وقت أول « مترو » الصباح •• هل مَن يرافقني ، الى « السان جرمان » ؟

ثم نظرت الى « هيلدغار » ، متسائلة •• فنظرت هذه ، الى « هيلينا » ، وقالت ••

ــ ما رأيك لو تناولنا القهوة في الحي ؟ أليس الوقت مبكراً جداً للعودة الى دار مضيفتنا ؟

ونهض الجميع متثاقلين ، يلملمون بقية ثيابهم ، المبعثرة ، هنا وهناك ••

خرج « باتريس » أولا ، بصحبة « آني » ، وكلاهما من سكان « المنطقة السادسة عشرة » ، الفخمة •• وتأبّط كل من « جون » و « غونثر » خصري « آني » و « هيلينا » •• ثم « بيبيتا » و « هيلدغار » ، فما ان خرج الثلاثي الأول •• يتبعه الثلاثي الثـاني •• حتى صاحت « جينيت » بـ « مكسيم » ، نزقـة ، تستحثّه على الاسراع في ارتداء ثيابه ، وكان « مكسيم » لا يـزال واقفاً ، لم يقرر بعـد ، الى أين يتّجـه ••

قلتُ ••

ــ ألا تود أن تتعرف الى الأمـير « يوسوبوف » ؟

سألَت « جينيت » ، على عجـل ••

ــ ومن هذا الأمير •• أهو من أقربائك ؟

ضحـك « مكسيم » ••

ــ من أقربائي ، أنا ؟! لا •• إنه من عالم « شارل غوستاف » ، الذي تساءلتِ عنه البارحة •• في بداية هذه السهرة ••

ثم سألني ••

ــ حسنا •• ومتى ستـراه ؟

ــ ثم هنا هذه الليلة •• أو هـذا الصباح ! سوف يأتي لزيارتي ، بعد ظهر اليوم ، صديق لي يدعى « جـاك كاتلان » ، لا أظن أني حدثتك عنه •• على أيـة حال •• إن « جـاك » هو الذي سيقودنا لزيارة الأمير ••

ضاقت « جينيت » بتردّد « مكسيم » ، فأسرعت تلحق برفاقها •• وهي تقـول ••

ــ الى الغـد إذن •• « مكسيم » ، اتصـل بي لـدى عودتك مـن زيارتك •• لا تنس !

وخرجت ، توصد باب الشقة وراءها •• يتبعها وقع خطاها ، وهي تجري نازلـة على السلم •••

* * *

الفصل العاشر

هدباء ، حبيبتي ..

أناديك ، وأنا على بعد ألوف الأميال منك .. أناديك .. وأتعلق بأجنحة ما يردده اسمك الجميل ، من صدى الماضي .. أعـود ، عبر ذكراك ، الى بلادي .. أعود الى الشام ! أطير فوق الهامة .. ودمر .. والربوة ! أشق الهواء ، فوق مدخلها الفسيح .. لأصل السوق الطويل .. فلا أطير فوقه .. لئلا يفوتني سحر استراق الخطا بين حاراته الضيقة ، الملتوية .. أسير الهوينا بينها ، أتلمس حائطا مهترئا ، هنا ، أو آسف لأن بعض الأوساخ ما زالت ، هناك ! لكني أعلم أن وراء هذه الجدران ، بيوتا ، وحدائق ، تقطن فيها نفوس ، لو عرفت كيف تتحرر ، وتعيش ، لأصبحت ، بما فيهـا من طيبة وصفاء ، سيدة الدنيا !

لقد عرفتُ باريس الليل ، وباريس النهار ! باريس العمل ، والفكر ، وباريس البطالة ، والتسكع ! فما إن أخلدُ الى نفسي ، حتى تضمحلّ جميع هذه الصور في خيالي ، وأجد نفسي ، في باريس الشوارع .. أعزف ألحان آلتي الحزينة ، لجدرانها الصمّاء ! ألتقي مـع بعض النفوس ، في ابتسامة تلقائية ، هنا ، أو في هزة رأس ، هنـاك ! أعيش فيهـا رواية طويلة ، سريعة الإيقاع ، لا معرفة ، ولا علاقة لي بمؤلفها ! ولا يد لي ، ولا لغيري ، بتسيير أبطالها !! وينظر اليَّ مَن حولي ، كأني العالِم بجميع الاسرار ، كأني الدّاري بتفسير جميع المبهمات !!

ظننتُ أن حداثة إقامتي في هذه المدينة ، وضيق معرفتي بالناس فيها ، هما السببان وراء جهلي لما يحركها ، جهلي لما يختفي وراء جدرانها الخارجية الرمادية ! ظننتُ ، في البدء ، أن هنالك من يُمسك بأول الخيط المرشد في هذا التيه ! أما اليوم ، وقد عرفت ما عرفت •• فأكاد أظن أن ليس وراء هذه الجدران ، من أحد !!

جدران باريس لا تخفي سوى الأسرّة •• والصالونات ، ومكاتب العمل !! وسكانها •• في تدفق ، وجري ، وتصادم أيدٍ ! تلاحم ، تدور رحاه في مقاهيها ، وسباقات ، تجري خيولها ، في شوارعها العريضة !!

أين باريس الشعر ، والأدب ، والفلسفة ، والرسم ، والموسيقى ، من باريس التي وجدت !! أين « رامبو » ، و « جيد » ، و « سيزان » ، و « فرانك » ، من هؤلاء الأشباح الذين يودّون لو يسيطرون على الحركة الأدبية ، والفنية ، فيها اليوم ؟ باريس اليوم ، ثوب قديم رثّ قُلِبَ باطنه خارجه ، والفكر فيها ، مادة استهلاكية ، تُنشر على حبال الغسيل ، وتطلى بألوان جدران الشوارع !

أين أنا ، الآن ، من دمشق الحدائق المستترة ، الغناء !! أين أنا ، من دمشق العيون والنظرات !! هل من معجزة تبث الفكر يوماً في خمائل مدينتنا ، فتحييها ؟!

لست أدري لماذا أكتب لك هذه الرسالة •• والصبح قد لاح •• وأنا جالس في فراشي ، تشغلني جميع الأفكار ، ما عدا هموم الشرق ! غريب ، كيف استبدّ بي الشوق ، فجأة ، الى عينيك !! طيفك ، كان نائما لصقي ، أفاق وأنا أستعد للنهوض •• واختفى ، برهة ، ليعود بالقهوة التي تعودنا أن نشربها معا في حديقة دارك الدمشقية •• طيفك الآن يجلس قربي ، في ثياب النوم •• يبتسم لي ، في استحياء •• وأنا أنظر الى فمك ، الممتلىء المفترّ •• وأتفرّس في تقاطيع وجهك ، الشرقي الصبوح ••

تراودني ، حتى الآن فكرة الالتحاق بالفرقة الأجنبية ••

ألهذا أودّعك ثانية ؟ ألأني ما وجدت في باريس ، حتى اليوم ، نفسا تستحق الوداع ؟! لقد أوشكت السنة الدراسية تنتهي •• فقلت في نفسي ، بدل أن أقضي الصيف هنا ، أركب مع كل من « جون » و « غوتر » ثلاث دراجات ، عادية •• نوغل عليها نحو الجنوب ، عبر اسبانيا •• في اتجاه الجزائر ، حيث مقر هذه الفرقة ••

إنها مجرد أفكار ، وحلول ، تطرح نفسها أمامي •• قد لا ألجأ اليها •• وقد أبادر الى تنفيذها متى خفّت وطأة برد الربيع ••

هدباء ، حبي ••

أظن أننا أوشكنا نصلُ الى مفترق الطرق ، في محاوراتنا •• « باريس » لم تعد ذلك الحلم الذي كان يلذّ لي أن أحدثك عنه •• ولا تلك الرؤى التي كانت تبعثها في خيالي نقمتي علـى عيوب مجتمعنا ! « باريس » ، اليوم ، أصبحت واقعي الملموس •• وأنا أعيش فيها ، تجربة حسية ، لن تسرّ أذناك لسماع تفاصيلها !!

لماذا نعيش العمر في مدينتنا ، لا نعدّ ، من الزمان فيه ، سوى الشهور ، أو السنين ؟•• إني هنا أعيش الأيام ، والساعات ، والثواني !! فكيف أحدثك وقد اختلفت نسب قياس الزمان بيننا ؟ ثم ، عمّ أحدثك ؟ وأنت لا تهتمين ، في الأصل ، إلا للقضايا الجليلة الكبرى ! ولا ترين الناس إلا من خلال هذه العناوين ! وأنا في باريس ، قد تعلّمت ، راضياً أو مرغماً ، أن أدرس كل شيء ، حتى القضايا الكبرى ، ابتداء من صغائر التفاصيل ، وأحيانا ، بدءا من همس الناس ، وكلامهم •• وأتحسّب للمواقف ، بما تقتضيه ، أو تمليه ، التفاتة عابرة ، منهم ؟

لكنّ لهذا شرحاً يطول ! وحسبي أن أقول إني جئت اليك ، أودّعك ، حبي ، فأنت ما زلت حبي الأول ، والوحيد •• ولا أود ، بل إني لا أعرف ، حتى لو شئت ذلك ، كيف أحبّ غيرك !!

لقد طرتُ في خيالي الى دارك .. وها أنا ذا أترك على خدّك ، وجفنيك المغلقتين .. قبلة ، لم أعط أحداً مثلها ، في باريس ..

لقد بدأت مدينتنا تشغل حيّز الحلم في خيالي ، وبالأمس كان لها حيّز الوطن .. ها أنا ذا أطير فيها « عـائداً » الى باريس ، لا « ذاهبا » اليهـا .. فوداعاً ، حبي ! وداعاً ! حتى موعد قريب ..

فراس

* * *

الفصل الحادي عشر

قمتُ في اليوم التالي لتلك السهرة العارمة ، أهيىء قهـوة الصباح ، أحضّ « مـكسيم » على النهوض من فراشه ، أتهيأ لوصول صديقي « جاك » ، للظهور بالمظهر اللائق ، أمامه ..

كان « مكسيم » بادي الشرود ، لعله كان يقلّب في رأسه فكرة التحاقه بالفرقة الأجنبية ، لكني لم أعر قراره ، بالسفر الى الجزائر ، كثيرا من الأهمية ! كنت في مرحلةٍ من الحياة ، لا أصدق فيها ، من الاحتمالات ، سوى ما أنـا قـادر على تحقيقه !

قال وهو يتثاءب ويتمطّى ..
ــ آخر ما كنت أظنّ أني سأفعله ، هذا الصباح .. هو أن أسرع في النهوض من الفراش ، لأرتدي من ملابسكَ ، وأجلس في انتظـار ضيفك المخيف !
ــ .. « جاك » .. مخيف ؟
ــ .. طبعا ! وإلا ، فما تفسيرك لهذه الرهبة من فكرة وصوله ، قبل الأوان ؟ خوفك من أن يصل ، وأنا ما زلت في الفراش ؟!

ــ .. إنك لا تعرف « جاك » ! انه من أسرة عريقة ، لا يعرف أن للحياة قواعد غير أصول اللياقة التي نشأ عليها !

ضحك « مكسيم » لقولي .. فأجبتُ على الفور ..
ــ عزيزي! قد لايعنيك هذا الأمر ، في شيء ، لكن«جاك» نبيل، ولقد ولد

في الغرفة نفسها ، من القصر الذي ولد فيه الملك « هانري الرابع » •• لقد تضافرت جميع الظروف في حياته ، لتجعل منه إنساناً ، سريع النقد •• شديد التزمت •• واسع الثقافة ••

أجاب « مكسيم » هازئاً ••

ـ •• وهل ننحني له ؟ عند وصوله ؟

ـ •• لا •• لا •• أنا لم أقصد هذا ! فهو غاية في التواضع والمرح •• لقد كان من أشهر ممثلي فرنسا ، أيام السينما الصامتة •• تعرفه « كل باريس » •• وتحبه ••

صفر « مكسيم » متعجبا ••

ـ نجم السينما الصامتة ! يا الهي ؟ وكم عمره الآن ؟

ـ إنه في حقبة الاربعينات من سنه •• لكنه يبدو كأنه لم يتجاوز الثلاثين ! إنه من البساطة ، والتلقائية ، بحيث قد تخطىء الحكم عليه ! تظنه صبيانيا ، في بعض لفتاته •• فما إن تحسن معرفته ، حتى تدرك ما له من ذكاء ، واطلاع واسع •• ثم •• إن له دراية مذهلة بطباع الناس !

ـ إن ما تصفه به أبعد ما يكون عما أعرفه عن ممثلي عالم السينما الصامتة !

ـ •• هذا ما أعنيه بالضبط ! أتدري ماذا كان يدرس في حداثته ؟•• كان يدرس العزف •• على البيانو ! ولقد حاز على الجائزة الأولى ، سنة تخرج من المعهد الموسيقي ! معهدك ، بالمناسبة ••

ـ •• الجائزة الاولى ؟ والسينما ؟ كيف اتجه إليها ؟ هل آثرها على العزف ؟ يا له من انحدار في المستوى !

ـ •• لقد قام بذلك عن طريق « مارسيل ليربييه » ، المخرج المعروف ••

ـ وهل حرضه « ليربييه » على ذلك ؟

ـ •• لا •• لعل العكس ، هو الصحيح •• إنها حكاية طريفة ، يعرفها ،

ما نقلبه بـ « كلّ باريس » •• كان « جاك » يعزف في حفل هام •• وبعد انتهاء الحفل ، جاء « مارسيل ليربييه » يهنئونه في غرفته ، مع جمع من الأصدقاء •• فقال له •• « لقد كنت مثل « أدونيس » على ذلك المسرح ، يا عزيزي » •• فبهت « جاك » وامتعض ! فتعجب المخرج ، وقال « قلتُ إنك كنت كإله الجمال ، ولا يرضيك ذلك » ؟ أجاب « جاك » ، في أسف : « أردت أن « تسمع » عـزفي ، لا أن « تراه » •• ليتـك رأيت فيّ ملامح « أبولون » •• لن أعزف بعد اليوم !! » ! وبالفعل ، توقّف « جاك كاتلان » ، منذ ذلك اليوم ، عن العزف في الحفلات العامة ••

ــ أهي كلمة « ليربييه » التي غيّرت مجرى حياته ؟ وهل يترك العازف هدفا أزهق السنين ، للوصول اليه •• بسبب كلمة مخرج ، ولو كان قديراً ؟

ــ •• كان « جاك » يثق في ذوق « ليربييه » الموسيقي ، ولقد أدرك ، رغم إجادته العزف ، أنه لن يرقى الى صفوف الأوائل من العازفين في العـالم ! فترك الميدان لغيره !

ضحك « مكسيم » ، وأكمل عني ••

ــ •• واتجه الى التمثيل ! لكن ، هل أكّد له « ليربييه » أنه سيكون الأول في هذا المضمار ؟!

ــ •• بالضبط •• واشترط « جاك » على « ليربييه » ، والمنتج ، ألاّ يُعرض فيلمه الأول ، على الجمهور ، ما لم يره حشد من النقاد ، أولاً •• ويظفر بإعجاب معظمهم على الأقل !

ــ وهل حاز على إعجابهم ؟

ــ •• نعم ! وذاع صيته حتى لُقّب بـ « طفل باريس المدلل » •• طوال عشـر سنين ! تتخاطفه الأيدي ، والصالونات ! الى أن أتت كارثة السينما الناطقة !! يُقال إنها كانت كارثة بالفعل ، له ، ولمعظم ممثلي تلك الحقبة••لم ينج منها ، في فرنسا ، أحد •• مثل ما نجت « غاربو » ، وحلّقت في « هوليود »••

ـ ولكن ما علاقتك بـ « جـاك » وهو يكبرك بخمسة عشر عاماً كما تقول ؟ لا بد أن « ليربييه » هذا ، شخصية ممتعة ••

أجبت ، مبتسماً ، وكنت قد حرصت على إخفاء هذا الأمر ، حتى النهاية••

ـ ان « مرسيل ليربييه » قريبي ، يا عزيزي ، كنت أرى « جاك » عنده ، منذ طفولتي ، ولقد كان « جاك » ، آنذاك ، من الوسامة بما أعجز عن وصفه !

كنا في غمرة الحديث حين رن جرس الباب •• فتركتُ غرفة « مكسيم » ، مسرعا ، أفتح لـ « جاك » ، وأقوده الى الردهة الخارجية ، فاذا نحن نلتقي ، وجها لوجه ، مع « مكسيم » ، الذي كان قد خرج ورائي ، يقصد الحمام ••

مشى « مكسيم » في بطء ، يحاول أن يلفّ منشفة حول خصره العاري ، فلما رفع رأسـه ، وجدني و « جـاك » ، مسمّرين أمامـه •• لا ندري كيف نتجه !

ضحك من حيرتنا •• وشدّ على المنشفة ثانية ، فلم ينجح في عقدها •• فرفع يديه في حيرة ، وهو يقول ••

ـ الذنب ذنبك يا عزيزي •• مناشفك ضيقة •• وضيفك على عجل ••

طفر الدم الى وجهي ، وأنا أرى منشفته تسقط الى الأرض !! واذا هو ، ينحني لالتقاطها ، في بساطة •• ويقول لي ••

ـ •• هوّن عليك ! أتظن أنّ ممثّلا ، له من الخبرة ما للسيد «كاتلان»، تـحرجه رؤية جسد شاب عار ؟! وتقدم « مكسيم » من « جاك » ، مادّاً يده ، لمصافحته ، وقال ••

ـ •• أرجو المعذرة ••

قلت معرّفاً صديقيّ ، •• متلعثماً ••

ـ « جـاك » •• أقدّم لك ، « مكسيم نيبفسكي » •• لقد تأخرنا في السهرة ! في الواقع •• لم نأوِ الى فراشنا ، حتى الساعة السادسة صباحا ••

رأيتُ الدهشة في عيني « جاك » •• فأردفت ••

ـ •• لا •• لم نكن منفردين ! كنا عشرة أشخاص ، على الأقـل •• خمس ، أو ست فتيات ؟

تبسّم « جاك » بعطف •• وقال ••

ـ •• ليس هذا ما أدهشني •• سيان عنـدي أن تنفردا وأن ينضم إليكما العالم كله !! لقد أدهشني صديقك •• صديقنا ! لو سمح لي ، السيد « نيفسكي » ، بأن أبكّر في استعمال هذا التعبير ! لقد توقف الناس عن إثارة الدهشة في نفسي منذ زمن بعيد •• حتى عدت لا أدري ما اذا كان مبعث ذلك علة فيّ ، أو تفاهة العالم ورتابته !

تصافح صديقاي •• ثم اعتذر « مكسيم » ، متجهاً نحو الحمام •• بينما قدت « جاك » نحو الردهة ، أسأله ••

ـ أدهشك ؟ بماذا ؟

ـ كيف لا •• إنه •• لوحة « أتروسكية » قديمة ! يقول إنه روسي ؟ عجيب ، تخاله خارجا من أحد المنمنمات البيزنطية التي شاهدناها في روما ، في الصيف الفائت ! هذا ، هذا النحول المتناغم •• هذا الفراغ المحيّر في عينيه •• قامته الفارعة الطول •• أطرافه الطويلة المتناسقة ••

ثم هزّ رأسه ، مثنيا ••

ـ •• لم أدر أنك تقوم بمثل هذه الاكتشافات ! في باريس !!

ضحكتُ منه ، بدوري ، وكنتُ قد تمالكت نفسي ، فقلت ••

ـ انتظر حتى تراه ، وقد ارتدى ثيابه ! لحسن الحظ أنك قـد رأيت الأصل ، عَرَضا ، وإلا لما عرفته ، لو رأيته في الشارع ••

ـ وماذا تعني ؟

ـ إنه شخصية غريبة ، في كل شيء ! يوما ، تراه يعزف « الاورغ دي بارباري » في الحي اللاتيني •• ويوما آخر ، تراه في « الاوبرا » •• يرتدي « الفراك » ! يدرس الموسيقى ، في المعهد الوطني •• يؤلّف •• يتعلّم الرسم ،

في معهد الفنون •• يحاورك في الفلسفة ، كأنه أنهى دراسته فيها ! عمل بحاراً في الموانئ ، ليكسب عيشه ، في البدء ، بالرغم من ثقافته الواسعة ، إتقانه لأربع لغات ، أو خمس ••

ـ •• تعرف كل هذا عن حياته ؟ إن صداقتكما اذن ، وطيدة !

ـ ولا أستغرب أن يخفا عني الكثير •• بالرغم من كل ما أعرف ••

ـ ستسرّ « الكونتيس » لمعرفته ! ستسرّ أيما سرور !!

ـ •• أية « كونتيس » ، تعني ؟

ـ « دو روكموريل » بالطبع ! ومَن غيرها ؟ آه •• أوتظنني مجنوناً لأقدمه « للكونتيس دو كروفوليبه » ؟! إنها أخطبوط ، بشكل امرأة ! قد تفترسه على الفور !!

قلتُ ، ساخراً من قوله •• نزقاً ، من طريقة « جاك » بالكلام عن صديقي ، وكأن « مكسيم » بات ملكاً له ، يوزّعه على من يشاء ••

ـ أوتظن أن « مكسيم » سهل الهضم ؟ لهذه الدرجة ؟

ـ إن لدى كل انسان ، ضعفاً كامناً ، نسبةً معينة من الوصولية ، يا عزيزي ! فلماذا تستثني صديقك منها ؟ انه غريب ، في هذه المدينة ، أليس كذلك ؟! ولماذا لا يود الصعود ، على سلم المعارف المفيدة ؟ كغيره من الناس !! هذه ليست إهانة له •• ثم •• مَن كان لها حنكة قهرمانة باريس « الكونتيس دوروكموريل » تستطيع أن تفتح ضعفي الابواب التي تستطيع فتحها البارونة « دوروتشيلد » مثلاً •• هذا اذا كنت تنوي أن تقوده الى صالونها !!

ساءني أن يقفز « جاك » بهذه السرعة الى الاستنتاجات ، فقلت ••

ـ •• لا مجال للمقارنة بين الاثنتين ! ثم لو كان بودي أن أعرّفه الى « البارونة » •• لقمت بذلك ، منذ زمن ••

ضحك « جاك » ، ملء قلبه ••

ـ لست في مباراة أو نزال ، معك يا عزيزي •• اني أعرف جيداً

ما لأسرتك النبيلة من صلات وطيدة ! وما لخالك ، « اللورد » ، من أصدقاء ذوي شأن ، في بلاد صاحبة الجلالة ! ثم •• نحن أصدقاء •• فلا يتوارد لذهنك أنني أود اختطافه منك !!

كدت أخرج من طوري نزقا ، لكلام « جـاك » !!

كانت له طريقة ، يسخر فيها من الناس ، في تهذيبٍ لاذغٍ ، هادىء ، طالما تسليتُ وأنا أشاهده ، يمارسها ، مع غيري ! أما وقد أحسست أنني على وشك أن أصبح هدفاً لهوايته تلك ، فنهضت واقفاً •• أتردد بين مهاجمته ، وانتحال عذر ما ، لترك الردهة ، ريثما يعود الى نفسي الهدوء ••

دخل « مكسيم » في تلك اللحظة ، فلم أتنبه في البدء الى أنه قد ارتدى ثياب البارحة •• ثياب الحي اللاتيني التي جاء بها •• مهملا اقتراحي له بانتقاء ما يناسبه ، من ملابسي ••

سألني « جاك » مترددا ••

ــ ألا يستحسن أن ••

لم يترك « مكسيم » له فرصة انهاء جملته •• فقال ••

ــ أرجو أن تعذراني •• ليس في ودّي الذهاب لزيارة أحد ! إنه نهار مشـــرق •• ولم أقم بنزهة ، في الطبيعة ، منذ زمن طويل ! فغابة « بولون » ليست بعيدة ••

ظننت أن «جاك» سيمتعض لمـا سمع ، لكنه بادر الى القول ••

ــ على العكس •• على العكس ! غابة « بولون » ! يوم الاحد بعـد الظهر !! يا لها من فكرة ! تتنزه جميعاً ، اذا لم يكن عندكما من مانع !!

أدهشني اقتراح « مكسيم » ، وتحول « جاك » المفاجىء •• قلت متمتماً لـ « جـاك » ••

ــ •• والأمير •• « يوسوبوف » ؟! هـل تهمل موعدك معه ؟ هـل يصح هـذا ؟!

أجاب « جاك » ، وهو يمسك بالهاتف ، على عجل ..
ــ بل يلحق بنا الى الغاب .. ليس أحب على قلب الأمير من مثل هذه النزهات الباريسية .. المفاجئة !

* * *

أسعفنا الحظ ، بسيارة أجرة كانت تقف غير بعيدة عن داري .. ما إن امتطيناها حتى أخذ « جاك » يدمدم ألحانا قديمة ، ويطلق ملاحظات مرحة عابرة ، تبسم لها ، أو يردّ السائق عليها ، بصورة غير مباشرة .. فيصمت « جاك » .. لتعليق السائق .. يُخفي امتعاضه من تدخله ، أو يتحايل ، في الرد عليه ، موجها كلامه الى أحدنا ، كأنه لم يسمع قول المتطفل الغريب !

ما إن ترجلنا في آخر شارع « فيكتور هيكو » ، وأخذنا نقطع المسافة القريبة المتبقية ، سيرا على الأقدام ، حتى قال « جاك » لـ « مكسيم » .. فجـأة ..
ــ .. بودّي أن أعرّفـك الى « الكـونتيس دو روكموريل » .. فما رأيك !؟

ونظر اليه ، ينتظر الجواب ..

التفت « مكسيم » اليه مستغرباً .. ثم هز رأســه بالنفي .. وألقى إليّ بنظرة استفهام .. فقلت ، متردداً ..
ــ إنها .. سيدة متقدمة في العمر .. تعرف نصف باريس .. على الأقل !

أضاف « جاك » ، على عجل ..
ــ بل ، كل باريس ! تُمسك بيدها ، جميع المفاتيح .. مفتاح « كل باريس » خاصة !

تابع « مكسيم » هز رأسه ، بالنفي .. ثم قال لـ « جـاك » مبتسماً ، مستغرباً ..
ــ .. أتقترح عليّ هذا ، وأنت لمّا تعرفني !! كيف تعرّفني الى الناس ؟

ألست تخاطر بسمعتك ؟ في كلتا الحالتين •• فأنا أشكرك على مبادرتك •• لكني غارق في دراستي ، وعملي ، هـذه الأيام •• حبّذا لو كان في وقتي متّسع لمثل هذه « المناسبات المفيدة » ••

لم يبد على « جاك » أنه امتعض لرفض « مكسيم » اقتراحه •• لكنه كفّ عن دمدمة الألحان •• وبهتت ابتسامته على شفتيه ، ثم غابت ••

* * *

بدا غاب « بولون » ، من بعيد ، يعـجّ بالمتنزهين •• تناثرت ألوان ألبستهم الملونة ، نقاطاً مرحـة ، أضفت ، على ما خلفها من درجات الاخضرار الداكنة ، روح الانطباعيين في الرسم ••

أحسست فجأة ، كأننا نقترب من إحدى لوحات « رونوار » •• لوحة ، يكبر حجمها ، ويتسع ، وتدب الحياة فيها ، كلما اقتربنا منها •• فما إن دخلنا الممرات المرصوفة الضيقة ، وأخذنا تتمشّى بين أعشاب تطـل على بحيرات صغيرة تعج بالقوارب الملأى بالنساء ، والأطفال •• حتى عدت في الزمان الى الوراء ، ودخلت الماضي ••

نسيت رفيقيّ ، وعدت في خيالي الى سنيّ حداثتي الأولى •• الى آخر سنيّ السلام ••

كانت والدتي ، آنئذ ، على قيد الحيـاة ، وكانت نزهاتنا في ذلك الغاب فرضاً مقدّساً في نظرها •• أسير الى جانبها ، وأنا في الثالثة من عمري ، فأرى حبها لي ، في نظراتها ، ثم أُدرك ما سيعتريها ، من حيرة واضطراب ، لرؤية شاب كانت دائمة البحث عنه •• ما إن يبدو من بعيد ، بابتسامته العريضة ، وعضلاته المفتولة ، حتى تشدّ بعصبية على يدي الصغيرة ، فيجتاحني إحساس بالاختناق !! أعضّ على شفتي ، أودّ لو أتابع العض ، حتى أدميها ! أحاول أن ألفت انتباهها بذلك ، وأن أرتمي على صدرها ، باكياً ! أتمنّى لو أسحب يدي ، منها ، بما تملكني من غضب ، وأركض نحو البحيرة ، فأقذف بنفسي في وسطها !!

فاجأني « جاك » ، بنبرة عطوف ، كدت أنسى أنه قادر على التحدّث بها ، لطول ما اعتاد أن يتكلم بلهجته الساخرة الهازئة ، المعهودة ..

سمعته يحدث « مكسيم » ، يقصدني بالكلام ..

ـ إن له من الذكريات هنا ، ما يجب أن يمر الانسان عليها ، في صمت ، وهـدوء ..

ثم مرّت برهة ، طويلة ، صامتة .. نظرتُ الى « جاك » بعدها فكادت عيناي تغرقان بالدموع ..

ـ .. كنتَ تعرف أمي .. أليس كذلك ؟

هز رأسه بالإيجاب ، وقال ..

ـ وكيف لا أعرفها .. « باريس » كلها كانت تشهد لها بالجمال .. كان للكنتها الانكليزية سحرٌ ، ولا أحبّ الى النفوس ..

سألني « مكسيم » للمرة الأولى .. متردداً ..

ـ وهل والدتك كانت انكليزية ؟ كيف توفّيت ؟

لم أقوَ على مغالبة الدمع .. لكني بلعته ، على عجل ، وقلت ..

ـ لقد تناولَت السمّ ، رحمها الله ! حدث ذلك أثنـاء السنة الاولى من الحرب .. حين علِمَت أن والدي قضى نحبه ، في معركة « دنكرك » ..

ـ أكان نبأ وفاته ، هو ما دعاها الى الانتحار ؟ ألم تحدثني بأنها كانت دائمة البحث عن شاب آخر ؟!

ـ بالضبط ! أظن أن صراعا ثقيلاً كان يمزّقها !! لقد كانت تحب أبي .. ولم تخنه قط ! على أية حال ، أنا ، لا أظن ذلك !! ثم سقطت في شراك ذلك الشاب ، دون أن تعرفه ، أو تكلمه ! كانت تبحث عنه ، وأنا في صحبتها .. فما إن تجده ، حتى تهرب منه !! يراها .. ويعرف ما يمزقها .. فيتّخذ جميع الأوضاع من بعيد ، لإثارتها !! ويلقي اليها بجميع أنواع النظرات !!

قال « جاك » يهزّني من ذراعي بلطف ••

ــ لقد جئنا تتنزه هنا ، ونحن نتمشى ، كي نستمتع بالربيع ، لا لتحزن نفسك ، بما انقضى ، منذ عشر سنين !!

تمالكت نفسي ، وقلت ، موافقاً ، متعجباً ، لما دار في ذهني ••

ــ لعلها ذكرى صورة ذلك الشاب ، العريض المنكبين •• فلولاها ، لما بقي في خيالي سوى القليل من الذكريات عن تلك الفترة •• انه حبّ أمي الحائر ، الضائع ، لذلك الشاب •• لصورته الماثلة أمـام عيني •• أراها في خيالي ، بوضوح ، لها من الجلاء ، في ذهني ، أكثر ما لصورة أمي !

رحتُ أردد هامساً ••

ــ كان نحيلاً ، طويل القامة •• واسع العينين •• له ابتسامة ساخرة غريبـــة ••

ضحك « جاك » •• وقال ••

ــ إنها أول مرة تصف لي صورة ذلك الشاب •• لكن •• يُخيّل الى مَن يسمعك أنك تصف « مكسيم » ، الذي يسير الى جانبك ، أو أنك لم تفطن الى ذلك بعد ؟!

فاجأني قول « جاك » ! نظرت الى « مكسيم » ، على عجــل •• ثم أشحت نظري بعيداً عنه ••

قلت ، نزقاً ، مستغرباً ••

ــ لست أدري ! لربما •• لا أجد من معنى ، لذلك !

* * *

جلسنا الى مقعد عريض كان من الصعب أن نجد ، مثله ، خالياً ، في مثل ذلك اليوم •• تناوبتني احساسات غريبة ، وأنا أنظر جانبا الى « جاك » ، وأسترق النظــر الى « مكسيم » ، الــذي جلس بيننا •• فأراه ، كأنني أراه لأول مرة !

آنستني ملاحظة « جـاك » ، صـورة « مكسيم » الأولى ، في حيّ « السان جيرمان » ، ثم صورته في لباسه الرسمي ، في دار « الاوبرا » ٠٠ أذهلني ذلك التلاحم الذي بدأ يتشكّل في خيالي ،للصورة التي في ذهني لذلك الشاب ، ولصورة « مكسيم » !

بتّ أتردد في النظر اليه ، صراحة ٠٠ هل حقاً ما قاله « جاك » ؟ أغلقتُ عينيَ ٠٠ أسترجع صورة ذلك الشاب ، فاذا بعيني « مكسيم » الواسعتين تومئان لي ٠٠ وبابتسامته العريضة ، تبعث القلق في نفسي !

قلت فجـأة أمحو اضطراباً عجيباً أحسست به ٠٠

ــ وماذا في ذلك ٠٠ إنها مصادفة غريبة ٠٠ ألا تجدان ذلك ؟

فاذا بـ « جاك » ، ساه عني ، يبحث بعينيه عن الأمير « يوسوبوف » ٠٠ وبـ « مكسيم » ، يبتسم لي ، في عطف ومودّة ٠٠ ويقول ٠٠

ــ مصادفة خير من ألف ميعاد ! لماذا لا تأخذ الأمور ببساطة ، فتقف مني كما وقفت منك ؟

قلت ، متعجباً ٠٠

ــ أية أمور ؟ ماذا تعني ؟

قال برفق ومحبة ٠٠

ــ لطالما أحسستُ أنك ترى فيّ أكثر من « زميل الحي اللاتيني » ، أو رفيق « الاوبرا » والموسيقى ، والمناقشات العويصة !! لقد أحسست ، منذ البدء ٠٠ منذ عرفت أنك قضيت طفولتك يتيم الأبوين ٠٠ إنك بحاجة الى أكثر من الصداقة المتعارف عليها ٠٠ بحاجة الى قرابة ٠٠ أشبه بتلك التي توثقها روابط الدم ٠٠

لم يكن في كلامه سوى البساطة ، والصدق ٠٠ وكنت وحيداً ، لم أتعود أن أتلقى العطف من أحد ٠٠

علا الدم الى وجهي ٠٠ نظرتُ حولي أشغـل ناظريّ بما يلهيني عن

الاجابة .. فاذا بـ « جاك » ينهض للقاء الأمير « يوسوبوف » .. ويناديني أن ألحق به ..

* * *

وقف « مكسيم » يمعن النظر في القادم الجديد ، نسيب قيصر روسيا ، وقاتل « راسبوتين » الشهير !

بـدا الأمير ، وقوراً ، مرهفاً .. لا يشعر بثقل السنين .. يحمل أعوامه الخمسة والستين ، في خفة من ترفقت به هموم الحياة ، قارعته ، تاركة له فرصة انتقاء ما يجيده من سلاح ..

تقدم « مكسيم » خطوات للقـاء القادمين .. فبادر « جـاك » الى التعريف ..

ــ يا صاحب السمو .. أقدّم لك « مكسيم نييفسكي » .. روسي الأصل .. وصديقنا ، منذ سنين ..

والتفت الى « مكسيم » .. متابعا ..

ــ عزيزي « مكسيم » .. أقدم لك صاحب السمو الامبراطوري ، الأمير « فيليكس يوسوبوف » .. قريب « نيقولا الثاني » قيصـر « روسيا الكبيرة » !!

قال ذلك في لهجة شبه رسمية .. يبتسم للتفاوت بين زمن تلك الألقاب ، الرنانة .. وزمن باريس ، ما بعد الحرب العالمية الثانية ..

قال الأمير ، متردداً ..

ــ ما هكذا يُعرّف الى الأسماء الروسية ، يا عزيزي « جاك » ! تقول « مكسيم » .. « مكسيم » ماذا ؟ هلاّ أسعفته يا « شارل غوستاف » !

أجبتُ ، على الفور ..

ــ عفواً .. « مكسيم .. فيودوروفيتش نييفسكي » .. يا صـاحب السمو ..

نظــر الأمير برهة ، الى أعلى ، يستطلع ذاكرته ويردد ..
ــ « فيودوروفيتش » .. « فيودوروفيتش نييفسكي » .

ولمـا لم يبد عليه ما ينبىء أن ذاكرته قد أسعفته .. أضاف ..
ــ .. إن « نييفسكي » لاسم روسي كبير ! وأمجاد هذه الأسرة النبيلة ، ترجع الى ما قبل قائدنا العظيم « الكسندر نييفسكي » ! كنتُ أعرف الأميرة « ناتاشا اللكسندروفنا نييفسكي » .. زوجة الدوق « فاسيلي بيوترفيتش ».. دعني أتذكر .. دعوني أتذكر .. كانت في « بطرس برج » .. لا ..

هز رأســه ، مقطباً حاجبيه ، عائداً في ذاكرته ، الى الماضي .. ثلاثين ، أربعين ، أو خمسين عاماً ، الى الوراء .. من يدري ؟ ثم قــال ، مرفقاً قــوله بإشارة ما من أصابع يديه ، تضع حــداً للنقاش ..
ــ على أية حال ، انها أسرة معروفة ، عريقة !

وأعقب في جملة طويلة ، باللغة الروسية ، لم أفهم منها شيئا !

نظرتُ الى « مكسيم » ، وإذا به يبتسم حــائراً ، هو الآخر ، فقــال للأمير معتذراً ..
ــ آسف يا سموّ الأمير .. لقد فقدتُ أبويّ منذ زمن بعيد .. ونشأت في « لندن » .. فأنا لا أعرف من الروسية ، إلاّ النزر اليسير ..

عاد الأمير يهزّ رأسه ، مقطباً .. مؤنّباً ، هذه المرة..وقال بالانكليزية..
ــ وهل يعقل أن يهمل روسي لغة أجداده ؟ يجب تدارك ذلك !

أجابه « مكسيم » باللغة نفسها ، وبلهجة متقنة ..
ــ .. بكل تأكيد .. سألجأ الى دراستها ، واتقانها ، في أقرب فرصة !

* * *

أحسست ، منذ اللحظة التي وقع فيها نظر « مكسيم » ، على الأمير « يوسوبوف » ، أن عطفاً خاصاً تولّد في نفسه ، تجــاه ذلك الرجل المسنّ الوقور ..

جلسا يتحدثان في مودة ظاهرة •• يستعرضان اليومي من أمور الحياة ، فيتفقان ، بشأنها ، في تأن كأنهما يحذران طرح المواضيع الشائكة ، خوفاً من اكتشاف أنهما في خلاف عليها ••

كانا في غمرة أحاديث مسلّية ، طريفة •• فرحت أتسلّى بالإصغاء اليهما ، وأمتّع نفسي بجمال الغاب •• أذكر كيف تبدلت هذه الممرات ، وكيف نمت تلك الأشجار •• فأسهو عنهما أحياناً •• وأشعر في قرارتي بهدوء وسكينة دافئين ••

مال « جاك » نحوي ، وهمس في أذني ••

ـ غريب ، ما يحدث اليوم ! ألا ترى ذلك ؟

رفعتُ كتفي ، أومىء اليه أني لم أفهم قصده •• فتابع هامسا ••

ـ أن تعثر على حب أمك الضائع ، في صورة « مكسيم » •• وأن يَعثر « مكسيم » على صورة أبيه الضائع ، في الأمير « يوسوبوف » ؟

* * *

جلسنا ، نحن الأربعة ، على ذلك المقعد الخشبي الأخضر العريض •• أربعة أجيال ، تنظر الى زرقة البحيرات ، والغاب ، فيبدو ما حولنا متباين الشكل والمضمون ، نراه ، تبعاً لما لكل منا ، في الزمان ، من جذور ••

كان الأمير « يوسوبوف » يهز رأسه بين الفترة والأخرى •• يسعده أن باريس ما زالت قائمة ، رغم كل شيء ، رغم كل الثورات والحروب ! ويأسف لهمجية الحضارة ، ولآليّتها التي أوصلت مدينته الحبيبة الى ما آلت اليه ! ثم هذه النساء !! كان لمنظر ألبستهن القصيرة أثر سيء في نفسه••بدت له النساء ، كالدمى ، لا تصل ثيابها إلا الى مستوى رُكَبها ! ثياب قصيرة ، شعر قصير ، ظفَرٌ قصير •• نسيَتْ نساء باريس المظلات البيض الأنيقة •• ونسين شدّ

الخصور التي كانت تبـدو كالأسـاور الجميلة ، كمـا كانت تفعـل أمهاتهن وجـداتهن !

كان « جاك » أوسعنا رؤية .. يعرف باريس الأمير ، باريس أول قرن العشرين ، .. فيرى فيها مدينة مزمومة الشفتين ، ساخرة ، متعجرفة ! يؤثر عـلى ذكريات طفولته ، تلك ، أجـواء العشرينات ، المتفتّحة ، الصاخبة ، الطروب ! يذكرُ أنه كان لانعتاق تلك الحقبة ، من القيود ، إحساس مَن يتلقّى رذاذ الماء المنعش البارد بعد حر صيف طويل .. يكره حال باريس اليوم .. حيث يستخلص الشباب حريتهم ، وفي عيونهم ، نقمة ، على ما حُرموا منه في الماضي ، وكره أعمى ، لما سبقهم من أجيال !

أما أنا .. فباريسي كانت في نظري خليطاً غريباً لما كنت أشاهده في تلك اللحظة ، مضافة الى ذلك ، ذكريات الجوع ، والذعر ، وأهوال الحرب ! كُنت في حاضر دائم ، أتجاذب أطرافه مع « مكسيم » .. أما الماضي ، فكان بمثابة التاريخ ، بالنسبة إليّ ، لا صورة حسية له في مخيلتي ، والمستقبل .. كلمة .. لا أجد ما يحرّضني على رفض حاضري ، كي أتطلع متشوقاً اليها ..

سألت « مكسيم » ، كأني أخاطبه في خيالي ..

ـ .. وأنت ؟ كيف تجد هذه المدينة ؟ ما باريس بالنسبة اليك ؟

نظر إليّ ملياً .. ثم قال ، ساهماً ..

ـ لكل انسان باريسه .. تراه يستند الى واقع ما ، ويحلم بباريس ! أما أنا ، فإن حلمي بات واقعياً .. لقد حققتَ باريس أحلامي .. فسرقتَها .. فصرت لا أدري أين أتجه ، انطلاقاً من هـذا الواقع الحالم ..

قال « جـاك » طـرباً ..

ـ يا لضياع المترفين !

علّق الأمير « يوسوبوف » ..

ـ لا ، لا .. هذه طبيعة الروس ، و « مكسيم فيودوروفيتش » روسي

أصيل ! إنها خاصة الروس المحيّرة ، يا عزيزي « جاك » •• تراهم في ضياع ، لأنهم يودون تحقيق أحلامهم ، فوق الأرض التي يعيشون عليها •• وضمن البيئة التي يكرهون ! ليس عندهم انهزامية الشرق ، كي يقبلوا بعيوبهم ، ويسكتوا عليها •• ولا يميّزهم حب المغامرة ، والتنقل ، الذي ينقلب الى هجرة ، كالحبّ الذي تجده عند « اللاتينيين » و « الانكلو ساكسون » ! ألم تتكلم اللغة الفرنسية في « بطرس بورج » قبل الثورة ؟ نأتي لزيارة باريس ، قبلة أحلامنا •• فلا نهدأ ، حتى نتركها ، ونعود الى الوطن الأم •• لنتأفف ، ونتذمر من واقعنا •• فنتكلم الفرنسية من جديد ، ونعيش ذلك الضياع الغريب ، الذي أودى بنا جميعاً !!

نظر الى « مكسيم » فجأة •• وقال له ••

ـ « مكسيم فيودوروفيتش » ! لعل القدر هو الذي هيأ لكلينا هذه المقابلة •• انك تذكّرني بالماضي •• بماضيّ أنا ! حين كنت أدخل بيت الحارس ، لأتنكّر ، وأخرج منه خفية ، تائهاً عن عمد ، في شوارع « بطرس بورج » !!

« كان قصرنا الكبير ، يطل على نهر « النيفا » ••ولنا في حديقته ، الواسعة الأرجاء ، كشك للحارس ، أخفيتُ فيه عدة أزياء غريبة ! كنتُ أتسلل خفية عن والديّ ، بعد العشاء ، فأرتدي زيّاً غجرياً ، من « بوهيميا » •• أو زيّاً « تتريّاً » ، من أقاصي آسيا •• أو ، ما حلا لي ، من عشرات الأزياء التي كنت أحتفظ بها في ذلك الكشك ! فأركب قارباً صغيراً ، يقودني الحارس فيه ، بعيداً عن قصرنا ، الى أحد الجسور •• فأخرج الى شوارع « بطرس بورج » سعياً وراء الحياة الحقيقية ! حياة المجهول ! لا أعود ، إلا مع ساعات الصباح !! أعود ، الى حيث تركت ذلك الحارس مع المركب ، فيجذّف ، عائداً بي الى رصيف حديقة القصر ، فأدخله ، كما يدخل اللصوص ، متسللاً الى غرفتي ! أنام ، قرير العين ، تضجّ أحلامي بمن قابلتهم من الرعاع ! وأشم رائحة عرقهم ، على جسدي ، حتى الصباح •• آه •• لقد انقضت تلك الأيام ! ولن تعود !! »

كان يتكلّم ، وعيناه تائهتان في الفضاء ، لا تريان سوى ما تجسّد أمامهما مما كان يصفه لنا !

نظر الى « مكسيم » ، وقال في لهجة حميمة ، لم أسمعها منه من قبل ..

ــ ليتك عرفت « بطرس بورج » يا « مكسيم فيودوروفيتش » .. أو .. لست أدري .. لعله من الخير لك أنك لم تعرفها ! على أية حال .. أنا سعيد بهذا اللقاء اليوم !

توقف قليلاً ، ثم أطلق زفرة طويلة ، وتابع ..

ــ لقد مللت الكلام عن أخطاء الماضي ! مللت التحدّث عما كان على القيصر أن يقوم به ، من اصلاحات ! وما كان عليه أن يتدارك ، من أخطاء !! كان هذا النوع من الأحاديث ، في الماضي ، يعيدنا الى أيّام خلت ! يذكّرنا بالمجد الضائع ، فنتوهّم ، أننا ما زلنا على علاقة ما ، بما فقدناه !! لقد أجتررنا الحديث عن الماضي ، ففقد ، حتى مذاقه المرّ ! أصبحتُ اذا ما تكلّم مَن حولي ، عنه ، أنظر إليهم دون أن أسمع ما يقولونه ، فلا أرى سوى أزياءهم ، وأوسمتهم القديمة ! وهي كل ما تبقى لهم من صلات مع الماضي ! الى أن بتّ أكره هذا الحديث الذي يكاد اليوم يُخرجني عن طوري !! لذلك ، تراني أهرب منه ، فأتجنّبه ، وأبتعد عمن يتلذّذون بتكراره !!

علا وجهه الشاحب الوقور ، احمرار مفاجىء ، رافق بريق عينيه ..

تابع كمن وجد ضالّته ، مصادفة ..

ــ أما اليوم ! أيها الاصدقاء ، فلقد انتقلتُ الى الماضي ، دون التحدث عنه ! قبل أن أتحدث عنه ! أحسست يا « مكسيم فيودوروفيتش » .. أن فيك ، من الماضي .. من ماضيّ أنا .. أكثر مما في وسعي أن أشرح لك تفاصيله ، أو أن أفهم سره !! نعم ! لقد فعلتَ هذا ، لي ! أنت ، الذي لا تتكلم الروسية !!

كان وجه الأمير « يوسوبوف » قد تألق ، وهو يتكلّم••ثم امتلأ بتعبير ، خشيت إن أضاف كلمة واحدة ، أن ينقلب الى عبرات !

قال وهو يتمالك نفسه •• يميل الى اليسار ، حيث جلست الى جانب « جاك » ••

ــ •• صديقيَّ ، « جاك »• • و « شارل غوستاف » ! أتسمحان لي ، أن أتوجّه بطلب خاص الى صديقكما « مكسيم فيودوروفيتش » ، الجالس بيننا ؟

أجاب « جاك » ، في جديّة ، يشوبها ومض من لهجة مسرحية ، لم تخف عليَّ ••

ــ •• طبعاً •• طبعاً ! يا سمو الأمير !

توجه الامير ، نحو « مكسيم » ، وقال ••

ــ •• إنني أعدّ عملاً ، منذ سنين •• عملاً ، قد يقال عنه إنه « مذكراتي » •• لكني ، أعدّه للتاريخ ! فهل تقبل أن تساعدني في إعداده ؟

تعجّب « مكسيم » •• ولكن ، عدوى ، ما كان يُحس به الأمير ، كانت قد أصابَتْه ، هو •• فأجابه في صراحة وعفوية ، لم أعرفها عنده من قبل ••

ــ بل إنه •• إنه لشرف لي ، أن أساعدك في أي شيء تطلبه مني ! لكن•• كيف يمكنني ذلك ؟ وأنا ••

أردف الأمير ، مطمئنا ••

ــ لا •• لا •• هوّن عليك ! كل ما أطلبه منك ، هو إجادتك لكلتا اللغتين ، أعني الإفرنسية والإنكليزية ! إن معظم ما أكتبه ، هو بالافرنسية •• أعني ، مذكراتي وملاحظاتي••والمطلوب منك ، هو ، ترجمتها الىالانكليزية•• بالروح التي لك •• أنا لا أود ، لمحترفٍ فرنسي ، أو انكليزي الأصل ، أن يترجمها ! يُحسن صفَّ الكلمات ، ويتركها فارغة ، دون إحساس ! إن معظم ترجمات « بوشكين » تسقط لهذا السبب ، بالذات ! لا •• إني أود إنساناً روسي الروح ، لا روسي اللغة •• لترجمتها ! وها أنا قد وجدته ! يبقى ، بعد

ذلك، تصنيفها ، بحسب تتابعها •• فمتى تمّ ذلك ، يبقى علينا أمر التنقيح •• وعندي ، لهـذا الأمر ، أستاذ انكليزي ، ضليع في قواعد اللغـة •• أبعث بالمخطوط ، الى ابن عمنا « نيقولا » ، في لندن ، فيحيلها اليه •• ويتم الطبع والنشر ، مع شركة ، سبق وتعاقدت معها في أمريكا !

سأل « جاك » ، مستفسراً ، قبل أن يتكلم « مكسيم » ••

ــ وهل الامير « نيقولا » في « لندن » ؟ ظننته في « كوبنهاغن » ؟!

تبسّم الأمير « يوسوبوف » ، كمن فهم ما يعنيه « جاك » ••

ــ وهل ظننت أن خلافه مع موظفي قصر « باكنهام » سيدوم الى الأبد ؟! إن الملكة « اليزابيت » قريبته ، كما تعلم ••

سألتُ متعجّبا ••

ــ •• وأنتما على قرابة •• فالملكة اذن قريبتكم كذلك !

قال ساهما ••

ــ •• لا •• لا ، إن قرابتي معها بعيدة •• عن طريق جدّتها ، الملكة « فيكتوريا » •• أما « نيقولا » •• فقرابته ، أوثق •• عن طريق أبيه ، فهو ابن عم القيصر •• لكن ما لنا تتحدث عن هـذه الأمور ؟ هيه ! مـا رأيك يا « مكسيم فيودوروفيتش » ، في اقتراحي ؟!

أجاب « مكسيم » ، مبتسماً •• سعيداً ••

ــ •• على الرحب والسعة ! يسرني ، أن يكون في وسعي ، مساعدتكم ، في هذا للعمل •• بالشكل الذي ترونه !

نهض الأمير واقفا ، وقال ••

ــ أشكرك يا صديقي ! أعدّك صديقي ، منذ اليـوم ، يا « مكسيم فيودوروفيتش » •

والتفت الى « جاك » ، قائلا ، في حماسة ، وغبطة ••

ــ وأشكرك يا « جاك » للفتتك هذه ، في إعداد هـذا اللقاء اليوم !

سأتصل بك ، في القريب العاجل ، من أجل موعد آخر ، نبحث فيه شروط العمل •• وداعاً يا « شارل غوستاف » ! سلامي الى قريبك « البارون دو روتشيلد » •• أما الآن ، فعليّ أن أنصرف •• إذا سمحتم ••

قمنا لوداعه •• فشد على يد « جاك » ثم على يدي •• ولما وصل الى يد « مكسيم » ، شد عليها ، أولاً ، ثم تركها ، وشد على كتفيه في عطف ظاهر ! هز رأسه في صمت •• قبل أن يستدير على عقبيه ، ثم ابتعد متنقلاً بين الممرات ••

* * *

ما إن توارى الأمير حتى سرنا تتابع نزهتنا في أرجاء الغاب المتراصة الأطراف ••

قال « جاك » مبتسما ، في خبث ••

ـ •• لست أفهم كيف أقدَمَ هذا الإنسان ، على القتل •• وقتل من ؟! وحش ، عملاق ، في شكل ذلك الراهب المعتوه ، « راسبوتين » !!

قلت ، وأنا لا أدرك وجه الغرابة ، فيما يراه ••

ـ وهل نسيتَ ظروف روسيا ؟! والحاشية الحاقدة على سيطرة « راسبوتين » ، على القيصر ، وزوجته ؟

ـ ليس هذا ما أعنيه ؟ فالظروف السياسية •• والدوافع المتعددة ، للتخلص من « راسبوتين » ، آنذاك ، ليست في حاجة للشرح ، أو للتسويغ ! إن ما لا أفهمه •• هو كيف اختار القدر الأمير « يوسوبوف » ، وهو الشاب ، المرهف الحس ، البعيد عن أجواء السياسة ! كان في السابعة والعشرين من عمره ، على ما أظن •• لو أن غيره من النبلاء •• والمهتمين بالحكم •• الحاقدين على « راسبوتين » ، لسبب أو لآخر •• لو أن رجلاً عسكرياً • •أو أميراً متهوّراً ، قام بهذه الجريمة ، لما تعجّبت •• أما أن يقوم بها « يوسوبوف » ، بالذات ، ويستعمل ، علاوة على ذلك السم •• المسدس ! ثم السكين ! فهذا

ما لا أفهمه ! وأكاد لا أصدقه ، لولا تأكيد وقائع التاريخ !! ما الذي أثاره الى هذا الحد ؟! كيف تجمّع كل هذا الحقد في نفسه ؟! وهو الذي لم يعرف ، في ذلك الحين ، غير اللهو ، والطرب ، والعيش المترف !!

كان « مكسيم » يعلم أن الراهب « راسبوتين » قـتل في أحـد قصور النبلاء •• وعلى يد أحد أقرباء القيصر ! أمـا أن يرى بأمّ عينه ، قاتل تلك الشخصية التاريخية ! أن يتحدث اليه طويلا ، وترتبط عروة الصداقة بينهما ! بل يتفقان على انجاز عمل أدبي ، بهذه السرعة ! فذلك خيال ، لم يقو خياله على استيعابه !!

راح ينصت الى حديث « جاك » وكأن ، هذا ، يتكلم عن غـيرالأمير الذي شدّ على يده ، ثم شدّ على كتفيه منذ لحظات !

تنبّه الى صوت « جاك » يقول له ••

ــ ••فهل من غرابة أن يثور الشعب عليكم يا «مكسيم فيودوروفيتش»؟!

قال « جاك » ذلك ، في لهجة « يوسوبوف » ، وضحك جذلاً لما قال ••

تعجّب « مكسيم » ••

ــ « علينا » ؟ وماذا تقصد بصيغة الجمع ؟

أجاب « جاك » ، على الفور ••

ــ دعك من التخفي هذا •• وما فائدته •• بعد الذي جرى ؟

أصرّ « مكسيم » في ضيق ظاهر !

ــ •• لست أفهم شيئا مما تعنونه •• أرجوك •• فسّر !

ونظـر إليّ مستنجداً •• مستغرباً قول صديقي •• فأجبت ، في بساطة تـمهّد له طريق الاعتراف ••

ــ « جاك » يظن أنك من النبلاء •• وأنك تخفي ذلك ، لسبب يخصّك ! فأين الغرابة في ذلك ؟

عقّب « جاك » مؤكدا ..

ــ ومن الواضح .. أن الأمير عرف اسم والدك ، منذ اللحظة الأولى ، وتعامى عن الإفصاح عما يعرفه ! إكراما لك ! لقد أدرك الأمير أنك تخفي حقيقة نسبك عنا .. فاحترم مشيئتك ! لا شك أن تقديره لك قد ازداد ، بسبب هذا التخفي ! كيف لا ! والنبل أصبح ، لدى الروس البيض ، أمراً مبتذلاً ، يدّعيه كل سائق عربة أجرة ! أو صائد سمك ، على نهر «الفولجا» ؟!

كان « مكسيم » يثور ، إذ وجد نفسه فجأة تقحم في دور لم يتوقعه !! احتقن وجهه .. ثم تمالك نفسه ، وبدا كأنه على وشك أن يغرق في الضحك ..

قال ، متهكماً ! ساخراً !

ــ لو أني أدعي أصلاً نبيلاً ، لارتاب مَن حولي من الناس ، في صحة ادعائي ، حباً بالشك !! ولما صدّقتماني ، بل ، لهزئتما منّي سراً ، أو علانية ! وكان « جاك » ، أوّل من فنّد ادعائي ، وكذب الخبر !! أما وأني ، أنفي ، ما نُسب اليّ من نسب نبيل ! فلقد بات الأمر لديكما ، كأنه تهمة ، أو ذنب ، أودّ التملّص منه ، فتشبثتما بإيقاعي به ! ولم يثبت لديكما أني نبيل وحسب ، بل انني أعرقُ من هؤلاء ، نبلا !!

ــ رويدك عزيزي ، رويدك ! وهل نحن الذين اكتشفنا سرّ أبيك ؟ إنه أمير بلادك الأكبر ؟! نحن لم نقم بدور ما ، في هذه العملية ، سوى فهم ما هو بسيط ، وبديهي ! ألم تر كيف روى لنا الأمير « يوسوبوف » قصة تخفّيه ، في ثياب الغجر ؟ والتتر ؟ وغير ذلك ؟! وهل يخفى على أحد ، أنه إنما كان يرمي بذلك الى تسويغ ارتدائك ثيابك البوهمية ، هذه ؟! عزيزي ! هل تظننا ولِدنا أمس ؟ لم يبق ، لـ « يوسوبوف » ، سوى القول إنه ، هو الآخر ، كانَ يعزف على « الاورغ دو برباري » ! وفي شوارع « بطرس بورج » ! مثلك تماما .. هنا !!

أحسستُ ، وأنا أسمع قول « جاك » أن الحقيقة بدأت تتبلور في ذهني ! لا شك أني كنت أحسّ بها .. وأحاول أن أتمسّك بها ، في الظلام ! لكن تلك

الحادثة أتت تجلو الغبار عما اكتمل في ذهني من يقين !!

كنتُ في الماضي ، أميل الى الظن ، أن في ماضي « مكسيم » سراً ، يجاهد في إخفائه ، فجاءت ادعاءاته لي ، بأنه شرقي ، تؤكد أن في الأمر ، مثل هذا السر ، وجاء اخراجه البدائي ، لمسرحية كشف هذا السر ، سبباً آخر ، يزيد في قناعتي ، أنه ، إنما كان يُبعدني عن حقيقة يحرص على إخفائها عن الناس !! هزئت من نفسي ! كيف كدت أصدق أمر تلك الرسائل ، رغم شكوكي ، سخرت من رسائل ، كأنها مقالات اجتماعية ! موجهة الى فتاة لا وجود لها ! ثم •• لماذا لم يبعث بهذه الرسائل ؟ أو ببعضها ؟ أين جواز سفره الأصلي ؟ كيف دبر أمر اختفائه ؟

نظرتُ إليه ، مرتاحاً الى ما اكتشفت فيه •• قلقاً على ما قد أقوله ، أو أبديه من شك ، مما يمكن أن يزيد من جرح كبريائه !

قلت في لهجة ، ملؤها المحبة ، والصداقة ••

ــ « مكسيم » •• صديقي •• أتظن أن التهور قد بلغ بالأمير « يوسوبوف » الى حدٍ ، يطلب فيه من انسان غريب ، لم تمضِ ساعتان على مقابلته ، أن يشترك معه في تنسيق مذكراته وترجمتها ؟! هذا ، اذا لم يكن لديه سبب وجيه •• بل برهان قاطع ، على أن هذا الانسان جدير بثقة لا يرقى اليها الشك ؟! وكيف يصل الى مثل هذه القناعة •• لولا معرفته الأكيدة بوالدك •• وأنسبائك ؟!

صمتنا برهة ، ونحن نتابع السير •• أمسكت خلالها بذراع « مكسيم » ، أشد عليها ، بين الحين والآخر •• أحار فيما أقوله له ، وقد شعرتُ بأنني وطأت عنده على أرض حرام ، لا يحقّ لي أن أطأها !

رفع « مكسيم » غصناً يابساً عن الأرض •• وأخذ يضرب الهواء برفق•• ثم قال ، والحيرة بادية على وجهه ••

ــ أؤكد لكما ، أن ظنكما في غير محله ! أما وقد وصلتما الى قناعة ، أرى

أن من العبث أن أثنيكما عنها .. فأرجوكما ، ألاّ تشركا فيها ، أحدا ! فنحن ، في باريس ! بلد الروس البيض ! وكل ادعاء ، من هذا القبيل ، وقد ينقلب على رأس صاحبه ، بشكل أو بآخر ! لا أظن أنكما تريدان لي السوء ! أو السمعة السيئة !!

رضي « جاك » لهذه النتيجة ، كتم فرحه بها ، وراح يؤكد تكتّمه ، لـ « مكسيم » ، في إصرار ، أيقنتُ ، من لهفته الزائدة ، أن الليل لن ينقضي ، حتى يُطلع نصف باريس ، على الأقل ، بما قام به من اكتشاف مثير !!

أما أنا .. فلقد كنتُ سعيدا ، بما اكتشفناه ، وما أصر على نفيه « مكسيم » ! سعيداً ، أن أسير الى جانبه في الغاب .. سعيداً ، أن أمسك بذراعه ، في صمت ، أراقبه بطرف عيني ، وهو يلوّح بغصنه اليابس ، في الهواء ...

* * *

الفصل الثاني عشر

أطبق « جاك » عليّ ، وعلى « مكسيم » ، في الأيام التي تلت ، يأتي لزيارتنا ، صباحا ومساءاً ، يحدّثنا عن الأسماء اللامعة .. يخصّنا بالكشف عن أسرار حياتها الخاصة .. يعوّض « مكسيم » ، على حد زعمه ، عما فاته ، من معرفة المشاهير ، من الكتّاب والفنانين الباريسيين ، ممن لا علاقة لهم بالحي اللاتيني .. أو معرفة من يحركهم من أناس يمسكون برؤوس خيوط الحياة المالية ، والسياسية .. يقودنا الى مقابلة بعضهم ، يرهقنا بالحديث عنهم لا يفوته ، أن يعرّفنا الى نجوم المجتمع ، ونحن بين زيارة فنان وآخر !!

لم يأت عيد الفصح ، حتى كنا قد انسقنا مع التيار الذي دفعنا اليه « جاك » ، لاهين عما كنا قد رتّبناه لهذه الفرصة من مشروعات ، منساقين مع ما جرفنا فيه « جاك » ، من حياة اجتماعية ، كنتُ قد مَلَلْتُها ، وآثرت العزلة النسبية عليها ، قبل أن أعرف « مكسيم » ، وثلة الأصدقاء ، من الحي اللاتيني ..

لو قلتُ : إن « جاك » أدخل « مكسيم » ، معظم صالونات باريس ، خلال فترة ، لا تزيد على أربعة أسابيع أو خمسة ، لبدا قولي هذا رواية مبالغاً فيها !! لا سيّما أن شروط دخول مثل هذه الأجواء ، في باريس ، لا تقتصر على أن يجد الإنسان من يقوده اليها ، ويفتح أبوابها المنيعة ، وحسب ، بل ، تتطلب من الزائر الجديد ، أن تكون له صفات فريدة ، وجه من الغرابة ، أو التميّز ، يلفِت اليه الانتباه ، أو الإعجاب ،، يفرض الوافد الجديد به احترامه على أصحابِ هذه الصالونات .. فلا يُدمغ بصفات وسيطه اليها ، ولا ينظر

اليه على أنه مرافق فلان •• بل تـَقبل صفاته ، هو ، لتفرّدها ، ويصبح تميّزه ، هو العامل الأساسي في لفت الأنظار اليه، وتشوّق بقية أفراد هذا العالم المغلق، لمعرفته ، وللمثابرة على طلب صحبته ••

أربعة أسابيع ، أو خمسة ، زمن ، لا يكفي الغريب ، في عُرْف باريس ، كي يتهيّأ لدخول واحد من هذه الصالونات ، المتمرسة برفض الكثير من الغرباء المتطفلين ، ناهيك عن دخول هذا الغريب معظمها ، ثم اكتسابه صفة المرغوب فيه ، المخيّر بين أكثر من حفل ، في الليلة الواحدة ! لكنها عوامل كثيرة تجمعت في شخص « مكسيم » ، من جهة ، وفي ظروف « كل باريس » تلك السنة ، من جهة أخرى •• عوامل ، تضافرت ، لتلعب دورها ، فسخرت شهرة الأمير « يوسوبوف » ، ومكانة « جاك كاتلان » الاجتماعية ، المرموقة ، لتسليط الأضواء على صديقي ! فلم تفتح له الأبواب وحسب ، بل تركّزت عليه الأنظار، فجعلت منه ، محورا لعلاقات نسائية ، كانت بطلاتها ، من سيدات المجتمع ، هن أنفسهن ، اللواتي يتفنّن في اذاعة وتضخيم أخبارها !

كانت تلك ، حقبة من الزمن ، لها من الذكريات في نفوس من عرفوها ، ما لن ينسوه لزمن طـويل !

كانت باريس في طور إزاحـة ما تراكم على كاهلها من هموم الحرب ، كأنما تتحسس نفسها ، المرة ، بعد المرة •• كيما تتأكد من أنها معافاة ، نظيفة ، جـديدة ! تسترجع القريب المثير من ذكرياتها ، فتبرز حقبة ما قبل الحرب ، في ألَقِها ، وبهجتها ، فيحضّها ذلك على التهيؤ ، لوثبة بعيـدة ، لا تعرف مداهـا ••

وعالم الصالونات لم يكن في زمن من الأزمان ، معملا ، أو مخبرا للنبوغ ! لعله كان ، في باريس ، أحد أبراج المراقبة ، يجلس فيه الموسرون ، والقيّمون على عالم المال ، يناقشون المتقاعدين من عـالم الفن ، والأدب ، والفكر •• وينظـر الجميع ، الى الشباب ، في الحـي اللاتيني ، و « مونبارناس » ، « ومونمارتر » •• ويتساءلون ، عمّا يعيق ظهـور « الانبياء الجدد » ••

ويتهامسون ، عما يمكن أن يقوم به هؤلاء ، من معجزات ، في المستقبل !

وكانت باريس في شـوق الى أساطيرها السابقة ، تتمنّى ، وتترقب ، حدوث المعجزات ! لا يهمّها فحوى الحدث ، بقدر ما يهمّها ، أن الحدث قد تم ! فما إن تصل الى ذلك العالم •• عالم « كل باريس » الشهير ، أنباء مثيرة عن وافـد جديد الى بلاطها ، حتى تشرئب الرؤوس •• وتصغي الآذان •• فيرتفع الوافد الجديد الى السدة ، بدفع جماعي ، لا ارادة فردية لأحد فيه ، لا يمكث برهة ، تحت أنوار تلك العيون الكاشفة ، حتى يبهت لونه ، ويزول سحره ، فترتدّ الأنظار عنه ، ويسقط في عالم النسيان ، بالسرعة التي ظهر فيها !!

ولم يكن عالم الصالونات ينتظر معجزة أدبية ، أو فلسفية •• بل حدثاً ، فريداً من طبيعة خاصة ••

وسرعان ما تم ذلك لـ «مكسيم» في صالون «الكوتيس دي روكموريل» ، خلال حدث ، لا يزال القدامى يذكرونه ، حتى اليوم ، ويتناقلون تفصيلاته في حنين من يتكلم عن العشرينات ، عصر الأساطير ••

* * *

دخل « مكسيم » صالون « الكوتيس دي روكموريل » بعد أن كان قد تعرّف الى عشرات الصالونات ، تسبقه اليه ، شائعات ، عن تكريس الأمير « يوسوبوف » لأصله الارستقراطي ، العريق •• فما إن بدا للجالسين ، في تلك الليلة ، بقامته الطويلة ، ووجهه الشاحب ، يزيح عن كتفيه ، ثوبه الفضفاض الأسود ، ذا الياقة المخمليّة العريضة ، حتى طفقت أخيلة القوم تضفي عليه ، من صفات الإبهام ، والمغامرة ، ما كانت نفوسهم تتوقُ وتفتقر اليه ، فتتوسّمه في نفوس أخرى ، وتسبغه على قوم آخرين •

رحبت « الكوتيس دو روكموريل » بالقادم الجديد •• ثم التفتت الى ضيوفها قائلة ••

ــ قولوا ! بربكم ! أليس ضيفنا قادما الينا ، هذه اللحظة ، من بلاط القيصر ؟

أجابت احداهن ، في صوت حالم ••
ــ إنه قصيدة •• من قصائد « بوشكين » !

قهقهت سيدة رائعة الجمال ، في الثلاثين من عمرها ••
ــ لكن •• كل هــذا تاريخ ، جمّده الصقيع ! إنه شاب •• دافىء •• هذا هو المهم !

علّقت « الكوتيس » على قولهــا ، ساخرة ، من كياستها اللاذعــة ، المعهودة ••
ــ •• يخال من يسمعك ، أن باريس ، ينقصها الشباب ؟

هزت السيدة رأسها ممتعضة ••
ــ الشباب •• تسعى وراء الصبايا ! لم يبق في باريس من يقدّر قيمــة المرأة الناضجة !

تمتمت « الكوتيس » في صــوت أجش ، ولهجة هــازئة •• تودّ ، ولا تودّ ، لمحدثتها ، أن تسمع ردّها !
ــ •• إن نضج المرأة ، اليوم ، يقاس بما نضج لديها ، من مال ! ومعامل النسيج عندكم يا عزيزتي ، لا تتوقف عن الحركة ! فما بالك تشكين ؟

ونظرت الى شاب وسيم ، رياضي الجسم ، كان في رفقة تلك السيدة !

تململ الشاب ، لسماع تعليق « الكوتيس » ، ثم ابتسم ، في سذاجة ، وسأل رفيقته ••
ــ هل أحضر لك كأسا من « البراندي » ؟

فلما هزّت رأسها ، بالإيجاب ، وجد طريقه لتجنب سماع مزيــد من التعليقات اللاذعة •• وأسرع يحضر الكأس ••

همَس « جــاك » لـ « كوتيس » مؤنّبا ، مازحا ••
ــ متى تكفّين ، سيدتي العزيزة ! عن نشر الحقيقة !! إن أقسى ما في الكون ، هو حقائق الليل !!

ـ ولماذا أكفّ ؟ وكل أنثى هنا قد شحذت نبالها على جسدي !!

وتقدّمت منه ، تعانقه ، وتقبّله ، في لهفة اجتماعية ، مدروسة ، مألوفة لدى تلك الطبقات ، ألفة ، ليس من معنى لها سوى أن المتعانقين يشتركان في فهم حقائق ذلك النمط من الحياة ..

مالت برأسها الى الوراء ، وهي ما تزال تحيط عنق « جاك » بذراعيها ، وكررت ..

ـ .. ولماذا أكف ؟ أنا أكره اللف والدوران ! هل ترى الخاتم الذهبي الجميل الذي في اصبع يدها ؟ سوف ترى يا عزيزي « جاك » .. لن تنقضي هذه السهرة حتى تنسكب كأس « البراندي » ، على غير قصد ، من يدها على ثياب صديقك .. الروسي .. فترتبك سيدتنا ، وتقود « مكسيم » الى غرفة الزائرين تلك ، ـ وأومأت برأسها الى غرفة منعزلة ، بعيدة ـ كي تساعده على تنظيف ثيابه .. فلا يعودان منها .. من تلك الغرفــة ، إلا بعد نصف ساعة .. والخاتم الذهبي ذاك ، في أصبع صديقك !!

ضحك « جاك » ، ملء قلبه ، لما سمع !

سُرّ لما أثاره « مكسيم » من اهتمام السيدتين ، لكنه طمأن «الكونتيس» ، في كلمات ســريعة ، ثم استدار ليفلت منها ، وكان ينظــر حوله ، يتفحّص الوجوه ، ليتعرّف بقية الموجودين ، علّه ينصب شراكه لصيد جديد ..

شدّت « الكونتيس » على ذراعه ، وأدارت رأسه اليها ، بطرف أصابعها ، وقالت .. تقوده جانبا ..

ـ قل لي « جاك » ! بربك .. ماذا يحدث حولنا ؟ ماذا يحل بنا ؟

أراد أن يصغي اليها لكن تلك السيدة ، صاحبة الخاتم المتنقّل ، أثارت انتباهه ، فراح يلاحقها بنظراته ، يتعجّب للإصرار الذي راحت تحدق به الى « مكسيم » .. ويستغرب ما طرأ على مظهرها من انشغال ، منذ أن دخـلا الصالة ..

بدت حانقة على شيء •• تكلّم رفيقهـا ، في نزق ظاهـر •• تزيد من الشراب ، فما إن توجّهت نحو باب الشرفة الجانبية ، في عصبية ظاهرة ، حتى ظن أنها تتهيّأ لترك الحفل ، بسبب خلاف نشب بينهما ! واذا بها •• تعود أدراجها فجأة •• فتنتحي أحد أركان القاعة ، تبحث عن « مكسيم » ، بعينيها التائهتين ، ثم تنظر الى « جـاك » ، في إصرار ، فلا يفهم هـذا من معنى لنظراتها !

تنبّه الى صوت « الكونتيس » ، تحدثه ، غير منتبهة لانصرافه عنهـا •• فاجأته نبرة الصدق في سؤالها •• فأصغى اليها تكمّل قولها ••

ــ أودّ أن أفهم ، ماذا يحل بنا ، « جاك » ! هل أنت معي ؟ لماذا تتفسّخ طبقتنا ، على هذا الشكل ، وبهذه السرعة ؟! أنا أفهم أن يكون الجنس مطلب الشباب اليوم •• بل ومتنفّسهم الوحيد ، بعد كابوس الحرب ، وتزمّت قواعد الأخلاق عند جيلنا ، نحن ! جيل ما قبل الحرب ! أفهمُ من تخطّين سن الخمسين ، من النساء ، إن هنّ خفن الموت ، فارتمين في أحضان اللذة ، يدفعن الغالي ، والرخيص ، لتمضية الليل المخيف ، لصق شـاب دافىء ، قويّ ، غضّ ! يبعدُ شبح الشيخوخة والموت عن أحلامهن ! إن من لا أفهمهنّ •• هنّ نساء أمثال « روز ماري » هذه ! من كنّ على شاكلة هذه المرأة شباباً ، وثراءً ، وجمالاً ، يجب ألاّ يكنّ على هذه الدرجة من التهالك ! أنا لا أفهم ، مثلاً •• كيف تصل هذه المرأة الى أوج لذتها •• خلال خمس دقائق ! وفي أية ساعة من اليوم ! بل في أيّة خلوة ! سواء أكان ذلك في حديقة عامة ! أم كان في عتمة دار السينما ! غرفة حمام ما ! أو وراء باب مدخل أي بناء مهجور !!

صفـّر « جاك » ، دهشة ، ونظر الى تلك السيدة ، يتأملها من جديد ! كانت جميلة فعلاً ! غاية في الأناقة !!

تبدلت نظراتها ، فبدت هادئة ، حزينة وقورا ••

قال والدهشة تتملك تقاطيع وجهـه ••

ــ •• لكن ، يا إلهي ! هذه « روزماري » ابنة الجنرال « بيرل » ، ألم تكن زوجة « البارون دو بريساك » ؟

ــ إنها هي ، ذاتها ! وهل لك من معرفة سابقة بها ؟ لقد أمضت في سويسرا عدة سنين ، ريثما تتم مراسيم الطلاق بينهما •• ثم تزوجها « بارون » آخر ، ثري ، سويسري ــ الماني كبير ! بعد أن حصلت على نصف أملاك « البارون » الأول ، بالطبع ••

هز « جاك » رأسه ، متعجبا ، لغرابة المصادفات •• وتملّص من « الكونتيس » ، متجها نحو السيدة الجميلة ••

ما إن اقترب منها ، حتى تبسمت ، وقالت ••

ــ ظننت أنك لن تتعرف إليّ ! هل تبدّلت الى حد ، عدت لا تعرفني فيه ؟! « جاك » •• عزيزي !

ــ •• « روز ماري » •• عزيزتي !!

وضمها الى صدره ، ثم نظر الى وجهها مليّا ، ويداه على كتفيها••وتابع••

ــ •• « روزي » الصغيرة ! لكم تبدلت ! طبعا ، لقد تبدلت ! وتفتح البرعم ، عن زهرة « أوركيد » غضّة ، تعانق أوراقها ، نفسها ، كألحان نغم خجول ••

ضحكت « روزماري » لكلامه ، وقالت ••

ــ لا زلت الشاعر الذّلق اللسان ، الذي عرفته في طفولتي !! ولكن هذا ليس رأي تلك المومياء فيّ ! وأشارت ، خفية ، الى « الكونتيس » التي التفتت الى غيرهما ••

تابعت « روزماري » كلامها ناقمة ، ضاحكة ••

ــ هذه القهرمانة ، التي تنتمي الى فصيلة أكلة لحوم البشر !! تنتقدني ؟ وعلى ماذا ؟ أعلى الهدايا الصغيرة التي أعطيها لأصدقائي ، في المناسبات ؟! لا بد أنها أوسعتني ذمّاً ! وهي التي باتت تدفع خمسماية فرنك ، ثمن الليلة ، ولا تجد من يقبل أن يلمس تجاعيدها !!

فتح « جاك » عينيه متعجبا •• فأردفت ••

ــ سل صديقي هنا ! لقد حاولت إغراءه ، مرتين ، منذ !ن وطأنا دارها ! قبل أن تصل مع أميرك الجديد !! لكن صديقي لم يقبل عرضها •• لعل هذا هو سبب نقمتها عليّ هذه الليلة !!

هزّ الشاب رأسه ، في سذاجته المعتادة ، موافقا ، فأمسك « جاك » ذراعه ، وسأله ، مازحا ••

ــ وأنا ؟! هل ترفض طلبي ، كذلك ؟

ضحك الشاب طربا ، لكثرة المعجبين •• وقال ••

ــ لو كنت وحيدا •• فربما ! أما وأنا في رفقة « البارونة » •• فهل يعقل ذلك ؟

تدخلت « روزماري » •• وقالت ••

ــ دعنا من هذا السخف ! « جاك » •• أرجوك •• إن لي طلباً عندك ! هل ترفضه لي ؟!

ــ •• روزي ! وهل يعقل ذلك ؟ أطلبي ما تتمنّين مني !

ــ •• هل تعدني ذلك ؟ رغم غرابة طلبي •• أو جرأته ، أو جنونه ، في نظر بعض الناس !!

•• تذكّر « جاك » اضطرابها ، فتلكأ في الجواب •• ثم قال ••

ــ طبعا •• طبعا ••

ــ « جاك » لك أي شيء ، تطلبه مني •• مقابل أميرك !

بهت « جاك » لجرأتها •• فتابعت ••

ــ « جاك » ! لن تصدّقني ، اذا قلت لك الحقيقة •• لكني سأعرّض نفسي لسخريتك اللاذعة •• ولألسنة الجميع ، لو اقتضى ذلك •• إنه حلمي ! إن صديقك ، هو ما أحلم به منذ سنين !! أرجوك •• أعرف أنني كالراعي الكذاب ! ولا يصدقني أحد •• ولقد كذبت كثيرا ! ما ذنبي ؟! لقد كانت

تلك طريقتي الوحيدة للانتقام من الجميع ! كنت أفعل ذلك لأكشف أكاذيبهم ، عن الحب !! وهل يعرفون الحب ؟ ما إن أدفع الثمن ، لأي منهم •• حتى يترك تلك التي يدعي أنه يحبها !! ألوح بالذهب ، للشباب ، فيتركون أياً كانت من النساء ! ويهرعون اليّ !! وإن رفضوا الذهب ، ألوّح بالماس ! وإن رفضوا الماس ! أفتح دفتر الشيكات ، فتنهار مقاومتهم •• وتزول الأقنعة !! أنت تعرف الكثير عن هذه المرحلة !! إنما هذه المرة •• أنا صادقة •• صادقة ، « جاك » !! أبذل كل شيء للوصول اليه !! أي شيء !!

نالت المفاجأة من « جاك » الذي قلما يقوى أمر على مفاجأته !! غمره سيل كلامها المتدثّر ، المشحون بلهجة صادقة ، فجّة ، فتلعثم لا يدري بأي شيء يجيب !! كان صوت « روزماري » قد بدا يعلو ، فخاف أن يلفت ذلك انتباه من حولها ! ضمها الى صدره •• يربت على كتفها •• مهدئاً ، يردد ••

ــ •• « روزي » •• رويدك ! « روزي » !! ما هذا الذي تقولينه •• إنه هذيان ؟! وهل يعقل أن يحدث هذا كله في مدى لحظة خاطفة ؟

انتفضت ، تحاول أن تدفعه عنها ••

ــ لا تخاطبني بهذا الشكل !! أرجوك !! ــ وغصت بدموع مفاجئة ــ أقول لك ، إنها الحقيقة !! أعلم أن هذا غير معقول ! بل انه سخف ! جنون !! ماذا تريد لكي تصدقني ، هل أصرخ ؟ هل أزعق ، لكي تصدق ؟!

شدّها « جاك » اليه بعنف ، حريصا ألاّ يلفت الانتباه اليه ، بينما فتح الشاب عينيه ، في البدء ، كالذي يشاهد حالة جنون مفاجىء !! ثم استدار ، واختفى بين المدعوين !!

عاد « جاك » الى تهدئتها •• قال ، كارها ما يقوم به ••

ــ ألا تدركين ما تقولين ، « روزي » ، لقد أخفتِ رفيقك ، حتى هرب منك !

ــ وماذا يهمني منه ! أو من غيره ! « جاك » !!

ــ حسنا •• حسنا ! سأفعل ما في وسعي •• لكن •• أتدرين معنى

ما تقولينه ؟ ان « مكسيم » لم يرك بعد ؟ لا يعرف أنك على قيد الوجود ! يا لها من ورطة !! إنه لشيء مضحك ، محير •• مبكٍ !! ثم •• ماذا تجدين فيه ، مما يبعث فيك هذا الجنون !!

حاولت « روزماري » ، مرة أخرى ، أن تدفعه عنها !! والشرر قد بدأ يلمع في عينيها !! فضمّها ثانية ، يعاود تهدئتها ••

ــ قلت لكِ إنني سأفعل ما بوسعي ! هدئي من روعك ! وإلاّ ، فكيف أدعوه الى التعرف بك •• وأنت على هذه الدرجة من الاضطراب ؟!

بلعَتْ « روزماري » لعابها في هدوء ، وتصميم ، وجهدت أن تبتعد عن صدر « جاك » ، في أناقة متعمدة ، فتخفي انفعالها !

مرّت إحدى المدعوات أمامها •• فقالت لهما ، مازحة ••

ــ أليس الوقت مبكرا لمشاهد الحب ؟

وتابعت سيرها ••

ومرّ الندل ، يحمل كؤوس الشراب ، فتناولت « روزماري » أحدها على عجل ، وهمّت أن تجرع ما فيه ، مرة واحدة ، فأوقفها « جاك » •• وقال ،

ــ لا تودين أن تبدي أمامه سكرى ! أليس كذلك ؟!

فتبسمت •• ورشفت جرعة صغيرة ••

أدار « جاك » رأسه يبحث عن « مكسيم » ، وكنا واقفين ، نحدّث « الكونتيس » تدعونا الى قصرها ، في وادي « اللوار » •• لقضاء عطلة عيد الفصح في ضيافتها ، مع رهط من أعضاء « كل باريس » ••

أومأ « جاك » اليّ ، أن أقترب منه ، مع « مكسيم » •• فما إن فعلنا ، وتبيّنت أنه يحدث « روزماري » ، التي كنت أعرف ، حتى بانت دهشتي ، ورحت أسألها عن الماضي •• أُطري جمالها ، وأعجب للتبدل الكبير الذي طرأ عليها ، منذ سفرها الى « جنيف » !!

أدركتُ ، بعد برهة ، أنها كانت غافلة عني وعن جميع من كان في الحفل ! لا تسمع كلمة مما كنت أقول ! كانت تنظر الى « مكسيم » واجمة ، ضائعة ، فنظرتُ الى « جاك » ، الذي بادر الى التعريف •• في لهجة مقتضبة لم أفهم سببها ••

ـ •• « روزماري » أقدّم لك صديقي « مكسيم نيفيسكي » •• روسي الأصل يدرس في باريس ! « مكسيم » ، أقدم لك « البارونة روزماري فون برول » !

قالت « روز ماري » ، دون أن تحوّل بصرها عن مكسيم ••

ـ أشكرك يا « جاك » ! لم يكن من حاجة الى أن تعرفني اسمه ! فأنا أعرفه •• منذ زمن بعيد !!

تعجّب « مكسيم » ••

ـ •• ومنذ زمن بعيد ؟ منذ متى ؟

ـ منذ أن شاهدتك ، أول مرة في « الاوبرا » •• منذ أن دخلت في نفسي ، الى حيث لم يصل انسان بعد !!

كان « جاك » قد تمالك نفسه ، واستعاد صفاء ذهنه ، فقال ، يشحذ لهجته الساخرة المعتادة ••

ـ هذا لقاء لن أفرّط في ثانية واحدة ، من مراقبته !!

كدتُ أسأله أن يفصح عما يقصد ، من تعليقه ، لكنه أردف على الفور ••

ـ « مكسيم » ! أنت الذي تعوّد المفاجآت ، حتى مللتَها ! أراهن •• أن لديّ ما سيفاجئك ، حتى العظم ، هذه الليلة !

قال « مكسيم » ، وكان هو الآخر ينظر الى « روزماري » ••ويتفحّصها، في إعجاب ••

ـ هات ما عندك !

ـ هل تؤمن بالحب •• من النظرة الأولى ؟

ـ أهذا كل ما في الأمر ؟

ـ إنك لم تجبني !

ـ وكيف أجيبك ؟ وهل نحن في « المابيون » ! أو في جلسة هادئة ؟! ثم •• من الذي يعنيه سؤالك ؟ وإلام تقصد بطرقك الملتوية ؟

قلرتُ ، حائرا ، لتسارع الأسئلة ! فاذا بوجه « روزماري » قد احتقن بالدم •• ومر الساقي قربي ، فأبدلتُ كأسي الفارغة بأخرى ملأى •• ولما هممت أن أسأل « روزماري » ماذا تود من شراب ، رأيتها تشير الى الندل بالانصراف ، ثم سمعتها تقول فجأة ••

ـ « مكسيم » ! أنا التي أطرح عليك السؤال ، بدل « جاك » !! فأنا المعنية بالأمر !!

باغتني أن أسمعها تخاطب صديقي ، باسمه الأول •• « مكسيم » ، وأحسستُ أنه أخفى دهشته ، وامتعاضه ، لسؤالها !! كان يود لو يقارعها الكلام ، لعلّه تمنى لو يستمر الحوار بينهما ، برهة ، قبل أن يصل الى هذا السؤال ! لكنه أدرك أن في الأمر من الخطورة أكثر مما هـو باد للعيان •• فتمهل ، وقال ••

ـ الحب ، إحساس ، يا سيدتي ! لا كلمات ، تتقاذفها في الصالونات !!

هبط الدم من وجه « روزماري » ، لما سمعت ! فشحب وجهها ، وتجمعت حبيبات صغيرة من العرق على شفتها العليا !!

قالت في همس ، يكاد لا يسمع ••

ـ « مكسيم » ! اني لست أمثّل الآن ! ولا أحاول كسب جولة كلام !! « الحب •• نقطة التقاء خطين ، تائهين ، في مدى الزمن » ! إني أُحسّ وجودك ، هذه اللحظة ، يجري في عروقي !! لا أقوى على السير خطوة ، لا أودّ أن أزيح عيني ، عن عينيك ، كي لا أفقد تملّكي لما أحسّ به ، في هذه اللحظة !! أنت الذي يجب أن يفهم الكلام !! فان لم تفهم ، أنت ، كلام « جوتيه » •• فمن

يفهمه ؟! « مكسيم » ! أنا الحب •• وإني لك في هذه اللحظة •• أنا ملكك ! فخذني ! خذني ، « مكسيم » !!

فتحتُ عينيّ ، مليا ، لا أصدّق ما أسمع !!

كانت « روزماري » تتكلم ، كأن ليس في الكون سواها ، ومن تخاطب !!

نسيتُ ، أنا الآخر ، أننا في صالون « الكونتيس دو روكموريل » •• يتنقل حولنا عشرات المدعوين ! لا يعرفون ما يدور بيننا •• ولا همّ لهم ، سوى التقاط كلمة ، أو حركة ناشذة من غيرهم ، فيذيعون خبرها في سهراتهم المقبلة !!

نظرتُ الى « جاك » ، أستحثه أن يَجِد مخرجا لتلك اللحظة الحرجة التي وصلنا اليها ! وأشرتُ ، بطرف عيني ، الى حيث جلست « الكونتيس » ، أذكّره بوجودها ، فيما لو كان « جاك » ، مثلي ، على وشك أن ينسى وجودها ! فتنهّد « جاك » ، وقال في حزم لم يتعوّده !

ـ •• « روزي » •• ليس هنا مكان مثل هذا الكلام !! ثمّ إنك تقطعين الطرق على « مكسيم » ! هذه ليست جرأة ! ولا تحد ! إنه الجنون بعينه !!

قاطعه « مكسيم » ، كأنه يطلب منه ألاّ يتدخل ! قال ، يرد على « روزي » ، في تحدّ لم أفهم غايته ••

ـ أو كلام صالونات •• لعل « البارونة » قد تعودت عالم المبارزة ! في الصالونات !!

زمّت « روزماري » شفتيها •• وقالت لـ « مكسيم » تتابع ما ابتدأته ••

ـ قلتُ ، خذني ! وأعنيها !!

فقال « جاك » •• مذعورا ••

ـ هنا ؟ في هذه القاعة ؟ أتودين ذلك فعلا ؟!!

أردفَتْ ، تحدّق الى عيني « مكسيم » ..

ـ إن كان في ذلك برهان على حبي لك .. فليكن ! فأنا أعنيه ! هنا ! وأمام الجميع !!

كان « مكسيم » على مسافة خطوتين منها .. تقدم ، ليحيطها بذراعيه .. لعلّه كان جادا .. أو أنه أُخذ بالتحدّي .. أو ، أنه تقدم خطوتين ، كي يوهم السيدة أنه قد شرع فعلا في مجامعتها !

لست أدري ماذا كان يحرّك « مكسيم » من دوافع ، لكنه همّ بها ، كمن يحاول فكّ السحاب الوحيد الذي يشدّ ثوبها الرقيق ! ثم توقفت يده ، كأنه لم يقو على فكّه !! لعله أرادها فرصة لـ « روزماري » كي تتراجع !! واذا بها ، تمدّ يدها ، خلف ظهرها ، لتساعده .. تنزل السحاب ، تهزّ كتفيها.. حتى انزلق الحرير عن جسدها ، الى الارض ، ووقفت أمام جميع من في الحفل .. تنظرُ الى « مكسيم » ، صدرها العاري الجميل ، يرتجف مع وقع أنفاسها المتقطّع !!

هدأت جميع أصوات الحاضرين !! أطبق الصمت عليهم ، الواحد ، تلو الآخر ! حتى « الكونتيس دو روكموريل » التي عجزت قنابل الحرب عن إعاقة لسانها .. وقفت مشدوهة ، ومعها جميع مدعويها .. تسمّروا مصعوقين، غير مصدقين لما رأوا !!

لم أع كم من الزمن انقضى ونحن على تلك الحال .. لعلها ثوان .. بدت لنا ساعات طوال .. تحرّك بعدها « مكسيم » .. فأحاط خصر « روز ماري » بذراعيه ، بشدة ، يودّ لو يقبلها ، واذا بها تتهاوى بين ذراعيه .. شبه فاقدة الوعي !!

أسرعتُ أرفعُ ثوبها ، الى حيث كان ، على جسدها .. وسارع « جاك » الى رفع السحّاب .. لحظات ، وكنا نسعفها في غرفة الزائرين ..

* * *

مضت فترة طويلة ، ونحن في صمت ثقيل ممض ..

كانت « روز ماري » قد عادت الى رشدها ، منذ اللحظات الأولى .. تمدد جسدها الرائع على الفراش الوردي .. صدرها يخفق في تنهدات عاطفية صماء .. فرحنا ننظر اليها حائرين ..

تمتمت ، بعد برهة ..
— آسف ، لما سببته لكم من ازعاج .. لقد تورطتم فيما لا شأن لكم فيه ..

ولما همّ « مكسيم » أن يقول ما يخفف عنها.. رفعت يدها الى شفتيه .. تسكته ، في حنان ..

قالت .. بعد برهة أخرى من الصمت المضني ..
— قلت لك .. إنها لحظة .. لحظة التقاء خطين ، تائهين ، في مدى الزمان .. نقطة التقاء قدرين ، تائهين .. أرجوك أن تفهم ، لحظة .. لا قبلها .. ولا بعدها ..

قبّل « مكسيم » أطراف أصابعها التي على شفتيه ، ثم قال ..
— ولم تفتني تلك اللحظة .. لم تكوني وحيدة فيها ..

هزّت رأسها ، باستسلام ، دون أن تجيب .. الى أن قالت ..
— والآن .. أرجو منكم أن تتركوني وحدي .. سأخرج من هذا الباب المؤدّي الى الحديقة .. ومن ثم الى سيارتي ، ثم الى بيتي .. فلا يستغربنّ أحد اختفائي ..

ولما تلكأنا بالنهوض ، استحثتنا على ذلك .. فخرجنا في هدوء ، الواحد تلو الآخر ..

فما إن همّ « مكسيم » على رد الباب خلفه ، حتى سمعتْ صوتها يناديه ، فعاد اليها برهة ، ثلاث أو أربع دقائق ، ولما همّ بالخروج ثانية .. سمعتها تقول له ، وهو يغلق الباب ..

ــ •• لحظة •• لا قبلها •• ولا بعــدها ••

فهز رأسه ، بنعم •• ولحق بنــا •• لنتابع الحفــل ••

* * *

هنالك من علّق على تلك الحادثة ، بقوله ، إنها أغرب ما حدث في ليــالي باريس منذ أطلقت « الكونتيس دو ريبو » النار ، على عشيقها ، حين داهمته وهو يرقص مع غريمتها ، ليلة رأس السنة ، قبل الحرب بأربع سنوات ! وهنالك من اتهم « روز ماري » بالجنون ، أو بالـ « نيمفومانيا » •• آخرون ، رووا أساطير عن حب قــديم ، بينها وبين « مكسيم » « النبيل الروســي ، الغريب الأطوار » ، قالوا إنه استهان بها ، وعذبها ، فأذلّها •• لدرجة ، طلب منها أن تتعرى أمام الجميع ، بالشكل الذي فعلت ، عقابا لها ! وكفــارة ، عن ذنوبها الماضية !! على طريقة ما حدث للورد « بايرون » !

كان من الطبيعي أن تسري تفاصيل تلك الحادثة ، كالنار ، في هشيم ذلك المجتمع ، فما إن جــاء الصباح التالي ، حتى كانت معظم أوساط « كل باريس » على عــلم بتلك الحادثة ، تتناقل تفاصيلها •• يفسّرها كل كما يشتهي ، بل ، يزيد عليها ، بالقدر الذي يجود به خيــاله !

لكن ما أجمع الكل عليه •• هو تسمية تلك الليلة بـ « ليلة مدام فــون برول ، وأميرها الروســي » •• ولم تعترض ، عــلى تلك التسمية ، ســوى « الكونتيس دو روكموريل » •• سمتها « ليــلة الحقائق » ، وقالت لنــا ، منــذ أن خرجنا مع « جــاك» ، تاركين « روز ماري » و « مكسيم » ، في غرفــة الزوار ••

ــ •• لقد بخستْها حقهــا !

ثم تابعت ، وعيناها تبرقان في مزيج من الاعجاب ، والحسد ••

ــ لو كانت لي جرأتهــا في شــبابي •• لحكمت فرنسا !

همدت حماستها ، فجأة ، لخاطرٍ طــرأ لهــا •• فتابعت ، متحسّرة ••

ـ لكن ما الفائدة ؟ ومعظم من في يدهم زمام الأمور ، اليوم ، لا يحبّون النســاء ؟

تحمّس « جــاك » لفكرتها •• وقال ••
ـ يحكمها جمال الشباب ! أفلا يكفيكم ما أخضعتموه من ملوك فرنسا ؟
ـ ستظلّ الأمور في يد النسـاء •• يا عزيزي ! قد تتعدد الطرق ، لكن النصر ، في النهــاية ، دوماً لهن !!

تعجّب « جــاك » •••
ـ وهل تقولين هذا بعد ما شاهدته بعينيك ، من هزيمة « روز مــاري فون برول » ؟

سَخِرَتْ منــه ، قــائلة ••
ـ أنت تهذي •• يا « جــاك » ! أين فطنتك ؟!

بدا على وجــه « جاك » أنه لم يفهم ما تقول ! فتابعت « الكونتيس » كلامها ، وعلى وجهها أسف لما أحسّت أنها مضطرة لإطلاعه عليه ••

قالت ، تنادي « مكسيم » الذي كان يحدثني ••
ـ عزيزي « مكسيم » •• تعال اليّ •• ألا تود محادثتي ، بعد ما بهرتك روعــة تمثيل « ســارة برنارد » ؟

فلما دنا « مكسيم » مبتسما ، تناولت يده ، وحينما أمسكت إصبعــه الصغرى قــالت ••
ـ هذا خاتم جميل •• أهو قديم ؟ من ذكريات الأســرة ؟

احمرّ وجــه « مكسيم » ، حياء •• ثم قال ، في عفوية ظاهرة ••
ـ لا •• لا •• إنه هــدية ••

نظر « جاك » الى خاتم « روز ماري » على إصبع « مكسيم » ، وحدّق الى « الكونتيس » متعجبا ، ثم تبسّم !
ـ •• لكن ، متى ؟ لقد أغمي عليها ! ونقلناها ، معا ، الى الغرفة !

نظر الى « مكسيم » متسائلا ، مبهوتا ! فاعتذر هذا عن متابعة الحديث ، وتمشّى معي ، يحادثني ••

نظرتْ « الكونتيس » الى « جاك » في تشفٍ •• وقالت ••

ــ ألم تتركاها على انفراد معه ؟

ــ إنها بضع دقائق فقط •• بضع دقائق ! لا أكثر !!

ــ وفي هذا أكثر مما يلزمها للوصول الى ما تريد ! ألم أقل لك إنها تصل الى الذروة ، في دقائق معدودات ؟ ثم ، ماذا يهم •• ف « روز ماري » فاكهة شهية ، لا ترفض ! فلا ملامة على « مكسيم » ، فيما قام به ! إنه فارس نبيل •• ولقد استغلت نبله !

صمتت برهة ، ثم تابعت ••

ــ •• إن « روز ماري » انتصرت عليّ أنا •• وفي عقر داري ! وحولت ، جميع من حولها ، لحظة تعرّت ، الى أقزام !!

* * *

الفصل الثالث عشر

لم يكن لقصر « الكوتيس دو روكموريل » ذلك الطابع التاريخي الذي اتسمت به بقيّة قصور وادي نهر « اللوار » •• ولا كان على ضخامة القصور المشهورة منها ، أو على عراقتها ، وصلتها الوثيقة بتاريخ ملوك فرنسا ! ومع ذلك ، فلقد كان ذا صفة فريدة ، بين القصور •• لا تكاد تطوف حول الغاب ، ذي الاشجار الباسقة ، الذي يغطي أبراجه ، ويحميه من هواء الشمال البارد ، حتى يطلّ القصر عليك ، شامخا ، أنيقا ، ناصع البياض ، تكمّل بهاءه زينة ، ما زالت — على قِدَمِها — قشيبة ، ويغطي سقف أبراجه الأربعة الشامخة ، قرميد ، خمري اللون ، يزهو ، اذا غسلته الأمطار •• فيبدو القصر ، على حقيقته ، مسكنا عريقا لأسرة نبيلة ، لا متحفا ، ولا قلعة ، كبقية القصور ، لا صلة لها بالواقع ، سوى تذكير السياح والزائرين بتاريخ فرنسا ، وبأناقة ذوقها الفني ، وميلها العضوي ، الى كل ما هو منطقي وواضح ••

ورثت « الكوتيس » قصرها عن أبيها ، وكان قد أهمل العناية بالحقول الخصبة المحيطة به ، فكانت لا تزوره ، مع والدتها الباريسية ، إلا أثناء الصيف ، وبين عطلة وأخرى •• فما إن وصلت الى ما تفتقر اليه من سيولة مالية ، لزواجها من صناعي كبير ، يحلم بمصاهرة ذوات الألقاب من السراة ، وبحيازة مثل ذلك القصر ، حتى دبت الحياة في بساتينه الداكنة التربة ، فأعادت « الكوتيس » الكرمة الى أراضيها الخصبة ، وثابرت ، مع زوجها ، على الاعتناء بها ، الى أن اعتقله « النازيون » ، أثناء الحرب ، ومات في سجونهم ، تاركا لزوجته ، علاوة على معامله ، مورداً كبيرا من صناعة النبيذ •• وعذرا

طبيعيا •• للاتصال والاحتكاك مباشرة ، مع العشرات ، والعشرات من الشبان العاملين عنـدها ، في تلك الحقول !

كانت « الكونتيس دو روكموريل » ، أول من استدعى الطلاب ، من فرنسيين وأجانب ، خـلال عطل الصيف ، للعمل في أراضيها ، والمساعدة في قطف محصولها الكبير من العنب ، في جو طلائعيّ ، حديث ، أثار انتباه المجتمع والمثقفين في العاصمة !

كانت تقيم الحفلات الصاخبة ، في الليل •• يحضرها الجميع ، من ضيوف وعاملين ، وفي النهـار •• تدعو خاصّة من أصدقائها ، ليجلسوا على شرفات القصر •• يحتسون الشـراب ، ويتمتّعون بمشاهدة العشرات مـن الشباب والصبايا يقومون بأعمالهم ، أشباه عراة ، ينعمون بالشمس ، ويلهون ، وهـم يقومون بقطف عناقيد العنب اليانعة ••

تتالت الألقـاب الجانبية ، والتسميات المثـيرة ، على « الكونتيـس دو روكموريل » •• يروّجها أفراد المجتمع الباريسي ، تباعا ، وتمشيا مع حـدّة وقع أخبار علاقاتها الغرامية ، التي كانت تفاصيلها تتسرب الى « كل باريس »•• « ميسالينا »•• « كاترين ، قيصرة روسيا »•• « لوكريسيا بورجيا »••الخ••

وكان ، « ملكة النحـل » «APe Regina» ، آخر تلك الألقاب ! فما إن تجاوزت الخامسة والخمسين من العمر ، وغلب صيت مغامرات الصبايا ، على شهرتها •• حتى عـاد ألقُ النسب ، يحتل المكان الاول ، بين مميزاتها •• فازدادت صداقاتها ، وعمّت •• حتى شملت معظم ذوي الشأن ، في الأوساط الهـامة ، وأصبحت « الكونتيس » موضع الثقـة ، والمؤتمنة على أسرارهم جميعـاً !

* * *

كانت « الكونتيس » ترتدي ثوبا ورديا ، وعلى كتفها ، مظـلة بيضاء صغيرة ، فبدت من بعيد ، وهي تجلس على شرفتها ، تستقبل ضيوفها ، كأنهـا جـزء من لوحـة لـ « مونيه » ••

رحّبت بنا •• وما إن تعرف كل منا الى الغرفة المعدّة له •• حتى سارت معنا ، بين ردهات قصرها ، تهتمّ بالضيف الجديد ، « مكسيم » •• وتطلعه على كل ما تقتنيه ، وتعتز به ، من لوحات تاريخية ، وأخرى انطباعية ، ثمينة !

عدنا الى الشرفة نرتشف الشراب ، مع بقيـة المدعوين ، و « مكسيم » مأخوذاً بما رآه من تحف ولوحـات ••

تأثّرت « الكونتيس » لذلك •• وبدت ، عدّة مرات ، كأنها على وشك أن تقول شيئا •• تتردد في البوح به •• الى أن بادرت « مكسيم » ، قائلة ••

ـ •• يمكنك أن تأتي لزيارتي ، متى شئت •• لتتمتع بهذه اللوحات •• بالطبع •• إني جادة يا عزيزي ! تعال متى شئت •• دون دعوة !

ونظرت الى « جاك » مبتسمة ، تسوّغ دعوتهـا ••

ـ لا يا عزيزي ! لا يخطرنّ على بالك خاطر ! فإن لي من العمر أكثر ما لأمـه ! لا ! إني جـادة •• فالقصر في هذه الأيام يظل خاليا ، معظم أوقات السنة ، خلا ، من فيه من الخـدم ، بالطبع •• ويسرّني جدا أن يزوره مرارا ، شاب ، مثـل « مكسيم » ••

ثم نظرت الى « مكسيم » مليا ، وقهقهت عاليا •• وقالت ••

ـ أتعرفون ما في نفسي ؟ أقسم لكم أني سـعيدة الآن لما حصل في داري في باريس !! أعني مع تلك الشيطانة « روزي » ! إن تلك المغامرة قد وضعت حداً أمـام ما قد يروّج عني ، وعن « مكسيم » ، من شائعات اذا ما قرر أن يأتي لزيارتي ، في المستقبل •• ولكي أؤكـد لكم ذلك ، أن ليس لي مـن قصد خفيّ في دعوتي لـ « مكسيم » ، فاني سأدعو « روز ماري » للحضور هنـا •• لتمضية يومين ، أو ثلاثة •• مع زوجها بالطبع •• فلقـد وصل الى باريس ، البارحـة !

ثم قامت على عجل •• ودخلت الى القصر تطلب الهاتف ، لتدعوها ••

تعجبنا لما قالته •• سألني « جـاك » مغتنما فرصة غيابها ••

ـ ما رأيت بهـذه الدعـوة ؟

أجبته حـائرا ..

ـ لقد فوجئت بهـا ! وما رأيك أنت ؟

وأومأتُ اليه ، بطرف عيني إيماءةً ، أخفيها عن « مكسيم » .. أسأله انطباعه الحقيقي .. فرفع كتفيه .. وأردف على الفور ..

ـ .. لا .. لا .. لا شيء من هذا القبيل ! وإلا لما اتّبعت الكونتيس هـذه الطريقة المكشوفة ! ثم نظر الى « مكسيم » حائرا . وقال في صـوت مسموع .. وفي نبرته شيء من الغـيرة والإعجاب !

ـ لست أدري أيها الماكر ، ماذا تجد فيك النساء .. فمنذ أيام ، أحرزتَ أكبر نصر عرفه وسطنا ، منذ عشرات السنين !! وها أنت الآن ، على الطريق ، كي تتبنّاك أغنى أرملة في باريس !!

نهض « مكسيم » واقفا .. جادا ، وقال في حـزم ، وهـدوء ..

ـ إن كان في ذلك إشارةٌ واحدةٌ تسيء الى أي منكما فإنني أعود الى باريس ، في الحال .. لقد سئمت هذه التعليقات المبتذلة !!

قلت على عجـل ..

ـ « مكسيم » .. ما بالك تحتدّ ؟ أنت تعلم جيدا أن « جـاك » يكنّ لك محبة كبيرة .. إنه من طرفك .. بل اننا ، نحن الثلاثة ، في هذا ، معا !

ـ أعلم ذلك ! وهو الذي أصر على إدخالي هذه الأجواء .. لكني ، أولا ، لم أطلب « روز ماري » الى مبارزة ما ، ليلقّب ما جرى بيننا ، في تلك الليـلة ، « نصرا » لي عليها ، أو على ما تسمونه « كل باريس » .. عـالم ، لا تعنيني قيمه في شـيء !! ولا أسعى اليوم الى حظوة ، أو الى بنوّة مـا ، تمنّ بها عليّ صديقتكما هذه أو سواها .. إن ما جرى بيني وبين « روزي » مـدام « فون برول » أمـر خاص بيننا ، رغـم ظروفه العلنية ، المسرحية ، فأنا ، منذ هذه اللحظة .. لا أسمح لأي منكما بالإدلاء برأيه ، أمامي ، حول

هـذا الموضوع !! أما عن « الكونتيس دو روكموريل » فإنني لمّا أعرفها ، لذلك أرجو اعتبار أية صداقة قد تنشأ بيننا ، أمرا خاصا بي ، لا أسمح لأي إنسان بالتدخل فيه ! تماماً كما لا أتدخل أنا في الشؤون الخاصة ، لأيٍّ منكما !!

عادت « الكونتيس » تسرع الخطا إلينا ، قائلة ..

ــ ألم أقل لكم إن « روز ماري » ستأتي على أجنحة الطير !! إنها قد تصل ، هذه الليلة ، قبل زوجها !!

مال « جاك » ، يهمس في أذني ..

ــ .. والأدهى من كل شيء .. هو ما يقوم به صديقك ، من جمع بين الأضداد !! تصور ! أمس فقط ! أحسستُ أنها تود لو تقتل « روزي » غيرة ، لما قامت به من ذاك المشهد الذي حسدتها عليه ! وها هي ذي الآن ، تدعوها ، لتمضية بضعة أيام هنا .. في قصرها !

قهقه « جاك » بصوت خافت ، فلما سألته عن سبب ضحكه ، عاد يهمس في أذني ..

ــ إني أتصوّر .. ذلك المشهد الرائع .. مشهد « روزي » عارية .. تقوم بتأديته « دو كموريل » العجوز ! أتصورها عارية تماماً وسط ذلك الحفل !!

كنت أعجب بذكاء « جاك » .. وأخشى لسانه .. أخاف دوماً أن يفلت زمام خياله منه ، أن يسبقه لسانه .. فيؤذي نفسه ، ويؤذي غيره ، دون قصد ...

تنبهت « الكونتيس » ، لضحك « جاك » الماكر .. فسألته كأنها على وشك أن تظهر مخالبها له ..

ــ .. أراك تعود في السن يا عزيزي ، الى الوراء ! في أصول اللياقة فقط ! ما الذي يُضحك ، في دعوتي لـ « روزي » ؟

تنبّه « جاك » الى لهجتها الحادة •• فتمالك نفسه ، وقال على عجل ••

ـ على العكس ! إن ما أضحكني ، فكـرة فنيّة طـرأت لي •• ليت « مكسيم » يقـوم برسمها ! كنتُ أتصور مدام « فون برول » قادمـة الى القصر ، هنا •• على حصان انكليزي •• عارية تماما ، كما في لوحة « الليدي غودايفا » •• يسير زوجها من ورائهـا ، في وقـار ، حاملا حقيبة ثيابها !

أطلقت « الكونتيس » ضحكة رنانة •• شاركها فيهـا « مكسيم » •• فعـاد المرح والعفويّة ، يخيّمان على الجو •• وزال عن صدري ثقل ما كنت بدأت أحس بـه من شرر ، كادت تخلقه ملاحظات « جاك » الجارحة ••

* * *

أخـذت « الكونتيس » « مكسيم » من ذراعه ، في تلقائية محببة •• وسارت به ، ملقية ببعض ثقلها على كتفه ، تشير الى حظائر الخيل •• وتقول لنـا ، طـربة ••

ـ أود أن أطلع « مكسيم » على جيادي •• سنعود بعد ذلك ، في الحال ••

وسـارا مبتعدين عنّـا ••

* * *

قلت لـ « جـاك » متسـائلا ••

ـ قل لي يا عزيزي •• ألست تقتصّ من الناس ؟ وعلى الدوام ؟ لمـاذا هـذه المبارزة مع الآخـرين ؟!

أجابني ، وكأنه يهـزأ مني ، ومن نفسـه ••

ـ لأنني أحبّهم ! وليس في وسعي أن أقبل عيوبهم !

ـ أتظن أنك منزّه ؟ لا عيب فيـك ؟

ـ بل إني أول من يعرف عيوبه ! وتأكد ، ياعزيزي « شارك غوستاف » ••

!نه لو قدّر لأحد أن يهزأ من نواقصي •• لكنت أول المشاركين له في هــذه السخريــة !

ــ انك تقول هــذا لعلمك أنه ليس بيننا من يودّ ، أو يجرؤ ، عــلى السخرية منــك !

ــ ليس من « يودّ » •• ربما ، أما ليس من « يجرؤ » •• فأنت تعــلم جيدا أن لدى صديقك « مكسيم » أكثر من الجرأة اللازمة لذلك !

قلت متأفّفــا ••

ــ « صديقك » ! « صديقك » ! أليس « مكسيم » صديقكأنت كذلك ؟
قطّب « جــاك » ، ونادرا ما كنت أراه يقطب • قال نزقا ••

ــ وماذا تعني بكلمة « صديق » ؟ إنك تبدو لي أحيانا يا عزيزي كأنك « بورجوازي صغير » •• « صديقك » ! « صديقي » ! ما معنى هذا ؟ هل تعني مصادقته إيانا ، أننا نكنّ له محبّة تتفق فيها نوعاً ومقــداراً ؟! أو أن « مكسيم » يبادلنا الشعور نفسه ؟ لا ! دعك من تعاريف « البوابين » هذه ؟

تعجبتُ لانقباضه المفاجىء •• فأحسست بأنها فرصتي ، لأرميه ببعض الحقــائق ! قلت مبتسما ••

ــ ألست تراوغ ، يا عزيزي « جاك » ! لأنك لا تود أن تعترف لنفسك أنك تحبــه ؟

أشاح بوجهه عني •• أخذ رشفة من كأسه •• ثم عاد ينظر إليّ ، وفي عينيه حــزن بعيد ••

قال في صوت هــادىء ••

ــ •• كنت قد قلت لك•• أودّ لو أجد من أضحك معه ، من نواقصي•• إن فيما تقوله الآن ، ما قد يبكيني •• فهل هذا هو هدفك ؟

أثار قوله ونظراته موجة عاطفة في نفسي ، كادت تدفعني الى الاعتذار

منه ، لمـابدر مني •• أدرك « جـاك » ارتباكي ، فأمسكني من ذراعي •• يمنعني عن الكلام بإشارة من أصبعـه ••

ــ أعرف ما تكنّه لي من محبة •• فلننسَ ما قلته ! هاهما ذان قادمان••

* * *

وصلت « الكونتيس » تتكىء على كتف « مكسيم » في الوضع الـذي تركانا فيـه ••

قالت ، جـذِلة ، مرحـة ••

ــ آه •• ان لـ « مكسيم » دراية في الخيول ، عجيبة ! لقد اختار أكثرها أصالة ، لحفلة الصيد غدا •• وبما أنه ضيفنا الجديد ، فسنترك له الخيـار الاول !! لكني أحذرك منذ الآن يا صغيري •• فهـذا جواد غير مخصيّ •• ونحن في أواخر الربيع •• فاذا جمح بك ، غدا •• فلا تلومنّ سوى نفسك !!

* * *

سمعنا عزفا جيدا على البيانو ينبعث من داخل القصر ، فسأل « مكسيم » عـن العازف ••

قالت « الكونتيس » ••

ــ إنه أحـد المدعوين •• محترف جيد ، في أول طريق الشهرة •• لقد قـدم عدّة حفلات في الموسم الماضي ••

كان الضيف يعزف قطعة من « رابسوديات » « ليست » ، على درجـة كبـيرة من الصعوبة •• فحاولنا الإصغاء اليه ، لكن « الكونتيس » تابعت حديثها ، لا تلتفت الى عزف ضيفها ! فما إن التفتت الى مجموعة أخرى مـن ضيوفها ، حتى قمنـا نهمّ بدخول القاعـة ، حيث جلس العـازف ، لكـن « الكونتيس » ، سرعان ما عادت الينا ، تحدثنا من جديد ، ثم تعود وتلتفت الى غيرنا •• أو تنصرف عنا لحظات ، بين الفينة والأخرى •• يمنعنا ذلك من

الإصغاء ، أو من دخول القصر ، حيث العازف ، والبيانو !

كان معظم المدعوين على الشرفة ، يجلسون جماعات متفرقة ، لا يعيرون ما يسمعونه من عزف ، أي التفات ، فيما عدا ملاحظة عابرة كانت تعلو على الحديث والنكات ، كلما علا صوت البيانو •• واشتدت صعوبة العزف ••

ما إن أنهى العازف قطعته •• حتى صفّق ، ثلاثة أو أربعة أشخاص ، تصفيقا خفيفا •• فلما بان على « مكسيم » و « جاك » أنهما امتعضا لعدم اكتراث المدعوين بذلك العازف ، اعتذرت « الكونتيس » بحركة من يدها •• قائلة ••

ـ وما ذنبهم ؟ جميعهم كلفون بالموسيقى الكلاسيكية ! إنها غلطة العازف •• فالوقت ليس وقت الموسيقى ••

قال « مكسيم » لـ « جاك » ، كأنه لم يسمع قولها ••

ـ سمعت أنك حائز على « جائزة أولى » من المعهد الموسيقي •• ألا زلت تعزف ؟

تبسّم « جاك » في مرارة مفاجئة ، ونظر الى عيني « مكسيم » •• دون أن يجيب •• ثم نهض واقفا ، واتجه نحو مدخل القصر •• دقائق ، واذا بنا نسمع البيانو يصدح بمقطوعة لـ « شومان » ، طالما تحدثتُ عن صعوبة أدائها ، وروعة العاطفة فيها ! فقمت ، مع « مكسيم » ، نسعى الى حيث « جاك » ، نود ألا نلفت انتباه « الكونتيسة » الى غيابنا ، لكنها ما إن سمعت صوت الموسيقى ، ورأت العازف الأول ، يعود الى الشرفة •• حتى فطنت الى الأمر •• فصاحت مبتهجة ••

ـ إنه إما « مكسيم » أو « جاك » ! إن أحدهما يعزف البيانو ! تعالوا ! هلموا !! ودخلت الى الردهة حيث البيانو « وجاك » ، يتبعها جميع المدعوين !

دخلنا في صمت شديد ، وتفرقنا على مقاعد الردهة ، دون أن يُسمع

لحركتنا من صوت •• فما إن أنهى « جاك » عزفه •• وكان جيداً ، رغم انقطاعه الطويل ، حتى عــلا التصفيق ، وقــام الجميع يهنئونه ، ويشدّون على يده ، أو يقبلونه في عطف وحــرارة !

كان العازف الضيف ، بـين الجمهور المهنّىء ، ينظر الى « جــاك » ، ويحــار فيما يقول ، أو يفعــل !

أثار ذلك انتباه « مكسيم » ، وكنا جالسين على مسافة من الضيوف •• فقــال لي ••

ـ إن لمنظره وهو يتقدم لتهنئة « جاك » •• بينما لم ينتبه أحد الى عزفه الممتاز ، ما يبعث غصّة حزن في حنجرتي !

كان العازف مترددا ، لا يعرف ماذا يقول ••

أقبل فجــأة ، يشد على يد « جــاك » ، ويكيل له فيضا من المــديح ! فخجل « جــاك » ، وقال للضيف ••

ـ أشكرك ! أشكرك لإطرائك ، لكن عزفك يفوق عزفي ، بمراحل !

هزّ العازف رأسه ، وقال في صوت خفيض ••

ـ ليس في هذا مشكلة ! المشكلة أنه لا يعرف هــذه الحقيقة سوانا !

* * *

عــدنا الى اللهو والسمر ••

تفرّق الضيوف جماعات ، تتحدث ، وتضحك ، ثم تتبعثر ، لتشكل فرقا وجماعات أخرى •• تعود الى ســرد ما لم يسمعه بعضهم ، من نكات لاذعة ، أو من همس يحمل آخر أخبار « كل باريس » وفضائحها •• الى أن حــان موعد العشاء •• فجلسنا الى مائدة فخمة طويلة ، تتصدرها سـيدة القصر •• والى يمينها « مكسيم » ، ضيفها الجديد •• بينما جلس « جــاك » قبالتها ، الى الطرف الآخر من المائدة ، والى يمينه ، ويساره ، أجمل مدعوتين كانتــا الى تلك المــائدة ••

قالت « الكونتيس » لـ « مكسيم » ، بعد برهة من الشراب والطعام ••
ــ أظن أن « جاك » سيعود الى باريس بعد غد •• فأرجو عندئذ أن تقبل الجلوس مكانه ، حيث هو الآن •• أي الى قبالتي •• على هذه المائدة !

تأثر « مكسيم » لاقتراحها •• وقال مترددا ••
ــ لكن هذا سيثير غيظ أصدقائك القدامى وغيرتهم ! إن هـذا مكان رب البيت •• وسنّي لا تسمح لي أن أعلو عليهم في المكانة •• والكل يعرف أن صداقتنا جديدة !

أجابت « الكونتيس » في حـزم ••
ــ •• إنه مكان رب البيت ، أولا •• ثم الابن الأكبر ! ومن ثم ، الصديق الأقدم ، أو الأعز ! أظن أن مقام الابن الأكبر يناسبك تماما !!

ضحـك « مكسيم » •• لقولهـا •• ثم سمعها تقـول ، وسط لغط المدعوين ••

ــ •• وهذا يضع كثيرا من الأمور في نصابها•• فأنا لا أمانع في مغامراتك مع « روز ماري » ، أو غيرها •• شريطة ألا تظن ، هذه الأخطبوط ، أنها في مبارزة عليك ، معي ! فأما أن تجلس ، كما تجلس الآن ، الى يميني ، ولا تنظر الى غيري من النساء ، وإما أن تجلس كولدي الحبيب ، أمامي ، ولك أن تنزو على من تشاء ، من هذه الأفراس التي حولك !!

وما إن توقّف «مكسيم» عما عاوده من ضحك •• حتى أضافت قولها••

ــ والولد الحبيب •• يأتي ليقبّل أمه ، قبل النوم !

نظر « مكسيم » اليها ، يبحث في عينيها عما تقصده من قولها الأخير •• فاذا بنظرة صادقة ، حنون ، تملأ ذلك الوجه المتجعد •• أدركت « الكونتيس » تساؤله فكررت والدمع في مآقيهـا ••
ــ قبلة الأم فقط ! « مكسيم » •• لقد حُرمت من نعمة الولد !

شدّ « مكسيم » بيده على يدها التي كانت فوق المائدة •• ثم رفعهـا

الى شفتيه ، ولثمها ! فمالت اليه « الكونتيس » •• ولثمت خده ، ثم رفعت كأسها ، تشير الى جميع مدعوّيها أن ينتبهوا ، وقالت ، في صوت جهير ••

ــ لنشرب كأس « مكسيم » •• كأس ولدي ، والمستقبل !!

* * *

لو سئلتُ اليوم عن سر إجماع من عرفوا « مكسيم » ، على الإعجاب به ، لما عرفت لذلك تفسيرا !

كان واقع الروس البيض في باريس قد بدأ يتردّى ، فحزّ في نفوس الملكيّين في فرنسا ، أن يكتشفوا عقم زملائهم ، من تلك الطبقة التي حكمت روسيا ، وما ظهر منها من سوقية ، بعد أن زالت عنها هالة المجد ، وكشف الفقر زيف ما كانت تتصنّعه ، من تصرفات نبيلة !

أحزنهم ، أن يشاهدوا بأم أعينهم ، تفاهة عالم ينتمون اليه ، بعد أن جُرّد من امتيازاته ، لا سيما ، أنه ندر من الروس البيض ، من استطاع النجاح في مضمار العمل الحر ، أو الثبات على أقدامه ، فيما اتخذه من مهنة !

نسيت باريس صورة ألق البلاط القيصري ! ليحلّ محلها ، صورة قاتمة متخاذلة ، عن حقيقة أفراد ذلك البلاط ! حتى ظهور الابنة المزعومة للقيصر •• والتي كانت قد أحيت الأمل في بعض النفوس ، بالرجوع الى الماضي ، حتى ذلك الخبر ، خبا بريقه ، لما مُنيت به تلك الابنة المزعومة من إخفاق ، المرة تلو الأخرى ، في اثبات نسبها ، لدى المحاكم المختصة في كلٍّ من انكلترا ، وفرنسا ! فما إن ذاع في الأوساط الراقية نبأ قدوم الأمير « يوسوبوف » ، لتسلّم ملكية القصر الكبير ، في « النورماندي » ، والذي تثبت وراثته له ، إثر الدعوى التي أقامها على الحكومة الفرنسية ، منذ ثلاثين سنة •• ثم عرفوا من « جاك » رواية اعتراف الأمير الشهير ، قاتل « راسبوتين » ، بنبل وعراقة عائلة « مكسيم » •• حتى تفاءلوا من جديد ، وتجمّعت الحكايات ، مرة ثانية ، لتحيي ذكريات أمجاد البلاط القيصري •• وتكاتفت الأنظار ، تتفحّص النبيل الجديد ، منذ لقائها الأول به •

فبدل الصورة المألوفة لديها ، عن نبلاء روسيا القدامى ، والمتقاعدين ، بدا « مكسيم » ، شابا ، في الثالثة والعشرين من عمره !

وبدل أن يبدو ، رغم نسبه الروسي ، فرنسيا ، أو انكليزيّ الطباع ، والمنشأ ، مألوفا ، كجميع من في سنه ، ممن ولدوا خارج روسيا بعد الثورة .. بدا « مكسيم » ، شرقيا ، دخيلاً على أجواء باريس ، ولطابعه ، عبق ، كرّس له شخصية متفرّدة ، أكدت لأوساط « كل باريس » ما لروسيا من علاقة بأصولها الآسيوية ، البعيدة في التاريخ ..

* * *

طرقت مدبرة القصر باب غرفتي في صباح اليوم التالي .. فما إن أذنتُ لها بالدخول ، حتى أدهشني أن أرى صبية يانعة ، في السادسة عشرة من عمرها ، تحمل الإفطار .. سألتُها مستغرباً ..

ــ أين السيدة ، « كلماتين » ؟ هل أنت جديدة في العمل ؟

أجابت الصبية الجميلة ، ضاحكة ..

ــ إني ابنتها ! وأمي مشغولة في تهيئة حفلة الغداء .. اسمي « برناديت » يا سيدي !

ــ هل أيقظت السيد « نيفسكي » ؟ « مكسيم » ؟

ضحكت ، وهي تضع طبق الإفطار على ركبتي ..

ــ لقد أمرت السيدة « الكونتيس » ألا يوقظه أحد ، قبل أن يطلب الإفطار بنفسه ! فالجو غائم .. وقد يعدلون عن حفلة الصيد ..

ــ والمسيو « كاتلان » .. « جاك » ؟ هل صحا من نومه ؟

ــ لقد حمل أخي الإفطار اليه ..

ــ هل وصلت مدام « فون برول » ؟ هل تعرفينها ؟

قهقهت « برناديت » بغنج .. وقالت ..

ــ الكلّ هنا على علم بما قامت به السيدة في باريس .. مع السيد

« مكسيم » •• نعم يا سيدي وصلت البارحة ليلا •• في ساعة متأخرة •• لم نكن نتوقع حضورها ، قبل صباح اليوم ••

قلت لها ••

ــ حسنا •• اسمعي ! اذهبي وأخطري المسيو « نيفيسكي » بذلك •• احملي له الإفطار ، حالا ! وإن اعترضك أحد ، فقولي إني أنا الذي أذنت لك بإيقاظه !

تناولتُ إفطاري ، مغتبطا بفكرة صيد الثعالب ، على ظهور الخيل ، على الطريقة التقليدية ! آملا أن يصحو الجوّ •• متسليا بالتفكير بما شرعت به « الكونتيس » من معاملة خاصة لـ « مكسيم » ••

* * *

فطنتُ وأنا أرتدي لباس الركوب ، الى أن « مكسيم » لم يحضر معه مثل هذا الزيّ •• فقصدتُ غرفته ، لأسأله عن ذلك ، وكان معظم الرجال ، من المدعوِين ، قد أكملوا هندامهم ، ونزلوا الى باحة القصر ، يتنادون من الشرفات ، يتسامرون ، أو يجلسون جماعات ، يشربون القهوة ••

طرقتُ باب غرفة « مكسيم » ، ولما لم يجبني أحد ، فتحته ، وهممت بالدخول ، واذا بالستائر ما زالت مهدلة ، والغرفة تسودها شبه ظلمة •• بينما صوت ضحك « برناديت » الخافت ، ينبعث من السرير ! تنبّه « مكسيم » الى وجودي ، ولما تحقق من ذلك ، قفزَتْ الفتاة ، خارجة من سريره وشرعت في ارتداء ملابسها من جديد •• قام هو يتمطى •• ويقول مازحا ••

ــ إن في هذا القصر لمفاجآت تغري بالرجوع اليه !

أجبت ، متسليا ••

ــ فما يمنعك ، والدعوة مفتوحة لك ؟

ــ من حسن الحظ أن من دخل علينا ، هو أنت ، وليس « الكونتيس » !!

كانت الفتاة قد أسرعت خارجة من الغرفة •• فقلت ••

ــ •• بل أنا لا أظنها تمانع ! لو اقتصر الأمر ، على أمثال « برناديت » ! إن عليك الآن أن تتدبر أمر « روز ماري » بحكمة ، ودراية !! لقد وصلت البارحة برفقة زوجها ••

نظر اليّ متعجبا •• وقال ••

ــ ظننتُ أن الامر قد سوّي أمس••بدعوة « الكونتيس » لها بنفسها ؟

ــ •• أنا لا أعني « الكونتيس » ، بقولي •• أيها العبقري •• بل زوج « روز ماري » •• البارون « فون برول » !!

ــ إذن ، فإن « روز ماري » بارونة •• يا لها من مجموعة نادرة ، سنحيي بلاط « فرساي » من جديد !!

نظر اليّ ، وقد كشف الستائر ، فسطع نور النهار في الغرفة ، وتنبّه الى ما أرتديه ، من زي رسمي •• فقال ••

ــ أما أنا •• فسأكتفي من زيّ الركوب ، بالجزمة والبنطال ! فلا سترة حمراء عندي •• ولا من قبعة مخملية سوداء !

قُرع الباب في تلك الأثناء ، ودخلت « الكونتيس » ، حاملة صرة في يدها • •قالت ، بعد أن قبّلت « مكسيم » ، على خديه ••

ــ لقد فاتني أن أهيّىء لك زيّ الركوب •• فهذه قميص حريرية ، عزيزة على نفسي •• أرجو أن ترتديها اليوم !

نظرتُ إليه مليّا ، وهو يرتديها ، وكان يزرّر أكمامها الفضفاضة العريضة ، تحيط حواشيها صفوف رقيقة من « الدانتيل » المزركش •• فبدا ، بياقتها العريضة المفتوحة ، وأزرارها اللؤلؤية السوداء ، كأنه بالفعل ، من قرن مضى !

قالت « الكونتيس » •• صوتها يغشاه التأثر ••

ــ كانت هذه القميص لوالدي •• أخذتُها منه ، ولم يلبسها بعد !

قلتُ ، سأهديها الى الشاب الذي أحب ! فلما تزوّجت ، بخلتُ بهـا على زوجي البدين •• فقلتُ ، أهديها لولدي •• متى أصبح لي ولد ، شاب !

أخلدَتْ الى الصمت ، ترفع حاجبيها ، كأنها تكلم نفسها •• ثم قالت ••
ــ •• إنها لك الآن ! ليت عندي عشرات غيرهـا لأهديها لك •• فهي لا يمكن أن تناسب غـيرك •• كما تناسبك أنت ! ما رأيك •• يا « شـارل غوستاف » ؟

نظرَتْ إليّ متأثرة •• لكنها لم تنتظر الجواب ••
لملمت ماتدفق ، رغما عنها ، من عاطفة الأمومة•• ومالت نحو «مكسيم» ، وهي تقول في لهجـة عمليّة ، مرحة ••
ــ على أية حال •• يجب أن تمرّ بـ « لانفان »، متى عدت الى باريس•• وتأخذ ما يلزمك من ثياب •• أو إذا كنتَ تفضل الثياب الحديثة • •فاذهب الى خياط ناشىء ، صـديق لي ، ساهمتُ في تمويل متجره •• إنه غايـة في الذوق ، اسمه « كاردان » ما إن تذكـر له اسمي ، حتى ترى المعاملة الحسنة التي سيحيطك بهـا !

خشيتُ أن يكون « مكسيم » قد استاء من اقتراحها المتسرّع ! فقلت على عجل ، أسبقه الى الرد ••
ــ لكن لـ «مكسيم» حياة لاتتماشى مع ثياب« لانفان »•• ولولا ذلك••

لـم تتركني « الكونتيس » أتابـع كلامي ! قالت في لهجـة صادقة ، لا مواربـة فيهـا ••
ــ عزيزي ! أنا لا أشتري « مكسيم » ! المرأة ، قد تشتري الزوج ، أو العشيق ! لكنها تقف مكتوفة الأيدي ، اذا ما حُرمت من الولد !!

نظرتْ الى « مكسيم » تتبسّم في حزن ، متسـائلة قبل أن تخرج ••
ــ هل ستذهب الى « لانفـان » ؟ إكراما لي ؟
هز « مكسيم » رأسه ، موافقا •• دون تردد !

* * *

زاد موكبنا على الثلاثين فارسا ، وفارسة •• والحرص على مراعاة الدقيق من التقاليد ، في هذا الصيد التقليدي ، كان أمراً لا مساومة فيه ، فالكل كان متأهباً لجميع التفاصيل ، مجهّزاً لها !

كانت الرجال منا ترتدي ، تحت قبعاتها المخملية السوداء ، سترا حمراء ، أو سوداء ، تمتطي الجياد المطهمة ، بينما علت السيدات ظهور أفراسها ، منهنّ ، المتدثرات لباسهنّ الطويل التقليدي ، ذا القبعة العالية ، والخمار الشفاف ، جالسات على حافة السرج ، على طريقة الأمازون ، لتشبكن الساق بإحكام حول نتوء خاص فيه ، يمكّنهن من المطاردة ! ومنهنّ ، من صمّمن على المطاردة الجدية ، والقفز ، فامتطين أفراسهن ، كالذكور ، ساقاهن على طرفي الركاب ••

كان نباح الكلاب المدرّبة يعلو على صوت الهرج والمرج ! تظهر الشمس بين الفينة والأخرى ، فتبرق الأبواق النحاسية ، تحت أشعتها ، سبعة من هذه الأبواق، على أكتاف سبعة سعاة ، في ملابسهم الخاصة، الحمراء ، والبيضاء ! يمسك كل منهم بأرسنة تجمع ثلاثة كلاب متوثبة ، أو أربعة ، تقفز حوله ، وتتنزى ، تنتظر رائحة الثعلب الأسير الذي سينطلق في الغاب بعد حين ••

كانت كوكبة الفرسان تنتظر وصول « الكونتيسة » التي أوشكت على العدول عن المشاركة في الحفل ! سرها إصرار « مكسيم » على ترؤسها الموكب •• فلما ظهرت في ثوبها المخملي ، الأخضر الداكن ، تلكز فرسها النزقة بسوطها المتوّج بزمردة خضراء •• يطير خمارها الأسود ، من ورائها •• صاح المدعوون إعجابا بأناقتها ، ومهارتها !

أوقفت « الكونتيس » فرسها على بعدٍ بسيطٍ من الموكب ، تبتسم لضيوفها •• تستعرض الكلاب ، وحملة الأبواق ، تسامر الفرسان والفارسات ، تنتظر وصول « مكسيم » ، كي تعطي إشارة البدء المترقبة ••

أقبل « مكسيم » ، يخب جواده عن بعد ، وبدا ، محسور الرأس ، لا يغطي صدره العاري سوى ذلك القميص الهفهاف • لفّ في مهارة ، حول

سيدة القصر ، ثم شدّ شكيمة جواده ، فجأة ، فتسمّر الى يمينها •• فتورّدت وجنتا « الكوتيس » غبطة ، وحارت كيف تبدي اعجابها !

كانت « روز ماري » الى جانب زوجها البارون « فون برول » ، يرقبان المشهد وينتظران ، كغيرهما ، إشارة البـدء •• فما إن مدت « الكوتيس » يدها الى « مكسيم » ، في غير ما مناسبة سوى إبداء سعادتها ، ولثمها ، هذا ، بعطف ظاهر ، حتى علا صوت المدعوين من جديد ، وصفّق بعضهم •• فتمتمت « روز ماري » الى زوجها ، في صوت بارد ، يكتم غيظها ••

ــ •• لقد دعتنا « الكوتيس » •• لتردّ لي الإهـانة !

لم يجـد البارون « فون برول » ما يجيبها به •• فَرِح في سره لسماع الابواق تصدح مؤذنة ببـدء الصيد ، بعـد أن أشارت سيدة القصر بذلك •• فانطـلق الثعلب المسكين ، يعـدو هاربا من الكلاب التي أخـذت تشـدّ السعاة وراءه •• وتحرك الموكب ، وراء هؤلاء ، يتقفّى الجميع أثر الفريسة الهـاربة ••

لحظات ، وغابت الطريدة بين أشجار الغاب ، الى الناحية الشمالية مـن القصر •• فخف نباح الكلاب المبتعدة •• وبدت كأنها بقع بيضاء صغيرة •• تتبعها الجياد عن كثب ، كأشكال سوداء ، مدبّبة الرؤوس ، هي كل ما تبقّى من صورة الفرسان ، ومطاياهم •• لحظات أخرى ، وتلاشى الجميع في رحاب ذلك الغـاب المـديد ••

* * *

كان من جمـلة التقاليد الاجتماعية ، البارزة ، لصيد الثعلب البرّي ، أن يضيع بعض الفرسان عن أثر الكلاب التي تتقفى أثره ! تعترض الجميـع ، عقبات ، لا يلبث بعضهم أن يتعثر أو يجبُن أمامها •• فيحيدون عن الموكب الأصلي •• فلا تلبث العقبات أن تعود للظهور ، أمـام ما تفرق من جماعات ، فيعاود الفرسان ، والفارسات ، تجنّبها ، والتحايل لاصطناع الضياع ، يبحث

بعضهم عن بعض جادّين ، وسط الخمائل الكثيفة في الغاب ! فلا يمضي الثلث الأول من الوقت المقدر للكلاب كي تتمكن من الثعلب ، حتى يكون ، من صمّم ، من الفرسان ، على المغامرة ، قد ضاع فعلا •• ويتبدّل هدف الصيد ، فيسعى الفرسان وراء الفارسات ، ويمضي ما يقارب الثلث الثاني من الوقت ، في لقاءات محمومة ، ممنوعة ، بين الأشجار والأزهار البرّية ، وفوق الأعشاب ! الى أن تعثر الكلاب على فريستها المنهكة ، أو ينجو الثعلب ، بين البراري ، فتصدح الأبواق ثانية ، يسمعها العشاق المختبئون ، فيتفرقون •• ويعودون لاعتلاء ظهور جيادهم ، من جديد ، ويعود الموكب ، يلملم شتات فرسانه ، يلحق به العشاق التائهون ، يسوّغون اختفاءهم ، لغيرهم ، يقصّ كل منهم قصة ضياعه على الآخرين •• فيدّعي السامعون العجب ، وكلّ يعرف السبب الأول للضياع ، لا ينقصه سوى أن يخمّن ، من الذي تاه في العشق ، من الفارسات ، مع أي من الفرسان !

* * *

ولّى زمان الشباب الذي فيه كانت « الكونتيس » لا تأبه إلا للصيد الحقيقي •• فتبدو في طليعة من يلحق بالكلاب ، ومن بين الأوائل ممن يجدّون في أثر الكلاب والثعلب !

ثم مضت سنون على آخر مرة ضاعت فيها ، بين الأشجار الكثيفة ، لتمضي برهة حلوة ، عابرة ، مع أحدهم •• علّها تذكرها بأيام الشباب ، والعشق الحقيقي !

رأت « مكسيم » ، منذ أن بدأ الطراد ، يعير الطرف ، الى حيث تقدمت « روز ماري » •• أدركت أن هنالك أمورا في الحياة ، لا يمكن مقاومتها •• فكفّت عن قيادة الموكب ، تأخرت عنه •• ثم انثنت عن ملاحقته !

وتمهّلت في الطراد ، فما إن سبقها ، بقية الفرسان ، حتى أدارت لجام فرسها ، فعادت ، تلك ، بنفسها ، تخبّ فرحة باتجاه القصر •• وعادت

« الكونتيس » ، تغالب حزنها ، تذكّر نفسها بالقليل مما تبقى من وسائل اللذة والمتعــة ، وتسلية النفس ..

كادت تمسح دمعــة امتنان عن عينها .. لما رأت « جـاك » من بعيد .. كان قد تمهل ، هو الآخر .. كادت تصيح له ، كي يرافقها ، في طريق العودة الى القصر .. فتنبهت الى أنه يتتبع أثر فارس شاب ، كاد يغيب بين الأشجار ! فتبسّمت في يأس .. وما أن قارنت بينها ، وبين ضياع « جاك » .. حتى تبسمت بحـق ، هذه المرة .. وأحست بهمومها تخفّ .. اذا هي قارنتها بهمـوم الآخـرين !

* * *

تلكّأت « روز ماري » عن القفز فوق غصن عريض جاف ، اعترض طريق فرسها .. كانت مع زوجها ، يتبعهما « مكسيم »، وبعض الفرسان والفارسات. بدت فرسها كأنها على وشك أن تجمح .. فصاحت لزوجها بأنها ستعبر طريقا جانبيا أسهل ، وعرجت ، الى اليمين ، فغابت بين جذوع الأشجار الكثيفة ..

تلكأ « مكسيم » بدوره ، بعض الشيء .. ثم عرج هو الآخر في الاتجاه نفسه ، كأنه يفعل ذلك ، دونما قصد ! فما إن تجاوز بقية الفرسان حتى تمهّل ، يتلفت حـوله ، يُنصت الى ما يشير الى صوت ، أو إشارة ، تنبئه عن موقع « روز ماري » ! فلما أعيـاه ذلك .. وكان قد تنبّه الى جمال الغاب ، وروعة الركوب في تلك الساعة النضرة من النهار .. راح يصفّر ، ويغني ، ثم سكت ، يصغي الى وقـع حوافر جواده ، يساجل إيقاعه ، في مخيلته ، مـع ما يسمعه من شـدو العصافير ..

مضت برهة قبل أن يتنبه الى وقعٍ غير بعيد لحوافر جواد آخر ، أعقبته ضحكة مستترة ، ما إن اسـتدار نحـو الصوت ، حتى أدرك أنـه صـوت « روز ماري » ، وأنهـا كانت تتتبّع أثره في صمت !

ســرّ للمفاجأة ، ثم لمع في خاطره أنها هي التي اقتفت أثره ، فأمسكت

بقياد الموقف مرة أخرى ، فأدار لجام جواده ، وخب نحوها بغتة ، كمن يــود أن يمسك بهــا عنوة !! لكنها أدركت ما يحــركه ، فطارت أمامه •• وراح يلحقها عبر الغاب ، فوق الجذوع النضرة ، والأغصان الكثيفة الخطرة •• حتى كاد يود لو ينهي المطــاردة ! لكنه أحس أنهــا إنما كانت تقوده الى مكــان في ذاته ! فتابع الركوب ، خلفها •• حتى اضطرتها كثافة الأشجار الى التمهّل ؛ وكانت قد وصلت الى غيض كثيف ، فألجمت فرسها فجأة ، وقفزت عن ظهرها ، في خفــة ، ثم شبكت رسنها على أحد الأغصان ، وارتمت على العشب ، وهي تلهث ، كأنها ترتمي على فراش وثير !

ثوان •• وكان « مكسيم » يثب عن ظهــر جواده ، هو الآخــر ، يلف رسنه ، حول غصن قريب ، ويتمدّد فوقها ، متابعا ما كان جسده ، لا يزال يهتز له ، من إيقــاع الركوب !!

لم يفه أي منهما بكلمة ! أغمضت « روز ماري » عينيها ، ورفعت ثوبها بكلتا يديها •• تفتح الطريق للحلم •• بينما فتح « مكسيم » عينيه ، وتفتّحت مداركه ، فراح ينهل من فمها ، كأنه في عناق مع الأرض ، يحرث فيهــا طريقا لجــذوره ، فتمتد شعيباته في أحشائها ، تمتصّ مــن ترابها الغض ، مــاءه الرقراق ••

كان في غفوة من الكون ، حين تنبّه الى صهيلٍ خافت ، يأتي من بعيد ! رفع رأسه ، نحو مصدر الصوت ، فاذا بجواد ، دونما فارس ، يحاول الإفلات من جذع بعيد ! أمعن النظر في غيض قريب ، تراءى له أن هنالك من يختبىء خلفــه ، ثم عــاد ينظر الى وجــه « روزي » المغمض العينين ، الغــارق في اللذة !! ثوان •• تعامى فيها عن النظــر الى ذلك الغيض ، ثم رفع عينيه ، يتفحصه بغتة ، من جــديد ! فاذا به يلمح رأس البارون « فــون برول » ، زوج « روز ماري » ، يحاول الاختفاء ، حيث توارى ، بين الأغصان المتشابكة الكثيفــة !!

نهض « مكسيم » واقفا ، كأنــه يقفز على جواده !!

مكث برهة واقفا ، ينظر في جمود الى ساقيّ « روز ماري » المنفرجتين ، العاريتين •• ثم الى عينيها ، تنظران في لهف سقيم الى ما بدأ يستره من جسده ! لحظات •• وكان فوق سرج جواده •• يشيح النظر عن عينيها الذابلتين ، وقد أدركنا ما اكتشفه من سرّ اتفاقها المستتر مع زوجها !

أطلقها ضحكة عالية ، ساخرة ، مرحة ، وأدار رأس جواده وجهة القصر ••

* * *

سرت « الكونتيس » لعودته المبكرة ، فما إن رأت « مكسيم » يطلّ على صهوة جواده ، من بعيد ، حتى خفّت للقائه ، ضاحكة ، تدرك أن في الأمر سرا !

لم تُظْهر ما يشير الى أنها تودّ أن يطلعها على ما جرى ، كانت تجلس الى الشرفة المطلّة على بساتين الكرمة ، الشاسعة •• فأجلسته قربها ، تصب له قهوة لذيذة ، عطرة •• وتحدثه عن بهجة موعد اقتطاف العنب ، وعن تفاصيل صناعة النبيذ المربحة •• الى أن عاد موكب الفرسان ، وعدتُ مع الموكب لأرى ، أول من رأيت ، « مكسيم » متمدّداً على مقعد طويل في الشرفة ، رأسه الى حضن « الكونتيس » ، الجالسة قربه ، تداعب شعره ، بينما راح الاثنان يتقبّلان أشعة الشمس الدافئة ، على وجهيهما ، مغمضي العينين ، غير آبهين بوجود أحد ممّن أحاطهم من ضيوف ••

* * *

الفصل الرابع عشر

سرعان ما استقطب القصر وبساتينه الخضراء حيزا ، كان ساكنا ، صامتا ، متربصا ، في نفس « مكسيم » ..

كان الحي اللاتيني قد أنساه حياة الرغد والهدوء ، التي نشأ عليهما في طفولته .. وأجبرته قسوة الحياة على الغطس ، دفعة واحدة ، في لججها الباردة .. فتعوّد مجابهة الصقيع ، لا على أنها صعوبة معترضة ، لا تلبث أن تزول ، بل كواقع ثابت ، أحد أسس الحياة العملية ، من الخير لراحة الإنسان ، أن يقبلها ، كما هي ، دون تأفّف أو مناقشة ..

لعل داري في باريس كانت قد أعادت الى ذهنه ذكريات عن حياة الرغد التي عرفها في طفولته ، فكان يفيء الى كنفها ، كلما زارني .. يروي عطشه منها ، في جرعات محسوبة ، كالمسافر في الصحراء ، لا يجرؤ ، ولا يريد ، إرواء عطشه لئلا يسترخي ، فيعيقه ذلك عن متابعة المسير ! أما وقد تعود ، في شقّتي ، تلك الجرعات الخفيفة من الراحة والاستجمام ، فلقد بات من السهل عليه ، بل من الطبيعي ، أن يزيح ثقل متاعب الحياة عن كاهله ، ليستريح في ذلك القصر ، مرة واحدة ، دون أن يهاب اليوم الذي سيعود فيه الى حمل تلك المشاق من جديد ..

في اليوم الذي تلا حفلة صيد الثعلب .. بقي « مكسيم » في غرفته ، بعد تناول إفطاره ..

لم ينزل ، كغيره من الضيوف ، لملاقاة ربة القصر ، كما يقتضيه العرف ،

بل طلب بعض الكتب منهـا ، أرسلتها له مع الصبية « بيرناديت » ، فأمضى نصف ساعة ، مع هـذه •• تمدد بعدها على مقعد مخملي وثير ، حذو النافذة العريضة ، يتلذذ بدفء الشمس ، ويمتّع عينيه بجمـال السهول والغـابات الخضراء التي امتدت أمـامه حتى كادت تغيب مع الأفق ••

عدت في ذلك اليوم من نزهة صباحية مع « جـاك » فصعدنا الى غرفة « مكسيم » ، واذا هو مع « الكونتيس دو روكموريل » يشربان القهـوة ، أمام تلك النافذة •• يتسامران في هدوء وسعادة •• فجلسنا إليهما نحادثهما ، دون أن نلامس تلك الألفة المفاجئة التي حلّت بينهما •• نكلمهما ، كأنهما على تعارف قـديم •• كأنهما على صداقة ، نحس من خلالها ، انه اذا ما وجّه نقد الى أحدهما ، بأن الآخر سيهبّ للدفاع عنه •• أو اذا ما اختلفنا مع أحدهما ، بأننا سنقع في خلاف مـع الاثنين معـاً ••

مضت أيام على تلك الحال ، عاد خلالهـا معظم الضيوف الى باريس ، فهـدأ الطابع الاجتماعي الذي ساد جـوّ القصر •• وبات مـن الطبيعي أن نخرج مع « الكونتيس » ، و « مكسيم » في نزهات لا تَكَلـّف فيهـا •• مترجّلين ، أو على الجياد ، أو في سيارتها القديمة العريقة ، تتجوّل في أنحاء الطبيعة الخلاّبة ، التي تحيط بالقصر •• تتوقف في القرى المجاورة ، لتناول أنواع الطعام الفرنسي ، الريفي ، الذي نسيته مطاعم باريس ، لا نعـود الى القصر ، إلا مع أول ساعات الليل •• فنسمر ، ونمرح ، على صوت الموسيقى ، نضحك ، ونعجب لنتف ، وطرائف ، من ذكريات شباب « الكونتيس » ، فلا نأوي الى غرفنا ، إلا مع أول ساعات الصباح ••

الى أن صحوت يوما على صوت « جاك » ، يوقظني على عجل ، ليخبرني بأنـه ذاهب الى باريس ، بصحبة « الكونتيس » ، وأنهما سيعودان منهـا في اليوم التـالي ••

فسألتـه ••

ــ وهل من سبب ملحّ ؟ هل أصيب أحـد بسوء ؟

ـ لا •• لا ! لقد صممّت « الكونتيس » على شراء هـدايا ، تستفتي ذوقي فيها •• وتودّ دعوة زمرة جديدة ، من الضيوف ، لقضاء عطلة نهـاية الأسبوع هنـا •• فقلتُ أنتهزها مناسبة ، لقضاء بعض حاجياتي الشخصية ، أنا الآخر •• فهل من خـدمة أؤديها لك ، في باريس ؟

ـ •• لاشكرا •• ومن ضيوفها الجدد ؟ أرجو ألا يكون بينهم أصدقاؤها السياسيون •• وإلا فسأعود الى باريس •• أنا الآخر !

ـ أطمئنك يا عزيزي ! فإن معظمهم من الفنانين •• ستدعوهم ، عـلى شـرف صديقنا « مكسيم » ! إنهـا تودّ له أن يتعرّف على كل ذي شـأن في بـاريس !

ـ في هـذه الحال •• لماذا لا ••

قطع « جاك » كلامي ، وتابع ، شارداً ، متسليا ••

ـ من بينهم خـالك العزيز •• « ليربيه » •• وستدعو « كوكتو » ، وثلته •• و « جوفيه » ، و « أرلتي » وثلتهما ! « بيجار » و « رولان بوتي » و « زيزي جان مير » ! ستكون مجموعة رائعة ، غريبة !!

ـ •• أقول •• لماذا لا تدعو بعضا من أصدقاء « مكسيم » ، من الحي ؟ « بيبيتا » مثلا ، أو « جينيت » أو « باتريس » ؟!

ـ وهل جننت ؟ إنهـا تودّ ، في سرها ، لو يزول الحي اللاتيني بأسره من الوجود ! فكيف تدعو رؤوساً منه الى القصر ؟

ـ •• والهدايا ؟ لمن تشتريها •• وهل نحن في عيـد الميـلاد ؟

ـ لـ « مكسيم » ! ولمن غيره ، تشتريها ؟ ألم أقل لك إنهـا تكره الحي اللاتيني !! أظنها تكره أن يبقي في قصرها شيء من متاعه الذي يذكره بالحي ! تخاف أن تفقده •• لا تغار عليه ، إلا من حياة الحي اللاتيني ! عزيزي ! لقـد بدأت تحبُكُ خططها ! يغلبها حب التملّك !

كنتُ قد صحوت من نومي •• فسألته جـادا •• مازحا ••

ـ « جـاك » •• أنت الدّاري ، العالم بدوافع الناس •• ماذا تظـن بينهما ؟ أعني ، نـوع العلاقـة ، بالضبط ! ان عاطفتهما المتبادلة ، ظـاهرة ، صادقة •• فهل يعقل أن يحصل مثل هـذا اللقاء ، في غضون أيام ؟

أجاب في بساطة •• وواقعية ••

ـ ولـم لا ؟ فهي تتمنى أن يكون لهـا ولد •• منـذ كانت في سنّ « مكسيم » •• وهو يتيم الأبوين ••

ثم ضحك لفكرة طرأت لـه •• فقال ••

ـ لم يبق سوى أن نعقد زواج الأمير «يوسوبوف» ، على «الكوتيس»، فتكتمل الأسـرة !!

ضحكتُ لخيـاله •• وقلت ••

ـ بذلك تغدو علاقتهما ، معافاة ! سليمة !!

أجـابني ، متشككا ••

ـ من حيث الجذور •• طبعا ! فهي في حاجة الى ولد •• و « مكسيم » يتوق الى أم ! لذلك ، فإن حاجة كل منهما الى الآخر حقيقية •• المشكلة تقـع في حيّز آخر •• هل هذه الأم ، لهذا الولد ؟! هل يصلح أحدهما للآخر ؟

وافقتُه ، واجمـا •• وقلـت ••

ـ •• واذا كان هنـاك من تضارب في الشخصيات •• فكم من الوقت سيمضي قبل أن يكتشفا ذلك ؟ وماذا سيكون الثمن ؟

* * *

عادت « الكوتيس » محمّلة بالصرر ، والعلب الكبيرة ، الأنيقة ••

سرّها أني ، و « مكسيم » ، كنا خارج القصر ، في نزهة على الخيل •• فأسرعَتْ ، تفضّ ما ابتاعته ، تصفّ كل حـاجة في مكانها •• ثـم نزلت ، تسامر من حضر معها من ضيوف ، وتنتظر وصول بقية المدعوين ••

خفّت لاستقبالنا ، وكانت في صحبة خالي و « جان كوكتو » .. فسرّها أن يُطل « مكسيم » على الضيوف ، مرتديا ذلك القميص الحريري ، الـذي أهدته إيّاه ، فما إن قفز عن ظهر جواده ، وهرع نحوها ، حتى ضمّته الـى صدرها ، تقبّلـه في عطف ، وأمسكت يده تقوده الى حيث جلس المخرجـان الشهيران .. « ليربييه » و « كوكتو » .. حجرا الرحى ، في عالم الفـن في باريس ، آنـذاك ..

قالت ضاحكة فخـوراً ..

ــ .. هذا هو ولدي ! واكتشافي !! « مكسيم » ! أليس رائعا ؟!! ثـم نظرت الى « مكسيم » ، وتابعت ..

ــ .. لا بد أنك تعرف « مارسيل ليربييه » خال « شارل غوستاف » .. و « جـان كوكتو » ! فمثلهما ، في غنى عن التعريف !

غلب السرور والدهشة وجـه « مكسيم » .. ثم تمالك نفسه وقال ..
ــ ومن لا يعرف « الجميلة والوحش » و « أورفيه » .. و « الآلهـة الجهنمية » ؟! ثم .. « دم الشاعر » ؟!

سـأله « كوكتو » ، متفحّصا ..
ــ .. وأي هـذه الأفلام ، تفضل ؟

ــ .. من خفـة الرأي أن أتسرّع ، وأفضل « ذراع » المؤلف عـلى « سـاقه » !! أو أن أقول إن « الرأس » مصدر الإلهـام !! جميعها ، وحدة ، تشكل الفنـان .. ومع هذا .. فلقد أُخذتُ ب « دم الشاعر » !

علّق « ليربييه » ، مبتسما ..
ــ .. أهو الخيـال في « دم الشاعر » الذي تأثرت به ؟ أم الشعر ؟

أردف « مكسيم » مبتسما ..
ــ أستاذ مثل السيد « كوكتو » .. لهو علم ، في المجالين ! قمة ، يجب تجاوزهـا !

ضحك « كوكتو » ، ملء قلبـــه •• وقال ••

ـ •• « قمة ، يجب تجاوزها » ! هذه فكرة ، لا ينقصها سوى توقيعي !!
لقد سرقتَها مني ، قبل أن أتفوه بها !! برافو !!

ســـار الحديث ، على هـــذا النحو ، برهـــة لا بأس بهـــا •• بدا على « الكونتيس » ، خلالها ، أنها في أوج السعادة ••

قمتُ مع « مكسيم » ، بعد ذلك ، نقصد غرفنا ، لتبديل ثياب الركوب•• فما إن دخلتُ غرفتي ، حتى فوجئت بوجود صرة على سريري ، فتحتُهـــا ، متسائلا ، ماذا تحوي من هدية « الكونتيس » •• فاذا هي ، طبعة أولى ، من مجموعة أشعار « دوموسيه » ! سررت أيما سرور باقتنائها ، هممتُ بالخروج من غرفتي ، لأشكر « الكونتيس » على هديتها ، واذا « مكسيم » يدخـــل غرفتي ، وعلائم الدهشة باديـــة على وجهه !

قـــال ، على عجـــل ••

ـ تعـــال ! تعـــال معي !!

وقـــادني الى غرفته ، دون أن يفصح عما استدعاني لأجـــله •• فما إن دخلتها ، ونظرت حولي ، حتى اعتراني ، مثل ما اعتراه من عجب ، وذهول !

كان في وسط الغرفة ، حاملة للّوحات ، عليها لوحـــة فارغة ، تنتظر من يرسم عليها •• والى قربها منضدة صغيرة ، مغطاة بكل ما يمكن أن يشتهيه الرسام من ألوان ممتازة ، وريش وأدوات !

نظـــرت الى اليمين ، حيث منضدة الكتابة •• واذا عليها جهـــاز حاكي كهربائي ، من أجود ما صنع ، مجهّز بأربع مكبرات للصوت ، والى جانبـــه ، مجموعة أنيقة ، تزيد على مائة أسطوانة !

نظرت الى « مكسيم » ، واذا به يشير إليّ أن انظر الى الطرف الآخـــر من الغرفة •• فاذا خزانة الثياب ، مفتوحة الأبواب ••

تقدمت منهـــا ، أتفحصها ، فاذا هي مرصوصة بالعشرات ، من جميـــع

أصناف الثياب .. معاطف للشتاء ، وأخـرى للصيف .. عشرات القمصان ، من جميـع الأصناف ، ولجميع المناسبات .. مجموعة من آخـر ما صُمم من بدلات الصباح ، والمساء ، والسهرة .. إزاء كل منها ، ما يلزمها ، من أحذية ، وربطـات للعنـق !

مدّ لي « مكسيم » يـده بورقة ، قائلاً ..
ــ .. وجدت هـذه الورقة ، على اللوحة الفارغة .. اقرأها ..

أخذتها منه .. وقرأت خط « الكوتيس » :
« .. مكسـيم » ..
« .. إنما هذه لفتة ، بوسعك أن تعطيها ، من المعنى ، ما تريده نفسك ! إن الأشياء ، أحجام فارغة .. لها من المعنى ما في نفس الناظر اليهـا .. فإن كنت على مثـل ما أودّ لولدي أن يكون .. فستقبلها ، في لهفة بنويّة .. ستحبني ، وتحبها .. وإلا .. فهذه الهدايا ، أصعب امتحان لما بيننا من رباط ، وأصدقـه !! »

نظرت إليه متعجّباً .. معجباً .. متسائلاً ! ثم قلت ..
ــ وماذا أنت فاعـل ؟

أجابني ، في تصميم ، وهـدوء ..
ــ .. أودّ أن أبقى في غرفتي ، حتى الغد .. دون أن يدخل إنسان عليّ ! أرجوك أن تفهم « الكوتيس » ذلك .. لن أنزل لتناول الغداء ، ولا العشاء ، معـكم ! لتبعثَ لي ، ما تشاء ، من طعام مع « بيرناديت » ! أخطر « جاك » بذلك أيضا .. كي لا يزيـد تساؤله من حرج أحـد ! وأخبر من يسأل عني أني مصاب بوعكة ! أرجوك ! لا أحد .. حتى الغد !!

أردتُ أن أستوضحه هدفه .. لكنه دفعني ، في رفق وإصرار ، نحـو الباب .. وعـاد يؤكّد لي .. وهو يوصده خلفي ..
ــ لا أحـد ! لن أفتح ، سوى لـ « بيرناديت » !!

* * *

عدتُ الى « جـاك » ، أخبره بما جرى •• فهزىء منّي ، في البدء •• وقـــال ••

ــ •• قد يُفاجـأ « مكسيم » بتلك الهــدايا •• أو أنت ! أما أنـا ! فكيف يفاجئني ذلك ، يا عزيزي ؟! وأنا الذي انتقى معظمها له ؟!

ــ •• لكنه حبس نفسه في غرفته ! ترى ما قصــده ؟

ــ •• ولماذا تنفعل يا شارل ، أنت تعرف غرابة أطباع الروس ! لعــلّه ، لعــلّه يجيب عن كلماتها •• بأطروحة ! أو بملحمة شعرية !!

ساءني ما كان في لهجة « جاك » ، من سخرية ! أحسست أنـه إنما كان يستر بذلك عـدم فهمه لدوافع « مكسيم » ! فتركته ، وانتحلت عذرا لأنفرد بـ « الكونتيس » ، وأخبرها عما رجـاه مني ، « مكسيم » ••

* * *

لمعت عيناها وهي تسألني ••

ــ •• وكيف بدا •• وهو يطلب منك ذلك ؟ هلاّ ••

ــ ••لا••لا ! كان متحفزاً •• متأثراً•• لم يبد عليه تشاؤم ، أو غضب••

تبسّمت « الكونتيس » •• وبعض الحيرة في عينيها •• وقالت ••

ــ حسناً •• فلتكن مشيئته •• دعــه لمـا يريد !

* * *

لم تنقطع الموسيقا من غرفة « مكسيم » حتى أولى ساعات الفجــر •• كنت أسمعها عبر الجدار الذي يفصل غرفتينا !

ظللت ألهي نفسي بالقراءة ، أتوقف بين الفينة والأخرى ، أودّ لو أطرق طرقات خفيفة ، على ذاك الجدار ، كي أُشعر « مكسيم » بوجودي ، علّ في ذلك سلوى لوحدته •• فأعدل عن ذلك ، ثم أعود الى قراءتي ، حتى غلبني النعاس ، فأخلدت الى النوم ، وكتاب « دو موسيه » بين يــدي •• وأحلامي ،

بين توجس من عـزلة صديقي ، التي لم أفهمهـا ، وخوف مما سـيأتي بـه الصبـاح ..

صحوت في اليوم التالي على صوت « بيرناديت » الرقيق ، تضع الفطور الى جانب سريري ، وتضحك ، وهي تقول ..

ــ هـذا غداء السيد .. وليس فطوره !

سألتها نعسا ، وبودّي لو أعود الى النوم ..

ــ كم الساعة الآن ؟

ــ إنها الواحدة ظهراً ! لقد ذهب جميع المدعوين في نزهة على الجياد .. ولن يعودوا قبل ساعتين ، على الأقـل .. فلا عليك يا سيدي ، يمكنك أن تتناول فطورك .. ثم الغداء ، متى عادوا ..

ــ والسيد « نيفسكي » ؟ هل صحا « مكسيم » من نومه ؟

ثم استويت في فراشي ، وأنا أذكر صديقي ..

قالت مقطبـة ، مبتسمة ..

ــ إنها المرة الأولى التي لم أوقظه فيها .. منذ أن حلّ في القصر ..

ــ ماذا ؟ وهـل غادر القصر ؟

ــ لا .. لا ! تروّ يا سيدي ! لقـد ترك لي ورقة ، أخذتُها من تحت الباب ، يطلب فيها ، مني ، ألا أوقظه ، قبل الثانية ، ظهراً ! أي بعد ساعة !

ــ .. « بيرناديت » ! خذي له إفطاره في الحال ! فهو لن يعرف الفرق بين الواحـدة ، والثانية ..

ــ أوه ! لقد قال السيد « مكسيم » الثانية .. بعد الظهر ، ولن أطرق الباب ، قبل الثانية !

ــ حسناً .. متى أخذتِ له الافطار ، فقولي له إني راغب في مقابلته .. وإلا ، فأنا عـائد الى باريس ! هل فهمت ؟

نظرت إليّ متعجبة •• ثم هزت كتفيها •• وقالت ••

ــ حسنا •• سأقول له هــذا ••

ثم تابعت ، وكأنهــا تكلم نفسها ••

ــ •• لن أفهم الرجال قط •• إنهم حقا لعجيبون !

* * *

ما إن عادت « بيرناديت » الى غرفتي ، بعــد ساعة من الزمن ، تخبرني أن « مكسيم » في انتظاري ، حتى وثبت من مقعدي أهرع نحو غرفته •• ثــم تمالكت نفسي ، بعــد عدة خطوات ، أعجب لتوثبي ، ولا أفهم سبباً لما أُثقل به رأسي من أفكار ، وتساؤلات ، منذ البارحة ! قلت ، وأنا أتجه نحو غرفته ، ما شــأني أنا به ، وبالـ « كونتيس » ؟ لماذا لا أرى الأمور بالبساطة التي يراها بها « جــاك » ؟ أو حتى « الكونتيس » نفسها !

دخلت غرفته ، واذا هي ، كعادته حين يصحو من النوم ، لا تزال غارقة في ظلمــة حالكة !

كان « مكسيم » قــد استوى في فراشه ، ينظر الى فتحة بين الستائر ، ينبعث منها شعاع نور ، يشق الغرفــة ، كسيف أبيض وهاج •• يسقط على منتصفهــا ••

قال ، مشيراً الى الحاكي ، قبل أن أقترب منه ••

ــ •• أرجوك •• هلاّ أدرت المفتاح ؟

وحينما أدرتــه ، انبعث من الظلام لحن لـ « ايلغــار » يعزفه « بابلو كاسالس » غلّف الغرفة ، ومن فيها ، بمزيجٍ غريبٍ من الحنين والحزن ••

علت ضربات قــلبي وأنا أنظر الى « مكسيم » يشير اليّ أن أزيد من فتحة الستائر ، بعض الشيء •• ولما فعلتُ ، نظرت خلفي ، وإذا « الكونتيس »، التي وقفت على باب الغرفة ، دون أن أدري ، تنظر معي الى حيث سقط النور ،

على حاملة اللوحات ، وسـط الغرفة •• على اللوحة الكبيرة التي كانت أمس فارغة ، بيضاء •• فرأيت لوحة رائعة مكتملة •• قاتمة الخلفية ، ذابت ظلمتها مع ظلام الغرفة •• وبدت فيها « الكونتيس » ، على ما هي عليه ، تقاطيعها تنبض بالحياة ، ليس لها من العمر ، سوى ما يقارب خمسة وأربعين عاماً ••

لم يبد ، من خلال ظلام الخلفية المعبّر ، سوى وجهها ، الارستقراطي ، المشرق ، يتوّجه جبينها الأبيض الشامخ •• ثم عينين نجلاوين ، ثاقبتين ، فوق أنف بديع النحت ، وشفتين ، تتستّران على ابتسامة غامضة ، فيها ما يذكر بـ « الموناليزا » ، لوحة « ليوناردو » الرائعة ، التي اقترنت ابتسامتها بغموض القدر ! ويأتي العنق الأبيض ، الأهيف ، الدقيق ، فينصبّ في صدرٍ ، ينساب ، ليختفي في شكل رأس رمح ، بين ياقتي ثوبها الحريري الأبيض الهفهاف •• فتنزلق عين الناظر على ثنايا ندبها الشفاف ، تنحدّر الى حيث ترقد يدان دقيقتان ، رائعتان ، تجمعت أصابعهما الهيفاء ، على علبة ذهبية ، مرصعة بالماس •• كُتب تحتها ، بالذهب ، على شريط مخملي ، يُنهي قاعدة اللوحة •• « هيرا •• آلهة الارض •• وكاتمة الأسرار » !

سمعتُ صوت « الكونتيس » يقول ، عبر الموسيقى ••

ــ أشكرك ! لم أكن أتوقّع منك إجابة ، على هذا المستوى ! أو على هذه الدرجة من الروعة ! إن هذا هو جوابك ، على الرسالة التي تركتها لك •• أليس كذلك ؟

ثم تقدّمت من سريره •• فاذا هو يهز رأسه ويقول ••

ــ نعم ••

أمسكت بيده ، تشد عليها •• ثم طبعت قبلة طويلة على جبينه ••

* * *

كيف أصف تلك الأيـام ؟ كيف لا أسترجع ذكريات ، كل ثانية منهـا ، لو كنتُ أستطيع ذلك ؟! وفي الوقت ذاته ، كيف أستغرب هذا الزمن الطويل الذي انقضى قبـل أن أحاول نبش تلك الذكريات ؟

ترى كم أمضينا من الزمان في ذلك القصر ، قبل أن يغيب ويختفي ذلك الحـلم ؟ أسبوعين ؟ ثلاثـة ؟ أية بئر سحيقة خلّفته في نفسي تلك الاسابيع ! هل من قـوة على الأرض تستطيع أن تزيح عن صدري ثقل الأسى الـذي أحسسته خلالهـا ، فيما بعـد ؟!

لن أنسى ما حييت ، ذلك المشهد الذي أنهى سعادتنا .. فأنا لم أ ُبـق منه ، في خيالي ، لفرط ما أتعسني ، سوى ذكرى خيال « مكسيم » ، عـائداً الى القصر ، من نزهة صباحية مبتورة .. جواد « الكونتيس » يسبقهما ، الى الحظيرة ، مفلوت السرج ، وصديقي المفجوع ، يحمل « الكونتيس » عـلى ذراعيه ، كمن يحمل أمـه .. جثة هامدة ، وقد سقطت عن جوادها .. فسبقه الموت اليهـا .. أدركها ، قبـل أن يصل « مكسيم » ، ليرفع رأسهـا بين يـديـه ..

* * *

القسم الثاني

الفصل الأول

الهواء الطلق .. والتنقل الدائم .. والمشاهد المتحركة . وصديقاه « غونتر » و « جون » يمضيان على دراجتيهما أمامه وخلفه ، في سعي ومثابرة متواصلين ..

وجد مكسيم نفسه منذ ترك باريس مع زميليه منساقاً في ركبٍ قليل الكلام متتابع الحركة ، واتجه الثلاثة كل على دراجته ، نحو الجنوب !

لكن قبضة فولاذية كانت قد أطبقت على أحشائه ، منذ يوم الحادثة في القصر .. فتمكنت منه ، ولازمته ، حتى تعوّدها .. فصار لا يفكّر ، ولا يشعر ، ولا يتكلم ، إلا من خلال إحساسه بها .. يهادن الألم ، أو يواربه ، يراه ، كشبحٍ شفافٍ ، رهيب ، يغلّفه ، ويحيط به أينما راحٍ ، وحيثما استقر ..

كان « غونتر » طبقاً لما فيه من طباع جرمانية ، يبدو مأساوياً في مشاركته لحزن صديقه ! يقطّب لحزنه ، أو يسبقه الى البهجة ، اذا ما رأى ابتسامة تبدو على شفتيه .. أما « جون » فكان يداري ألم « مكسيم » في تجاهل تام له ، لا يبدي أنه على علم بشيء ! لا يبدّل من تصرفه إزاء « مكسيم » ، سوى بات يقلّل ، بعض الشيء ، من الاحتكاك بصديقه .. مقدّراً حاجته الى

الوحدة ، فاذا ما بادله الرأي ، أو المزاح ، أضاف إليهما من المداراة والعطف ، ما كان يحضّ « مكسيم » على الشعور نحوه بالامتنان ، والتقدير ، الصامتين !

اتّخذ الثلاثة وجهة الجنوب •• نحو الجزائر ، و « الفرقة الاجنبية » ، والمجهول ، كأنهم هاربون من القدر !

توالت القرى •• وتتابعت المدن •• تتالت الغابات ، والهضاب العالية •• « اورليان » •• « فوتينبلوا » ، ثم « تور » •• « بواتيه » ، « أنغوليم » ثم « بوردو » قطعوا مئات الكيلومترات ، يكدون جاهدين فوق درّاجاتهم ، تمرّ أمامهم السيارات ، كالشهب المارقة •• لا يعيرونها التفاتاً •• كأنها وأصحابها ، من عالم ، لا يمت الى إيقاع حياتهم الجديد ، بصلة !

لم تتبدل معالم الطبيعة في شكل ملحوظ ، حتى كانوا قد شارفوا الوصول الى مدينة « بياريتز » ، في أقصى جنوب فرنسا ••

أعادت غابات الصنوبر الممتدة على طرفي الطريق ، ذكريات سحيقة في ذهن « مكسيم » •• مشاهد خاطفة ، من طفولة « فراس » •• طفقت تتراءى له في خياله كأنها تبرق تحت ومضٍ من نور خافت ، يمرّ متقطّعا ، فوقها ، فينجلي ما جثمت تحته ، من ظلمة ونسيان !

أحس « مكسيم » كأنه ، مع تلك الأشجار ، في صداقة قديمة منسية !

ظهرت فجأة ، تود أن تشغل حيزاً ، في نفسه ومخيلته ، التي اكتظت بذكريات أشجار وادي « اللوار » ، من سنديان ، وبلوط ، وحور ••

كانت باريس رغم ابتعادهم عنها ، لا تزال تشكّل واقعا حيا •• يعيشون في كنف ظلها العالي ، فما إن بدؤوا يصعدون جبال « البيرينيه » ، بعد المرور بمدينة « بياريتز » الدافئة ، الساحلية ، حتى بدأ أثر الابتعاد عن الحياة الباريسية يتجلى واضحاً لهم ، فيحسون له ، في نفوسهم ، وقعاً متفائلاً •• فأصبح تجاوز القمم المتتالية ، هاجسهم الأول •• والوصول الى سهول اسبانيا ، هدفهم الوحيد !

لم يحملوا معهم من المتاع ما يزيد عن أدوات الرسم ، الى جانب القليل ، القليل ، من حاجاتهم الشخصية ، وضعها ، كل منهم ، في كيس ، يُحمل على الأكتاف ، كانوا يتنكبونه حيثما رحلوا •• يتوقفون ، إما للطعام ، أو للاستراحة ، أو حين يسترعي انتباههم منظر جميل ، أو غريب ، فيريحون أكتافهم مما تحمل ، ويخرجون عدّة الرسم ، يتبارون دون منافسة ظاهرة ، على رسم أقوى انطباع لما يشاهدون ••

* * *

لم يجدوا في شمال اسبانيا ما يثير الانتباه ، فيما عدا كنائس المدن الشمالية ، وكتدرائياتها ، وما حوته بعضها ، من تحف ، وآثار فنية •• علاوة على حلبات مصارعة الثيران ، التي كان لكل مدينة ، ولكل قرية ، مهما صغرت ، واحدة منها •••

لا حاجة للقول أن معارك الموت التي كانت تدور في تلك الحلبات ، تحتوي ما لا يمكن وصفه ، من روح اسبانيا •• ولا حاجة لتفسير ذلك الصراع ، حيث تُفتح كتف الثور ، برمح عريض ، يغرسه « البيكادور » وهو فارس مدرّع ، مبطّن ! فيدفع الثور ، الحصان عنه ، بقرنيه ، وكلما زاد في الدفع ، زاد الرمح في شق عضلات كتفيه ••

ترى في وجوه الأسبان الوداعة والدماثة اللتين تراهما في جميع نفوس البشر ، ثم تراهم يبتسمون لذلك المنظر البشع ، فتحار كيف تفسر تقبّلهم للقسوة الهمجية ، درجَتْ أطفالهم على مشاهدتها ، في تلك الحلبات ، حتى ألِفَتْ القتل ، وسفك الدم ، وتعلّمت أن في مصارعة الموت ، بطولة •• وعظمة !!

* * *

غلبت « مكسيم » حاجة مبهمة للبحث عن أمر لا يعرفه ، منذ أن وطئت قدماه أرض اسبانيا !

خامره إحساس بأنه على ألفـة من الوجوه التي أحاطت بـه •• يعرف هذه الجبال ، والوديان ، يعرف ملمس هوائها الدافىء ، الجاف ، على وجهه ! وكلما أوغل في اتجاهه نحـو الجنوب ، زاد احساسه هذا ، فأبعد باريس وذكرياتها عن خاطره •• ليفسح مكاناً لمعاناة جديدة ، كان يُدرك أن لا طائل من ورائها •• ولا نفع في المثابرة على البحث عن أول خيوطها !

أكبّ ، مع صديقه ، على دراسة اللغة الاسبانية ، فكانوا يقضون السهرات وساعات الراحة ، في حفظ المفردات والنهل من قواعد اللغة ، يجد « مكسيم » لذة في ممارسة قـوة ملكة اللغات عنده •• فما إن تجاوزوا مدينة « سـان سباستيان » ، و « بيلباو » •• و « سـان تاندير » •• ثـم « بورغوس » ، وأصبحوا على مشارف « مدريد » ، حتى أصبح في مقدوره فهم ما يسمعه ، ومخاطبة الناس ، ببعض لغتهم ، رغم ما كان يعترضه ، من صعوبة ، في الرد على ما يسمعه ، بالطلاقة المطلوبة ، واللكنة الصحيحة !

* * *

كان خيـال الشرق ما زال يتماوج أمـام عينيه ، في ما يرى •• وطيف تاريخ العرب البعيد يعترض جميع الوجـوه •• فما إن دخـل « مدريد » ، واختلط بأهلها ، حتى عصفت ريح الحاضر القوية بخيالاته ، فبدّدت تلـك الصور ! فلا طراز البنـاء في تلك المدينة ، على ما ظن أنه سيكون عليه ! ولا طبائع الناس ! هـذا ، عدا ميل للتصلّب في الرأي ، وغيرة على النساء ، وهما طبيعتان شرقيتان ، تبيّن لهم أن معظم الاسبان يتصفون بهما ••

عادت علائم الشرق ، في تلك البلاد ، الى مكانها التاريخي ، في ذهـن « مكسيم » ! تراجعت في الزمان ، حتى أصبحت « تاريخاً » جامداً ، يصبغ الواقع ، ولا يتفاعل معـه ، فأراحه هـذا الشعور •• ووفّر عليه عناء زجر حنين ، كان قد بدأ يؤرّقه ، ويحضّه على طرح تساؤلات حول نهجٍ آخـر ، أو وجهة للخط الذي سـار عليه التاريخ ، أو تراجع ، في بـلاده ! وحرّضه

على احتمال تكوّن وجهٍ آخرٍ للشرق ، غير الوجه الجامد ، المتحجر ، الذي عرفه في بلاده !

لكن هذه راحة ، لم تدم !

تفرّق الأصدقاء في « مدريد » ، يحاول كل منهم أن يكتشف بنفسه وجه المدينة الذي ينشد ! يخالطون الناس عن كثب •• يعودون الى التلاقي ، ليلاً ، ويتسامرون فيما اعترضهم من نوادر •• يتبادلون الآراء في تلقائية وصراحة مألوفتين ، إلا « مكسيم » •• كان يحدّث صديقيه عما يعترضه من مفارقات ، ويهمل ذكر ما يخص الشرق منها •• يزجه في حيّز الذكريات ، كتلاً صماء ، ما إن زادت ، وتراكمت ، حتى ثقلت ، فباتت تبعث في نفسه ضيقاً غريباً لا يفهم سببه !

ولم يكن قربهم من الاندلس ، بعيداً عن سبب هذا الضيق ••

راح « مكسيم » يماطل صديقيه ، في متابعة السفر نحو « قرطبة » و « غرناطة » و « اشبيليا » ، يتوق في سره الى زيارة تلك المدن ، ويتوجّس منها ! وفي النهاية •• تركوا « مدريد » مروراً بـ « توليدو » ، فمكثوا فيها بضعة أيام ، ثم يمّموا وجههم شطر الاندلس ••

* * *

السهول الجرداء ، الصخور البيض المتناثرة •• الشمس والحر والضياء الساطع •• القرى الفقيرة البعيدة •• والطريق المستوي الطويل ، الطويل !

الأفق الذي لا يقترب •• الهضاب المتتالية البعيدة •• التربة الحمراء •• النبات البرّي •• أكواخ الفقر التي تنمو في الأرض كالنتوءات الترابية •• ثم التين •• وبساتين الزيتون •• والقرميد الأحمر فوق البيوت الصغيرة المتناثرة ••

الماعز النهم ، الذي لا يترك الأخضر ولا اليابس •• الراعي الفتيّ الذي

لوّحت وجهه الشمس •• يبتسم من بعيد . فاذا اقتربوا منه ، يحملق في لحاهم الطــويلة ، ثم يشير الى شفتيه ، بأصابعه ، يطلب منهم اللفائف !

مرت ساعات طويلة •• طويلة •• لاحت في آخرها ، من بعيد ، جــدران بيض ناصعة •• وبساتين خضراء ، يسطع نور الشمس على أوراقها ••

لاحت لافتة عريضة كُتب عليهــا « كوردوبا » •• فتجاوزوها ! دخل « غوتتر » ، و « جــون » « كوردوبا » بالفعل •• أما « مكسيم » ، فدخل « قرطبــة » !

* * *

تسمّرت في نفسه ، وعلى شفتيه ، ابتسامة مريرة باهتة !

راح ينظر حوله في مزيج من الدهشة ، والأسى لما يراه ، ويتعرف على جذوره ، يشوب احساسه الحــيرة والازدراء •• لقِصَرِ ذاكــرة الزمان ، والتــاريخ !

هذه أرض كأنه عرفها ، في زمن من الأزمان ! عاش أجداده فيها ثماني مئة سنة ! لا أحد يذكر شيئاً من هــذا ! ولا أثر لمن يعير ذلك الواقع ، أي اهتمــام !

هــذه البيوت ، يعرفهــا !!

أبوابها •• شرفاتها •• الطريق الضيقة التي تتخلّلها ، أجمــل من التي في مدينته •• وأنظف •• جدرانها ، مشرقة البياض•• ورونق اخضرار النباتات المتدلية من نوافذها ، يبهر من عرف الدرك الذي تردّت فيه أمثالها من الطرق ، في مدينته القديمة ! لكن •• أين هذه الغرف الصغيرة من الايوان والمربّع ، والقاعة ، في بلاده ؟ ما لصديقيه ، يعجبان لهندستها ؟! ولا سبيل لهما كي يريا ذلك الينبوع الذي تنافرت منه هذه القطرات ! كيف تدبّ الحياة في هــذه الصور الباهتة ، والأصــل الرائع ، في دمشق ، يتقاسم أو يمزّق أشــلاءه المعوزون ! ولا من يهتمّ لذلك ، في مدينته ، وأهل القرى ، في تخلفهم ، باتوا هم القيّمون على مصير تلك القصور !!

لماذا يلوّث التاريخ ويموت ، وهو بين ظهراني أهله .. ويحيـا ، وهو في عصمة الأجانب ؟

* * *

دخـل « جـون » و « غونثر » الـ « الكزار » ! ودخـل « مكسيم » « القصر » !!

تلك الابتسامة المريرة ، التي كانت قد تسمرت على شفتيه .. بدأت تنال مما تحجر في نفسه ، فراحت تحفر فيها ، كما يُحفر في الصخر !!

ضاق بما رآه ، من سمو الخيال ، ومن روعة البناء ، والزينة !

أحس بظلمٍ ، ما بعده ظلم !! هذه الآثار الدمشقية ، هنا ؟! هذه دمشق ، كما كانت عليه في يوم من الأيام .. وكما يجب أن تكون اليوم .. إنهـا ملك للأجانب ، المحتلين !! وهو ، يسير فيها ، كواحد من السيّاح الاوروبيين !!

سـألـه « غونثر » يعجب لشحوب وجهه ..

ـ « مكسيم » مالك ؟ هل أصابك وعـك ؟

لم يردّ على « غونثر » .. أثـار انتباهه ما سمع لاسمه ، من وقـع ، على أذنيـه !

لقد جاءه الجواب ، في صيغة ذلك الاسم الذي ناداه به صديقه .. لقد كان سائحا من بين هؤلاء السياح ! ولم لا ؟ أليس هو « مكسيم » ؟ هل لـه من هـوية أخـرى ؟!

هز لصديقيه برأسه ، يشير إليهما ألا يهتما لأمره ..

وتابعوا السير بين الأزقة والردهات .. و « مكسيم » ذاهل عما يراه .. يودّ لو يترك ذلك « القصر » الرائع .. فما إن أنهوا زيارتهم وانتقلوا الى الكنيسة التي كانت جامع قرطبة ، في الماضي ، فرأى جمال أعمدته ، وروعـة بنائه ، حتى عاوده ذلك الضيق الشديد الذي انتابه في « القصر » .. فاستدار

على عجلة ، تاركاً المكان ، وصديقيه ، وراح يتمشى في أزقة المدينة •• تائهاً ، لا يلوي على شـيء !!

* * *

دخل « غرناطة » حزيناً •• كأن علـّة أصابته ، لا يعرف موضعها !

لو أن صديقيه ارتأى مغادرة « الأندلس » ، نحو وجهتهم في« الجزائر »، لوافقه ، في الحال ! غير آبه لزيارة « إشبيلية » ! ولا مهتما لما سيفوته من فنّ في قصر الحمراء الشهير !!

رجا صديقيه أن يزورا معالم المدينة ، من دونه •• فما كانت نفسه تطيق تبـادل الآراء ، ولا التباري مع صديق ألمـاني ، والآخر أميركي ، في فهـم ما يكتشفانه ، ويسيران في كنفه ، من عظمة فن العـرب !

بات في عزلة نفسية تامة •• يودّ لو يصلون « الجزائر » دون ابطـاء ، ودون أن يتفوه أحدهم بكلمـة !!

* * *

خرج الى الشوارع مبكـّراً ، وحيداً •• قال ، يبحث عن أخي « بيبيتا » ، وقد زوّدته ، هذه ، في باريس بعنوانه ، وأوصته ألا يتحرك في « غرناطـة » ، دون رفقته •• لكنه أجفل من ملاقاة شاب لا يعرفه ، إنسان غريب ، سيضطر الى مبادلته المجاملة ، وهو في وهن نفسي ، لا يستمرىء معه تلك الشكليات •• فأهمل زيارة « بيدرو » ، وبدلا عن تلك الزيارة ، سأل المارة يستهدي عـن وجهة « الجينيراليفه » ، أي ، « جنة العريف » ، وقصر « الحمراء » •• ثـم سلك الطريق التي أشير عليه بها ، وكانت تقود الى خارج المدينة ••

* * *

رأى الأشجار الباسقة ، من بعيد •• ثم صروحاً شامخة لأبراج قلاعٍ ،

ذهل لأنه لا يعرف شيئا عن تاريخها ! ولا تعلم في بلاده أن لها علاقة بتاريخ العرب الصحراوي !

سعى بين الأشجار ، يتخللها منظر قرميد سطوح القصر .. فتعجّب للطابع الأليف ، الأنيق ، لتلك الأبنية العالية ، التي بدت من بعيد ، كأنها مجموعة مساكن مأهولة ، لأثرياء معاصرين ، متعالين ، لا كما تخيّل ، مما سيكون عليه حال قصرٍ ، عربي ، مهجور ! فما إن اقترب منها ، وولج باب السور الكبير ، حتى أحس بضربات قلبه ، تشتد ، وتعلو ، لما وجد نفسه ، فجأة ، في وسطه ، من حدائق غنّاء على أحسن ترتيب ، خالية ، في تلك الساعة المبكرة من النهار ، حتى من حارس أو دليل ، أو سائح !

مشى الهوينا في دروب الحدائق ، يكاد يسكره ما يملأ صدره به من هواء الصباح النقي .. تأتيه ، بين الفترة والأخرى ، نسمات منه ، مفعمة بشذا ثمار السرو ، أو عبق الزنبق ، والزيزفون ، والياسمين ..

عاد يملأ صدره من ذلك العطر ، حتى غشي بصره فعلاً ، فتوقف قليلا ، تريّث ، ريثما يغمض عينيه ، فيستدرك صحوه ، لفرط ما اجتاحه من إحساس أزلي بانعدام الزمان ..

أين كان ؟ ما حقيقة ذلك المكان ؟ لماذا تقوده قدماه فيه ، وهو مغمض العينين ، نحو مدخل القصر الفسيح .. هل كان عائداً إليه ، أم خارجاً منه ؟

عاد اليه وضوح بصره ، أمام أول الردهات .. فاتكأ على أحد الأعمدة الرخامية ، يحيطه بذراعيه ، ثم أسند رأسه اليه .

كان شاخصاً نحو الأرض ، دون أن يدري ، رفع رأسه في بطء ، فترامى نظره أمامه يتهادى في أناة ، عبر أحواضٍ ، وأعمدةِ الردهات ، تجوب عيناه المذهولتان الساحات الفسيحة ، وتستقران على البحيرة ، في ساحة الاسود ..

ما سر ما اعتراه في تلك اللحظة ، وهو يستوعب جميع ما في تلك الساحة ، وما حولها ، من أعمدة حمراء ، وما على السقوف والجدران من نقش ،

وحفر ، وزخرف ، وحضارة ؟! لم ير أحد نظره ، يغشى من جديد ، ودموعه تتساقط على خديه .. وما أحسّ ، هو منها ، سوى بحرارتها ، ثم ببللها ينساب على صدره !!

تقدم حتى بلغ « قاعة السفراء » .. فتحسس المصطبة الرخامية ، إزاء النافذة العريضة .. كأن أحدهم أزاح الوسائد الملكية ، التي كانت عليها منذ لحظات .. فجلس على الرخام البارد ، جنبه الى الحديقة ، والطيور ، وعبق الياسمين .. وجنبه الآخر ، الى القاعة ، ورخام جدرانها البيض ، وما نُقش وحُفر عليها ، من آيات عربية وشعر ، في خطوط وأشكال رائعة ، تشدّ النظر الى زمرٍ ، وراء زمرٍ ، من الأعمدة الهيفاء الرشيقة ، فيغنّي ، ويرقص ، ويتهادى النظر ، فوق نظامها ، حتى يعود قريراً ، هادئاً ، الى باحة الأسود ، ويستقر على نافورة الماء الوديعة ..

نظر مليّاً الى الجدران ، يودّ قراءة ما عليها من حروف حبيبة الى قلبه ! فلم يقو على ذلك لما غشي عينيه من دموع !

لم ير سوى خيالات تبرق وتغيب .. لهف قلبه ! لهف قلبه !! لهف قلبه !! أين أهل الدار ؟! من كان ، هو ، في تلك اللحظة ؟ أطيفُ أحدهم ؟ أواحد منهم ؟ أزائر ، من غابر الازمان ، عاد يطلّ على ذا الجدار ، وذا الجدار ؟! إنسان مستقبلي ؟ عاد يتقفّى آثار الجدود ؟!

أحس بصقيع نفسي لم يعرف مثله من قبل .. اضطربت أنفاسه ، وتهدّجت ، ثم أحسّ بألم خانق في حنجرته ! فانطلق يجهش في بكاء طفولي ، عنيف ، لم يعرف له سابقة في حياته !!

ها هو ذا بين أهله .. وليس لأهله من أثر ..

ها هي ذي معالم وطنه ، تنبىء بها هذه الجدران .. وهذه الأعمدة الدقيقة ، الفريدة ، تهزّ رؤيتها دموعه ، فيكاد يرى أهلها ، وصحبهم ، يختالون بينها !

« فراس » ؟ « مكسيم » ؟ اسمان لم يبق لهما من معنى ، ولا أثــر !! ها هي ذي جذوره أمامه •• تعلو عن الأرض ، بدل أن تغوص فيها ! ها هو ذا يجـد نفسه ، دونما حاجة الى اسم ، أو تعريف !!

عـاد يجهش بالبكاء ، يذوب مع الدمع ، حقده ، لما فَرض الماضي على هويّته من تخلف !! أحس بالدموع تصفي النقمة ، والرفض من نفسه ! فأطلق لهـا العنـان !!

ها هو ذا وجهه العربي الحضاري •• يتبدّى له كشمس الفجر المشرقة !!

ها هو ذا وجهه الإنسانيّ ، ولا شأن عنده لما يمكن أن يطلق عليــه من أسـماء !!

هنا •• وبين هذه الجدران تكمن روح ما يمكن أن يتجاوب مع نفسه ، من أدب ، وفلسفة ، وشعر ، وفن ، وعلم ، وموسيقى !! إن الذين بنوا هــذه الجدران ، وتصوروا تشكيلها الهادىء الرائع ، الأنيق ، ثم عاشوا فيها •• هم أناس حضاريون مثقفون ، لا يعرفون الكلام الطنان الأجوف !

إن من حسب نِسَبِ قياسات هذه الأعمدة المرهفة ، المتناسقة ، لا يعرف الكذب ، في البطولاتَ الفارغة ، أو الرياء ، في المزاودات الأنانية ، الخسيسة !! ثم •• إن من شـاء هذا الجمال ، ليكون •• وكان فيه •• لا يمكن أن يتنفّس سوى الرقي ، والنظافة ، والاناقة ، والدماثة ، والكياسة !! لا حين يكــون راضي النفس ، هانئاً ، فحسب ، بل حتى حين يجتاحه الغضب !!

لا ! لا علاقة لأهل بلده اليوم بهــذا العالم ، ولا بهــذا القصر !!

لو أعيدت ملكيته إليهم وجاءت خيرتهم لتسكنه ، لربطت حبال الغسيل بين هذه الأعمدة !! لشوّهت هذا الحفر الأبيض الرائع برسومٍ وألوانٍ تماشي ذوقها المتدنّي •• لنمّقتها بالأحمر ، والأزرق والأخضر ! ولانطلقت الأطفال في هذه الحدائق ، تقتل الطيور ، كالعفاريت الخبيثة ، تشتم بعضها ! تضرب بعضها !! تدوس النبات ، وتقطع الأزهار ، وتفرغ أكوام القمامة من الشرفات الشامخة !!

* * *

أحس أنه في وحدة مع الكون ..

تاه في إحساسه ، عن المكان الذي كان فيه .. لم يعد في نقمة أو ضياع ، لأنه يعيش في هـذا العالم ، دونما جذور .. لقـد وجـد هذه الجذور .. وارتاح لهـا ..

ثم خطـر له خـاطر !

هذه جذور هويّته .. لكنها كجذور زهرة « النيلوفر » .. تنمو في تلك اللحظـة من فوق ، الى تحت .. تنطلـق من زهرة ، تطفو على سطح المـاء الراكد .. لتهبط في عمق المـاء ، بحثا عن أرض تقتات منها .. انهـا جذور فوقية ! أين أرضها .. أين التراب ؟! أين أرضه ، هـو ؟!

* * *

تنبّه الى جماعة من الناس ، تعبر باحـة الأسود ، وتقترب من قاعـة السفراء ، حيث كان يجلس ، غارقاً في تأملاته .. كفكف دموعه ، على عجلة ، وهمّ بالنهوض ، ففطن الى أن جفنيه يحرّقانه ، وعينيه لا بد محتقنتان ! فعاد الى وضعـه الأول ، وأشاح بنظره نحـو الحديقة ، متجاهلاً قـدوم ركب السياح ..

وقف القادمون في منتصف القـاعة ، يتأملون جمالها الأخّاذ .. وراح الدليل يشرح لهم ، بالانكليزية ، تفاصيل ، عن بنائها ، وعن حياة من أقام بهـا من ملوك .. كذب الدليل ، فيما ذكره من وقـائع التاريخ ، وزوّر لسامعيه وزاد .. ثم وصل في الشرح الى النافذة ، حيث جلس « مكسيم » .. فتعجّب لاستغراقه ، وقال لمن حـوله ، مازحاً ، في أدب ..

ــ إن السيد ، جاء مبكراً .. رأيته من شرفة الحارس البعيدة ..

وراح ينتظر جواب « مكسيم » ..

حـاول « مكسيم » أن يجيبه ، دون أن يلتفت إليه ، كي لا يرى عينيه أحـد .. فلم يجـد حيلة لذلك .. فنظر إليه على عجل ، وهز رأسه موافقاً ، مبتسماً ..

ما إن رأى الدليل عينيه المحتقنتين ، حتى أشاح بوجهه ، عنه ، في لطف مفتعل •• وراح يتابع ما ابتدأه من شرح ، لجماعته ••

سرعان ماغاب « مكسيم » عمن كانوا في القاعة ، وقد أدار ظهره لهـم ، وسرح مع ذاكرته ، الى بضعة أيام مضت ••• حين زار دير « الاسكوريال » الكبير ، حيث تدفن ملوك اسبانيا •• وزار مكتبته الضخمة ، فوقع مصادفة ، على ما فيها من مخطوطات عربية ثمينة ، لا يعرف سوى قليـل من الشرقيين ، أنهـا على قيد الوجـود ••

مرة أخرى كاد يغلبه الأسى ، أسفاً على الحبيب ، كيف يترك ليموت بين مقابر الأعداء ، يدفن ، وهو حي ، وجسده ينزف دماً ••

تنبّه الى صوت الدليل ، وقـد ترك جماعته ، وأخـذ يكلم أحدهم ، بالاسبانية ، هذه المرة •• فأصغى الى الحوار ، دون أن يلفت انتباه المتكلمين••

ـ •• لكن عينيه قطعتان من الدّم •• هلاّ سألتَه عن مصابه ؟ لعـله في حـاجة الى عـون ••

سـمع الدليل يجيب صاحبه في صوت خفيض ••

ـ •• لا يا عزيزي ! ليس في هـذا من جديد علينـا •• إن مثل هـذا المشهد يتكرر بين الفترة والأخرى •• نحن نعرف هذه الظاهرة ، منذ زمـن بعيـد ••

ـ •• لـم أفهـم !

أجـاب الدليل ، موضحاً ••

ـ •• لا بد أنه عربي ! بل ليس من شك في هذا ! ومن الخير أن تتركه على حـاله ! إنهـا نوبات من الحنين ، تصيب بعضهم من وقت الى آخـر ! كحـالة اليهود ، على حائط المبكى !!

ـ •• عربي ؟ وهل أنت متأكد من ذلك ؟ لا يبدو لي أنه عربي •• ظننته إفرنسياً ، أو إنكليزياً ••

هــز الدليل رأسه ، متعجباً لقول زميله ••

ــ أتظنهم جميعاً على مثل أولئك الذين راحوا يطلقون الصيحات العالية منــذ شهور ؟ يا إلهي ، لقد كانوا أعضاء من وفدٍ رسمي ، راحوا يرددون أشعارا لا يفهمها أحــد ، يؤذو نالآخرين بتصرفاتهم ، حتى نفر منهم معظــم السياح ! إنما هؤلاء همج ، يا عزيزي ، يظنون أنهم وطنيّون ! أمثالهم ، هــم الذين خسروا « الأندلس وخلّفوها لنــا » فيما مضى !! لا •• لا يصحّ أن نضع جميع العرب ، في كفة واحدة ، من الميزان ! لا تنس أن منهم من بنى هذا القصر ، وغــيره ، مما عندنا من روائع !! لقد كان في مكتبة هــذه المدينة ، وحدها ، نصف مليون مخطوط عربي •• معظمها عن الفلسفة ، وعلوم الطب ، والفلك ، والكيمياء ، والجبر ، والهندسة ! أتدري ، إننا أحرقناها جميعاً يوم طردناهم من هذه البلاد ؟! انها غلطة لم ينسها لنا التاريخ !!

نهض « مكسيم » واقفاً •• تظاهر أنه مغرق في تفحّصٍ ما حــوله من كتابات •• وأصاخ السمع الى الدليل ، وهو يتمشى ، مبتعدا عنه •• فسمِعَه يتابع قــوله ••

ــ لو تُرِكَ الأمر لي •• لمنعت العرب من دخول هذا القصر ! وغــيره ، من آثارهم هنا ! بل إن عندي ما هو أفضل ! لو ترك الأمر لي ، لهدمت هــذه الآثار ، واقتلعتها من جذورها !! ماذا نجني من الاحتفاظ بهــا ؟! فيما عــدا العائدات السياحية ؟ إنهــا الشاهد الوحيد على ما هدمناه من حضارة العرب ، حين أعدنا فتح هــذا القسم في بلادنا ، منذ خمسمائة عــام ! لكم سمعتُ من السائحين ، من يقول ، وهو مأخوذ بروعتها •• « ليتني كنت عربياً » !! لكم سمعتُ أقوالاً مثل •• « لئن كانت هذه حالهم ، منذ خمسمائة عام ، فإلامَ كانت ستحلّق نحوه حضارتهم لو لم يدمرها الاسبان » !! أقول ، ماذا نجني من وراء الحفاظ على هذه الآثار ، سوى إيغار الصدور ، نقمة علينا ؟! وتذكير أولئك العرب الذين يزورون بلادنا ، بحقيقة تاريخهم •• وحقيقة ماضيهم !! لقــد ارتحنا من الخطر العربي ، منذ أجيال •• فلماذا نترك لهم هذا المزار ؟!

لو تُرِكَ الأمر لي ، لما تركتُ لهم من تراث ، سوى الخيام ، والسيوف ، والرمال ، يحلمون بها !! تماماً كما يفعلون الآن في بلادهم !!

سخر منه زميله .. وسأله ..

ــ .. هوّن عليك ! وما سبب هذا الحنق ؟! هل تخاف أن تكون لهم رجعة الى هذه البلاد ؟

ــ إن أكثر ما يثيرني ، هو ألا يُعجب السياح ، في بلادنا ، أكثر ما يعجبون ، إلا بما تركه العرب فيها منذ أربعمائة وخمسين عاماً !! يفضّلونه على جميع ما قمنا به نحن !! أتدري ، إن الشاعر الايطالي الكبير « بترارك » قال ، فيما كان يقول .. « أيها الاوروبيون ، متى تزول عنكم عقدة ، ألاّ نبوغ إلا عند العرب ؟ » لقد قال هذا منذ ٥٠٠ عام فقط .. ومعنى ذلك أن نبوغهم كان لا يزال يسيطر على أوربا ، حتى ذلك الحين ! أليس من دواعي العجب أن يكون العرب قد نسوا ذلك تماما ؟! لقد قمنا بغسل أدمغتهم ، كما لم يحدث لأية أمة مقهورة ، من الأمم !! فلماذا نذكّرهم بماضيهم الحضاري ؟ إنهم لايعرفون اليوم من ماضيهم سوى الطابع الآسيوي الصحراوي لحضارتهم ؟ « عالم ألف ليلة وليلة »..وحروب الفتوحات..هذا هو المهم ، يجب ألا يُترك لهم سوى الحنين الى الرمال ، والسيوف ، والخيام .. لقد نسوا أنهم كانوا قبلة العلم ! لا يُقبل غير رأيهم فيما يتتجه اليه العلوم في المستقبل ! تظن اليوم أنهم ذهبوا الى غير رجعة .. ومن يدريك ؟ ألم تر كيف عاد اليهود الى فلسطين ؟ فمن كان يظن ذلك ممكنا منذ مائة عام ؟!

* * *

أقبل السياح ، جماعات وفرادى .. فتمشى « مكسيم » الهوينا خارجاً من قاعة السفراء .. واذا بـ « غونثر » و « جون » ، واقفين ، ساهمين ، مشدوهين لما رأوه من زينة وجمال قاعة الملوك ..

سرّا بلقاء « مكسيم » ، فأغرقاه في الحديث عما كانوا فيه من جمال

.. « الحمراء » .. وتاريخها .. الى أن سأله « جون » ..

ــ لكن .. ماذا بك ؟! أراك محتقن الوجه ، هل أنت مريض ؟

تذكر « مكسيم » قول الدليل .. فأجاب ، مازحاً ..

ــ هذه المرة الثانية التي أسمع فيها هذا السؤال ، اليوم ! لشدّ ما أود أن أعرف ماذا سيتلو سؤالك هذا ، من تعليق !

فتح « جون » عينيه ، لا يفهم شيئا مما سمع .. وضحك « مكسيم » عالياً ، وتابع ..

ــ لا .. لا ! لا أهمية لما قلته .. لقد كان بي وعك ، بسيط ، وزال ! أزله سر هذا المكان !

ثم قهقه عالياً ..

قال « غونثر » متعجباً ، بدوره ..

ــ .. أتدري ؟ إن هذه أول مرة أسمعك تضحك فيها ، كما كنت تفعل في السابق ! لم أسمع منك هذا الضحك منذ شهور عديدة .. بل إن في عينيك ، رغم احتقانهما ، من الصفاء ، ما لم أره فيهما ، قط ! هيا نخرج الى الحديقة ..

ــ وهل أنهيتما زيارة القصر ؟

ــ قضينا فيه من الوقت قرابة ساعتين ! وسنعود إليه غداً .. وبعد غد ! هيا ..

* * *

توجهوا ، نحو غرناطة ، عائدين إليها سيراً على الأقدام ..

قال « غونثر » ، وهو ينظر الى القصر ، من بعيد ..

ــ لقد قرأتُ الكثير عن تاريخ العرب ، في الأندلس .. ما قولك يا « مكسيم » .. هل تظن أنهم سيعودون يوماً إليها ؟

ضحك « مكسيم » ملء قلبه ، مرة ثانية .. وقال ..

ــ لا عجب أن يثور ذلك الدليل المسكين •• وهو لا يسمع من السياح سوى الاعجاب بتاريخ العرب هنا ! والسؤال عن احتمال عودتهم في يوم من الأيام ! أين العرب من هــذا ، يا عزيزي ؟!

تعجّب « جــون » ، لقــوله ••

ــ وما الغرابة في ذلك ؟ لم يكن في هــذه البلاد ما يستحق الذكر حين احتلها العرب •• ولقد مكثوا فيها ما يزيد على سبعمائة عام •• إن هذا لزمن أطول من تاريخ الاسبان فيها ، منذ أن طردوا العرب من هــذه المدينة •• أي ، منذ أربعمائة وخمسين عاماً فقط ! انظر كيف عاد اليهود ، الى فلسطين •• رغم قصر مدة مكوثهم فيها •• ورغم طردهم منها منذ حوالي ألف وخمسمائة عام !

ردّ « مكسيم » ، مستبعداً ••

ــ العرب اليوم في طور تحرير بلادهم ، المعترف فيها إنها لهم ! فما طائل الحديث عن احتلال نصف اسبانيا ؟ وهل هم في حاجة الى مزيد من الأرض ؟

قال « غونثر » متأسفا ••

ــ انما أنا أعني إحيــاء هــذه الحضارة التي تركوا هنا ! غريب ، كيف لانسمع عن العرب ، إلا ارتبطت صورتهم في أذهاننا اليوم بالكوفية ، والخيام ! بالصحراء التي لا بناء فيها ، ولا زرع !! أين هذه الصورة عن العــربي ، من التي عرفتها اليوم عنه ! صورته ، هنا في غرناطة ! منكبّاً على دراسة العلوم ، والفلسفة ، والفنون !! متعمقاً فيها •• يعيش ، منذ خمسمائة عام ، حرية فكرية واجتماعية ، لا يعرفها اليوم !! لا شك أن هناك من يلعب بالتاريخ ! يحوّره ، لهــدف مــا !!

أجاب « مكسيم » ساخراً ••

ــ لو سمعتَ ما قاله الدليل ، وأنا في قاعة السفراء ، لفهمتَ السبب ! فالغرب ، لا يحارب العرب طمعاً في ثرواتهم ، فحسب ، بل خوفاً من استفاقتهم ، بعد نوم طويل ! أما وقد أفاقوا ، فلم يبق أمامه من سلاح ، سوى غسل أدمغة بعضهم ، وتخدير بعضهم الآخر ! وسلاحه في ذلك ، التاريخ ••

ـ ماذا تعني ؟ أي تـاريخ هـذا ؟!

ـ •• إن تاريخ العرب اليوم ، مكتوب بحروف لاتينية ، يهودية ! ومراجع العرب، للبحث عن تاريخهم ، مراجع غربيّة ! جميع شعوب الغرب، اذا نظرت الى ذاتها اليوم ، ترى جذور ماضيها الاغريقي ، يشير الى صورة مستقبلية ، حضارية ، عن نفسها •• فاذا أكدت مساوىء الماضي ، أو انتقدته ، ترى الغربيّ منّا ، يضحك منك ، ومما تقـول ! ويشير الى المستقبل •• لا يهتم لسواه ! أما العرب •• فاذا نظروا الى أنفسهم ، لم يروا سوى الماضي ! واذا اشتطوا في أحلامهم •• لم يعرفوا سوى صور من الماضي ، يودّون ، لو يستطيعون ، إحياءها اليوم ! ومن رسم لهم ، هذه الصور ؟ أو كتب لهم ، هذا التاريخ •• سوى الغرب الواعي لأهدافه ، والذاكر أحقاده ؟!

ـ أليس عندهم من مكتبات ، ومخطوطات ، يرجعون إليها ؟

ضحك « مكسيم » ساخراً ••

ـ سوف ترى ماذا ترك لهم الغرب ، متى وصلنا «مراكش»و«الجزائر» ! لم يترك لهم المستعمر من مخطوطات ، سوى التي تتعلّق بالشِعْر ، والسحر ، والحروب ، والدين ، وحكايا الأسفار !! وهذا ما أعنيه بقـولي ، عن غسل الأدمغة ! فماذا يمكن أن يصل اليه العربي ، من علم مستقبلي ، اذا لم يُسمح له بغير قراءة الشعر ودراسة السحر ، والدين وتفاسيره ، وحديث الفتوحات ، والأسفار ، على ظهور الخيول والجمال ؟

ـ أليس لديهم اليوم من كتب مترجمة ؟

ـ •• تصور ! إن الأمويين ، أثناء حكمهم القصير ، ترجموا الى العربيّة جميع ما وقع تحت أيديهم من كتب علميـة ، وفلسفية •• إغريقية كانت ، أم هندية •• أم فارسية ! وكانوا مسلمين متديّنين لا يخشون العلم ! كذلك العباسيون •• كانت عندهم دار للترجمة ، يدفعون فيها ثمن المخطوط المترجم ، ما يوازي وزنه ذهباً !! أما اليوم •• فالفكر مربوط بالأهداف السياسية

المؤقتة !! أما موضوع السياسة ، أو الدين ، فماذا أقول عنهما •• والرقابة تحظّر الكلام عنهما ! وتقف ، سيفاً مسلّطاً ، فوق أقلام الكتّاب ؟!

* * *

ساروا في شوارع « غرناطة » ، يسألون عن عنوان « بيدرو » ، أخي « بيبيتا » حتى بلغوا من الشارع ، الرقم المطلوب • ظنوا أنهم وصلوا الى داره ، ففاجأهم أنهم أمام مشرب شعبي •• ما إن سألوا فيه ، عن « بيدرو » ، حتى أُشير إليهم بالتوجّه الى زميل له ، شاب ، تطوّع في الحال لإرشادهم الى سكن صديقه ، وسار أمامهم ، يقودهم اليه ••

قال الشاب ، وهم يصعدون هضبة صخرية ، لا بيوت ظاهرة عليها ، على مدى امتداد النظر ••

ــ إن « بيدرو » وُلد هنا ، في « الساكري مونتي » •• أي في الجبل المقدس •• ولست أدري لماذا يلقبونه بالجبل « المقدس » ، وليس فيه حتى كنيسة ، أو دير !! بل كل ما فيه ، غير مقدس ! إنها تلّة ، كما ترون •• والناس فيها ، معظمهم من الغجر ، يعيشون على الرقص والغناء ، في الصيف •• وعلى صناعة « الداتيل » الاسباني المشهور في الشتاء •• انها صناعة ورثوها عن العرب !

ظهرت على طرفي الطريق ، أبواب عتيقة ، منها الخشبي أو الحديدي ، تسدّ فوهات مغائر ، بدت ، كأنها مأهولة ، تُركت بعض المقاعد الصغيرة أمام مداخل عدد منها ••

قال الشاب ، كأنه يقوم بدور الدليل ••

ــ إن أهل « الجبل » لا زالوا يغطّون في النوم •• فهم يقضون الليل بكامله بين عزف ، وغناء ، ورقص ! لا يتركهم السياح ، إلا مع مطلع الفجر !

قطّب حاجبيه ، ونظر إليهم متمعّناً •• ثم تابع ، في لهجة متفاخرة ••

ــ هل أنتم مخرجون سينمائيون ؟ إن شهرة« بيدرو »تطبق أرجاء

العالم ! هل تودون تصوير فيلم له ؟! إن أخي ، راقص شهير ، كذلك ! ويزاول مصارعة الثيران ، في الوقت نفسه ، من حين لآخر ! آه من « بيدرو » !! لقد كان في إمكانه أن يصبح المصارع الأول في « غرانادا » ! والبعض يظن أن بإمكانه منافسة أقدر مصارعي « مدريد » ! لكن أمه وأخته ، تكاتفتا عليه ، وجعلتاه يبتعد من حلبة الثيران ! لقد أجبرته أمه أن يُقسم على روحها .. وهي على فراش الموت .. ألا يعود الى الحلبة !! لكنه سعيد هنا .. رغم كل شيء ! فبعد موت أمه ، وسفر أخته « بيبيتا » الى باريس ، أصبحت الدار كلها ، ملكه وحده ! ينام عنده من يشاء من السياح .. يقضي معهن ليالي ولا أجمل !! هل ستأخذونه معكم الى باريس ؟ إن أخت« بيدرو » مغنية عالمية .. اسمها « بيبيتا » « الكبيرة » ! لا تغني إلا أمام الملوك ! نعم ، سيدي ! إن « بيبيتا » نجمة عالمية اليوم !! وسيصبح « بيدرو » على مثل شهرتها ، في يوم من الأيام ! سيلحق بأخته ، الى باريس .. ثم سيستدعيني كي ألحق بهما ! لقد وعدني أن يفعل ذلك ! ها هي ذي دار « بيدرو » ..

طرق الباب مرتين .. وهو يصيح ، في لهجة أندلسية صعبة الفهم !

ــ .. « بيدرو » ! « بيدرو » ! افتح الباب ! قم أيها الديك الكسول !! لقد جاء المخرجون في طلبك !!

ولما لم يجب أحد من داخل الكهف .. عاد الى الطرق .. وهو يقول ..

ــ .. سأعد الى ثلاثة ! واذا لم تفتح بعدها .. سآخذهم ، لمقابلة أخي !! ستفوتك فرصة العمر !! « أونوس » .. « دوس » ! « تريس » !

أوقف العد ، يرهف السمع قليلاً .. ثم قال لنا ، مغتبطاً ، لنجاح خطته ..

ــ ها هو يقترب ! لقد سمعت صوتاً من الداخل !

ثم سمعنا صوتاً يتمتم بالاسبانية .. وهو يفتح الباب ..

ــ خذهم الى جهنم ، وأخوك معهم ! أهذا وقت المقابلات ؟!

فتح « بيدرو » الباب على مصراعيه .. وراح يتأملهم ، فقطّب للنور

الذي بهر نظره فجأة !

كان شبه عار .. داكن السمرة ، شعره السبط الكثيف يغطي جبينه ، وأذنيه في تموّجات سوداء ، لامعة ! رفع أحد حاجبيه في بطء ، ثم فتح جفنيه ، قليلاً ، عن عينين خضراوين ، سابرتين ..

قال للشاب ، واثقاً أن لا أحد من القادمين يفهم شيئاً مما يقول ..

ـ .. أهؤلاء مخرجون ، أيها الأحمق ؟ إنهم ليسوا حتى بسياح ! ألا ترى ثيابهم الرثة ؟!

أجاب « مكسيم » مستدركاً .. يتكلم بلهجة « مدريد » الفصحى .. مخفيا فهمه لما سمع ..

ـ .. هذه رسالة لك من أختك .. نحن زملاء لها في باريس !

ـ .. أختي « بيبيتا » !!

انفرجت أسارير « بيدرو » عن ابتسامة حلوة عريضة ! فتنحّى عن الباب ، يرحّب بالقادمين .. ويدعوهم للدخول ..

ما إن صاروا داخل الغار ، حتى أغلق « بيدرو » الباب ، وشرع يرتدي ملابسه في شبه ظلام خيم على جوف المغارة ..

تمشّى نحو نافذة صغيرة ، يفتحها .. فكشف النور الهادىء الذي تخللها ،سريره ، واذا بشاب وشابة يتململان فيه ، يصحوان من نوم عميق ، تستوي الفتاة ، جالسة ، ساترة نهديها العاريتين بملاءة السرير الرثة ، المزركشة .. وينهض الشاب ، عارياً ، هو الآخر ، يبحث عن ملابسه دونما حرج لوجود الضيوف .. فسأل « بيدرو » بالألمانية ، عن الوقت ، يحض زميلته على النهوض والإسراع في ارتداء ملابسها ..

لحظات وكان الغريبان في زيّ غجري طريف ، فنظرت الفتاة الى « بيدرو » ، وهي تستعد للخروج ..

ـ هل نعود هذه الليلة ؟

كان يحضر القهوة •• فأجابها دون أن يلتفت اليها ••

ـ لست أدري •• عندي ضيوفي هؤلاء ، من باريس •• ألم ترياهم ؟ مرّا عليّ ، في آخر السهرة •• وسنرى ماذا يتم ••

باغتهم النور الباهر ، مرة أخرى ، وهما يغادران الغار ، فما إن أغلق الباب وراءهما ، حتى عاد الغار الى السكون والعتمة الهادئة •• فجلسوا يشربون القهوة •• بينما جلس « بيدرو » الى منضدة خشبية قديمة تحت النافذة ، يفتح رسالة أخته ، في بطء ، يحتسي قهوته ، ويقرأ في أناة ، جميع ما جاء في تلك السطور ••

رفع رأسه بعد برهة ، يتمعّن كل واحد منهم•• يمشّط خصلات شعره ، بأصابعه الطويلة •• يتبسّم حائراً ، ويحرّك رأسه ، ويديه ، كمن يمنع نفسه عن كلام محرج !

كانوا لاهين عنه ، يستغربون ، ويُعجبون بجوف المغارة التي يعود تاريخها حتما الى مئات ، ومئات السنين ! فما إن تنبّه « مكسيم » الى تردّد « بيدرو » ، حتى سأله ••

ـ ماذا ؟ هل من مشكلة ؟ لقد تركنا « بيبيتا » وهي على أحسن حال !

أجاب « بيدرو » ، على الفور ••

ـ إن المشكلة هنا •• وليست هناك !! يا لهؤلاء النسوة ! لطالما اعتبرت « بيبيتا » ندّا للرجال ، ليس لها انفعالات خرقاء ، كبقية النساء ! وها هي الآن تطلب مني أن أمنعكم عن متابعة السفر ! إن أختي مجنونة ! هذا كل ما في الأمر ! أعني •• تصوّروا ! أكاد لا أعرفكم ! بل أنا لا أعرفكم البتة !! وهي تطلب مني ، وتستحلفني ، ألا أدعكم تتابعون السفر !!

صمتَ برهة يحكّ رأسه •• ثم سأل ••

ـ وبالمناسبة •• الى أين كنتم قد أزمعتم متابعة السفر ؟

كان يخاطبهم في خليط من الإسبانية ، والإفرنسية المكسّرة •• فأجابه « غونثر » في بطء ، مشدّداً على كلماته ••

ــ « كنتم قد أزمعتم » ؟ صديقي ! نحن « مسافرون » الى الجزائر ! وليس من سبب لتغيير ما سرنا عليه !!

تابع « بيدرو » كلامه ، متجاهلاً ما سمعه ••

ــ الجزائر •• « الفرقة الاجنبية » •• تقول أختي ، إنه يجب قراءة كفّك !! أنت « غونثر » أليس كذلك ؟ أتسمح باطلاعي على كفّك ؟

ــ كفّي ؟ ولماذا •• كفّي •• أنا بالذات ؟ يا لها من فكرة ! ليس مثل « بيبيتا » قادرة على مثل هذه الطرفات !! حسنا هاك كفّي !

وقام الى حيث « بيدرو » ، فجلس قربه ، على حافة سريره •• مادّاً له كفّه ••

همس « جون » في أذن « مكسيم » ، وكانا يجلسان متجاورين ، على مقعد عريض ••

ــ •• إن هذه بداية ليوم إسباني طريف ! هل كنت على علم بما تحتويه الرسالة ؟!

ولما أجابه « مكسيم » بالنفي •• عاد الى السؤال ، طرباً ، لما وجد نفسه فيه ، فجأة ، من جوّ غريب !

ــ وهل تؤمن بقراءة الكف ؟!

هزأ « مكسيم » من سؤاله ••

ــ •• في مثل هذه الأجواء الغريبة•• تبدو قراءة الكف ، وسيلة عصرية ، لاكتشاف المستقبل ! وأنت هل تؤمن بذلك ؟!

قال « جون » مأخوذاً بصورة « بيدرو » ، وقد أمسك يد « غونثر » ، وراح يحملق في خطوط راحتها ••

ــ سأدلي بحكمي •• متى جاء دوري ••

* * *

لم يُدلِ « بيدرو » بكثير من التعليقات حول ما رآه في خطوط أكفّ زوّاره الثلاثة !

لو انه كان يظهر مقدرته على قراءة خطوط الماضي ، والمستقبل ، أمام رهط من السياح ، لتفنّن في إظهار موهبته ! ولأغرق سامعيه بتفاصيل دقيقة عن حياتهم اليومية ، تبهرهم ، فيضحك في سره من سذاجتهم ، وما الأمر بالنسبة إليه ، سوى مقدرة على الفراسة ، موهبة ، ولدت معه ، ونمت ، تغذّيها التجربة والممارسة الطويلة !!

أما في ذلك الصباح ، فلقد كان يلبي طلباً لأخته •• يتحقق من قدرٍ خيّل إليها ، وهي في باريس ، أنها رأته يحوّم فوق رؤوس هؤلاء الشبان الثلاثة ! أنبأته ، في رسالتها ، أنها رأت « العباءة السوداء » التي طالما حدّثتها أمّها عنها ، في طفولتها ، تطير فوق رؤوسهم الثلاثة !! تتردّد فوق أي رأس تحط ! واستنجدت « بيبيتا » بما لـ « بيدرو » من مقدرة خاصة على النظر الى ما خلف العيون •• وما فوق الرؤوس •• فرَجَته أن يسبر خطوط مستقبل أصدقائها •• وأن يحوطهم بحمايته ، ورعايته ، وهم في « غرناطة » ، فهم أعز أصدقائها ، وكم من مرة نفروا لنصرتها في بلد ، مثل باريس ، لا صديق لإنسان فيها ••

* * *

بدا لهم بعد جلسة الصباح الطويلة أنهم باتوا على معرفة وثيقة •

تحدثوا عن أمور كثيرة فأهملوا ذكر رسالة «بيبيتا» •• تناساها «بيدرو» ، وأخذ يجاذبهم أطراف الحديث ، عن الحياة ، ومشقّاتها •• يقارنون بين ظروفها في باريس و « غرناطة » •• إلى أن جاء ذكر النساء •• فتوقفت المقارنة ، حين أبدا « بيدرو » أن معرفته لطبائع النساء الاوروبيات ، عموماً ، أوسع بكثير منها عن نساء اسبانيا المنيعات ! ووصف لهم كيف لا يمرّ ليلٌ ، وهو جالس يعزف على قيثارته ، أمام باب كهفه ، إلا حار فيمن ينتقيهن من سائحات ! تأتين من أقاصي اوربا •• من الشمال •• من انكلترا ، وألمانيا ، واسكندينافيا •• وليس لمعظمهن من هدف ، سوى لقاء أمثاله من شباب الجنوب والشمال !

تطربن لموسيقاه ، تدهشن لرقصه •• ثم تنعمن بدفء فراشه القطني ، فوق سريره الخشبي القاسي ! الى أن قال ، متعجّباً ، متهكّماً ••

ـ كنتُ في البدء أكف عن النظر إليهن ، حين يأتين برفقة شباب من بلادهن ! أحترمُ شعور الشباب ، فأتّخذ نفس الموقف اللامبالي من الفتاة ، والشاب ، على طريقة بلادنا ! حتى أدركتُ أن معظم شباب الشمال في لهفٍ أكبر من لهف نسائهم للقفز الى فراشي ! يقودون رفيقاتهم إليّ •• بل يشترطون أحياناً ، حين لا تروق لي سوى الفتاة ، ألا يكون جماع بيننا ، إن لم نشترك فيه نحن الثلاثة !! مثل الفتاة والشاب اللذين تركا غرفتي هذا الصباح !

تعجّب حين لم يتلق ما توقّعه من عجب ، وردّ ! فعاد يتمتم سخطه ، واحتقاره ، لأخلاق الشمال ، حتى سأله « غوتر » ••

ـ •• وأنت يا « بيدرو » ! هل كنت تقبل بذلك مكرها ؟ هل من أجبرَك على ما قمت به ، مع الاثنين ؟!

نفخ في الهواء ، وهز رأسه في أنفة أندلسية عريقة •• وقال ••

ـ •• مكرها ؟ لم يخلق الذي يكرهني على شيء !!

ضحك « غوتر » •• وأردف ••

ـ •• فممّ تشكو ، إذن ؟! وأنت صاحب الأمر والنهي في سريرك ؟ هل كنت تجد متعة في معاشرة الاثنين ؟

أدرك « بيدرو » أنه إن أجاب بالنفي ، فمعنى ذلك أنه كان يُكره نفسه على فعل أمر لا يشتهيه ! فتلكأ بالجواب ، ثم قال ••

ـ ولم لا ! ففي الظلمة ، تستوي جميع أنواع البشر وأجناسهم !!

ثم تبسّم ، صامتا •• يتمعّن فيما قال !
قهقه « جون » لقوله ••

ـ •• أحسنتَ يا « بيدرو » ! هذه حكمة سنرجع بها الى الشمال !

سُرّ « بيدرو » لقــوله •• فأخذ قيثارته ، يسأل ••

ــ هل منكم من يعزف ، أو يغنّي ؟

ثم أعادها الى مكانها ، قبل أن يصله الجواب ، وقــال ••

ــ لا ! الآن ، نخرج الى المدينة ! سأريكم أماكن من قلب « غرناطــة » لا يعرفها أحد !! تعالوا ! وسنعود في الليل ، الى الشراب ، والغناء ، والرقص!! سترون من « بيدرو » ما لم يره سائح !!

توقف فجــأة ، رافعاً يديه ، محذراً •• وقــال ••

ــ شــرط ألا تعلم « بيبيتا » بشيء مما سترون !

ولمــا ضحكوا ، ووعدوه بما أراد •• أردف متحمساً ••

ــ وسألتقط لكم من تروق لكــم من السائحات ، أو من السيّاح !! سوف ترون بأعينكم مقدرة « بيدرو » على الصيد !! سألتقطهم ، كما تلتقط القطط !! وسنمضي الليل جميعاً في داري هذه ! فوق هذا السرير !!

* * *

الفصل الثاني

سرعان ما أدرك « مكسيم » ، أن ما وصل اليه مع نفسه من سلام ، في قصر « الحمراء » لم يكن سوى هدنة عابرة ..

كانت أمواج الحنين والقلق تتضارب في لجج نفسه ، كلما عاد الى زيارة ذلك القصر ، يعاوده ، فيه ، شعوره بالرغبة في تملك مجامع هويته ، ثم في التحرر منها ، والانطلاق ، كالأثير ، في عالم لم يعرفه بعد ! يخرج من القصر ظانا أنه بات يعرف ما يريد ، مالكاً لما وصل اليه من مدى نفسي ، فما إن يعود الى الحياة اليومية ، حتى تعاوده غصة مبهمة ، تعوّد أن ينساها بالإغراق مع « بيدرو » ، في حياة العزف ، والرقص ، والغناء .. يفتح عينيه ، إذ يصحو من النوم ، في ظهيرة كل يوم ، فيحدّق طويلا في تاريخ الصخور البدائية التي تشكّل سقف كهف صديقه ، فيشعر كأنه عاد مع التاريخ ، ألوف السنين ! كأنه عاد الى ما قبل التاريخ ، والحضارات ، والهويات الزائفة .. فيتيه في الزمان ، الى ما قبل الزمان .. يخاف من نكسة ، فيعييه البحث عن قيمة ٍ ثابتة ، عن قياس ما ، يتمسك به ، ويتكىء عليه ، يقيه من التعثّر اذا ما هام على دروب الإدراك الوعرة .. وعاد التضارب الى نفسه من جديد ..

كانوا في « غرناطة » قد شارفوا الوصول الى شواطىء البحر الذي يفصلهم عن شمال افريقيا ، وباتوا على بعد أيام من آخر مرحلة في رحلتهم .. فتباطؤوا في إنهاء تلك المرحلة منتحلين لأنفسهم عذراً ، إن عليهم الاستزادة من معرفة تلك البلاد ، فما إن زاروا « أشبيلية » و « قادش » و « ملاقة » ، حتى وجدوا أنفسهم في مدينة « المريّة » الساحلية ، وجها لوجه أمام البحر ..

ينظرون اليه •• ويرون الى ما بعده ، مما ينتظرهم من مخاطر •• فيتمثّلون اليوم الذي سيضطرون فيه الى اعتلاء أحد تلك المراكب الكبيرة المتجهة الى مرفأ مدينة « الجزائر » ••

* * *

وقف « بيدرو » على رصيف المرفأ يودّع أصدقاءه الجدد ، الذين ما أحب مثلهم منذ زمن طويل ••

كان قد تعوّد السير معهم ، خلافا لعادات أوروبا الشمالية ، ويده ، دوما ، في يد أحدهم ! أما ذلك اليوم •• فلقد حار كيف يستعمل ذراعيه ، يودّ لو كان في وسعه أن يلف بهما أصدقاءه الثلاثة معا ! فراح يتنقل بينهم •• يشد هذا الى صدره ، أو يلفّ عنق ذاك ! يطرق صدره في قسوة ، اذا ما تكلم، يتذكّر أنهم في طريقهم الى المركب •• فيشد على قبضتيه ، حتى ينحسر الدم عنهما ••

صاح في النهاية ، وقد امتقع وجهه ••

ـ •• أستحلفكم ! بكل ما تؤمنون به •• ألا تذهبوا !! أعلم أن لا طائل وراء كلامي !! لكني ، رغم ذلك ، أتوسّل اليكم ، ولم أتوسل في حياتي الى انسان قط !! أرجوكم ألاّ تذهبوا !! ماذا في « الفرقة الاجنبية » ، سوى الحرب ، والأخطار والرصاص الطائش ؟! وماذا يحل بكم اذا ما تعذرت عليكم سبل الهروب منها ؟! أمجانين أنتم ؟! ستنتهون •• وثلاث رصاصات في ظهوركم !! إمّا في جبال « الاطلس » ، أو في « الهند الصينية » !! يا الهي !! ماذا في وسعي أن أفعله كي أثنيكم عن السفر !! لعنكِ الله ، يا « بيبيتا » !! ولعن تلك الرسالة !!

وضم « غونثر » الى صدره ، يمنع نفسه من البكاء ! فربت هذا على كتفه ! وسأله ، مستغربا ••

ـ أية رسالة تعني ؟ تلك التي أتاك بها « مكسيم » ؟!

هز « بيدرو » رأسه بالإيجاب ، ثم قال ••

ــ ولماذا لا أحذركم •• وقد أزمعتم السفر ! لقد رأت أختي علامة العباءة السوداء ، فوق رؤوسكم ! وأنا •• إنني أحذركم من الصخور ! احذروا الصخور ، يا أصدقائي •• احذروا الصخور !!

* * *

ترك قوله أثراً غريباً في نفوسهم ••

تأثّر « مكسيم » لانفعال « بيدرو » •• وتجاوبت نفسه مع شيء من تشاؤمه ، فزاد صمته ، وأمضى معظم الرحلة البحرية واقفاً ، في مقدمة المركب ، مستنداً الى الحاجز العريض ، ينظر كعادته الى الأفق البعيد !!

أما « جون » ، فلقد نسي ذلك المشهد ، أو تناساه •• فعاد الى طبيعته الهادئة ، لا تنبيء تصرفاته أنه يذكر شيئاً من اسبانيا •• إلاّ عندما يتمتم بين الفينة والأخرى ، لأحدهم ، أو لنفسه ، قائلاً ••

ــ •• ما أغرب هؤلاء الاسبان ! لا شك أن تاريخهم هو السبب في كل ذلك !

أما « غونثر » •• فلم يبد في باديء الامر أنه أعار كلام « بيدرو » أي التفات ! لكنه سرعان ما عاد الى سابق عهده في التململ الدائم •• وردود الفعل النزقة التي باتت لا تخلو من الشراسة في بعض الاحيان !

كان كل منهم على علم بسبب التبدل الذي طرأ على تصرفات غيره ! يعلم أنه ما كان ليعير اهتماما لأقوال « بيدرو » ، لولا أن المرحلة الممتعة من رحلتهم قد انقضت ، وباتوا على قاب قوسين مما كان في باديء الامر فكرة ، وبات الآن واقعاً ، خطِراً ، يتربّص بهم !! لذلك ، تواطؤوا في سرّهم على مداراة بعضهم بعضاً ! يتحاشون بعضهم ، اذا ما أحسّوا بضيق ! لا يقبل بعضهم على بعض إلا اذا تنسّم أحدهم في نفسه موجة من التفاؤل ، قادرة على تشجيع صديقيه !

* * *

كان المركب يحمل عشرات من جنود « الفرقة الاجنبية » •• عائدين من إجازاتٍ قضوها في بلادهم ، أو بين موانىء اسبانيا ••

عقد « غونثر » حواراً مع اثنين منهم ، فراحوا يتسامرون ، ثم يجلجلون بضحكٍ يلفت الأنظار !

صاح « غونثر » لـ « مكسيم » أن يقترب منهما •• فما إن فعل « مكسيم » ذلك حتى بادره صديقه قائلا ••

ــ •• أتدري أين يخفي هذا الجندي الشجاع ، صديقته ؟!

ولما لم يردّ « مكسيم » •• أومأ « غونثر » الى الجندي ، مشجعاً ، يحضّه على إظهار صديقته ، وكان يحدثه بالألمانية •• فتبسم هذا •• وفتح ياقة قميصه ، فاذا حرباء ، « كاميليون » ، من الفصيلة التي تغيّر لونها ، عالقة على صدره العاري !! ما إن رأت النور ، حتى أخذت تتسلق صدره ، مستعينة بمخالبها الحادة ، الصغيرة ، تفكها عن جلده ، في بطء ، لتغرزها خطوة ، خطوة ، وهي تعلو ، حتى بلغت عنقه ، ثم خدّه ، فتوقفت ، حين لم تجد سوى فروة رأسه ، تنزلق مخالبها عليها ، كلما حاولت أن تتعلق بشعره ، لتتابع الصعود !!

بهت « مكسيم » ، وسأل بسذاجة ••

ــ ألا تؤلمك مخالبها ؟

أجاب الجندي متفاخرا ••

ــ ان من يدخل « الفرقة » ، لا يهتم للألم !! عندي صديق ، يعيش مع أفعى « بوا » !! لا تفارقه ، إلا أثناء التمارين الصباحية !! تحبّ الدفء ، فلا تنام إلا بين ساقيه !!

جلجل ضاحكاً •• ثم أردف ••

ــ كادت تبتلع ذكَرَه مرة ! ظانّة أنها أمام صيد صغير !!

* * *

قصّ الجندي عليهم نوادر ، عن الحياة في « الفرقة الاجنبية » ، بلغت حداً من الغرابة لا يصدّق ، حتى خيّل اليهم ، في النهاية ، أن تلك « الفرقة » ليست إلا مأوى للمشعوذين أو للمصابين بالأمراض النفسية !!

تسلّوا ، في البدء ، لحديثه ، ثم ضحكوا ، وتعجّبوا ، الى أن وجموا لما سمعوا من أخبارها ..

سيل عجيب من الطرائف والمآسي !! راحوا يستمعون اليه ، لا يصدقون أن هذه هي « الفرقة الاجنبية » التي عقدوا النية على الانتساب اليها !! الى أن سألهم الجندي ، مستفسراً ..

ــ .. يبدو أنكم تهتمون لأخبار « فرقتنا » .. فهل من سبب خاص ؟

قال « جون » ، حذرا ..

ــ نفكّر بالانضمام اليها .. فما رأيك ؟

أجاب ، وهو يعيد الحرباء الى صدره ..

ــ خير فكرة ! إنها .. خير مخرج من المآزق !!

أقفل أزرار قميصه ، وسأل في بساطة ..

ــ أيّ جرم ، أو حكم تهربون منه ؟ هل فررتم من سجن ؟

ولما رأى نظرة الاستغراب في أعينهم ، أردف مبتسماً ..

ــ لا بأس في الكتمان الآن ! فأنتم خارج منطقة القانون الفرنسي .. هذه المرحلة يمر بها معظمنا .. ستنتهون بالإفصاح عن كل شيء متى صرتم بيننا ! فلا خوف بين الزملاء !!

تعجّب « جون » لقوله .. فسأل ..

ــ هل من حكم لا زال يلاحقك ؟ لماذا تعود الى الفرقة مختاراً ؟! ألم تنهِ عقدك معها ؟

ــ بلى .. بلى ! ولكن .. أين أذهب في أوروبا ؟! ولا مهنة عندي ،

ولا شهادة تخصص !! ثم •• ألا تعرف كيف تؤثر أحكام السجن ، الصادرة على انسان ، في حياته ، إن هو حاول البحث عن عمل ؟!

كان زميل الجندي يقف إزاءه ، مشغولاً عن حديثهما بالنظر الى فتيات جميلات يتسلين بمداعبة كلب صغير ، قال ، يشترك في حديثنا ، وهو لا يزال ينظر الى الفتيات ••

ــ •• ألا تدرون أنهم يلقبونها بـ « فرقة اليائسين » ؟

ضحك « مكسيم » وقال ••

ــ •• إنكما لا تبدوان يائسين البتة !!

ــ •• بل لقد يئسنا من عالم هؤلاء الفتيات •• وعالمكم ، الملقب بالطبيعي !! إن « الفرقة » عالم خاص مغلق ، عالمٌ لا يدخله سوى أمثالنا !!

ــ •• من اليائسين ؟!

ــ •• بل من الرافضين !!

هزّ « جون » رأسه ، وقال بلهجة متشككة ، لا تحدّي فيها ••

ــ أيّ رفض هذا ؟ وكل ما في الحياة العسكرية ، أوامر من جهة ، وإطاعة من جهة أخرى ! جهتكم ••

ــ •• لا صفة شخصية لهذه الأوامر ! إنها تقتصر على ساعات العمل •• صنعتنا !! أما حياتنا الشخصية ، فهي ملكنا الخاص ! لا تخضع لأي قانون ! ولا تقبل أي نصح أو تدخل !!

هزّ « جون » ، رأسه ، متأسفاً متسائلاً ••

ــ •• صنعتكم ؟! إنها صنعة الموت !! أنتم تحاربون الوطنيين هنا ، وفي الهند الصينية ! وفي غيرها !! وليس لكم من محرّض سوى ما تتقاضونه من راتب !! تقتلون عمداً ، في سبيل المال !!! ليس لكم ، حتى عذر الجندي

النظامي ، الذي يحارب من أجل بلاده ! أكانت بلاده على حقّ ، أو على باطـــل !!

كان صاحب الحرباء قد أقفل قميصه على صديقته ، راح يدفعها بلطف ، كي تستكين في مكان من صدره ، لا تبدو فيه للعيان ، من تحت القميص ! قال في نبرة جديدة ، فاجأنا فيها •• عمقه وإصراره ••

ــ أتتم ترون أن صناعتنا تختلف عن وضع الجندي الذي يقتل في سبيل عَلَـمِـه ، ووطنه ؟!

تعجّب « جون » ، لسؤاله ••

ــ كيف لا ؟ وهل المحاربون المرتزقة ، مثل الجنود الوطنيّين ، الذين يحاربون في سبيل بلادهم ؟!

تبسّم الجندي ساخراً من « جون » وأجاب ••

ــ •• لقد كان للمحارب في الماضي حريّة الاختيار •• يحارب تحت راية من يشاء •• يسير وراء من يدفع له مقداراً أكبر من المال •• كان الموت صناعة •• حرفة •• والحرَف في ذلك الزمان كانت حــرة •• تباع منتجاتها حيثما شاء الانسان ، لا حدود ، تمنع تنقلها •• كذلك كانت حرفة الموت •• حرة التنقل ! أما اليوم ، والعصر عصر مضاربات ، واحتكارات •• فان حرفة الموت ، باتت تخضع لأنظمة المضاربة ، والاحتكار نفسهــا !! الناس ، باتت كالاغنام !! لكل صاحب قوة ، ونفوذ ، أكبر عدد منها ، يمكنه التحكم به ! تتصارع الرعيان على من أخلّت من خرافها ، فانضمّت خطأ الى هذا القطيع ، أو ذاك ! فتُدمغ بأرقام ، وعلامات ، كجوازات السفر !! تُحدد ، وتنظّــم تنقّلها !! وتُحرس الحدود الجغرافية ، كما تُطوّق المراعي ، والمروج ، بحدود وأسلاك شائكة ، يقف من دون تجاوزها ، أو التعرّض لها ، حرّاس أولئك الرعاة المتنفّذين ، وأزلامهم ، من مرتزقة وجنود !!

ضحك الجندي مبتهجا لتفسير زميله •• فسأله ••

ــ هيه ! تتصارع الناس على الأغنام لأن لحمها يؤكل ، وفي ذلك فائدة !

•• وما يستفيد المتنفذون من التحكم بحريات الناس ، وما الفائدة من الحد من تنقلاتها ؟! لا سيما هؤلاء الفقراء منهم •• وهل تؤكل الحريات ؟!

أجابه الجندي ، ممسكا بعضلة زنده ••

ــ العمل يا زميل ! العمل !! أنت ، وأنا •• وجميع من لا يملك أرضاً •• انما نحن آلات ، لا تحتاج سوى للقليل من الطعام كي تتحرك وتُنتج ، نحن ، بالنسبة لمن يحكم ، ويتحكم بمصادر الثروة ، في أي بلد ، لسنا سوى أرقام متسلسلة ، يملكنا من يملك النظام !! نحن ، عبيد القرن العشرين !!

ــ ما هذا الكلام ؟! وهل من يُجبر إنساناً على عمل ؟! الناس في الأنظمة الحرة أحرار •• يعملون ، أو لا يعملون ، كما يطيب لهم ، وحيث يشاؤون !!

ــ •• هذا ما يبدو للناظر البسيط والواقع ، هو عكس ذلك !! فالانظمة ، ومبدعوها ، ممن يملكون وسائل الانتاج •• يملكون وسائل الحياة ذاتها •• لا يعطونها الناس ، إلا مقابل عملهم •• كيف يحصل الانسان على طعامه ، دونما مال ؟ وكيف يحصل على المال ، اذا لم يعمل ؟!

ــ •• أليس من الطبيعي أن يعمل الانسان لتقاضي أجره ؟

ــ •• لو كان الأجر يساوي العمل ، لما كانت هنالك مشكلة !! لكن صاحب العمل ، لا يمكن أن يقاوم مضاربيه ويزيد في تحسين آلاته ، ما لم يربح ؟ وكيف يربح اذا أعطى العامل أجراً يساوي قيمة ما يُنتجه ؟!

صاح « غونثر » ، مبتهجاً ، متسلياً ••

ــ هذا درس في الاقتصاد لم أكن أتوقعه منك يا زميل ! وحرباؤك على صدرك !!

هز الجندي رأسه ، في سخرية ، وبأس ••

ــ ••هذا درس لك ، في الواقع ! أنتم تنتقدون حرفة الموت التي نزاولها•• كأن الموت في هذه الايام يختلف عن أية حرفة أخرى ! وأنا ، انما أقول لكم

إن جميع الجيوش ، مؤسسات عسكرية ، خُلقت لحماية المؤسسات الاقتصادية •• أو النفعية •• وجميعها مؤسسات تبخس حقوق العاملين فيها ! ماذا يدري العامل عن رب العمل ؟ يأتي هذا ، ويذهب ، يموت ، ويخلفه غيره ! دون أن يدري العامل عن ذلك شيئاً ! كذلك الجندي •• تأتي القيادات ، وتذهب ، تتبدل الأسماء ، والمؤسسات قائمة ، يعمل فيها الجندي ، ويموت •• وهو لا يشارك في تقرير صغيرة أو كبيرة من مصيره وهدفه ! فالفارق الوحيد الذي بيني وبين الجندي النظامي ، هو أن الجندي ، عامل بالسخرة •• يَقتل ، ويموت ، لقاء أجر زهيد •• وأنا ، مع حربائي ، سيد قدري ، أقتُل ، وأُقتَل ، وأنا مفتوح العينين •• وأتقاضى ، لقاء ذلك ، ما يناسب جهدي من أجر ! وما أنا قانع به !

قال « جون » هازئاً •• مؤكداً ••

ـ الفارق كبير ! أنت تقتُل في سبيل الأجر ! تقتُل أناساً محقّين في حروبهم ، ضد النظام الذي تحميه « الفرقة الاجنبية » ! أما الجندي النظامي•• فهو مجبر على الالتحاق بجيش بلاده •• ويقاتل في سبيل وطنه ••

تأسف الجندي لعناد « جون » ، وقال ••

ـ أراك لم تفهم شيئا ، مما قلتُ ! أوَ أعرّض حياتي للخطر ، لو تَركني النظام ، فرصة أخرى ، للعمل والكسب ؟ إن ظروف حياتي قادتني ، مجبراً ، الى حيث أنا ، تماما كظروفكم ، التي تقودكم اليوم اليها ! لقد احترفت حرفة الموت ، كي أعيش ! تماما كما يُساق الجندي الى جيش بلاده ، تبعا لنظام يرى نفسه مجبراً على العيش حسب قوانينه ! أما قولك إني أقتل على باطل ، في حين أن الجندي النظامي يقتل على حق ، فهذا سخف !! فكل حرب تفترض وجود طرفين ، كلاهما يدعي أنه على حق ، وأن الآخر على باطل ! فمن يدريك أين يقع الحق ، وأين يقع الباطل ؟! هل يتحارب جيشان ، وكلاهما على حق !!

فأجابه « جون » على الفور ••

ـ قد تُطرح التساؤلات حول الحروب وأهدافها •• أما أنت ، فانك دوما على باطل !!

سخر الجندي من « جون » ، بمرارة •• وقال ••

ــ سأقول لك ما لن تفهمه •• يا صاحبي ! إني في « الفرقة الاجنبية » •• لأن حربي ، يا زميل ، هي مع العالم أجمع !! أنا في طرف ، والعالم ، في الطرف الآخر !! وفي هــذا الحال ، لا يعرف إلاّي أني على حق ، لا على باطل !!

* * *

بدأ الشك يتسرب الى نفس « مكسيم » ، والقلق يبــدو في نظرات « جــون » الحــائرة !

كان لجنود « الفرقة الاجنبية » حظوة عند « الأقدام السود » ، أي ، المتحدّرين من أصل أوروبي ، من سكان الجزائر •• ومعظم من في المركب من هؤلاء ، كانوا يتحينون الفرص للالتفاف حول الجنود ، للسمر معهم ، لتلقّف آخر التفاصيل ، عن حربهم ضد العرب من سكان تلك البلاد ، يحضّون الجنود على الاستبسال في مقاتلة الثوار ، ويطربون أيما طرب للإصغاء لما كان الجنود يقصّون عليهم من روايات ملاحقة الثوار « الفيلاغا » ، عبر الجبال ، للعثور على مخابئهم ، وافنائهم فيها ، ثم القبض على رؤسائهم ، والتفنّن في تعذيبهم ، والقضاء عليهم !! فما إن عُلــم خبر نيّة الاصدقاء الثلاثة عــلى الاتـساب الى « الفرقة الاجنبية » •• حتى شملهم عطف « الأقدام السود » •• فأخذوا يلتفون حولهم ، يمدحون تفانيهم في خدمة فرنسا ، يُعجبون بأنهم لم يكتفوا بالاتساب الى الجيش النظامي ، لمحاربة فتنة « الفيلاغا » ، بل طاروا الى القتال ، في تطوعهم المثير ، بـ « الفرقة الاجنبية » ••

لم يعجب « جون » بالإطراء السخيّ الذي تسارعت الفتيات في سكبه عليه •• بل على العكس ! زاده ذلك انكماشاً على نفسه ، فعادت اليه تساؤلاته ، واضحة صريحة ! لماذا يدخل « الفرقــة الاجنبية » ؟ كيف سمح لصداقته بـ « غونتر » ، أن تقوده الى مثل هذا الهدف ؟ كان احتمال القتال ، حــين كانوا في باريس ، فكرة نظرية ، تسلّوا في مداعبتها •• أما الآن •• فالقتال

والموت ، باتا على بعد أيام منهم •• ولمـاذا يَقتل الجزائريين ؟ وهـو ، في قرارته ، يفضّل معشرهم الصريح ، على طُرق الفرنسيين المتعبة الملتوية ••

أحاطت احدى الفتيات خصره بذراعيها ، بينما جهّزت صديقة لها آلتها ، لتلتقط لهما صورة تذكارية ••

قالت الفتاة •• جذلة ضاحكة ••

ــ •• من يدري ! قد أبيع هذه الصورة ، لإحـدى المجلات ، بعـد أسابيع !! قـد يُكتب تحتها « موت متطوّع أميركي ! بطـل ! جاء خصيصاً للتطوع في « الفرقة الاجنبية » •• لخدمة فرنسـا » •• « برفقة حبيبته ، سوزان » !! وقد يلفت هذا ، نظر أحد المخرجين •• فأصبح نجمة سينمائية !!

أما « غونثر » ، فلقد سرّه إعجاب المسافرين المفاجىء ، به ، وبأصدقائه ! فانساق في لهو مع الفتيات ، راح يطرد فيه ، ما تركه وداع « بيدرو » لهم ، على الرصيف ، من تشاؤم مقيت في نفسه !

أخذ يلهو مع الجميع •• يتبادلون الآراء ، والنكات ، الى إن طلب قبعة أحد الجنود ، فوضعها على طرف رأسه •• وانطلق يراقص الفتيات رقصة الـ « جـافا » ، على موسيقى آلة « أكورديون » أحـد المسافرين ، ويطبع على وجناتهن قبلات نهمة ، مصطنعة ، بعثت المرح والتسلية في نفوس الجميع !

نادى « مكسيم » •• وكان هـذا يحادث شاباً من ركاب السفينة •• فلم يلتفت « مكسيم » اليه ، لكن « غونثر » أصر ، صائحاً ••

ــ ليت ذلك الغجري « بيدرو » يرانا الآن •• ظننت أنه يعطيني قبلة الموت ، في « ألمريّا » •• يا له من وداع أسود !

ولما لم يرد « مكسيم » عليه ، أو يشاركه حبوره •• صاح ، وفي صوته انفعال مكبوت ••

ــ كفانا يا « مكسيم » أسمر واحد ! لسنا في أوروبا ! عليك أن تنتبه الى الذين تحادثهم !!

امتقع وجه الشاب ، لما سمع من ملاحظة ..

نظر « مكسيم » الى « غونثر » لا يفهم قصده .. وعاد الى الشاب يسأله في بساطة ..

ــ .. أرجوك المعذرة ! أنا لم أفهم ماذا يعنيه صديقي .. لماذا أُحرجتَ ؟

قال الشاب بهدوء وهو ينظر في عيني « مكسيم » الحائرتين ..

ــ صديقك يحذرك من الجزائريين ! ألستم هنا ، لمقاتلتهم ؟! أنا واحد من الذين قد تقاتلون غداً ! ألم تلحظ أنني أسمر اللون ، والوجه ؟

كان الشاب يتكلم أفرنسية مثقّفة ، طلقة ، تشوبها لكنة بسيطة ، ظنّها « مكسيم » ، في البدء ، ترجع الى أصله الاسباني ! بدا وسيما .. طويل القامة .. حسن الهندام .. فتبسّم « مكسيم » في عفوية نالت من الشاب .. ثم قال ..

ــ ليت جميع الجزائريين ، شبهك ! المؤسف ، هو أن معظمهم في باريس يسيؤون الى سمعتكم !

ــ .. كنتُ في باريس .. وأعرف ذلك ! لكنها ظروفهم القاسية !

أحسّ « مكسيم » أن الشاب سيدخل في بحث تسويغ التخلّف والأميّة ، وتفسير ظروفهما التاريخية !! وما كان بحاجة الى سماع مثل هذا الشرح ! فقاطعه ، قائلا ..

ــ .. لا تتعب نفسك ، في تفسير الظروف .. فمن يجهلها ، ونصف فرنسا الى جانبكم ؟! لكن شرح ظروف حادث تصادم ما ، لا ينفي وقوع الأضرار !! ولا يزيل أوجاع المصابين بسببه !! ليتكم تكفون عن تسويغ تخلّفكم .. وتستبدلون ، ما تبذلونه من جهد ، في هذا السبيل ، في إصلاح أوضاعكم !!

مرة أخرى ، نظر الشاب الى عيني « مكسيم » ، نظرة ثاقبة .. وقال ..

ــ هذا صحيح ! لكن ، هل يسوغ هذا ، حربكم علينا ؟ ألأننا لا نعرف كيف نكون حضاريين، في باريس ، مثلكم .. ألهذا جئتم لتقتلوا شبابنا الأحرار ؟ في بلادنا ؟!! ألكي تقتلوا شبابنا ، جئتَ مع رفيقيك ، لكي تلتحق بـ « الفرقة الاجنبية » ؟!

صُعِق « مكسيم » لسؤال الشاب المفاجىء !! ودّ لو كان الشاب يواجه « غونتر » ، أو « جون » ، بهذه التهمة التي وضعته ، وجها لوجه ، أمام صورة ما قد ينجم عن التحاقه بـ « الفرقة الاجنبية » !! صورة ، لم تخطر له على بال !!

ردّ على الفور ..

ــ لا تخطىء الظن بي ! إنما أنا ألتحق بـ « الفرقة » لأهرب منها ، بعد حصولي على أوراق خدمة عسكرية ، أوراق" ، قد تُعفيني من الخدمة الالزامية في الجيش ! لن أبقى فيها أكثر من شهرين !!

نظر اليه الشاب ، مستغرباً ..

ــ ألستَ فرنسياً ؟

ــ .. لا .. إني من أصل روسي .. ولقد طلبتُ الجنسية الفرنسية ..

تبسّم الشاب في حزن ، ونظر الى البحر قائلا ..

ــ يأتون من جميع أصقاع الارض ، لمحاربتنا !! يتفنّنون في إبداع البواتق العسكرية لاحتواء جميع الفعّاليات ، تنصبّ جميعها ، في النهاية ، حرباً علينا ، وفتكاً بإخوتنا !!

نظر الى « مكسيم » في تحدٍّ ، وأردف ..

ــ وتسمّون أنفسكم شعوباً راقية !! ونحن .. شعوب همجية ، متخلفة !!

تقلّصت أحشاء « فراس » .. ودوت ضربات قلبه ، في رأسه !! أيظنه

ذاهباً لقتال أبناء وطنه ؟! لطالما حارب الجهل ، والتخلف ، في بلاده !! لطالما حقد على نماذج فيه ، تحمل فيه عيونها ، وحركاتها ، ما يكره من أمّية ، وصفاقة ، وتفعية ! لكن هؤلاء ، أفراد ، مهما كثر عددهم ، إنما مصيرهم الى تقدّم ، أو الى زوال ! لقد كرههم ، حتى لم تعد له طاقة على العيش بينهم •• لكن هؤلاء •• ماذا يشكل هؤلاء من حيّز •• حين يجيىء على ذكر الوطن ؟ ما قيمة جهل هؤلاء الافراد •• أو الجماعات ، حين يكون مصير الوطن ، في الميزان !!

سمع صوته كأنه يحدّث نفسه ، قائلاً ••

ـ •• تُقطع يدي ، قبل أن أمسّ شعرةً واحدةً من رأس جزائريّ أو مغربيّ أو فلسطينيّ !! أو أيّ عربي ، أو فيتنامي ، يناضل في سبيل وطنه !!

كان على وشك أن يُتابع كلامه ، حين جاءه صوت « جون » •• يناديه •• ويقترب منه •• فنظر الى الشاب مصمماً •• وقال على عجل ••

ـ •• اسمع ! لا بد أن في استطاعتي أن أخدم قضيتكم ، وأنا في « الفرقة الاجنبية » !! فاذا كنتَ تعرف من يهمه الأمر •• فاعطني موعداً ، نلتقي فيه ، غداً ، في المدينة !! هل من مكان تعرفه ؟ عجّل ! قبل أن يصل صديقي !!

فُتحت أسارير الشاب ، وقال ، لا يصدق ما سمعه ••

ـ •• غدا ، الساعة الخامسة !! في مجلس « القصبة » ، في المدينة القديمة !! ثم أدار ظهره ، واختفى بين حشد المسافرين الذين تجمّعوا على حافة المركب يراقبون اقتراب مرفأ مدينة الجزائر ••

* * *

الفصل الثالث

عاد « مكسيم » من موعده ، في مجلس « القصبة » ، ورأسه يدوّي بما تكشّف أمامه من أبعاد قد يقوده اليها هذا المنعطف المفاجىء الذي قاده اليه القدر !

تمشّى منحدراً في دروب القصبة الضيّقة ، ، عائداً الى المنزل ، حيث ينتظر صديقاه ، ورأسه يضج بما ذكر له « عثمان » من أسماء ، وتفاصيل ، وأرقام ، حظّر عليه أن يدونها •• فراح يعيد تلاوتها ، في ذهنه ، يرسّخها في ذاكرته •• يتبسّم ، لصبية صغار ، كانوا يركضون وراءه ، يخاطبونه بكلمات جمّعوها من مختلف اللغات •• تنتهي ، جميعها ، الى طلب « سيجارة » ، أو « بخشيش » !

قد يجد السائح الاوروبي ، متعة في مداعبة هؤلاء الصبية ، أو لذة في التمشّي عبر هذه الأزقة الضيقة الملتوية ، وبين هذه الجدران المتهالكة ، المصنوعة من اللبن والطين ! ثم هؤلاء النسوة ، المتدثرات بعباءاتهن البرتقالية ؛ المخططة بالسواد ! من الذي لا يجد في بدائيتهن ، طرافة ! وكيف لا يتسلّى الغربي ، وهو يشاهدهن ينتقلن بين تلك الدروب ، كحيوانات أليفة ، عجيبة ! تمشين ، مقوقعات الظهور ، متخفّيات ، كأن ما في نفوسهن من جذام قد امتدّ الى وجوههن ، فبات من الخير ألاّ يسقطَ عليها النور ، أو تقع عليها أنظار غيرها من البشر !!

عاد خياله الى مجلس « القصبة » ، حيث تربّع قبالته « عثمان » الوسيم ،

تتوقد عيناه السوداوان ، الثاقبتان ، حماسة لوطنه ! ودّ لو يقول له : « لا يا عثمان » ! لا ، أيها المجاهد ! ليس بالحماسة ، والثأر ، وحده يُطرد المستعمر .. أو يُنهض بهذه البلاد من حيث تردت !! قد يملّ المستعمر القتال .. أو يعجز عن إفنائكم .. فتترك جنوده الأرض لكم .. فماذا بعدئذ ؟! ستهلّلون للاستقلال ، والحرية !! ستستقلّون بمصير هذه الأرض ، عاجلاً أو آجلاً .. وستصبحون أحراراً ، تتنقّلون عليها ، حيث تشاؤون .. وماذا بعدئذ ؟! من الذي سيحرثها ، ويزرعها ، ليقف تاجها ندّا ، لنتاج أوربا ؟ أفلاّحكم الأميّ ، وامرأته المتحجّبة ؟! من الذي سيبني علمها ومصانعها ، ويشيد فيها ، قصورها ، وحضارتها ؟! أهؤلاء الصبية الحفاة ؟! ستصبح يا عثمان ، يوماً ، عقبة في وجه نهضة بلادك !! لأنك ستملك زمام القيادة فيها .. وستظن ، أن ما هو خير ، لك .. هو خير لبلادك ! من الذي سيقوى على نزع البندقية من يدك آنئذ ، ليضع بين أصابعك القلم ؟! وماذا تعرف ، أيها الثائر ، عن القلم ، وعوالمه اللامتناهية .. وقد أضعتَ العمر في الشدّ على زناد السلاح ؟! ستعودَ ، يا عثمان ، الى المستعمِر ، صاغراً ، تطلب منه الصدقة ، والعون ، لأنك لا تعرف كيف تستغلّ ثروات بلادك !! سيعود الأعداء الى وطنك في صيغةٍ جديدة .. خبراء ، ومعلّمين .. لأنك لم تلتفت ، ولن تلتفت ، الى تنمية مثل هؤلاء ، في بلادك !! وسيأتي من الغرب من يحدّثك عن الذرّة ، والفكر ، والفن ، فتنبذهم ! وتُشهر أشعار الأقدمين ، في وجوههم وتقول .. « هذا هو التراث ، لست أحتاج الى غيره » ! وبالرغم من كل ذلك .. سأخدمك يا عثمان .. سأنفّذ ما طلبته مني بحذافيره ، ولو تعرّضت حياتي ، في سبيل ذلك ، للخطر ! انها لعنة التاريخ يا عثمان .. أمثالك ، من الحفاة ، أبطال ، صادقون ! لكنهم لا يعرفون « غرناطة » ولا يأبهون لفلاسفتها !! وأمثالي .. أمثالي ، يا عثمان ، تعيسون ، لا يعرفون سوى الكلام ، والقلم .. لا يحسنون حمل البندقية .. واليوم ، يوم بندقية !!

* * *

وصل « مكسيم » المنزل ، فوجد صديقيه ، مقطبين ، متجهمي الوجوه ، لا يتحادثان ..

ضحك منهما ، قائلاً ..

ــ .. أهـذا وقت الخصام ؟ ونحن على بُعد ساعات ، من هدفنا ؟

قال « غونثر » ، محتقن الوجـه ، مشيراً الى « جون » ..

ــ .. تصور ، ما يقوله ! إنـه لا يود إنهـاء الرحلة معنا ! لا يود دخول « الفرقة » معنا !! كأننا لم نشبع هذا الموضوع ، نقاشا ، في باريس !! كأننا لم نتفق على أننا لن نقضي فيهـا سوى أشهر ! أو أسابيع ! لماذا تركنا باريس إذن ؟! حسن" .. لقد زرنا اسبانيا !! فلماذا لم نعـد أدراجنا الى فرنسا ؟! لماذا نحن في الجزائر ؟! ألكي تتوقف في الثانية الأخيرة وتقول ، فجأة .. لا !! ألا اعتبار ، ولا وجـود لنا ، في ذهنك ؟! ألا صداقة تربطنا ؟! ثم .. لو أنك لم توافق على جميع التفاصيل ، لما ابتدأنا هذه المرحلة ، أصلاً !! أهـذا وقت التراجـع ؟!

أجاب « جون » متجهّم الوجه ، شارد اللبّ ..

ــ .. هل أُجبر على أمر لا أود القيام به ؟! أي منطقٍ هـذا ؟! لقـد كانت هذه الرحلة نزوة منذُ البدء .. فما ذنبي إذا أدركتُ متأخراً أن عواقبها قد تكون وخيمة ؟! قد أجـد نفسي مجبراً على القتل ، في هذه « الفرقـة » ، دفاعاً عن النفس ! لم أكن أعرف الجزائر من قبـل ، لقد بدأتُ أحبّ هؤلاء الأميين الذي تحتقرهم أنت !! ألا تفهم معنى ذلك ؟! كيف أقتلهم ؟!! ثـم .. قد أُقتلْ أنا ، في سبيل تحقيق نزوة عابرة من نزواتك !!

ونظرَ الى « مكسيم » مستنجداً .. يحثّه على مؤازرته .. فلمـا لم يجبه هـذا ، قال ، حـائراً ..

ــ « مكسيم » .. هل ستدخل « الفرقة الاجنبية » ؟ ألا ترى أية كارثة قد تحيق بنا ، من جرّاء عناد « غونثر » ؟! لعـل لدى « غونثر » ما يدفعـه للهرب الدائم ! أما أنت ! وأنا ! فلماذا نقفز ، طائعين ، في هـذه الهاوية ؟!!

ألا تذكر صاحب الحرباء ، والأفعى ؟ هل في وسعك أن تعيش مع مثل هؤلاء ؟!

كان في ودّ « مكسيم » لو يشبك ذراعه ، بذراع « جـون » ، في تلك اللحظة ، ليعود معه الى باريس ، سعيداً بما اكتشفه في نفسه ، في « غرناطة » .. تاركاً حياة المغامرة والقتل ، لمن يهواها !! لكن الأمر بات مختلفاً ، منذ لقـائه بـ « عثمان » .. لقد وضعت الأقدار أمامه فرصةً يحقّق فيها نصراً على ما كان يراوده ، أحياناً ، من شك ، حول سلامة موقفه الرافض .. سيقوم بالمهمة التي أوكلها اليه « عثمان » .. وبغيرها ، اذا اقتضى الأمر منه ذلك ! لا يرجو جزاءً ولاشكوراً ! سيثبت لنفسه ، أن رفضه لم يكن تغطية لعجز دفين ، أو انهزامية مستترة !!

جـاء صوت « جـون » يكرر السؤال ..

ـ لم تجبني « مكسيم » !! هل ستلتحق بـ « الفرقة » ؟

هز « مكسيم » رأسه بالإيجاب ، وقال ، وهو يجمع متاعه القليل ..

ـ .. لمـدة ستة أسابيع ! لا تزيد ، ولا تنقص !! حتى لـو اضطررت لقتل أحـد ، لترك الفرقة !!

شحب لون « جون » .. وقال في يأس ساخر ..

ـ والقتل ؟ ليس مثلك من يقتل !! دع القتل لـ « غونثر » ! سيصبح أخصائياً في ذلك .. عما قليل !!

امتقع وجه « غونثر » .. فقام يلفّ متاعه ، هو الآخر .. ثم نظر الى « جون » ، فجأة ، وسـأله ..

ـ .. القتل ؟ أنا .. أخصائي ؟ ما معنى كلامك هـذا ؟

لم يرد « جون » على سؤاله .. قام ، هو الآخر ، الى حاجاته ، يجمعها .. وقـال ..

ـ حسن سأذهب معكما ! سأنهي هذه الرحلة التي اتفقت عليها معكما ! لكن .. سيكون لنا حديث مفصّل عن دوافعها ، فيما بعـد !!

* * *

عــادوا الى دراجاتهم ، يقودونها ، في اتجــاه « أبو قره » ، على طريق قديمة ، حافلة.بوسائل النقل البطيئة ، والحيوانات الأليفة •• ألهاهم ، تجنّب المخاطــر ، عن الإمعان في تصوّر ما قــد ينتظرهم من مفاجآت ، في الحيــاة العسكرية ! فما أن تجاوزوا منتصف الطريق ، وانعطفوا في درب جانبية ، حتى عادوا الى هواجسهم ، وأفكارهم ، كلٌ يرى فيما كانوا مقبلين عليه ، آفاقــاً تختلف كل الاختلاف عما يراه الآخر ، وعما كانوا قد اشتركوا في تصوّره ، وتحديد معالمه ، قبــل مغادرتهم باريس ••

كان « مكسيم » اكثرهم انشغالاً عن رفيقيه ، يُعيد في ذهنه ما سمعه من تعليقات عثمان ، يقلّب احتمالات نجــاحه ، فيما سيسعى اليه •• يكاد لا ينتبه الى أن الطريق التي يسلكونها ، بدأت تأخــذ مجرى جبلياً وعــراً ، وأنها راحت تزداد في التعرّج والصعود ••

لم ينتبه الى ما كان يدور بين صديقيه اللذين ظهرا كأنهما قد عــادا الى المشاحنة والجــدل العقيم ••

كان « غونثر » ، وقد جرّ « جون » الى المرحلة الاخيرة من رحلتهم ، يسخر من تردد صديقه ، في لهجة فوقية ، كأنه شديد الاستقلال برأيه ، حــين يودّ الوصول الى هدف ما ، متناسياً تشبّثه برفيقه ، حين كاد هــذا يستقلّ برأيه عنه ! وكان « جون » يغلي حنقاً على صديقه ، لسخريته منه ، يغــالي في ذمّ ما يقومان به ، يكيل النقد لنزوات« غونثر » ، يلعن « الفرقة الاجنبية »، ويكاد يثور لما وجد نفسه منساقا للقيام به ، رغم نفوره منه ، وكرهه له !

بلغوا ، على درّاجاتهم ، مشارف مرتفع بدا بعيــداً ، صعب المرتقى •• فتمهلوا ، يلتقطون أنفاسهم ، واذا بشاحنة عسكريّة يُسمع صوتها من ورائهم ، فما إن أشاروا الى سائقها ، لكي يسمح لهم بالتعلّق بها ، وهزّ السائق لهم رأســه بالموافقة ، حتى حثّوا الخطا ، فما ان أدركتهم الشاحنة حتى قــادوا دراجاتهم بمثل سرعتها ، فتعلقوا بجوانبها ، دون صعوبة ، فشدتهم معهــا ، تقلّهم ، نحو ذلك المرتقى العالي ، دونما تعب منهم ، أو جهــد !

وصلوا مع الشاحنة الى قمة المرتقى •• وبدل أن ينتهي الصعود ، وتتحسن الطريق ، ازدادت وعورة ، وبدت لهم من حيث كانوا ، خطاً متعرجاً طويلاً ، يزداد ارتفاعاً ، وبعداً ، يعلو ، ويرتفع ، على سفح ذلك الجبل الصخري الداكن اللون ، حتى يغيب في بقعة نائية مكشّرة ، أشار اليها سائق الشاحنة ، مادّاً رأسه من النافذة ، وصاح ، عبر هدير المحرّك ••

ـ هذا هو مقرّ « الفرقة » •• لم يبق أمامنا سوى عشرة كيلو مترات !

كان « مكسيم » متمسّكاً بباب الشاحنة الأيسر ، المشرف على الوادي ، بينما أمسك « غونثر » بحرف النافذة اليمنى ، قبالة « مكسيم » والسائق •• فما كان في إمكان « جون » ، سوى أن يمسك بمؤخرة الشاحنة ، غير بعيد عن خرطومها الخلفي الذي ينطلق منه دخان الوقود المحروق !

صاح السائق لهم من الداخل ••

ـ •• هل ستبقون معي ؟ إن كان ذلك ، فتمسّكوا جيداً ! واحذروا أطراف الطريق ! فجميع هذه السفوح ، المنحدرة ، مزروعة بألوف الألغام المتفجرة !!

قال هذا ، وحوّل المحرّك الى الوضع الثاني ، ضاغطاً على دعّاسة الوقود ، بينما أهاب « مكسيم » بصديقيه أن يتمسكا جيدا ، فانطلقت الشاحنة تعرّ ، وتزمجر ، وينطلق من خرطومها الخلفي ، دخان كريه ، أسود ، غلّف مؤخّرة السيارة ، حتى بلغت رائحته القاتلة ، مركز القيادة ••

تلفت « مكسيم » ، قلقا على « جون » ، يبحث عنه بين لجج ذلك الدخان الخانق ! فإذا صديقه يشد نفسه الى الأمام ، خطوة ، خطوة ، هرباً من ذلك الدخان ، فيتقدم بدراجته الى حيث يستطيع التنفس ••

رفع ذراعه التي كان قد أخفى بها أنفه ، فبدا وجهه تعباً ، ملطخاً بسواد الدخان !!

صاح لـ « مكسيم » ، عبر هدير المحرك العالي ••

ــ •• « مكسيم » ! هــذه آخر الطريق ، بالنسبة إليّ •• سأترككما مرغماً !! أنا عــائد الى الجزائر !! وداعاً !

صاح « مكسيم » مبهوتا ، لا يفهم السبب ••
ــ « جون » •• تعال •• خذ مكاني ! انها مرحــلة قصيرة •• لن نلبث أن نصل بعــدها ••

صاح « جــون » ملء صوته ، مكرّرا ••
ــ •• لا علاقة للدخان بقراري ! « مكسيم » •• إن حياة « الفرقة » ، حياة القسوة ، والقتل •• لا تتماشى معي !! أنت •• لك هــدف من ذلك ! و « غونثر » •• دعني أقــول لك ! إن « غونثر » يهرب من شبح « لويز » ! أتذكــر « لويز » ؟!!

صاح « مكسيم » عبر هــدير محرك السيارة ••
ــ •• « جون » ! أنت تهرف !! ما شــأن« لويز » بما نحن فيه ؟!

علَت موجة من الدخــان الأسود الخانق تلفّ الصديقين •• فأخــذا يسعلان بعنف •• وسالت الدموع من عينيهما ••

عــاد « جــون » الى الصياح ••

ــ •• « مكسيم » إن لـ « غونثر » علاقة بموت « لويز » !! إني واثق من ذلك ؟! •• لم أر شيئا ! ولم أسمع شيئا !! عدا ما كان يفلت من كلامــه ، أثنــاء الليل !! •• لم تعد لي طاقة على تحمل جنونه !! أنا أحبّه •• بالطبع •• لكننا وصلنا الى مفترق الطــرق !!

صاح « مكسيم » مرتاعاً ••
ــ ماذا تقول « جون » ! هل أنت جــاد ؟!!

ــ •• من الخير أن نفترق هكذا ! لن ينتبه « غونثر » الى غيابي ، قبل أن تصــلا « الفرقــة » •• حينئذ ، سأكون في طريقي الى المرفــأ ، وأسبانيا •• « مكسيم » ، وداعــا !! لــولا معرفتي بـ « غونثر » لكنت أحببتك أنت !!

رغـم نفورك مـن الصداقات المتطرفـة !! وداعـاً « مكسيم » !! الـى اللقـاء ! في باريس ! وداعـاً !!

وأطلق « جون » يده التي تمسّكت بطرف الشاحنة !!

ثوان •• وتظر « مكسيم » خلفه •• فاذا بـ « جون » قد أدار وجهـه ، نزولاً ، الى عكس ما كانت عليه وجهة الشاحنة ، وأخذ يتسارع على الطريق المنحدرة •• مبتعدا عن ناظريـه !!

ما كان « مكسيم » لينبىء « غونثر » بما جرى ، لولا أن الجندي سائق الشاحنة ، كان قد رأى « جون » يبتعد عن الشاحنة ، عبر المرآة الصغيرة التي كانت أمـامه !!

صاح متعجبا ••

ـ •• ماذا ؟ هل بدل زميلكما رأيـه ؟

واذا بـ « غونثر » يلتفت وراءه ، ليرى صورة « جون » المتباعدة عنه ، فيترك الشاحنة دون تفكير ، ويهمّ منحدراً خلف صديقه ، يجـدّ في تعقّب أثره ، شاحب الوجـه ، دون أن ينبس بكلمة !!

ترك « مكسيم » الشاحنة هو الآخر ، دون محاكمة ، وأدار وجهة دراجته باتجاه صديقيه ، اللذين ظهرا له ، كأنهما يتسابقان ، نزولاً ، على تلك الطريق الوعرة ، المحفوفة بالألغـام !!

سرعان ما زاد الانحدار من تسارع الدراجة ، حتى أجبره ذلك على كبح سرعتها •• وتملّكه خوف شديد من أن تصطدم بعقبة مفاجئة ، ولو كانت صغيرة ، فتحيدها ، وتلقي به في انحدار ذلك الوادي المخيف !! أما « غونثر » فلقد كان يطارد الريح ، وراء صديقه •• يزيد من التسارع ، غير آبه للخطر ، حتى بدا كأن زمام دراجته قد أفلت من سيطرته ، فلم يبق له سوى محـاولة التحكم بوجهتهـا !

بان طيفه لـ « مكسيم » كأنه يتقارب من طيف « جون » البعيد •• حتى

أدركه •• وكان هـذا في منتصف الطريق •• فحاد « غونثر » نحو اليمين ، طرف الوادي ، كي لا يصطدم بصديقه ، واذا بمنعطف حاد ، يعترضهما ، وبـ « غونثر » لا يقوى على التفاف معه ، أو لا يودّ ذلك !!

أدرك حافة الطريق الوعرة •• فتخطاها متعثراً •• ثم تخطّى صديقه « جون » •• وهوى مع دراجته في سفح الوادي الصخري السحيق !!

لحظات•• وكان « مكسيم » قد أدرك المنعطف الذي غيّب « غونثر »••

قفز عن دراجته ، يحاول أن يمسك بأطراف « جون » الذي كان قد ترجّل هو الآخر ، يحاول اللّحاق بصديقه !! واذا بانفجار بعيدٍ يدوّي في أعماق الوادي !! تردد رجعه سفوح الجبال ، واذا بـ « جون » يدفع بـ « مكسيم » ، جانباً بعيدا عنه !! ويقفز الى الوادي ، يصيح باسم صديقه ، باكياً !! زاعقاً !! ويجري ، يتعثّر فوق الصخور المنحدرة •• ثم ينهض ويجري، ليتعثّر المرة تلو الأخرى •• محاولاً ، كالمجنون ، أن يهتدي الى أثرٍ لـ « غونثر » ••

قوة هائلة دفعت بـ « مكسيم » فجأة ، فسقط على الأرض !!

دوّت أذناه بصوت رهيب أصم !!

غشي بصره •• تماماً ، ثم سمع طنيناً غريباً ، سحيقاً ، ينبعث من أعماقه !!

سرعان ما أحسّ بوخز طفيفٍ يلفّ جميع أنحاء جسده !! ثم رأى نقاطاً ملوّنة تتلألأ في أفق بصره ، الذي بدأ يعود اليه ، في بطء شديد !!

أحس بآلام تحوق جميع أطراف جسده •• وأدرك في الوقت ذاته أن ما سمعه ، كان صوت انفجارٍ ثانٍ !! فحاول النهوض •• ولما لم يقو على ذلك ، جرّ ساقيه ، الى حافة الطريق •• وضم ذراعيه ، على رأسه ، وركبتيه•• وأجهش في بكاء مرير !!

* * *

الفصل الرابع

ما تلا تلك الواقعة المروّعة ، ظلّ مدة دقائق ، طويلة ، خيالات في ذهن « مكسيم » ، يزجرها ، كلما راودته ، يحاول ألا يفيق الى نتائجها ، ولا يودّ أن يفهم لهـا من معنى !!

سمع صوت الشاحنة ، وقد أعادها صوت الانفجارين ، فرأى سـائقها الجندي ينزل منها ، مصعوقا ، يرفع دراجة « مكسيم » الى الشاحنة ، ثـم يرفعه ، هو ، إليها ، يكادُ يحمله ، عـائداً به الى مقر الفرقـة ! فما إن أخبر رؤساءه بما جرى ، حتى نزلت من فورها فرق الانقاذ ، تحمل كاشفات الألغام ، تبحث عن الشابين ! أمضت ساعات من البحث المضني ؛ عادت بعدهـا صفر اليدين ، ورفعت تقريراً ، علم بموجبه ، أنـه لم يعثر ، من الشابين ، إلا على ما تبقى من أشـلاء جثتيهما الفتية !!

* * *

هـل يعرف الإنسان كيف يصف ، بالكلام ، ما يحسّه ، لدى مـوت الصديق ؟! هـل يصحّ أن يكون موت الصديق ، موضوعاً للكتـابة ، أو الإحساس به ، مادةً ، يتناولها الفكر بالمناقشة ؟ لم يأبه « مكسيم » للتعرف الى مكان التراب الذي دفنت فيه أشلاء صديقيه .. لقد دفنهما ، في قلبه .. واراهما في موضع من نفسه ، لا يعرفه ، هو .. أحكم أغلاقه ، وهو مغمض العينين ، باكيهما ..

مضت أيام طوال .. قدّم « مكسيم » للفرقة ، أوراق الطلب الذي كان قد أعـدّه في مدينة الجزائر ، فقبل في الحال ، ثم تركت له فترة نقـاهة ، يقضيها حيث يشاء ، ريثما يزول عنه ما لحقه من شرود وانطواء ، إثر ما أصابه من تلك الصدمـة ..

آثر أن يبقى ضمن حدود المعسكر ، يتجوّل فيه أثناء النهار .. يبحث عما طلبـه منه « عثمان » من معلومات ، وهـو كالتائه ، يحصي التفاصيل ، ويجمعها في ذهنـه .. كأنّه مخلوق آلي ، لا حس فيه ، ولا وعي ! حتى إذا ما جاء الليل .. كان يجلس في أحـد أركان مقهى المعسكر ، وحيداً .. يتقبل من زملائه إشارات ، وتعليقات عطوف .. لا يحسن الإجابة عنها .. ينتظر ، عبثاً ، أن يتّصل به من أوصاه ، عثمان ، أنه سيكون عوناً له ، لتحقيق ما اتفقا على تنفيـذه ..

عُهـد اليه بأعمال إدارية ، فما إن شُفي من شرود الفترة الأولى ، حتى بـدأ مزاولة التمارين الصباحية ، مع بقية الجنود ، ثم التمرين على استعمال أنواع الأسلحة القتالية .. وسرعان ما انخرط في الحياة العسكرية ، كغـيره من الجنود ، وراح يتناوب معهم حراسة المرافق الهامة في المعسكر .

* * *

كان المقر العام ، عصب « الفرقة الاجنبية » الحساس ، ورأسها المدبّر .. يضم ، علاوة على مستودعات الذخيرة والوقود ، الهامة ، جهازاً خاصاً لتخطيط جميع العمليات الحربية التي كان يقوم بها في المستعمرات ، عامة ، وفي الهند الصينية ، والجزائر خاصة !

وفي تلك السنة تقريباً . كانت الحرب على أشدها ، حول معقل « ديين بيين فو » ، في الهند الصينية . يحسّ « الجنرالات » ، أن الجيش النظـامي لن يصمد طويلا في آسيا . وان اميركا . لا تمانع في هزيمة طنّانة حـول ذلك الموقع ، تدفع بفرنسا ، خـارج الهنـد الصينية ، لتحلّ ، هي محلهـا ، في استعمار تلك البلاد ! لذلك ، كان هم القيادة العامة لـ « الفرقة الاجنبية » ، ضربُ الحركة الوطنية ، وشلّها ، على جميع الجبهات ، في الجزائر ! تتحكّم

في الوضع العـام فيها ، أولا ، ثمّ تسدّ الطريق على تدخّل الجيش النظامي ، في شؤون الجزائر .. متى عـاد الجيش ، خاسراً ، الى الوطن ! لا سيما ، أن الحكومة في باريس ، لم تكن في شوق لاستقبال جيشها المهزوم ، وقـوّاده ، على أرض فرنسا ، الأم .. خوفاً من إثارة الفتن فيها ، ومن مؤازرة هـذه القوات ، الناقمة ، للحركات اليسارية المتطرّفة فيها !

كان جميع من في « الفرقة » يتهامسون عن اقتراب اليوم الذي ستضرب فيه « الفرقة الاجنبية » ضربتها المتوقعة الكبرى !! لعـل أوامر عُليا صدرت في باريس ، تطلب مثل هـذه الضربة ! تطلب حملة ناجحة في الجزائر ، قـد تعدّل كفة هيبة فرنسا ، إثر ما لاقاه جيشها النظامي ، من هزائم ، في الهنـد الصينية !

كانت شاحنات المعـدات تصل المقـرّ ، تباعـاً ، فتتراكم المستودعات بالذخائر .. يحس الوطنيون ، بما يجري حولهم ، ويتحرقون لمعرفة ما تهيئه القيادة العامة من خطط ، وأين تنوي أن ترمي بثقلها ، لإحراز النصر الساحق ، في الجـولة الأولى !!

سمع « مكسيم » كل هذا من الجنود والضبّاط حوله ، فأدرك سـبب لجوء أمثال « عثمان » الى طلب المساعدة من غريب ، مثله ! فهم مجازفة ذلك الثائر ، بالكشف عن ميوله الوطنية ، منذ أول لقاء لهما في مجلس « القصبة » ، وأيقن أن الحركة الوطنية في مأزق ، دون ريب ، وأنها من أمس الحاجة الى أي عون ، خصوصا ، الى ما طلبه « عثمان » منه ، من معلومات ، حول تخطيط العمليات ، وتنقلات الجنود ، والذخـائر !

أمضى أسبوعه الثالث في « الفرقة » ، دون إشارة تنبىء بأن هنـالك من سيعينه على الوصول الى هدفه .. أو يكشف عنه طيفي صديقيه ، اللذين كانا دائمي المثول أمـام عينيه ، يحرمانه من السيطرة على أعصابه ، ويشلاّنه عن الحركة المتنبّهة ، اليقظة ، اللازمة لتنفيذ مثل تلك المهمة !

ما إن قارب الأسبوع الرابع الانتهاء ، وكان قد عزم على اتهـاز أول

فرصة لترك « الفرقـة » ، خلال الأسبوع السادس ، حتى كـاد ينسى جلسة « القصبة » ، و عثمان ، وراح يخطّط لأهـدافه ، هو ، يبحث عن وسيلة ، تخرجه من المعسكر ، الى غير رجعة ، دون إثارة الشبهات ، حـول اختفائه ، أو التسبب في إصدار مذكّرات البحث عنه ••

* * *

وقف في إحدى الليالي ، في نوبة حراسة ليلية لمقر نائب القائد العـام ، وجميع من في المعسكر من جنود قد هجعوا الى النوم ، لا يسمع ، في ظـلام ذلك الليل الدافيء وهدوئه ، سوى صفير الهواء الجاف ، يعلو ضحك بعض الضباط الساهرين وسمرهم ، يصـل مسامعه مخنوقاً ، خافتاً ، عبر نوافـذ مفتوحة ، بعيدة ، مختلطاً بمواء حيوان برّي ••

وقف وحيداً يدندن لحنـاً فرنسياً قديماً ، أوصاه « عثمـان » بترديده ، إشارة خفيّة منه الى العميل المنتظر ، واذا باب نائب القائد العام يُفتح مـن ورائه فجـأة ، تخرج منه زمرة من الضباط ، يضحكون ، ويمرحون ، يرتب بعضهم على أكتاف بعض ، يتمنّون لبعضهم نوماً هادئاً ، حتى اليوم التالي ••

التفت أحدهم الى الحارس ، فجأة •• وسأل ••

ــ •• أنت حديث التطوع في « الفرقة » •• أليس كذلك ؟

وقف « مكسيم » بوضع تهيؤ •• وأجاب ••

ــ •• نعم سيدي ! منذ ثلاثة أسابيع فقط ••

ــ •• هل أنت الذي نجـا من الانفجار ؟ وفقد زميليه ؟

ــ •• نعـم سيدي !

صمت الضابط برهـة ، ثم قـال ••

ــ هنالك تساؤل حول هويّة زميليك •• تعال الى غرفتي ، بعد انتهاء دورة حراستك •• أريد أن أستوضح منك بعض الأمور ••

ــ •• نعـم سيدي !

وتفرّق الضباط ، كل باتجاه غرفته ، واذا بالضابط الذي تحدث مـع

« مكسيم » يسير مبتعداً عنه ، وهو يصفر نفس اللحن الذي كان يردده « مكسيم » •• وبالطريقة ، الخاصة ، المتفق عليها مع « عثمان » !

* * *

أيام ، وكان « مكسيم » مزوّداً بعلبة لفائف عادية ، أُفرغ التبغ منها •• ودكّت لفائفها بأشرطة دقيقة خاصة ، طولها أمتار ، تحتوي على آلاف من الأرقام المركّبة ، تشير الى خطة التحركات ، المُزمع القيام بها ، ومراكز الذخيرة ، والوقود ، والموجات اللاسلكية التي سيعمل بها أثناء التحركات ، ونظام تسلسلها ، وطرق تغييرها ، وقت الحاجة ! وقد أضيفت الى ذلك ، أسماء العملاء ، المندسّين بين صفوف الوطنيين •• ومراكز التقائهم ، ونظام الشيفرة التي يستعملونها !! معلومات دقيقة وافية ، باختصار ، كانت تلك المعلومات كافية ، للقضاء على « الفرقة الأجنبية » ، برمّتها ، لو كان ، للقوى الوطنية ، في ذلك الحين ، جميع ما يلزمها ، من القوة العسكرية الضاربة ، للقيام بهجوم مفاجىء !!

جرى جمع تلك المعلومات في ظروف تلزمها جرأة عمياء ! وما كان بالإمكان الوصول الى تلك النتيجة لولا أن ذلك الضابط كان في مركز حيويّ ، يمكّنه من التجول حيثما شاء ، والاقتراب مما يريد ، دون إثارة الشبهات ! وفي الوقت ذاته ، يمكنه الاعتماد على مساعدٍ ، في وضع « مكسيم » النفسي ، لا يأبه لخطر ! يَذكُرُ موت صديقيه ، في تلك الظروف التعيسة الرهيبة ، يتصور أشلاءهما تتطاير لتسقط ممزقة ، مبعثرة ، فوق الصخور ، فيهون الموت عليه ، ولا يتردّد في دخول أية غرفة ، يحظّر الدخول إليها ، يشير اليه الضابط أن فيها المعلومات اللازمة ، في أية ساعة من الليل ••

* * *

ما كان لذلك القدر من المعلومات السريّة أن ينتقل الى صفوف الوطنيين، دون أن يُكشف أمر ناقلها ، أو ، على الأقل ، أن يتسرّب الشك الى القيادة

العـامة ، فتنتبه الى أن هنالك ، في الفرقة ، من يتجسّس على أسرارها ! لذلك توجّب عليهما مراعاة أقصى درجات الحذر ، واتفقا ، ألاّ يكشفا عن هـذه المعلومات ، إلا بعد أن يتمّ نقل الضابط من قيادة المقرّ ، الى أحـد المراكز البعيدة ، وكان موعد نقـله قد عيّن قبل ابتدائهما بتنفيذ تلك الخطـة ! كذلك ، توجب عليهما إيجاد طريقة ، يختفي فيها « مكسيم » ، من « الفرقة » ، دون إثارة شكوك القيادة حول اختفائه ، فتبثّ مذكرات البحث عنـه ، عبر الحدود ، ويظلّ ملاحقا في أوربا ، مدى العمر !

لم يطل بحثهما عن طريقة لتنفيذ تلك الخطـة .

كان « مكسيم » في غرفة الضابط ، يتناول منه إجـازة الى المدينة ، لمدة يومين .. فقال هذا مقطّبا ، مصمماً ..

ــ .. إن إجازتك هذه ، خير مناسبة .. خذ علبة اللفائف معك غـداً .. وانتظرني على مفترق الطرق، خارج الثكنة، في الحادية عشر صباحا بالضبط .. سأنزل الى المدينة ، مـع سائقي .. إذا أمكن ، أو في إحـدى الشاحنات .. وتتدبّر الأمر على الطريق !

خـرج « مكسيم » ، في اليوم التالي ، الى المكان المتفق عليه ، خـارج الثكنة ، ينتظر وصول الضابط ، يخاف أن تمرّ إحدى الشاحنات النازلة الى المدينة ، قبل وصول الضـابط ، فيثير الشكوك ، برفضه النزول معها ! لكـن انتظاره لم يطل .. وصل الضابط ، برفقة جنـدي ، لا يعرفه « مكسيم » ، يقود سيارة مكشوفة صغيرة .. فما إن أشار إليهما ، حتى تمهلا ، فأحكم وضع دراجته خلفهـا ، ثم قفز الى المقعد الخلفي ، وانطلقت السيارة نازلة نحـو المدينـة ..

كانت تلك المرة الأولى التي ينزل فيها « مكسيم » تلك الطريق بعد وفاة صديقيه عليهـا ! أحس بانقباضٍ شديد ، منذ خروجه من الثكنة ، وتوقعه المرور أمـام ذلك المنعطف المشؤوم !

جلس في مقعده واجماً ، شاحب اللون !

تحسس علبة اللفائف في صدره ، وتأكد من محفظته التي حوت جميع أوراقه ، وما معه من نقود ، يعلم أن لا عودة له الى تلك الثكنة •• ويراوده أسف عميق لجميع ما مر به ، منذ أن ترك اسبانيا !!

كان السائق ألماني الأصل ، أحمر الشعر ، أجعده ، دقيق الأنف والشفتين، بادي القسوة والبلاهة ••

وكان الضابط ساهما ، ينظر الى سائقه ، في شرود ، وينقر بأصابعه على الباب الذي الى جانبه كأنه يُبيِّت أمراً ، حتى سأل فجأة ••

ـ أنت لا تحب الجزائريين ، يا « كلاوس » ، أليس كذلك ؟

أجاب السائق••

ـ •• إنهم حقيرون يا سيدي ، لصوص ! أمقت الأرض التي يمشون عليها !!

ـ لا بد أن أحدهم أساء لك في يوم من الأيام ! وإلاّ لما كرهتهم الى هذا الحد !!

ـ لا يجرؤ أكبرهم على مسّ حذ •• عفوا سيدي !

ـ فلماذا تمتقهم بهذه الشدة ، إذن ؟ كم جزائرياً قتلت ، في حياتك ؟

ـ لأنهم •• جزائريون ! مسلمون ، برابرة ! قتلتُ العشرات منهم ، في الأطلس !

ردّ الضابط متبسّما ، كأنه مسرور لما يسمع ••

ـ مسلمون ، برابرة ! من نبيّ الاسلام ، يا « كلاوس » ؟ أتعرف اسمه ؟!

تعجّب السائق ، لسؤال الضابط •• فتردّد ثم قال ••

ـ من يدري ، ما اسمه ! إنه جزائريّ ، على أية حال ! أليس كذلك ، يا سيدي ؟ !

تنبّه « مكسيم » الى أن الضابط يبحث عن عذر يثير في نفسه الكراهية لسائقه ! فاشتدت ضربات قلبه ، توجسا مما سيأتي ! الى أن طلب الضابط من

السائق أن يتوقف ، قرب المنعطف الخطير •• وترجل ، ينظر الى الوادي ، كأنه يبحث عن شيء ما •• ثم استدار الى السائق ، فجأة •• وسأله ••

ــ « كلاوس » هلاّ فحصت نسبة الماء في بطارية هذه السيارة ؟ أظن أن هنالك نقصا فيها •• انزل ، وتأكد من ذلك !

ترجّل الجندي ، يهزّ رأسه ، مستغربا طلب الضابط !

فتح غطاء المحرك ، يهمّ أن ينحني ، ليفحص ما بداخله ، وإذا بالضابط يكيل له ضربة على رأسه ، بكعب مسدسه ، تفقده توازنه ، فيتهاوى ، وهو يحاول التمسك بالغطاء الذي لا زال قابضاً عليه !!

ثوان ، وإذا بضربة أخرى تنهال على رأسه ، تفقده وعيه ، فيخرّ على الأرض •• ميتاً ، أو يكاد !!

أعاد الضابط مسدسه الى نطاقه ، وأشار الى « مكسيم » ، على عجل ، أن يساعده في رفع السائق الى مقعد القيادة ! فما إن تم لهما ذلك ، حتى نزع السلسلة التي حول رقبته ، والتي كانت تحتوي على رقم واسم السائق ، وأبدلها بسلسلة « مكسيم » ، ثم أشار اليه بانزال دراجته ، بينما تفقّد جيوب الجندي ، فلما لم يعثر فيها على أوراق تثبت هويّته ، طلب من « مكسيم » إعطاءه بعض حاجيته الخاصة ، فدسّها في ثياب الجندي وفصل المحرك ، ثم أداره على سكون ، ثم أطلق المِكْباح ، فهبّت السيارة ، كأنها تقفز عرض الطريق ، وانزلقت في الانحدار الذي على جانبه !!

تسارعت •• تتخطى الطرف الوعر ، ثم انحدرت ، تتدحرج ، وتنقلب فوق صخور ذلك الوادي العميق !!

جرى كل ذلك في برهة قصيرة ، كان الضابط خلالها ينظر في اتجاه الثكنة خوفا من وصول إحدى السيارات ، فما كاد يسمع انفجار خزّان الوقود ، أو لعلّه صوت أحد الألغام ، حتى كان « مكسيم » ، على دراجته ، يتأهب للانطلاق !!

قال الضابط ، على عجـل ••

ـ سأقول إنك أنت الذي كان يقـود سيارتي •• لن يتبقى من جثـة السـائق ، سوى السلسلة التي تحمـل رقمك واسمك ! اذهب الى عثمـان بالمعلومات •• وسيعرف كيف يُخرجك من الجزائر ، الى مراكش ، عبر الطريق الجبلية •• ثم تدبّر أمرك ، منهـا ، الى اسبانيا ••

أوعز الضابط الى « مكسيم » بآخر التعليمات ، بينما أخذ صخرة راح يضرب بهـا نفسه ، يؤكد على كتفيه ، وذراعيه ، حتى تمزّقت قميصه ، وسال من ذراعـه الـدم ••

كان يضرب ذراعه ، وساقه ، يدميهما ، بينما يتابع الكلام مع « مكسيم » في هدوء ورباطة جأش ، فما إن أنهى جَرْحَ جنبه ، في أماكن عـدة ، حتى استلقى على الأرض ، في وضع يبدو فيه كأنه قفز من السيارة ، قبـل سقوطها في الوادي •• وأشار الى « مكسيم » أن ينطلق على دراجته ، فراح هـذا يسابق الريح ، يسعى الى الوصول الى مفترق الطرق الرئيسي ، كيلا تدركـه إحدى السيارات العسـكرية ، العائدة الى المعسكر ، فينكشف أمره ••

* * *

وصل مفترق الطرق وهو يلهث ، ويتصبب عرقا !

جـال بناظريه حوله ، يبحث عن مكان يتخلّص فيه من دراجته وقبعته العسكرية ، كمـا أوصاه الضابط •• يتهيأ للاختباء من أنظـار السيارات العسكرية ، فلما سمع صوت سيارة نقـل عامة ، تقترب منه ، قبل أن يجـد المكان المناسب للتخلص من درّاجته ، طمر قبعته العسكرية ، في حفرة قريبة ، وأشـار الى السيارة أن تتوقف ، فقذف بدراجته فوق سطحها ، ودخل الى السيارة ، يحشر نفسه بين حشد من الركاب الجزائريين !

زكمت أنفـه رائحة الحقول ، والطيور الداجنة في تلك السيارة ••

سيطرت على مخيلته صورتان لوجـه « كلاوس » ، السائق ، واحـدة

جانبية ، وهو يضحك في سخرية ، ويقول « قتلتُ العشرات منهم ، ذنبهم أنهم جزائريون •• » !! وأخرى ، بعد أن تلقى ضربة الضابط ، رأسه منحنٍ الى جنب ، وفكه متدلٍ ، يكاد لعابه يسيل من فمه المفتوح ••

لم يقف طويلا ليسأل نفسه عما يدفع الضابط لخدمة الوطنيين •• لعله كان مثله ، شاباً متقتفاً يساري الميول ، يكره الظلم والتعدّي ، حيثما وجد •• لطالما أعجب بحزمه وجراءته ، ومقدرته الكبيرة على اتخاذ القرارات السريعة المناسبة •• لكنه وقف مذهولاً أمام سؤاله لـ « كلاوس » •• « أهكذا ؟ تقتلهم ، دون ذنب » ؟ وراح يقلّب في ذهنه صورة وجه الضابط المتألم ، وهو يطرح ذاك السؤال على سائقه •• ثم صورة وجهه الجامد ، القاسي ، وهو ينهال بكعب مسدسه على رأس السائق !!

ضاق صدر « مكسيم » لتلك الصورة الكريهة ، تتناوب الظهور في مخيلته ، وسط زحام الناقلة القديمة ، المهترئة •• يميل بها ثقلها على المنعطفات، تكاد تهوي ، جانباً ، كلما اعترضها عائق مفاجيء ، فيحاول سائقها أن يتجنّبه بمهارة مصطنعة !

تنبّه بعد برهة ، الى أنه الأجنبي الوحيد في تلك الناقلة ، وأن من فيها من الجزائريين ، قرويّون ، كانوا قد أخلدوا الى الصمت ، وراحوا يتجنّبون النظر اليه ، أو اذا ما التقت نظرات أحدهم به ، كانت عيونهم تشتعل حقدا ، وكرها ، للباسه العسكري !

لم يتعوّد جنود « الفرقة الاجنبية » أن يستقلّوا عربات الجزائريين ، القرويين ، في تنقلاتهم •• تمنّى لو تصل الناقلة ، بسرعة ، ليخرج من وضعه الشاذ ، وأسف لأنه لم ينتظر وصول إحدى سيارات الأجرة الصغيرة ، لكن الضابط كان قد شدد عليه ألا يفعل ذلك ، وأن يتجنّب أنظار الأوروبيين ، ما أمكنه ذلك ، ريثما يصل الى « القصبة » ويتدبّر ، مع عثمان ، أمر خروجه من المدينة ، دون المرور على نقاط مرابطة رجال السلطة الفرنسية ، من مدنيين وعسكريين ••

في النهاية ، وصلت الناقلة مشارف المدينة . تجاوزت شوارعها الأوروبية الأنيقة .. ثم دخلت طرقا ضيقة ملتوية ، تقترب من قلبها الوطني ، فزاد لَجَبُ الرّكاب ، وعلت أصواتهم ، يصيح بعضهم ، بأقوال ، وعبارات لم يفهمها !

ما إن توقّفت الناقلة في ساحة صغيرة على سفح هضبة « القصبة » القديمة ، وتدفّق الركاب منها ، كل ينطلق الى وجهته ، مُثقَلاً بما يحمله من صرر ، حتى أحس « مكسيم » بوخز آلة حادة في جنبه .. ثم بلكمة على كتفه ، تلتها أخرى ، على وجهه ، ورأسه !! ثم انهال اللكم والضرب عليه من كل جنب ، يأتيه من جميع من كانوا حوله !! يتسابقون للنيل منه !! ثم للهبوط من الناقلة ، وللفرار بعيدا عنها !! الى أن تداعت ساقاه ، وهوى الى الارض .. وهو يتقيّأ ، لفرط ما أصابه من دهشة ، وتوتّر ، وألم !!

مرت دقائق طويلة وهو على تلك الحال .. حتى سائق الناقلة ، لاذ بالفرار ، تاركاً عربته وسط ساحة عامة ليس فيها سوى بعض المارة ، يعلمون بما جرى داخلها ، ولا يجرؤ ، أو يودّ ، أحد منهم ، على التقدم من الناقلة ، لإخراج ذلك الجندي الجريح ، الذي راح يجرّ نفسه على أرضها المعدنية المتخرشة !!

وصل الى بابها الخلفي ، الضيق ، فاستوى جالساً ، يحاول أن يجرّ ساقيه ، أولاً ، بيديه ، كي يهون عليه النزول ! وإذا به يلحظ شرطيّاً فرنسياً ، فردّ الباب ، وأخفى نفسه وراءه ، كي لا ينتبه الشرطي إليه !!

لم يخف ، تجنّبه للشرطي الفرنسي ، على فتية ، كانوا يراقبون الناقلة ، عن كثب ! تعجّبوا لأمر جنديّ ، أوربي ، جريح ، من « الفرقة الاجنبية » ، لا يستغيث بشرطي من أبناء وطنه !! فما إن تنبهوا الى ما يمكن أن يحمل ذلك التصرف الغريب من تفسير ، وكان الشرطي قد تجاوز الناقلة ، وغاب عن إحدى الطرقات ، حتى تسارعوا الى الناقلة ، وأعانوا « مكسيم » ، على النزول من العربة !

قال لهم « مكسيم » في لهجة عربية ، غريبة على مسامعهم ..

ــ أرجوكم •• أن تساعدوني في الوصول الى المجلس •• في « القصبة » •• إني عــربي •• هل منكم من يعرف « عثمان » ؟ « أبو فـ » •• أو أحــد رفــاقه ؟!

وكاد يغمى عليــه ، مرة ثانية ••

تهامس الفتية اسم « عثمان » في كثير من العجب والتساؤل !!

كان عثمان من كبــار القواد في « القصبة » ، لا يتلفّظ الفتية باسمه ، سوى هامسين ، حرصاً منهم على سلامته ، وخوفاً من عيون السلطة الفرنسية المنبثّة في كل مكان ! فما إن سمعوا ذلــك الجندي الجريح ، يطلب مقابلته ، بتلك اللهجة العربية الغريبة •• حتى نادوا رفاقاً لهم ، وتساعدوا على نجدته ••

لحظات ، وكان « مكسيم » في عربة صغيرة ، تقلّه ، مع رهط من الفتية المواكبين ، يحمونــه ، ويقودونه ، عبر طرقــات « القصبة » القديمة ، نحــو مجلسها ، وعثمــان ••

* * *

الفصل الخامس

لم تطل إقامته في « القصبة » •• اندمل جرحه في غضون أيام ، وبرىء مما أصابه من ضعفٍ بسبب ما فقده من دم ، سال غزيراً ، من طعنـــة سطحية عريضـــة !

أمضى أيـــام النقاهة ، في دار عالية ، مستلقياً على ظهره ينظر من مشرقة عربية قديمة ، الى ما تطل عليه غرفته ، من أسطحة بيضاء متلاصقة ، تتداخل وتتشابك •• تنتشر في اتساع دائريٍّ متعرجٍ ، كأنهـــا نسيج غريب ، مـــن عصر غـــابر ••

كان فراشه على الأرض ، فوق حصيرة يزينها بساط صوفي ملوّن •• يستوي « مكسيم » جالسا على ذلك الفراش ، ظهره الى وسادة ، تستند الى الحائط •• لا يرى أثنـــاء نهاره ، من الناس ، سوى امرأة مقبلة في السن ، تقوم على خدمته ، و « عثمـــان » ، يأتي من حين الى آخر ، يتفقّد حاله ، ويطمئن عليـــه ••

وصل عثمان ، يومـــا ، يقول له ، ضاحكاً ••

ــ •• أتيتك ببعض الزائرين !؟ ألا تود مقابلتهم ؟!

ولمـــا هزّ « فراس » رأسه موافقاً ، متعجباً لمن يكون الزوار •• دخل الغرفة رهطٌ من الفتية ، والشبان •• عرف لفوره ، بعضاً منهم ، ممّن خفّوا الى مساعدته للخروج من تلك الناقلة ، يوم سقط فيها ، مغشياً عليه ! فسُرَّ للقائهم ، وإذا نفـــرٌ من القرويين ، يدخلون وراءهم ، فاستغرب في بادىء

الأمر قدوم هؤلاء ، وما إن تفرّس في وجوههم ، حتى ذكر أن بينهم بعض من كانوا في تلك الناقلة ، قبل أن ينهـال عليه الضرب ، ويفقد وعيـه !! بل إن بينهم من كـال له الضربات !!

كانوا يحملون الفواكه ، والخضار ، وبعضهم يحمل دجاجة أو طـائراً أو سلةً صغيرة من بيض الدجـاج !!

جلسوا جميعا القرفصاء ، أو تربعوا على الارض ، لا يتكلمون •• ثـم تقدّم كبيرهم ، وتفوه بكلمات اعتذار ، لم يفهمها « مكسيم » ، كان في نبرتها من الصدق ، ما أفعم قلبـه حزناً ، وسروراً !

مكثوا على تلك الحـال برهة ، أتت لهم المـرأة المسنة بعدها ، بمـا يشربونه •• فما إن أفرغوا أقداحهم ، حتى نهض « عثمان » ، ينوي الخروج ، فقاموا معه ، إلا الفتية ، والشباب ، فقد نظروا الى « عثمان » يطلبون منـه المكوث ، فترة أطـول •• فسمح لهـم بذلك ، ثـم انصرف ، وهو يقـول لـ « مكسيم » ••

ـ هؤلاء الشباب أصدقاؤك ! إنهم يحسّون أن لهم رباطاً خاصاً بك ! لقد أنقذوك من الموت ! سأتركهم عندك ، لتسليتك ، على أية حـال ، يحسن أن تتعرف اليهم عن قرب •• فقد يصحبك بعضهم الى مراكش !

ما إن ترك عثمان الغرفـة حتى دنوا من فراش « مكسيم » ، جذلين ، مبتسمين •• فتجمّعوا حوله ، ينظرون اليه في لهف وصمت !

جلس الشباب منهم على حـافة الفراش •• بينما بقي الفتية ، بعيدين ، يجلسون في شـكل دائرة أكبر ، فقام بعضهم الى الفواكه ، يصنفها فـوق طبليـة صغـيرة ••

سـأل أكبرهم سناً ، « مكسيم » •• وكان شاباً أسمر اللون ، وسيماً ، لا يتجاوز سنه الثامنة عشرة •• يتكلّم لغـة إفرنسية ركيكة •• قال ••

ـ •• أنت أميركي ؟ أو انكليزي ؟

تعجّب « مكسيم » لسؤاله •• وأدرك أن أحداً لم يصدّق أنه عربي !
فهزّ رأسه ، بالنفي ••

ــ إني عربي ، من دمشق ! اسمي « فراس » !

تعجّب الشاب لقوله ، وراح ينظر اليه ، متفرّساً •• لا يفهم قصده !

خطر لـ « فراس » أن يقرن كلامه بالبرهان القاطع •• وراح يقرأ سورة من سور القرآن الكريم ، دليلاً قاطعاً على صدق ما قال ! واذا وجه الشاب يكفهرّ ، لما سمع ، واذا وجوه أصحابه ، يشوبها التململ ، والاستنكار ••

لعلهم أحسّوا بأن هذا الاجنبي ، رغم حسن نواياه ، بالنسبة الى قضيتهم الوطنية •• وبالرغم من صداقته مع « عثمان » ، قد داس أرضاً محرمة ، اذا هو تجرأ على حفظ سور القرآن !

نظر الشاب ملياً الى « فراس » •• وقال في قناعة تامة ••

ــ أنت صديقنا •• ونحن نحبك •• ولقد أنقذناك •• لكنك لست مسلماً ، ولا عربياً ! فلماذا ؟ لماذا ••

وتلكأ لا يدري كيف ينهي قوله •• لكن « فراس » رأى في عينيه كأنما الشاب يودّ لو يقول « لماذا تكذب علينا •• فتشوه الصورة التي لك في نفوسنا •• » •• « ما قصدك من هذا الادعاء •• الكاذب » !!

تبسّم « مكسيم » آنذاك •• وقال في مرح ظاهر ••

ــ •• إنكم شديدو الفراسة •• لا •• إن اسمي هو « مكسيم » •• لكني أحبّكم كما لو كان اسمي « فراس » •• كما لو أني عربي ، ومسلم !

علا البِشر وجوه الجميع ! تجمهروا حوله ينتظرون إشارة من صديقهم لكي يبدؤوا بالكلام ، فما إن انفرجت أساريره ، حتى انطلقوا بسيلٍ من الأسئلة والتعليقات ، يوجّهونها لـ « مكسيم » ، ولا ينتظرون الردّ منه ، يجيب بعضهم بعضاً •• يضحكون من غباء بعض الأسئلة ، ويؤكد بعضهم لبعض ، معلومات عن « مكسيم » أجمعوا على صحتها ، وغرابتها ••

و « مكسيم » ينظر اليهم حائراً .. متعجباً .. ثم متسلياً ، لطيبتهم وجرأتهم ! يهز رأسه ، بالموافقة ، على جميع ما يقولون ! لا يفهم أسئلتهم .. ولا القصد من تلك الهالة التي كانوا يحيكونها حوله !!

مضت ساعات وهم على تلك الحال ، يقصّون عليه حكايات الشجاعة عن حربهم ضد الفرنسيين ، وما يكاد يحرك « مكسيم » كتفه ، وهو ينصت اليهم ، حتى يخفّوا الى تركيز وضع الوسادة خلف ظهره ، يقشّرون له الفاكهة .. أن يقدّمون له الشراب ! يديرون مذياعاً صغيراً كان قرب رأسه ، على ما حلا لهم من أغان بلدهم .. تذكّرهم ألحانه بفتيات ، راحوا يقصون على« مكسيم » قصص غزلهم معهن ! نصت الصغار ، لتلك الحكايات ، يعجبون بها ، ثم ينظرون الى « مكسيم » ، يبحثون في نظراته عما يشير الى إعجابه ، هو الآخر ، بجرأة وإقدام هؤلاء الشباب !!

عالمٌ مستقلٌ من البراءة ، والجمال ، والبدائية ، الساذجة ! عالمٌ .. رفض « فراس » !! ولو أن ليس في الكون غيره لتمنى« مكسيم » ، على الزمان أن يتوقف ، ليعيش في كنفه ، الى ما شاء الله من السنين ! لكن العالم جسم كبير ، جسد ، فيه ألوف الخلايا ! وهذه الخلية البريئة ، ليست سوى إحداها ، وهي ، في غير مكانها من التاريخ ، تظنّ أن حدود العالم تنتهي عند حدود « القصبة » !! كيف يقدّر لهذه البراءة أن تعيش ، وعلى حدودها ، وراء البحر ، تجثم أوربا ، متربّصة بها ، وفي أوربا فتية ، على عكس هؤلاء ، يمعنون في العلم ، والفلسفة ، يتلقّفون فنون الحرب ، النفسية والجسدية ، ويتخصّصون في الدّوس على كل ما هو ساذج وبريء ؟!!

* * *

خرج من تلك الدار ، في « القصبة » ، بعد أيام ، يرتدي ثياباً وطنية ، طريفة ، يسير في رفقة اثنين من هؤلاء الشبان ، بعد أن زوّدهم « عثمان » بما يلزمهم من مالٍ ، ونصائح ، وتعليمات .. للتسلّل خارج مدينة الجزائر ..

أمضوا أياماً سعيدة على طريقٍ طويلة ، لم تعترضهم فيها عقبات .. فما إن تجاوزت سيارتهم القديمة « غيزان » ، و « سيدي بالعبّاس » ، ثم وصلوا مدينة « تلمسان » ، حتى عاد شبح الأخطار يراود مخيلتهم ، يضحك الشابان ، مما يراود خيالهما من تصورات غريبة مخيفـة ، ويذكر « مكسيم » أشـلاء صديقيه ، على صخور ذاك الوادي ، فيتساءل في سـرّه ما اذا كانت نبوءة « بيدرو » ستشمله هو الآخـر ..

توجّس خيفةً لمّا سمع رفيقيه يتحدثان عن ممر جبليّ ضيق ، يؤدّي الى « وجـدة » ، على الطرف الآخر من الحدود ، يصل المغـرب بالجزائر ، عبر طريق جانبية ، محفوفة بالمخـاطر !

درب يطرقها الثوار ، لاستحالة وصول وسائل نقل العدو ، أو أسلحته الثقيلة اليهـا ..

أفكار قاتمة عن النبوءات ، راحت تراوده ، على غير عادته ، كان يطردها ، هـازئاً من بدائيّتها !

ما إن وصل منتصف الطريق التي تفصل « تلمسان » عن الحدود ، حتى عرّجوا نحو الجنوب ، باتجـاه سفوح جبال « الاطلس » ، تاركين السائق ، ليتابع طريقه دونهم ، فيسبقهم ، على أن ينتظرهم في مكان معيّن ، بعـد أن يتجاوزوا الحـدود ..

ترجّلوا ، وتسلقوا قسماً من تلك السفوح العالية اليابسة ، حتى أنهكهم التعب .. فما إن وصلوا الى ملتقى ، كانوا قد تواعدوا على التلاقي فيـه ، ووجدوا فيه ثلاثة بغال كانت في انتظارهم ، حتى امتطوها ، فرحين بأن مشقتهم قـد أوشكت تنتهي .. وتابعوا طريقهم ، متفائلين ، نحو الحدود ..

* * *

جنحت الشمس نحو المغيب ، ومالت السماء الى الظلمة ، وهم في صعود صامت ، على ذلك الممـر الضيق الملتوي ..

كان « مكسيم » يقود مطيته ، بين حارسيه ، على بعد خطوات من الشاب الذي أمامه •• يسمع وقع الحوافر فوق الصخور ، وتطاير الحصا من تحتها ، تسقط الأحجار في الوادي ، تجرّ غيرها وراءها •• فيتباعد صوت تدحرجها •• ويذوي ، حتى لا يسمع له ، آخر ••

ما كاد يحلّ الظلام ، وهم لا يزالون على ذلك الممر ، حتى أمسكوا عن متابعة الرحلة ، فتوقفوا برهة يتداولون في أمرهم ، واذا صوت طلقة نارية ، يُسمع من بعيد ••

قال أحد الشباب ، على عجل ••

ــ ليس أمامنا سوى متابعة الركوب •• لنسرع ، ما استطعنا ، لم يبق أمامنا سوى نصف ساعة ، على أبعد تقدير !!

سأل « مكسيم » ••

ــ •• وما هذه الطلقة ؟ ومن أين أتت ؟ هل من جنود على هذه الجبال ؟

ــ •• ولم لا ؟ قد تكون من بندقية فرنسية ، أو من أحد الثائرين ، أو من مهرِّب ، أو من بندقية أحد حراس الحدود •• ماذا يهم ، جميع الاحتمالات واردة •• وفي الظلام ، جميعها خطر !

وإذا صوت طلقة أخرى ، أقرب من الأولى ، يُسمع له صفير طويل ، ثم انفجار ، ذو رنين موحش الصدى !

وكزوا الدوابّ ، يحثّونها على الإسراع ، واذا مطية « مكسيم » تتعثر ، فوق صخرة مرت من تحت حافرها الأمامي ، تكاد تكبو ، فتنهض من جديد ، تحاول أن تسبق المطية التي أمامها ••

أخاف ذلك مطية الشاب الأمامي ، فانطلقت تعدو هاربة من الصوت المفاجىء ، الذي انبعث من ورائها ! لحظات •• واذا بالبغال الثلاثة ، تستبق ، تنفر من أصوات حوافرها ، الموحشة ، يخيفها الظلام •• فتتابع صعودها ، غير آبهة لما على جنب الطريق من منزلقات ، كأنها تهرب من خطر يلاحقها !

ما هي إلا دقائق ، حتى كانوا قد بلغوا قمة المر ، وبدل أن تتوقف البغال عن عدوها ، هوت نازلة ، على الدرب المقابل ، رغـم ما كانوا يشدون على أعنّتها ، متسابقة على غير هدى ، فوق تلك الصخور الميتة !!

كأن قرقعة الحوافر المدوّية كانت إشارة لأحدهم أن يبدأ المعركة ، فاذا بوابل من طلقات الرصاص ، ينبعث في الظلام ، من كل جنب ، يتبعها صداها .. فتختلط الأصوات ، بما راحت تطنّ بـه آذانهم ، من ضربات قلوبهم !!

عاد « مكسيم » لا يرى ما أمامه .. أحسّ كأنه قد أغمض عينيه ، أو فقد بصره ، لا يود أن يرى الهاوية ، اذا ما سقط فيها !!

كان الهواء البارد يلطم وجهه ، فتسيل دموعه قارسة على خديه ! رفع ذراعه ، ليمسحها ، واذا مطيته تعرج الى اليمين ، فجأة ، فكاد يهوي عنها لولا أن مال بجذعه نحو الأمام ، لافاً ذراعيه حول عنقها .. يتمسّك به !!

مرت دقائق طويلة ، وهو على تلك الحال ، أحس خلالها ، كأنه معلّق بين الحياة والموت !! تباعد خوفه رويدا ، رويدا ، ليحل مكانه شعور مبهم بالقدرية واللامبالاة ، كأنه ودّع مرحلة الحياة .. مقبلاً على رحلة الموت .. يعبر برزخاً طويلاً بين المرحلتين !!

اختلط إحساس الحياة والموت ، في نفسه ، حتى عاد لا يميّز ما بينهما من اختلاف أو معنى ! تضاعفت حاسة الشم ، عنده ، فاختلطت رائحة التراب في أنفه ، برائحة عرف مطيته .. وكان وجهه يصطدم بعنقها ، من حين الى آخر .. فلا يأبه للكدمات القاسية التي راح يتلقّاها .. كأن خوفه من الألم ، قد ضاءل من إحساسه به !!

شد ساقيه على بطن مطيته .. وأحكم لف ذراعيه حول عنقها ، بما تبقى له من عزم .. يحاول تجنّب السقوط ، لا يتمنى سوى أن يجنّب جسده الألم !

خفتْ صوت الطلقات ، فجأة ! وتباعد ! حتى بات يُسمع ، مرة أخرى ، كأنه آت من بعيـد !!

أقلعت مطيته عن الهـُويّ والتحدّر ! استوى الدرب ، فتباطأت بعض الشيء ، حتى انتظم عدوها ، فاستوى بدوره ، فوق سرجه ، يحاول جاهدا أن يميز ما حوله من الأشكال ! رأى مطية الشاب الذي أمـامه ، فتنبّه الى أنه لا يسمع سوى أصوات حوافر مطيته هو ، فنظر خلفـه ، يبحث عن الشاب الذي كان وراءه •• فـلم ير له من أثر ••

صاح للشاب الذي أمامـه أن يتوقف ، فلم يردّ هـذا عليه ، وتراءى لـ « مكسيم » أنه يلوّح له بذراعه ، يحضه على الإسراع ، في اتجـاهه •• فما إن لحق به ، وادركه ، حتى سمعه يقول ••

ــ لقد وصلنا ! إن العربة على بعد مسافة قريبة ! عليك بها ! أسرع !!

ــ لكن رفيقك قـد اختفى •• كيف تتركه ؟

صاح الشاب ، وهو يتابع عـدوه ••

ــ •• أعرف ذلك •• لا عليك ! سأعود اليه في الصباح •• أو قد أعود الآن ••

ــ ••لعله قد سقط عن مطيته ! قد يموت اذا ما تركتَه حتى الصباح !!

ــ •• لا عليك •• إن الأعمار بيد الله ! لن يصيبه إلا ما قدر الله لـه ! أسرع •• أسرع ! ها هي ذي السيارة •• عليك بهـا !!

قفز « مكسيم » عن مطيته •• وأسرع يعدو نحو نور العربة التي كانت في انتظاره ، على أهبة المسير ! لحظات ، وكان في داخلها ، يزيح الجبة الوطنية عما أخفته من ثيابه ، ينظر عبر النافذة الخلفية ، الى خيال الشاب الذي لـوّح له بيده مودّعاً ، ثم غاب ، مع المطيتين ، في الظلام !

* * *

تابع رحلته عبر تلك المدن كأنه إنسان آخر •• شبح ، لمـا كان عليه من

قبــل •• لا ذاكــرة له ، ولا مستقبل •• « مليــلة » •• « الحسيمة » •• « تطوان » •• « طنجة » •• عبر البحر ، الى « جبل طارق » •• ومنه ، الى الأنــدلس !

لا •• لن يمر على « بيدرو » ، في « غرناطة » ، ليستمع منه الى نبوءات أخــرى !!

تابع رحلتــه على الطريق الساحلي عبر « المريــة » ، و « قرطاجنة » •• « اليكنته » ، « فالنسيه » ثم « برشلونة » •• يقود دراجته التي ابتاعها من « طنجــة » ، يُبعد طيفي صديقيه ، عن خيــاله ، يعجب لتداخــل وتسارع الاحداث في حياته ، ولا يفهم لذلك من معنى !

كان على وشك أن يترك « برشلونة » حين رأى لافتات عريضة ، قــرأ عليها عبارات الترحاب بوفود دول البحر الابيض المتوسط الرياضية ! فتعجب لذلك ! ومرّ في نفسه خاطر ، ترى أليس من المتوقع أن يكون فريق بلاده بين هذه الفرق ؟ وفي هــذا الفريق صديق عزيز على قلبه ، يجيد الرماية !

تردد برهة •• أين ما كان يملأ صدره ، من ذكريات طفولته ، في بلاده ؟! لكن حنيناً خاطفاً تملّكه فجأة •• ألا يحتمل أن يكون صديقه فعلاً في تلــك المدينة ! ألا يمكن أن يكون لدى صديقه أخبارٌ ، قد يسرّه سماعها !

أوقف « مكسيم » أول عربة أجــرة مرت أمامه ، وطلب من سائقها أن يقودها ، أمامه ، وتبعه ، على دراجته ، الى مركز المهرجان ••

* * *

ســار بعد برهة يبحث بعينيه عن صديقه بين جموع الرياضيين •• فــلم يطــل به البحث •• تناءى الى سمعه صوت شاب يتكلّم لهجــة بلاده •• فاقترب منه ، وسأله عن صديقه •• فما إن تبع إشارة يده ، حتى رأى صديقه ، من بعيد ، منهمكاً في حديث مــع رفاق له ، فخفق قلبه لرؤيته ، وأســرع في اتجــاهــه !

كان صديقه طويل القــامة ، وسيماً ، دائم الابتسام ، دمث الطبــاع ،

كريمها •• وقف يحمل بندقية الرماية على ساعده ، يسامر من حوله من الرياضيين ، ويتأهب للنزال في الموعد المضروب لفريقه ••

ــ •• نعمان !

نظر الشاب خلفه ، يبحث عمن يناديه •• فلما لم يتعرف الى أحد ، عاد يركز وضع بندقيته ، يتابع السمر ••

ــ •• نعمان !

نظر الشاب مرة ثانية •• تفرس في وجه « مكسيم » ، فلم يبد أنه عرفه ! كاد أن يعود ، مرة أخرى ، الى وضعه السابق •• حين ضحك منه « مكسيم » •• وقال ••

ــ ما لك ، يا نعمان ؟! هل نسيت •• « فراس » ؟! ألم تعد تعرف الأصدقاء ؟!

صاح نعمان ، مبهوتا ••

ــ « فراس » !! ما هذا الذي أراه ؟! لعنك الله •• ما هذه اللحية الطويلة ؟! وهذه الثياب البالية ؟!!

أقبل نحوه يضمّه الى صدره ، ويقبّله •• ثم راح يتمعّن فيه مرة ثانية •• ويقول ••

ــ •• يا إلهي ! لكم تبدّلتَ !! أين « فراس » الأنيق ، الذي عرفتُ ! منذ متى أنت في أوربا ؟ منذ أربع سنين •• خمس ؟ يا له من زمن بعيد !!

كان لصوت نعمان ، وهو يتكلم العربية ، في لهجته الدمشقية ، ولوقع اسمه ، « فراس » ، وقعٌ غريب على نفسه !!

« فراس » •• « فراس » •• كان قد نسي هذا الاسم ! ما أعجبه ، من اسم !! عجيب وقع الأسماء الشرقية !!

ــ هيه •• « فراس » •• أين شردت ؟

أخذ نعمان ، ذراعه •• وابتعد به عن رفاقه ، هامسا ••

ــ « فراس » •• إن لك في نفسي من المحبـة ما لأخي ! قل لي ، أيهـا الصديق •• هل أنت في ضائقة ما ؟ هل تلزمك معونة ما ؟ أعلم أنك تعمل في فرنسا ، لتكسب عيشك ! فهل يعوزك شيء ؟ إننا كالأخوة ••

تبسّم « مكسيم » من صديقه •• وتأثر للهفته الصادقة •• فمدّ يـده الى جيبه ، يُخرج منها محفظة تنفقأ نقوداً •• فتحها أمام « نعمان » قائلاً ••

ــ بل أنا في أحسن حال ! إنما أُريك ما معي ، كي تصدقني ••

بهت صديقه ، وتعجّب ••

ــ •• لمـاذا هذه الثياب المهلهلة ، إذن ؟ وهذه الدراجة ؟ أفي أسـرتك من يقبل أن يراك ، بمثل هذا المظهر الرث ؟

أخفى « مكسيم » امتعاضه •• وأجاب ••

ــ •• إنما هي رحـلة ، أقوم بهـا لتقوية عضلات ساقيّ ! والدراجة خير وسيلة لهـذه الغـاية !

انفرجت أسارير صديقه ، بعض الشيء •• وسـأل متردداً ••

ــ وهذه الثياب الغريبة ؟ واللحيـة ؟

ــ إنها فتاة ، ألاحقها هذه الأيام ! وجودية ، اسبانية ، لا تحبّ سوى الوجوديين من الشباب !

أطلق « نعمـان » ضحكة عريضة ، سعيدة •• وصاح ••

ــ •• يا لك من خبيث ! « فراس » •• « فراس » •• ستظل ، أبداً ، على حالك من المهـارة في صيد النساء ! وأنا ، ليس لي سـوى بندقيتي •• أجـد فيها العوض عما ينقصني من مهـارة في قنص النساء !

أحسّ « نعمان » أنه بات في استطاعته الآن ، أن يعاود تفاخره بصديقه ! فاعتلق ذراع « فراس » ، يقوده الى بقية زملائه ، ليشرح لهم طرافة ما سمع !

أوقفه « مكسيم » برفق ، وقـال ••

ــ أرجوك ، لنبق بعيدين عنهم ، برهة أخرى •• حدّثني ، ما أخبـار الأصدقاء ؟! ألا زلتَ على صداقاتنا القـديمة ؟

ــ •• الجميع على ما تركتهم من علاقات ، وصداقات ! لقد أنهى معظمهم الدراسة العالية •• وهم يؤدّون خدماتهم العسكرية ! آه •• نسيت أن أخبرك •• لقد زُوِّجت هدباء ، تزوّجها أحد زملائها ! إنك تذكرها ، بالطبع •• لقد كنتَ معجباً بها ، على ما أذكر ، أيام كنتَ في دمشق ••

بُتر جزء من كيانه !! وراح الجزء الآخر ينظر الى نفسه ، مصعوقاً ، لا يعرف ماذا يقول !

أين تلاشى « فراس » ؟!!

لم يدر ما أحس به « مكسيم » ! سمع في أذنيه ، صفيراً خافتاً حاداً ، ثم عاد صوت « نعمان » ، الى مسامعه ، يتابع كلامه ••

ــ •• لقد آن لي أن أدخل حلبة الرماية •• قل •• « فراس » •• أنت ، هل من جديد عندك ؟ألا زلت تعيش في عزلتك المعهودة ؟ هذا هو « فراس »•• عزلة ، وهدوء ! دأبه الحب والغرام !

هزّ « مكسيم » رأسه •• موافقاً ، وتمتم ••

ــ •• تماما ، في عزلتي المعهودة •• ليس من جديد عندي •• هيا الآن•• اذهب إليهم •• إنهم ينادونك ••

ــ سوف تنتظر نتيجة المباراة •• أليس كذلك ؟ ثم نخرج معاً •• مع بقية الزملاء •• حذار أن تغيب !

ــ بالطبع •• سأقف في ذلك الركن •• في انتظار أن تنتهي ••

ما إن ابتعد صديقه عنه ، وانهمك في الاستعداد للمباراة ، حتى دنا « مكسيم » من أحد زملاء « نعمان » وقال معتذرا ••

ــ أرجوك أن تخبر صديقنا أن أمراً عاجلاً اقتضى غيابي •• إني أقبّله•• وسأكتب له ، من باريس ••

ساعات وكان « مكسيم » على دراجته ، في طريقه الى باريس ••

مرّت أيام ، وبلغ مرة ثانية ، مشارف تلك المدينة ••

* * *

القسم الثالث

الفصل الأول

مرة أخرى ، أحس « مكسيم » أنه يدخل باريس ، هارباً من الشرق ‥ أي « شرق » ؟ لقد تعذر عليه فهم أبعاده ، رغم ما اهتز فيه كيانه ‥ لعل الوقت كان مبكراً ، لكي تسبر جذوره تراب التاريخ ، فتعرف ما تهمل منه ‥ وما تنتقيه من رحيق ‥

* * *

عاد الى باريس ، هذه المرة ، لا حانقاً ، ولا حاقداً على ما خلّفه وراءه ، بل تائهاً ، يستدل في الظلام على دروب مدينته ‥ لهفاً ، للتمشّي في شوارعها ، للعبّ من عبقها ‥

لم يكن في شوق لرؤية أحد من رفاقه ‥ سيسألونه عن « غونثر » ، و « جون » ‥ وبماذا يجيب ؟

أحس بغصّة تخنق حنجرته ‥ لا ! لن يطرق « الحي اللاتيني » ‥ ولا « السان جرمان » ‥ إلا ، وربما ، بعد أن يكون قد اطمأنّ الى حياة جديدة ‥ تنسيه ما تركه من أجواء ! سيذهب لزيارة الأمير « يوسوبوف » ‥ لعل هذا ما زال في حاجة اليه ‥ الى معونته ، في تحضير مذكراته ‥ ثم ‥ إن هي إلا أسابيع ، تبدأ بعدها السنة الدراسية ‥ فيعود الى مشاغل العلم ، وكسب العيش من جديد ‥

عادت الى مخيّلته ذكريات من السنة الفائتة ، ما لبثت أن طغت عليهـا صورٌ من مهرجان النبيذ ، تبدى له فيها وجها « غوتثر » ، و « جـون » ، ضاحكين ، طربين ، يلاحقان الفتيات !

عـاد يطرد هذه الذكريات من ذهنه •• كادت هـذه الخيالات تنسيه فرحه ؛ وهو يدخل شوارع باريس العريضة ، على دراجته ، ودّ ، في البدء ، لو يستطيع أن يغنّي ، عالياً ! لو يربّت على الجدران التي طالما عرفها •• فرحاً بعودته ، واذا بحزن سحيق ، دفين ، يعاوده ! يذكر «الكونتيس دو روكموريل» فيحسّ بثقل جسدها ، على ذراعيه ، وهو يحملها ، ويعود بها جثة هـامدة الى القصر ••

كانت ذكرياته عن باريس ، وأجوائها ، باهتة في خياله ، حين كان بعيداً عنهـا •• ها هي ذي الآن تتواثب الى ذهنه ! يزيح الواحدة منها بعد لأيٍ ، فلا تلبث الأخرى أن تقفز الى الظهـور •• والموت يلوّنهـا جميعاً •• حتى كلمات « جون » الأخيرة ، عن صلة « غوتثر » بمقتل « لويز » ، عادت الـى مسامعه •• ثم الى خيـاله ، في صورة ، مرئية ، واضحة ! فبدا له صديقه ، يدفع الفتاة ، عبر النافذة ، لتلاقي حتفها !! فكادت درّاجته تصطدم بإحـدى الحافلات ، لما غشي نفسه من شرود ووجوم ••

أحس بنقمة مبهمة تنبعث من أعماقه على تلك الذكريات ! وسيطر عليـه دافع راح يحضّه على وضع حدّ لهـا ، ولعالمها !! سحقا لهذه الـ « باريس » التي ترك الشرق من أجلهـا !!

أسرع الخطا ، يحث دراجته نحو شقته في مبادهة وتصميم •• لا بـأس عليه إن تجمعت ذكرياته ، وطغت صورها ، فوق ما كان يجيش تحتها من حزن قديم •• سيقتلع جميع هـذه الصور من نفسه ! سيزيح هـذا العالم ، مـرة واحدة ، عن طريقـه !

لا ! ليس الهـرب طريقـه الى الخلاص منها ! ولمـاذا لا يمر على حيّ « السان جرمان » ؟ لن يبحث عن رفـاق الماضي ، يسامرهم ، لكـن مقهى

« المابيون » ركن عزيز على نفسه ! فما ذنب « المابيون » ؟ سيعرّج عليه •• كما في الماضي •• ويشرب القهوة فيه ! قبل أن يعود الى شقته !

* * *

كم سرني أن أرى قامته المديدة ، النحيلة ، تحجب النور على باب مدخل « المابيون » !

وقف « مكسيم » كأنه يتفقّد معالم المقهى ، قبل أن يدخل ••

رحّب به نادل يعرفه ، ثم أشار الى حيث كنتُ أجلس صدفة •• فقمتُ إليه أصافحه •• أودّ لو أضمّه الى صدري ، لو أقبّله ، لا أدري كيف أُظهر فرحي بلقائه ، دون إثارة انتباه من حولي من الناس !

تقدّم مني ، وهو يقول ••

ـ لم أكن أتوقع أن أراك هنا ! لقد وصلتُ الآن الى باريس !

أحسستُ أنه على مثل فرحتي ، لهذه المصادفة ، يحاول إخفاء مشاعره ، هو الآخر ، فلم أجبه •• وجلست أنظر اليه ، متمعّناً ، يبتسم بعضنا لبعض •• لا نجد في نفوسنا حاجة لتبادل المجاملات !

كانت الشمس قد لوّحت وجهه ، فرسمت على ملامحه خطوطاً معبرة ، لم تكن من قبل ، ورأيتُ على طرف شفتيه ، آثار من اعتاد أن يتبسّم في مرارة !

أدركت أنه قد ارتاح الى صمتي •• فلم أشأ أن أستوضحه أخبار رحلته •• قلت بعد صمت طويل ••

ـ •• لقد نقلتُ جميع حاجاتك من قصر الكونتيس « دو روكموريل »، الى داري •• تستطيع أن تنقلها ، الى شقتك ، في سيارتي ، متى شئت •• لقد تركتَ باريس على عجل •• وتركتَ أمورا كثيرة معلقة وراءك ! إن « جاك » في لهف ، لمقابلتك •• كذلك الامير « يوسوبوف » إنه لا يتوقف عن السؤال عنك ••

ـ •• أية حاجات هـذه ؟ وماذا تركتُ في القصر ؟

ـ •• ماذا تركت ؟! ثلاثة صناديق ، كبـيرة ، وست أو سـبع حقائب ، يا عزيزي !! ثيـاباً وكتبـاً ! والحـاكي ! وأدوات الركـوب ! والصيـد : ولوحات ! وأدوات الرسم ! هل نسيت كل هـذا ؟!

قاطعني « مكسيم » ، سائلاً ••

ـ صحيح •• صحيح •• وما أخبار « باتريس » ؟

قلتُ ، ضاحـكاً ••

ـ •• إنه بخير •• لقد ترك « آن ماري » نهائيا ، لـ « بيبيتا » ! عـاد لا يكترث لرؤيتهما معا ، كما كان يفعل في السابق •• بل انه كثيراً ما يخـرج في رفقتهما ، يذهب الثلاثة معا•• الى المسارح•• وغيرها •• ألم تر «جينيت» ؟ صحيح ، لقـد وصلتَ الساعة الى باريس ! لكن •• لا بـد أنك تودّ أن تستحم ، وتستريح ! تعـال معي ، الى داري •• ليس هذا وقت الذهاب الى شقتك المليئة بالغبـار ! تعـال ! ستستحم ، وتستريح عندي •• ثم تنطلـق بعـد ذلك الى حيث تشـاء ••

* * *

رافقني الى داري ، في صمت من هو في شوق الى أهـله ، ولا يدرى كيف يتغلب على ما يحسّ به من غربة ، أصابته ، لطول غيـابه عنهم ! يتوق الى معانقتهم ! يمنع نفسه ، ويجهد في كبح ما كاد يفيض من عبراتها !

بـدأ يتمتم ، كمن يكلّم نفسه ، يتردد في البوح بما يعتمل فيها ! ثـم سارع في كلامه •• وتبدّلت أساريره الجامدة ، المتوترة •• ليحلّ محلهـا ، حـزن دفين ، بعيـد !

لم أدر ، كيف تدفق كلامه ، يروي لي جميع ما جرى معه منذ أن تـرك بـاريس !

أصابني ما يشبه الهلع لـما سمعت عن موت صديقينا ، وما تعودت بعد

أن أفقـد إنساناً عزيزاً على نفسي ! تركته يفرغ ما أرهقه كتمانه من شعور ، خلال رحلته المحفوفة بالأحزان •• وأطرقتُ ، مسترسلاً مع انطباعاتي ، أصغي الى صوته الواجف •• أتساءل عما يكمن من سرّ وراء تسارع الأحداث ، وتواترها ، في حياة فريق من الناس ، ورتوبها ، وخلوّها من أية اثارة ، لدى آخرين !

كنت صادق الحزن ، لما أسمع •• أحسّ بقصور مُمِض لعجزي عن مواساة صديقي • ورغم ذلك ، طرأت لي فكرة ، أخجلني في البدء ، أنها راودتني ! ثم ازدادت إصراراً ، في نفسي ، حتى قلت لـ « مكسيم » ، وأنا لا أرى بدّاً من مفاتحته بها ••

ــ •• لماذا لا تسجل هذا الذي يمر بك ؟ لماذا لا تكتب ؟

كنّا في داري ، أعدّ الشراب ، أعيد أجواء جلسات الماضي التي افتقدتُها أيما افتقاد ، منذ سفر صديقي ! كان « مكسيم » قد اغتسل ، وجلس في ثياب الراحة ، يستمع الى مقدمة ملحمة القديس « متّى » لـ « باخ » ••

سخر لقولي •• فضحكتُ من سخريته ، قبل أن أستمع الى ما كان على وشك أن يقوله •• فلما تعجّب من ضحكي •• قلت ••

ــ إنما هي •• عادتك •• يا عزيزي ! سخريتك المعهودة ! كنت أكرهها في الماضي •• وأراني الآن في شوق اليها !! حسناً ، هات ما عندك !

تبسّم لقولي •• وأجاب ••

ــ ليس عندي الكثير •• جلّ ما هنالك ، أن الكتابة ليست مهنتي ! ولن تكون ذلك ، في يوم من الايام !

ــ •• أكتبُ ، أنا ، إذن ! هل من مانع لديك من ذلك ؟!

ــ •• إفعل ما تشاء ! وسأعينك في كل ما تطلبه مني من معلومات •• لكنه هدف عقيم ! فالكتّاب باهتو الشخصية •• والرواية مولود ، مهما بلغ من حسن ، فهو أخرس ، أصم !! فلماذا تتعب نفسك ؟!

عجبت لقوله ، رغم ما تعودته من آرائه اللاذعة •• فقلت ••

ــ ألا ترى أنك تماديت بعض الشيء في قسوتك !

أجابني ، على الفور ••

ــ •• وماذا تفعل الرواية ؟ إن للأحداث ، ما للضوء من صفة متكاملة •• تعلم أن الضوء مركّب ، اذا تكسّرت عناصره ، بانت أجزاؤه المتفاوتة ، المتباينة •• كالحدث الذي يبنيه أشخاص متفاوتون ، يتجمّعون ، ليجعلوا منه وحدةً ، مستقلّة ، متكاملة ! أما الرواية •• هذا الكلّ الذي تشكّله جملة أحداث مترابطة •• فكيف يصل الى القارىء ؟! فالضوء وحدة ، تبدو روعتها للعين ، مرة واحدة ! ماذا تستطيع أن تنقل الكلمات ؟ خطوط سود ، على ورق أبيض ؟! ماذا يسكن لهذه الرموز أن تحمل الى قارئها ، سوى الرمز ؟! العين ترى الألوان ، وتحرّك الشعور •• ترى الشفاه الحلوة ، أو المرة ، وهي تتحرك بما تنقله الأذن من صوت رخيم ، أو حاد ، أو موسيقيّ ! وهذه الموسيقى التي تسمع الآن ، مثلاً •• كيف أنقل نغماتها الى القارىء ؟ كيف أُسمعه الفارق بين كلمة « حبيبي » ، مع موسيقى « باخ » •• وبين « حبيبي »، محمولة على أجنحة « شوبان » •• أو « حبيبي »، وحيدة ، تائهة ، مع نسمات الصبح الباردة ؟!

أدار وجهه عني •• يتابع سماع الموسيقى •• وقال كمن يحدث نفسه ••

ــ •• كيف أنقل ، بالكلام المكتوب ، ما رأته عيناي من لوعة « جون » ، وهو يرى « غونثر » يهوي في ذلك الوادي ؟! كيف أُسمع القارىء ، بالرموز السود ، صراخ صديقٍ يقفز الى موت •• وراء صديقه !! هنالك من يظنون أنهم يحسنون طبع الإحساسات على الورق !! انما عالم هؤلاء ، سطحي ، باهت ، يمكن وصفه ! أما أنا •• فلست أدري ما أنا •• إن لي من الإحساسات ما أشعر أنها قد تُمسخ وتنّسخ اذا ما حاولتُ أن أسلّط عليها أضواء الفكر !! إني يا صديقي ، إنما خلقتُ •• لكي أعيش ! لا لكي أكتب ، لا لكي أراقب ، أو لكي أدرس الحياة !!

أدرت قرص الهاتف أطلب «جاك» ، لأنبئه بخبر رجوع « مكسيم » ، فاذا الأمير « يوسوبوف »، في زيارته •• سمع النبأ ، فأصر على دعوتنا للعشاء ، في مطعم روسي معروف ••

قبلت الدعوة ، نيابة عن صديقي ، ثم استدرت نحوه لأقول ، رداً على ما كان يجول في ذهني ، من كلامه ••

ــ •• وما الحياة يا « مكسيم » ، إن لم تكن نسيجاً كبيراً رائعاً من المشاركة والمراقبة ، والدراسة ؟! يغني الإنسان نفسه فيها ، بالتعاطف مع غيره ، تزيده تجارب الناس فهماً لمعاناته •• ويزداد فهم غيره ، لأنفسهم ، باستقبال هذا المزيج من التجارب المتداخلة ! واللغة •• أليست هي وسيلة هذه المشاركة ؟! والأدب ، ابنها الحبيب ؟!

تبسّم « مكسيم » مني ••

ــ •• لا تغرق في الغوص في هذا البحر يا صديقي ! بحر ما يسمونه بالإنسانية •• إنما الناس أفراد ، أجبرها واقعها على التعايش لحماية أنفسها من عوامل الطبيعة ! فالإنسانية ، ساحة قتال ! والناس فيها ، أفراد عزّل ، أو قلاع ثابتة ، أو متنقلة !! أية مشاركة ، هذه التي تتكلم عنها ؟! ماذا يُدخل الانسان الى نفسه من عوالم البشر ، سوى ما يضربه به غيره ضرباً ، وما يحدثه ذلك الضرب في بنائه النفسيّ من تصدّع ، فتدخل خيالات غيره إليه عنوةً ، من الصّدوع التي يخلفها الضرب في جدران النفس !! واللغة ، يا عزيزي ، ليست وسيلة ! إنها أحد أعضاء هذا الانسان القتالي !! ليس لها من أبناء محببة ، سوى من هم في خيالك الشاعريّ !!

ــ أليس من أدب ، أو فن في زعمك ؟!

ــ ما يلوك الإنسان من كلام منمّق ، يسمّى « أدب » اليوم ، كان يعدّ « سوء أدب » منذ عصور !! وستبلغ به السخافة والتفاهة حدّاً يدفع الناس الى إحراق كتبه بالأطنان !! أما الفن •• فما قيمة الرسم ، مثلاً ، لو أن لجميع من على هذه الارض مقدرة ريشة « ليوناردو » ؟ إنها مسألة عرض ، وطلب !!

ـ هبْ جميع الناس استطاعوا أن يرسموا بمقدرة « ليونارد » فهل يفقد بصرُكَ النزوع الى تحسس ما في فنّ « ليونارد » من روعة ؟

ـ .. ليس لأية عين ، مقدرة مستقلة ، إلهية ، تنعم عليها بمفتاح التذوق !! جميع العيون ، رهن بيئتها ! ومقدرتها على الإحساس بالجمال ، رهن ، بما في تلك البيئة من تضارب ، وتناقض ، في مفهوم الذوق ! إن الإحساس بالجمال ، مرتبط بما تعلّمتْه العين ، من قواعد الجمال ، قيمٌ ، فرضتها عليها بيئتها ذاتها ، ثم أوهمتها بأنها قوانين ثابتة ! جميع الافراد يعيشون في دوائر مفرغة ، تدور في فلك بيئتها المفرغة !! أقمار فارغة ، أو محشوة بالسخافات ، تدور في أفلاك مفرغة كبيرة !! شموسُ هذه الأفلاك ، نظمٌ اقتصادية ، تفرض جميع القوانين والقيم !! فما قيمة هذه القوانين ، والقيم ، اذا كانت في تبدّل وتطور دائمين ؟! وما أهميّتها ،في الزمان ، لمن يبحث في حياته عن جذوره الكونية ؟!! عن حقائق كونية !!

ـ .. لكننا ، جميعا ، في هذا العالم ، على حالٍ واحد ، حينما نقاس بما تقول !! ألستَ تتكلم وكأنك تستثني نفسك ؟! ألسنا نخضع جميعا ، لقوانين بيئتنا ؟أين أنت ، من كل هذا ؟!

ـ .. صحيح ! وأنا أجمّع في نفسي قوّة ، أودّ أن أندفع بها بعيدا عن هذه الأفلاك .. ولو كان مصيري في ذلك ، مصير الشهب التي تحترق وتفنى بعد حين !!

ـ .. كنت في رسائلك الى هدباء .. في أحلامك .. تهرب من الشرق ، سعياً الى الغرب ، هرباً من التخلّف التي تركته وراءك ! هذا لو سلّمتُ بأنك شرقي ، أو قبلت بأن لأحلامك عن شرقيّتك ما للواقع من التأثير في نفسك ! فإذا كنت قد عشت في الشرق ، فترة داعبتَ خلالها قيمه ، ومفاهيمه ، ثم هجرته ، عائداً الى الغرب .. أفلا تجد أن عندنا خيراً مما عافته نفسك ، في الشرق ، من مفاهيم ، وقيم ؟!

ـ .. إن الشرق اليوم في تخلفٍ مريرٍ ، نسبة الى الغرب .. أما الغرب

فهو في تخلف أمرٌ ، نسبة الى ما خلقَهُ هو من عالم القيم ، وما يحوي هـذا العالم من شروطٍ لفهم ظواهر هذه القيم •• وإدراك ماهيّتها •• وتحـديد ما لكل هذا من عبث مأساوي بنفوس الغربيين !!

ــ •• أراك لا تتجاوز « سارتر » فيما تقول •• أهذا ما وصلت اليـه ، بعـد جهـد طويل ؟!

ــ •• بل أنا أرفض « سارتر » •• أرفض نتيجة أن ليس هنالك مـن نتيجـة ••

أجبته ، ضاحكـا ••

ــ •• أهـذه هي « النتيجة » التي وصلت اليهـا ؟!

ــ •• قـد يصعب على من يهتدي بمنطق أرسطو أن يفهم ما أقـول ! لكني ، أرفض النتائج •• وأرفض ، البحث ، عن النتيجة •• ولا أرى أني ، في ذلك ، قد توصلت الى نتيجة ! سلبية أو غير سلبية ، مما تنيه اللغات بخلعه على ذلك الحال من مسمّيات ، مشروطة ، وعقيمة ••

صمتنا برهة ، قلتُ بعدها ، متعجّباً ••

ــ أي عالم فكريّ هذا الذي تعيش فيه ؟

أجـاب ، متبسما ••

ــ •• إنما أنا في الغرب ، في الوقت الحاضر •• وستكون لي عودة الى الشرق البعيد •• قبل مضيّ وقت طويل ••

* * *

دخلنا المطعم الذي دعينا اليه •• واذا الأمير ، مع « جـاك » ، وعدد من أصدقائهم ، يترقّبون وصولنا في لهفِ من ينتظر عودة الغائب ! جميع من في المطعم يمرحون ، ويسمرون •• تصدح الموسيقى ، يعزفها أربعة من الغجـر ، يرتدون ثياباً طويلة ، ملونة •• تضرب على الدف ، بينهم ، فتاة رائعة الصوت ، والجمال •• تدور بين الموائد ، تردّد أغانيَ حزينة شجيّة ، تذكّر الحاضرين

بثلوج « سان بطرس بورج » •• بنهر « النيفا » •• وبمن كانوا من العشاق ، يسيرون على ضفافه ، لا يقدسون من الحياة سوى الحنين الغامض ، المبهم •• وعاطفــة الحب !

وقــف الأمــير « يوسوبوف » ، مــادّاً ذراعيه الى الأمــام ، يرحب بـ « مكسيم » ، عن بعــد ••

ــ •• « مكسيم فيدوروفيتش » •• إن هذه ليلة رائعة •• لقد افتقدناك أيمــا افتقــاد ••

وطبع على شفتي « مكسيم » قبلة روسية •• مما فاجــأ « مكسيم » ، فمد يده يصافح الجميع ، ثم جلس مرتبكاً ، حائرا فيما يقول ••

همستُ في أذنــه ، أســأله ••

ــ •• ألم تفتقد هذه الأجواء •• وأنت في شمال أفريقيا ؟

قــال يتبسّم ••

ــ •• كنت في الماضي •• لا أرى فيها ، سوى زيفهــا •• أما الآن •• فأراني أغفر لهــا ذلك ! لا بد أني تبدلت ! فأنا لم أعــد أرى فيهــا سوى « طقوس » ••

ضحكتُ لقــوله ••

ــ هل بت تميل إليهــا حقا ؟

ــ •• إنها حلم هؤلاء الذين يعيشـونها •• وهي في ذلك تشـكّل جــزءاً من واقعهم ! كنتُ ، في الماضي ، أكره أن أرى هؤلاء القوم يترقّبون الساعة العاشرة ، ساعة السمر ، والفرح ، المفتعلين ! الفرح المقرّر ! الفرح اللاإرادي !! يجلسون حائرين ، في بيوتهم ، قبل حلول موعد ساعة الفرح ! فما إن تدقّ •• حتى يتأهبوا لليل راتب •• يرتدون المتكلّف ، والغالي ، من الألبسة فيخرجون الى الفــرح •• مصممين ، ألاّ يعودوا ، بعد العشاء ، الى بيوتهم ، إلا وقــد تزودوا من السرور بمقدار ما أنفقوا مــن نقود ، وما تزودوا به من طعــام !

وكثيرا ما يعودون وليس في زادهم سوى الضجر ! لكني ، اليوم ، لا أنظر الى كل هذا ، إلا من منظاره البسيط •• فماذا يضير الإنسان لو تهيأ للعشاء ، والسهرة ؟! وما الضيم في أن يرتدي من الثياب جميلها ، فيضحك ، ويمرح ؛ في هذا الجو ، وفي هذا الإطار الصغير ، المترف ، من باريس ؟! لا شك أنه ظلم اجتماعي ، ألا يستطيع كل من في باريس أن يتنعموا بمثل هذه الأجواء ، أو أن يصيبهم الضجر فيها ، وضمن أطرها المترفة ، كل ليلة !! اذا لم يجدوا طريقة خيراً من ذلك ، لتمضية الوقت ! لكن حرمان الكثيرين منها ظلماً ، لا يعني أنها ملفّقة •• أو قبيحة !!

ضحكت لقوله ، مرة ثانية •• وقلت ••

ــ لقد عدتَ حقاً الى أصلك ، يا عزيزي !!

سمع الأمير جوابي •• فتدخل قائلا ••

ــ « مكسيم فيودوروفيتش » •• لم يترك أصله يوماً ، يا صديقي ، لكي يعود اليه !! أقول هذا ، رغم أني لم أستمع الى ما كنتما تقولان ! على أية حال ، سأعمل جهدي في المستقبل كي لا تضطره الظروف الى السفر بعيدا عنا ، مرة أخرى !!

وراح يحدثنا عن القصر الذي أعاد القانون ملكيته إليه ، رغم نفوذ الحكومة المعارض ! ويشرح المأزق الذي أوقعته فيه تلك الملكية ! فالملكية الخاصة ، في فرنسا ، أمر مقدّس ، وقانون « نابليون » ، يُجبر المالك على المحافظة على سلامة ما يملكه من أبنية ، بصرف النظر عن قدرة المالك المالية •• يمنعه من إهمالها خوفاً من أن تتردّى ، مع الزمن •• فما بالكم ، اذا ورث الإنسان ، قصراً ، تاريخياً ، يحتوي على سبع وأربعين غرفة •• لا يعرف كيف يحيله الى مشروع تجاري مثمر ، نظراً لعدم فهمه لهذه الأمور •• ويجد نفسه ، في الوقت ذاته ، مجبراً على التكفل بمصاريف صيانته الباهظة •• علاوة على قيمة الضرائب المترتبة عليه !

قال « مكسيم » ••

ـ ولماذا لا تؤثثه ، بعـد إعـادة زينته ؟! ثم تطرحه للبيع !

ـ •• هذا بالضبط ما أردت أن أحدثك عنه •• ليس عندي من يشرف على مثل هذا العمل •• غيرك ، يا « مكسيم فيودوروفيتش » !

* * *

ولم تمض الساعة الأولى من ذلك العشاء ، حتى كان قد أتمّ اتفاقه مـع « مكسيم » على شروط إشرافه على تنفيذ هذا العمل •• علاوة على مساعدته لـه في ترتيب مذكراته وترجمتها ••

كانا يتهامسان في ودّ لفت انتباه وعطف بقية المدعوين •• يضحك الأمير ضحكته الرخمة ، الشابة ، لملاحظة من « مكسيم » •• ويقطّب هذا ، لملاحظةٍ ما ، متأفّفاً ، صاغراً •• كأنه مجبر على إطاعة قريب مسن له ! فما إن رفـع الأمير كأسه ، يشرب نخب اتفاقهما ، في حماسة محبّبة •• حتى مال « جـاك » على أذني ، وهمس ، قـائلا ••

ـ لقد انتقل صديقك من رعـاية أمه الفقيدة •• الى رعاية أبيه ! لـم يطل البقـاء ، وحيداً •• في العـراء !

* * *

سرعان ما تبدّلت الأجواء الخارجية لعالم « مكسيم » •• صـار دائم التنقل ، بين باريس ، و « سـان مالو » ، حيث قصر الأمير •• يشرف بدقـة متناهية ، على ما يقوم به المهندسون والعمال ، من ترميم ، وتزيين •• يتنقّل مع الأمير ، بين معارض باريس القـديمة ، الفخمة ، ينتقيان للقصر ما يناسب عصره ، من تحفٍ ، وأثاث •• يعودان الى دار الأمير الفسيحة في « نويّي » ضاحية باريس الأنيقة ، يتناولان الطعـام ، على مائـدة تضج بأواني الفضة والكريستال الثمين •• ثم يجلسان الى عملهما ، على الشرفة المظللة ، المطـلة على الحديقة المسوّرة •• واذا كان الجو غائماً ، أو بارداً ، يلجأان الى غرفـة

المكتب ، يقوم الأمير فيهـا بتصحيح مذكّراته ، أو بالمطالعة ، بينما يستغرق « مكسيم » في ترجمة تلك النصوص المشوّقة الممتعة ..

ألِفَ « مكسيم » حياة الأمير الباريسية ، الذي لم يكن يذكر ماضيه الحافل ، في روسيا ، إلا حين يعود الى مذكّراته ..

أطلعتـه تلك الأوراق على تفاصيل مذهلة عن حيـاة الطبقة الحاكمة في روسيا ، إبان الثورة وقبلها ، ما كان في وسعه أن يصل اليهـا ، لولا أنه راح يستوضح الأمير « يوسوبوف » عن أمور ، كان يُشار اليها ، باقتضاب ، في تلك المذكرات ، يومىء الأمير اليها ، دون أن يفصّلها ، كعادة رجـال الحكم ، اذا ما هم عكفوا على كتابة الذكريات ..

* * *

ــ ماذا أخبرك يا « مكسيم فيددوروتش » عن تلك الحقبة ؟ يظـن من يقـرأ كتب التاريخ ، اليوم ، أنه لم تكن في روسيا في ذلك الزمان سوى حياة البلاط ، من جهة .. وتعاسة ملايين « الموجيك » من جهة أخرى ! أتـدري ؟ كان بودّي لو أكتب عـن تلك الأيام ! ولو كنتَ كتبت .. لقرأتَ آلاف الصفحات عن روعة الحيـاة ، على الأرض الأم .. آلاف الصفحات لا يجيء فيها على ذكر القيصر ، أو تعاسة « الموجيك » ، إلا فيما ندر !!

تعجّب « مكسيم » ! ونظر الى الأمير ، كأنما يستوضحه غرابة ما كان يقول .. فتابـع الأمـير ..

ــ .. هل تقرأ اليوم تفاصيل « أدبية » عن تعاسة الفلاحين ، أثناء الثورة الفرنسية ؟ هل يبدو لك تاريخ فرنسا إبّان تلك الحقبة من خلال أدبائها ، خالياً من الحيـاة ، عـدا بؤس فلاّحيها ، وغرور ملوكهـا ؟! وماذا عن انكترا ، الصناعية ، في بداية هذا القرن ؟ وهل أهمل الأدب في انكلترا ، كل شـيء ، ما عدا بؤس عمّال المناجم ، وغطرسة « فيكتوريا » ؟! إنما نحن في روسـيا المقدسة ، كالأسرة الكبيرة ، التي يظهر فيها عبقري .. فتطغى شهرته على ذكر

بقية أفراد أسـرته ! رغـم ما لكل فرد فيها ، من مكانة ! إن شـهرة ثورة « البولشفيك » ، اللعينة ، طغت عندنا ، يا عزيزي ، على كل ما عداها !! فـلا يهتمّ المؤرخون اليوم ، الا بالذين ساعدوا على نجاح تلك الثورة ، أو وقفوا ضدّها ! سواء في ذلك الأدباء والفنانون والفلاسفة ورجال السياسة !!

سـأله « مكسيم » متردّدا ..

ــ .. وهل يشمل هذا « راسبوتين » ؟

ــ .. بالطبـع !!

وتوقدت عيناه فجـأة .. ثم قـال ..

ــ .. وإلا ! فما معنى أن يقـال إنّي قتلته لأسبابٍ سياسية ؟! كأني كنتُ غارقاً ، حتى أذنيَّ ، في تلك السخافات !! لا يا «مكسيم فيودوروتش» .. إن مثلي لا يثور و « يقتل » لأسباب سياسية !! إنما هذه انفعالات الرعـاع ! أتركها لمن يمتهنون القتل ، ممن يلقبون أنفسهم ، ثواراً !! شأني و «راسبوتين» كان شـأناً آخر ! لقد انهـال بذَكَره على نساء البلاط يسوطهن به ، كمـا ينهـال محدثو النعمة ، بالسوط ، على ظهور « الموجيك » !! ولم نثرْ ، في البلاط ، لذلك ، ولم نغضب !! بل تسلّينا ، في بادىء الأمر ! فالرجال يظلّون رجـالا ، على مرّ العصور ، ومواقفهم مـن الجنس ، تبقى متشابهة ، مهمـا تقلّبت مهنهم وأوضاعهم الاجتماعية ! تغلي غرائزهم أمام الجميلات من النساء ، مهما اختلفت مكانتهم على السلّم الاجتماعي ! تصور ، أن ذلك الراهب اللعين راود زوجتي ، الأميرة « ناديا فاسيليفنا » عن نفسها ! فأوقَفَتْه عند حدّه ، بما كانت تُنقته ، رحمها الله ، من ازدراء !! وانتهى الأمر عند ذلك الحـد !! أما أن يلجـأ ذلك الشيطان ، الرهيب ، الى الشباب !! أن يتوجّـه ، بشبقه الجهنمي ، الى فتية البلاط القيصري .. أن يستغل ما له من نفوذ ، وقـدرة « مزمرية » ، للدخول الى مخادعهم !! لا شهوة بأجسادهم ، الفتيّة !! بـل كرهاً لهم ، ونقمة عليهم !! وإمعانا منه ، في محاولة الحطّ من كرامتهم ، ومن كرامة أهلهم !! فذلك ، أمـر ، أغفله التاريخ !! لكنه أمـر ، ما كان لي أن أسكت عنه .. أو أقبل به ، صاغراً !!

فتح « مكسيم » عينيه ، عجباً ، لما سمع •• فتابع الأمير كلامه ••

ـ •• نعم يا عزيزي !! لقد راودني ذلك الراهب الدنيء ، عن نفسي !! وكان لي خمسة وعشرون عاماً من العمر ، ثم لقي مصيره على يدي !! لا تسيء فهمي •• فإن معركتي معه ، لم تكن معركة جنس ! فأنا لم أكن أكره هذه النزعات •• لقد كانت معركة كرامات ! وانتصرتُ لكرامتي ، رغم ضعف جسدي النسبي ! لقد انتصرتُ •• وأيما انتصار ، على كل ما كان له من قوة ، وجبروت !!

ـ •• هل صحيح أمر ما تناوله من سم ، فيما قدمتموه له من طعام ، أثناء تلك الليلة ؟ هل يعقل أن يتناول سبع فطائر مليئة بالسم « السايانايد » •• علاوة على ماتناوله من حلوى مكسوة بذلك السم ؟ دون أن يتأثر بها ؟!

ـ •• نعم ! هذا صحيح !! وفطيرة واحدة كانت كافية لقتل أي إنسان !! المشكلة يا « مكسيم » ليست فيما يحيط بالإنسان من واقع •• بل بمقدار ، وكيفية ، فهمنا لهذا الواقع !! لقد زادت شهرة « راسبوتين » ، حتى بعد موته ، نظرا للبرهن القاطع !! الذي ظهر للناس ، إثر ما ذاع من نبأ هذه الحادثة ، يؤكّد ، للبسطاء ، مقدرته الخارقة على مقاومة السم !! من كان يعلم أن السم الذي استخدمناه ، لمحاولة قتله ، يبطل مفعوله ، أو يكاد ، حين يمزج بالسكّر ؟! لقد مزجنا له السم بالحلوى ! فبطل مفعوله •• هذا كل ما في الأمر !! ونحن في ذلك الوقت ، لم نكن ندرك ذلك ! هذه حقيقة علمية ، لم تكتشف إلا في السنة الفائتة ! أكّدها لي مدير معهد الأبحاث البريطانية ، في لندن ! لقد مضت أربعون سنة •• وليس في الناس من يعرف كيف يفسر قدرة « راسبوتين » على مقاومة السم ، إلا اذا نسبت اليه قوى خارقة ، تفوق قوى الطبيعة ! واذا اللغز يزول •• وتفسّر المعجزة ، بسبب علميّ بسيط ، كان مجهولاً ، في ذلك الحين •• وظلّ خافياً عن الناس ، حتى السنة الفائتة !!

* * *

كانت الساعات تمضي ، والأمير « يوسوبوف » ينبش الماضي ، ويعيد سرده ، وترتيب أجزائه مع « مكسيم » ، حتى غدت تلك ، لعبته المفضلة ، وأصبح « مكسيم » ، جزءا من ذلك التاريخ ، يشترك مع الأمير في تفنيد الأمور ، ويساعد في الكشف عن دوافع من عاشوا في تلك الحقبة ، من شخصيات ، كان لها شأنها في تحريك الأحداث وتسييرها !

قاده ذلك العمل للتعرف الى الأمير « نيقولا » ، وعدد من الجنرالات البيض .. ثم الى رهط كبير ممّن تبقى من أفراد الحاشية القديمة ! أناس ، كان الامير « يوسوبوف » قد ملّ لقاءهم أو استقبالهم في داره ، وسئم مدّ الولائم لهم .. فدعاهم جميعاً مرة واحدة ، ليتعرف « مكسيم » إليهم .. ثم أخذ بعد ذلك يحدّثه عن أخبارهم الخاصة ، يناقشه الرأي في مزايا هذا ، وعلل ذاك .. ويخصّان بصداقتهما نفراً من القوم ، ممن يقدرون على إنارة زوايا الماضي المعتمة بنور كاشف .

كثيرا ما كان يتشعّب الحديث الى حياة القيصر في أسرته وبين أولاده .. فيمرّ ذكر ابنته « انستاسيا » ، التي قيل إنها نجت من الموت الذي لحق بأبويها وأخيها ، وأخواتها الثلاث !

قال الأمير « يوسوبوف » يوماً .. بعد أن رفع رأسه فجأة ، وكان مستغرقاً في القراءة ..

ــ ما رأيك يا « مكسيم فيودوروفيتش » ، في زيارتها يوماً ؟

سأل « مكسيم » مستوضحا ..

ــ زيارة من ؟

ألقى الأمير الكتاب على ركبتيه ، ورفع يديه في وضع حائر ..

ــ .. ابنة عمنا ، ومن غيرها ؟ الدوقة الكبيرة ، « انستاسيا بتروفنا » رابعة بنات القيصر .. وريثة العرش القيصري .. والتي تأبى المحاكم أن تقرّ لها بنسبها ، أو التعرّف إليها ! مسكينة « انستاسيا بتروفنا » ! لقد ذكرني ،

ما كنت أقرؤه الآن بها ! إنها تعيش في وحدة قاتلة ! لا تترك المصحّ •• وترفض أن يزورها فيه أحــد !

ــ •• وهــل هي في باريس ؟

ــ •• العالمون بذلك قــلة •• يظن الكثيرون أنها تعيش في ألمانيــا •• لقد أساء اليها الناس ، والصحافة •• والمحاكم ••

ــ وكيف أزورها وهي ، كما تقول •• ترفض مقابلة أحــد ؟

ــ •• كنت في حديث معها على الهاتف ، منذ أيام •• وطلبَتْ مني أن أساعدها في إيجاد من يقرأ لها •• فهي تهوى المطالعة •• مسكينة « انستاسيا بتروفنا » •• لم يتبقَّ لها ، من لذات الحياة ، سوى لذة المطالعة ، والموسيقى•• لكن التحديق في الكلمات المطبوعة •• يجهد نظــرها •• وأنا أقترح عليك ، إذا راقتك الفكرة ، أن تنهض بالعمل ، وأن تعده عملاً إضافياً ••

ضحك « مكسيم » متسلّياً •• وقال ••

ــ •• أما هذا ، فلم يخطر لي على بال ! لقد جرّبت حظّي ، في جميع المهــن •• أما القراءة لإنسان •• فهذه متعة ، لا عمل !

تدخــل الأمــير قائلاً ••

ــ لا تستبق الأمور يا عزيزي •• فقد لا تروق بعضكما صحبة بعض . رغم أني واثق من العكس •• أما « متعــة » القراءة ، هذه •• فإني أؤكــد لك ، أن في ما تختاره « انستاسيا بتروفنا » من مطــالعة ، مفاجئة ، لأصلب الناس عوداً ! فهي ذات مزاج غريب ، خاص •• لا تقــرأ ما يقرؤه الناس ! لا تبحث إلاّ عن الغريب الشاذ !

ــ لا يزيدني هــذا إلا شوقاً الى مقابلتها !

ــ •• حقــا ؟!

وتوقدت عينا الامــير ، كعادته ، حين تروقه الأمور •• فهــزّ رأسه في عجب •• وقــال ••

ـ عجيب ! كيف لم أفطن الى الجمع بينكما ، من قبل ! يا إلهي •• بل إنك يا « مكسيم فيودوروفيتش » قد تقدم الى تلك المسكينة ، ما لم يقدمه إنسان غيرك ، من قبل ! إن لك موهبة النفاذ الى أعماق الناس •• وهذه صفة نادرة ! ولو قدر لـ « انستاسيا بتروفنا » أن تقابل رجلاً يضارعك ، لما تدهورت صحتها •• حتى بلغت بها شدتها حداً ، اضطرها الى أن تسجن نفسها ، بين جدران مصح نفسي يقصيها عن العالم !

بُهت « مكسيم » لكلمة الأمير الأخيرة •• أدرك « يوسوبوف » ذلك•• فأردف ، مطَمْئناً ••

ـ •• لا •• لا ليس بها مس ، يا عزيزي ! إنها مصحات ، اخترعتها باريس لمن لا يعرفون أين ينفقون نقودهم ، من المرضى ! والمتمارضين !! دور ، يعيش فيها المترجحون بين الصحة والمرض ! إنها دور للعلاج ، والنقاهة ، تجمع من الناس ، ومعظمهم فنانون ، وكتاب ، من لا يشكون سوى إرهاق طفيف ، وفيها من المرضى ، الأثرياء ، ومنهم الارستقراطيون ، من لا أمل في رجوعهم الى عالم العقلاء !

توافدت الى ذهن « مكسيم » جملة من الأخبار والأقاويل كان قد سمعها عن تلك السيدة •• فراقته زيارتها ، وتعرفها •• فقال ••

ـ •• حسناً •• وكيف أذهب ؟ هل أصل المصح وأسأل عن الدوقة « انستاسيا بتروفنا » ؟

ـ •• لا •• لا ! مهلك يا عزيزي ! أولا ، انها لا تعرف بهذا الاسم ، في ذلك المصح ! بل باسم زوجها الثاني •• ثم ، إنه يجب التحضير لمثل هذه الزيارة ! طلب موافقة الطبيب •• ثم انتظار أن تكون « انستاسيا بتروفنا » في وضع نفسي ملائم ، تستطيع فيه مقابلة الغرباء ! لقد أنبأتك أنها شخصية فريدة ! لكن ، ما دمتَ قد وافقت على فكرة الزيارة ، وما دمتَ متحمساً لها ، فسأعملُ على تحقيقها ، في أول فرصة مناسبة • إن المصح الذي تعيش فيه ، غير بعيد على شقتك •• في الطرف الآخر لغابة « فانسين » •• والآن فلننس هذا الحديث ، ولنعد الى عملنا !

الفصل الثاني

سرّ « مكسيم » أن مصح الدوقة « أناستاسيا » غير بعيد عن مكان سكنه . لطالما لمحَ السور المديد ، الذي يحيط بحدائقه الفسيحة ، دون أن ينتبه الى أن بيوته الأنيقة كانت معدّة لسكن الموسرين من المرضى ، لا الخاصة من الأصحاء !

بدا المصحّ كأنه جزء كبير من غابة « فانسين » ، اقتطعه منه ذلك السور الحجري القديم .. وتناثرت بين أشجاره ، الباسقة ، الظليلة ، دورٌ أنيقة متفرقة ، ذات طابع قديم ، عريق ، تُطلّ على بحيرة الغاب ، من طرفه الشرقي ، البعيد عن المدينة ..

سار الهوينا ، يقترب من السور ، حتى حاذاه .. فتمشّى الى جانبه ، يحاول أن يلتقط سمع ما وراءه من أصوات ! فلم يأته سوى الصمت ، وحفيف الأشجار ، تتموج أغصانها لنسمات الخريف العَبِقة .. فتتساقط أوراق الحور ، والسنديان ، في وداعة وهدوء .. فتكسو الارض بغطاء فريد ، متماوج .. على درجات متفاوتة من اللونين الأحمر ، والنحاسي ..

وصل فتحة السور العريضة ، وإذا هو أمام ثلاثة أبواب حديدية ، متداخلة ، بين عامودين حجريين ، على كل منهما ، فسقية منحوتة قديمة ، تتدلّى من جوانبها نباتات خضراء ، تصل أوراقها المتشابكة الى مستوى زرّ كهربائي ، كاد يختفي وراءها ..

ضغط الزرّ .. مرة .. ثم مرتين .. الى أن سمع نباح كلب صغير ،

يقترب من الباب ، ثم وقع أقـدام ، تسير متثاقلة ، فوق أحجار ناعمة ••

فتحت كوّة صغيرة ، في أصغر الأبواب الثلاثـة •• فبدا منها وجـه حارس مسن •• تمعّن في وجه « مكسيم » •• ينتظر أن ينبئه عمن هو قـادم لزيارته ، من سـكان المصح •

قـال « مكسيم » ••

ــ •• مدام « ستيوارت » ، من فضلك ••

هز الحارس رأسـه موافقا ••

ــ •• وهل تنتظرك السيدة ؟ لحظة لو سمحت ••

وغاب يسأل الطبيبَ الإذن أولاً •• ثم يستوثق من موافقة السيدة ••

لحظات•• وإذا الباب المتوسط ينفرج ، تلقائياً•• ليدخل منه «مكسيم» ، يتخطى عتبة عالية •• ويتقدم نحو سكنٍ ، أومأ الحارس له ، أن يتجه إليـه ، وهو يقـول ••

ــ هل يتفضّل السيد بالتمهل، عشر دقائق •• في الحديقة ، قبل الدخول ؟

أنبـأه إحساس داخلي •• منذ أن تقدم من سور المصح القديم أنـه يقترب من عالم طال بحثه عنه ، في أوربا !

فما إن ولج عتبة الباب ، وراح يتمعّن فيما وجد نفسه في وسطه فجـأة ، من معالم القرن التاسع عشر •• حتى تملكه يقين من أنه وصل ، أخيراً ، الى ما جـاء يبحث عنه ! وان جميع ما مرّ به خارج حدود ذلك السور ، وقبـل تلك اللحظة ، من قياس الزمان ، إنما كان مضيعة من الوقت ! ملهـاة ، تسلّى بهـا •• وما ترك الشرق ، وجاء الى أوربا كي يمرح ويتسلى !!

تركزت روح جميع لوحات الانطباعيين ، أمام عينيه ، وهو يسير الهوينا بين تلك الأشجار ، ويداعب كلب الحارس ، الأبيض الأليف ••

كانت جدران المساكن المتناثرة في أرجاء ذلك الغاب ، لا تزال على الرونق

الذي عرفته أوربا في أول القرن العشرين ، تحتفظ بلونها الأبيض ، أو البرتقالي ، أو الترابي •• يغطّي أسطحتها ، قرميد ، زاهي الحمرة •• ومن شرفاتها ، تتدلى النباتات ، والأزهار ، فتكحّل الجدران ! يُرصعها جميعاً ما تناسق فوقها ، من عشب أخضر ، كسا الأرض ، وتناغم لونه مع رؤوس الأشجار الباسقة ، المتراصة ، التي تجمّعت في غطاء متماسك ، يحجب السماء •• وأوت ، الى سكونه ، وأمانه ، مئات البلابل والعصافير !

لم ينل جمال ذلك المكان من نفس « مكسيم » ، قدر ما نال منها قِدَمُ تلك البقعة من العالم ، وانقطاعها عما هو خارج سورها ، ثم التفات من كانوا يتنقّلون ، ويعملون ، في أرجائها ، الى عملهم ، في إيقاع سلفيّ ، بالغ الهدوء ، والاتزان •• إيقاع ، نقله في الحال الى ما كان لباريس في خياله ، من صورة لا تمت الى القرن العشرين بصلة !

جلس على أحد المقاعد الخشبية العريضة ، يتابع مداعبة كلب الحارس ، ويراقب بعض المرضى الذين بدوا في ألبستهم ذات الطُرُز الغابرة كأنهم زائرون نزلوا تلك الحديقة ، يتنزهون فيها ، لا مرضى ، مقيمون في ذلك المصح ! الى أن تقدمت منه ، إحدى الممرضات ، وأشارت اليه أن يتبعها ••

سار وراءها نحو دارٍ بيضاء ، ذات دورين ، فوقفت الممرضة عند مدخلها ، وقالت ••

ـ •• مدام « ستيوارت » تقطن الدور العلوي •• تفضّل بالصعود إليها •• إن مرافِقَتَها الخاصة ، ستكون في استقبالك ••

* * *

ارتقى« مكسيم » السلم ، ينظر الى أعلى ، وإذا وجه فتاة جميل ضحوك ، يطلّ عليه •• ما ان وصل اليها ، حتى وقفت ، عرض الباب ، قبل أن تسمح له بالدخول ، وقالت ••

ـ أنا « أوديل » مرافِقَة المدام « ستيوارت » !! سترى أني أجمل منها

بكثير !! عليك الانتباه إليّ ! أنا الأخرى •• وإلا !!

ثم تنحّت جانبا ، وفتحت له باب غرفةٍ ، بدت كأنها أعدت للانتظار ، دخلَها ، لا يدري كيف يفسّر تصرف المرافقة ، الغريب ، وإذا هو أمام باب غرفة أخرى ، حيث كانت تنتظره الدوقة « اناستاسيا » ، جالسة أمام البيانو ، تعزف لحناً هادئاً لـ « بيتهوفن » ••

لن ينسى ما عاش ، وقع تلك الزيارة على نفسه !

وقف برهة قرب الباب ، ريثما أتمّت الدوقة ، ما كانت تعزفه •• ينظر مسحوراً الى ذلك الوجه الغريب !

لم ير في البدء سوى عينيها ! طغى ما توقدتا به ، من نظرة ، على شحوب وجهها ونحوله ، فما إن تبدّدت آخر أصداء النغم ، ونهضت السيدة لاستقباله •• حتى بُهت لطولها الفارع ، لهزالها الشديد ، لجمال تينك العينين السوداوين ، المتّقدتين ، تبدوان كدرّتين عجيبتين ، ساحرتين ، تملكان وجهها النحيل ، الناصع البياض •• وتزينان ضحكتها المؤهّلة الصبوح !

كانت ترتدي ثوباً أبيض فضفاضاً ، لا تاريخ له •• يكشف عنقها ، وكتفيها النحيلين •• ينساب نحو الأرض ، تجر ذيله خلفها !

تقدمت منه ، تمد له أطراف أصابعها •• فلثمها ، دون أن يزيح ناظريه عن عينيها •• واتخذ مقعداً حيث أشارت إليه بالجلوس ، لا يلتفت إلى ما كان فيه ، كأنه غارق في حلم غريب !!

تمددت الدوقة « اناستاسيا » فوق غطاء سريرها ، مسندةً رأسها على ذراعها المنحنية •• فانساب ثوبها ، يجلّل جسدها النحيل ، حتى بلغ قدميها الدقيقتين ، اللتين لفهما شباك متضافر ، ذهبي ، بانت من خلاله أطرافها ، متناسقة ، رشيقة ••

نظرت الدوقة « اناستاسيا » الى ضيفها برهة طويلة ، تبتسم له في ودّ مؤهّل ، متفحص ، غريب •• دون أن تتكلم •• و « مكسيم » مأخوذ بما

رآه حولها من هـالة عريقة في النبل •• أخـّاذة •• ينظر اليهـا ، لاهياً عن صمتها •• مأخوذاً بها ، ينتظر أن تبـدأ الكلام !

سمع صوتها الهادىء المرهف يقول له ••

ــ •• إن وصفك يطـابق شـكلك ، تماماً •• لقـد حدّثني الأمـير « يوسوبوف » مطوّلاً عنك •• هل « مكسيم » هو حقاً اسمك ؟

بوغت « مكسيم » لسؤالهـا !

ما كانت آداب اللياقة تسمح لمضيفة مثلها بأن تشكك من حقيقة اسمه •• منذ اللقـاء الأول ! لكن شيئاً في لهجتها أنبـأه أن قصد الدوقة « اناستاسيا » كان غير التحرّي عن هويّته •• غير ما يبدو ، لأول وهلة !

أحسّ أنها لا تكترث لأي واقع كما يتجلى على ظواهره ، أمامهـا •• كأن لكلّ واقـع ، في مقاييس عالمها ، وجوهاً أخرى ، لها الحق في أن تمـدّ انتباهها إليهـا !

قالت باللهجة الهادئة المهذّبة •• نفسها ••

ــ •• لا تعجب ، لسؤالي •• فأنا قلـّما أُنادى باسمي الحقيقي •• لقد كثرت أسمائي حتى بتّ لا أعرف من أكون ! لذلك ، أراني اليوم ، أجـد ، أن الحقيقي منها ، هو ما أختاره أنا ، ممـّا يناسب طباعي ! وهذا يتبدّل مـع أهـوائي ، والزمـان !

تنازعت « مكسيم » عوامل متضاربة ، وذكريات عديدة عن نفسه ، وهو يستمع اليها •• واذا هي تتابع قولهـا ••

ــ •• فأنا مثلاً •• لا أجد أن اسم « مكسيميليان » يناسبك تمامـاً •• إنّ لفيه كثيراً مما يطابق شخصيتك •• الخارجية منها ، بالطبع •• وأنا لا أحب ما « يراه » الناس ! دعني أفكر •• دعني •• أفكر ••

صمتت برهة •• وقالت في لهجة طفلة وجدت لعبتها ••

ــ •• « ميشكا » أنت « ميشكا » ! ليس في ذلك أدنى شـك !!

فتح « مكسيم » عينيه حيرة ، وعجباً لما سمعه ! ثم تمالك نفسه •• وقال مبتسماً ••

ــ •• صحيح ؟ لم لا ! مصغّر اسم « مكائيل » •• وأنت ؟! لا بد أنك رأيتِ دهشتي في عيني ، منذ أن دخلت هذه الغرفة ••

ثم قال يحاكي لهجتها الهادئة ، المتفحّصة ••

ــ أنت ؟ دعيني أفكر ! دعيني •• أفكر ••

ثم قال فجأة •• بلهجة صادقة ، لم يتعمّدها ••

ــ أنت ، « لــورا » ! ليس من اسم يناسبك مثل « لــورا » !!

قفزت الدوقــة « اناستاسيا » من فراشها ، مستوية ! وانحنت تجــاهه ممسكة بيديه •• تقول مستعطفة •• متلهفة !

ــ هــل تقسم لي ، أن الأمير « يوسوبوف » ، لم يطلعك على اسمي هذا ؟ « ميشكا » ؟ هل تقسم لي ، بكل ما هو مقدس عندك ؟ هل تقسم ؟!!

فتح « مكسيم » عينيه حــيرة ، واستغراباً ، لانفعالها المفاجىء ! وطغى ملمس يديها على إحساسه ، فقال واجفاً ••

ــ •• صدّقيني ! أنا لم أسمع بهذا الاسم •• أو بغيره ! مقروناً بك ! فالأمــير لــم ••

ــ •• يا إلهــي •• كنتُ أعــلم أنك صادق في قولك •• لقد قالت لي العرّافة ، انك آت ! لكني لم أصدقها ! لا يمكن للأمور أن تحدث هكذا ! وبهذه السرعة ! كما تحدث في الحــلم !!

وانزلقت على طرف سريرها ، لكي تجلس على الأرض •• قبالة مقعــد « مكسيم » الذي حــار كيف يُبعد قدميه عما تدفّق من ثوبهــا ، الأبيض الحريري •• أمــامه ••

نظرَتْ في عينيه ، وغاصت فيهما •• فاضطربَ لنظراتها •• ثم خفضت رأسها ، تنظر الى ركبتيه وساقه ، ثم حذائه ••

مدّت ذراعها ، تلامس حذاءه بطرف أصبعها الدقيق •• ثم علت بيدها تمر ، بظهر أصبعها ، حيثمرت عيناها من قبل ، على ساقه ، ثم توقفت عند ركبتيه •• وقالت ، تتابع النظر إليهما •• حزينة ، حالمة ••

ـ •• « مكسيمليان » •• « مكسيم » •• « ميشكا » ! أو لتكن من تكون !! لا تسيء إليّ ! كنت أعلم أنكَ آت •• وأتيتَ فعلاً ! ثم •• إني واثقة أنك طالما بحثتَ عني •• وها أنا ! لا بد أني •• ربما •• خلافاً ، لما كنت تتوقع ! امرأة •• ولست بامرأة ! بودّي ، لو لقيتك •• منذ ثلاثين عاما ! حين كنتُ في ريعان الصبا •• كان ذلك قبل أن تولد ! لكننا سنعود ، للقاء آخر ، في غير هذا العالم ! ولن تكون بين سنيّنا ، من فوارق •• ولن أكون أسيرة ظروفي •• وطريحة هذا الفراش ! أما الآن •• فها أنا ، كما ترى !!

وتساقطت من عينيها دموع لم تلتفت اليها ••

صمتَتْ برهة طويلة •• و « مكسيم » ينظر اليها •• لا يدري أهو يعيش حقيقة •• أم خيالاً !

عادت تنظر الى عينيه ، ثم تحدق إليهما ، وقد فارقها حزنها •• ثم عاودتها ابتسامتها الأخّاذة •• فقالت ، وذهول واعٍ في عينيها ••

ـ •• أليس غريباً •• كيف وجدتَ اسمي هكذا ! دون تردد !! رغم أني أحتفظ به لنفسي ، وفي سرّي ؟! لا أطلع عليه أحداً ! سوى المقرّبين من أصدقائي ! ان « مدام ستيوارت » ، اسمي من زواجي الثاني •• أضفتُ اليه اسم « ماري »•• « ماري ستيوارت » •• نعم •• مثل ملكة « اسكوتلندا » ! مسكينة ، كيف قطعَتْ أختها « اليزابيت » ، رأسها ! « ماري ستيوارت »•• إنه اسمي القانوني ، اليوم •• وقبل ذلك كنتُ أدعى مدام « أندرسن » ! « آنّا أندرسن » ! من زواجي الأول ! يا له من اسم قبيح ! أما اسم معموديّتي •• اسمي الذي لا يودّون إرجاعه لي •• « اناستاسيا بتروفنا » •• فهو لن يعود اليّ ، مطلقا ! لأن ، معه ، ستضطرّ الحكومات الى ارجاع ميراثي ، لي ! وجميع ما كان لأبي من ممتلكات وودائع في بنوك أوربا ! وودائع من الذهب ،

زادت فوائدها مع الزمن ، حتى بات بنك صاحب الجلالة في لندن ، عاجزاً عن أدائها ، لو أُجبر على التخلّي عنها !!

لمعت عيناها ، في غضب متماسك •• وتابعت ••

ــ •• يظنّون أني أسعى وراء الميراث ! حقيرون ! وصاحبة الجلالة ، لصّة !! لو أن هنالك من أمل في عودتي الى عرش أبي ، لتسابقوا الى لثم حذائي ! يظنون أني انما أسعى وراء المال ! لو طلبوا الميراث مني ، لأهديتهم إيّاه ! لكنهم لصوص ! أنذال !! وماذا أفعل بكل هذه النقود ، لو آلت إلي ؟! وأنا في فراشي ، في هـذا المصح ! « ميشكا » •• لقد هزل جسمي حتى غدت أحشائي الضامرة عاجزة عن حمل نفسها ! لذلك ، تراني مجبرة على التمدّد على فراشي ! لا أقوى على الوقوف ، إلا لفترات قصيرة •• ولبرهات عابرة ! يظنّ بعض الناس أني أُحبّ الاستلقاء في فراشي ! آه لو أستطيع الخروج الى الطبيعة ! الى الحياة !! ليت في وسعي أن أسبح في الهواء الطلق •• أتنشّق الهواء البارد ! لو أستطيع أن أركب الخيل •• فأقفز الحواجز •• أو أقـود أسرع سيارة سباق ، في العالم !! لكن قدري شاء عكس ما تهواه طبيعتي ! هل تحبّ الجياد ، « ميشكا » ؟ هل تحب الحيوانات ؟!

التفتت حولها ، تنادي بصوت ناعم ، طفولي ••

ــ •• « مينوش » •• « مينوش » •• أين أنت يا « مينوش » ؟ تعالي إليّ •• تعالي خذي السكرة يا حبيبتي •• « مينوش » •• « مينوش » ••

واذا كلبة سوداء ، صغيرة الحجم ، متقدمة في العمر ، تخرج من تحت السرير ، وتتقدم منها ، مترددة ••

ــ •• تكاد العزيزة « مينوش » تفقد بصرها ! ما أقسى الحياة ! إنها رفيقتي ، منذ اثنتي عشر عاماً •• تعالي يا حبيبتي •• تعالي ••

وأخذت تطعم كلبتها فتات قطع السكر الصغيرة ••

نظر « مكسيم » حوله ، لأول مرة ، يتفحّص الغرفة التي جلس فيها ••

كان سرير « الدوقة » حيث استلقت مع « مينوش » •• وسط الغرفة ، قبالة البيانو الأسود العريض •• الى يمينها ، خزانة ، وصندوق ، قـديمان ، يليهما باب الغرفة •• والى يسارها مقعدان جلديّان ، جلس « مكسيم » عـلى أحدهما ، بينهما منضدة مجلّلة بغطاء مخملي ، تحت نافذة عالية ، والى جانب المقعدين ، باب زجاجي ، يقود الى شرفة واسعة تطل على الغاب ، والأشجار ، وبقيـة مساكن المصـح ••

جال نظره فوق مجموعة من الصور صفّت فوق المنضدة التي كانت إلى يساره ، فاسترعى انتباهه جمـال أطرها الفضيّة القـديمة ، الدقيقة الصنع ، يزيـد من ألقها ما تحتها من غطـاء مخمليّ داكن الحمرة ، مزيّن بأشـكال « سلافية » أنيقـة ••

عشرات الأطر••منها الصغير ، والكبير والمربّع ، والمستدير ، والبيضوي! تجمع صوراً للأسرة المالكة القيصرية •• في مختلف الأوضاع ، والقصـور ، والبـلدان !

قالت ، وهي تداعب كلبتها ••

ــ ••لا ! ليس هـذا ما تبقّى عندي من ذكريات الأسرة ، لقد فقدتُ ذاكرتي إثر محاولة قتلي ! وهذه « المجموعة من الذكريات » ، أهدتني إياها ، جـدتي ! بعد أن تعرفتني في « كوبنهاغن » ! وكان ذلك قبـل الحرب •• « ميشكا » ، إني إنسانة لا ذكريات طفولة عندها ! لا ! أنا لم أحمل معي مـن روسيا ، سوى رصاصة في جنبي !! رصاصة لم تقتلني !! ليتها فعلت ! وليتني أذكر حتى تلك الحادثة !! لقد تبخّر الماضي ، من ذاكرتي •• فأنا لا أذكر شيئاً حتى رميي ، مـع أهلي ، بالرصاص !!

انتفضت فجـأة •• واستوت فوق فراشها ، تقـول مبتسمة ، تصطنع النـزق ••

ــ •• لنكفّ عن هـذا الحديث ! لنعرض عن الماضي ، وعن ذكرياته

التعسة ! « ميشكا » •• حدثني عنك ! عن باريس •• إنك تدرس الموسيقى•• ما أسعد حظك ! من موسيقارك المفضل اليوم ؟

ــ •• « باخ » •• « يوهان سيباستيان » •• منذ شهر تقريبا ••
ــ •• ولقد مررت بفترة الاعجاب بـ « فاغنر » •• أليس كذلك ؟
ــ •• بالطبع •• ولمـدة عامين ، أو ثلاثة ••

ــ •• ومن كنتَ تحب ، قبل ذلك ؟ دعني أرَ •• أي حين كنت في الثامنة عشر •• « شوبان » ؟ أليس كذلك ؟

ــ نعم •• « شوبان » •• و « تشايكوفسكي » •• ومعظم أغاني « الليدر » الألمانية ••

لم تنتبه الى ما قال ! وجمت ، منذ أن قدّرت سنه في ذهنها •• فقالت ••

ــ •• يا إلهي ! ما أصغرك « ميشكا » كيف أنساني حضورك القوي ، ذاك ؟! إن لي من العمر ثلاثة وخمسين عاماً ! قد يفوق ذلك ، عمر والدتك !! وأنت ؟! كم بلغت من العمر ؟ اثنين ، أو ثلاثة وعشرين ؟! ما أقسى الزمان ! لماذا لا أحسّ بثقل سنيّ الطويلة ؟ وأنت •• لماذا لا تدِلّ بشبابك ؟!

قال « مكسيم » ، في صوت واجف ••
ــ « لورا » •• ما شأن السنين بيننا ؟!
ــ •• صحيح ! إن ما بيننا ، لا علاقة له بالزمان !

طغى عليه ، مرة أخرى ، شعور جارف بأنه يحلم ! وإلا •• فماذا ؟ أيُعقل أن يتخطى إنسانان ، ما بينهما من حواجز ، وفوارق ، وسنين في مثل تلك البرهة القصيرة ؟! ولا يشعر أن في تصرّفات تلك الإنسانة ، من مُراءاة ! ولا يحسّ أن فيما يقوله هو أدنى ممالأة أو مصانعة ؟!

قالت حالمة ••
ــ « ميشكا » ! هاك الحاكي •• تحت غطاء المنضدة •• ومجموعة الاسطوانات ، خلفه •• سأغمض عيني •• فضع من الموسيقى ، ما تشاء ••

وأسمعني عن طريقها ، ما لا تعرف كيف تتفوه به شفتاك ! أسمعني ما تجيش به نفسك في هـــذه اللحظة !

وأغمضت عينيها •• مسندة رأسها الى الوسادة •• تنتظر الموسيقى ••

رفع « مكسيم » غطـــاء الحاكي •• ثم توقف برهة ، قبل أن يعيده الى مكانه بهـــدوء !

أغلـــق الحاكي ، ونهض واقفا •• يمشي نحـــو البيـــانو ، على رؤوس أصابعه •• جلس ، ينظـــر الى مفاتيحه الأليفة •• ثم بـــدأ مقطوعة حالمـــة لـ « شوبان » •• راح يعزفها ، بما لم يعرف ، حتى تلك اللحظة ، أنه قادر عليه ، من أنـــاة عاطفية ،وعمـــق !

ما كاد يصل الى آخر المقطوعة ، حتى شعر بالدوقة « اناستاسيا » تقترب منه •• تقف وراءه •• وأحس بذراعيها النحيلتين تتكئان على كتفه ، في رفق••

قالت في صوتٍ خافتٍ ، حـــالم ••

ـــ •• يا لها من لحظة رائعة •• إنهـــا أسعد لحظات حيـــاتي !!

* * *

لم يبرح « مكسيم » غرفـــة الدوقة « انستاسيا » ، في لقائهما الأول ، إلا مع أولى ساعات الفجر ••

ترك الطريق الرئيسية ، مؤثراً السير ، عبر الغاب ، وحول البحـــيرة ، فسار يراقب صيادي الأسماك•• يجلسون ، متباعدين ، حول ضفاف البحيرة•• كل ، زجاجة النبيذ ، الى جانبه •• يتحيّن فرصة انسياب التمّ ، فوق سطح المـــاء ، ليقذف صنارته بعيداً عن تلك الطيور الكبيرة البيضاء المهيبة ••

أحس بالهواء الطلق يمتصّ ما نشره التعب من خدر في أعضاء جسمه •• فسار يعبّ من الندى ، وتراب الأرض ، والعشب ، والنباتات البرية ! تموج رأســـه بصورٍ وإحساساتٍ تختلط المئات منها بالمئات ، فيخيّل إليه أنه أصبح

سحابة ! تطفو فوقها ! تدفعه ريح ، مما أحسّه في ذلك المصحّ !
تملّكه يقين أكيـد ، جـارف !

لئن لم يصب في حياته من أوربا ، سوى تلك الليلة الرائعة .. فحسبه ، ذلك !! لم يبق لجميع ما مر به ، حتى ذلك اللقاء ، سوى أثر الذكريات الباهتة في نفسه !! ذكريات متباينة ، متناقضة .. منهـا الحبيبة ، ومنها المقيتة ، أو المريعة ! لكنها صور بعيدة في خياله ! قد يتابع إحياءها .. يثابر على معايشة بعضها .. لكنها تقلصت بعد تلك الليلة ، وتحجّمت أبعادها ، فعادت لا تبعث في نفسه غير طنين باهت .. سحيق الصدى !

* * *

وصل الى شقته ودخل غرفة نومه ، يحس لأول مرة بأنه على وشـك الرحيل منها ، ولمّا يستقر فيهـا !

لم يدر ما سرّ ما أحس به من غربة ، وهو يأوي الى فراشه ، تعود أن ينسى جميع متاعبه متى لفّه غطاؤه ، وأغمض جفنيه ، يستقبل الراحة والنوم فيه ! إن هي إلا برهة قصيرة ، قلقة ، فتح عينيه بعدها ، ليدرك أنه نام ساعات ! فنهض ، يغتسل ، ويرتدي ثيابه .. ليس في ذهنه سوى العودة الى زيـارة « لـورا » ، في الموعد الذي حدّداه معاً ، في الليـلة الفائتة .

سمع صوتهـا الرقيق في ذهنه يقـول في حزن وهـدوء .. « أتدري يا « ميشكا » ؟ إن النوم لا يأتيني إلا في ساعات النهار ! لجأتُ الى العقـاقير المنوّمة ، فترة ، طويلة ، كي أنام ساعات الليل ! شـأني في ذلك شـأن بقيّة الناس ، دون جدوى ! الى أن حـرّم الطبيب عليّ المنومات .. وفضّل أن أترك طبيعتي على سجيّتها .. فأنام النهار ، وأصحو ساعات الليل ! فإن كنتَ تودْ متابعة زيارتي .. فما عليك سوى أن تأوي الى النوم .. نهار الزيارة .. كي تقوى على مجاراتي في السهر ! »

نظر الى ساعته ، فاذا أمامه ثلاث ساعات ، قبل حلول السادسة مساءً ، ساعة الموعـد !

تناول بعض الطعام •• وجلس يمضي ما تبقى من وقت ، في تمارين شاقة على « البيانو » ، كان يسرح مع خيـــاله ، وهو يؤديها ••

لم ينتبه ، إلا وصورة وجه « أوديل » مرافِقة الدوقة ، تبزغ في ذهنه فجـأة ! يحيط وجهها ، وكلامها ، حدس" أقلقه ، فطرد صورتها في الحـال ! وعـاد الى التمرين في تصميم ، وعـزم ، تراوده عشرات الأسئلة التي فجّرها لقـاؤه مع « لـورا » !

كيف، في وسعه ، أن يوفّق بين نوم النهار ، إثر زيارته لها ، وبين ماالديه من عمـلٍ ودراسة ، في الأيام التي تلي تلك الزيارات ؟! ماذا سيقول الأمـير « يوسوبوف » فيما لو عرف بما وصل اليه مع الدوقة « انستاسيا » ، مـن علاقة ، لا يعرف حتى هو كيف يصنّفها !؟ كيف سيجمع ، على أنسب وجـه ، بين معهدي دراسته ، وبين عمله مع الأمير ، وصداقته بـ « لـورا » •• ؟ •• ثم •• ماذا سيحصل لبقية صداقاته ؟ وإذا وجه « أوديل » يظهر ، مرة ثانية ، في مخيلته •• يضحك منه ، هازئا ، متحدّيا !

نظر الى ساعته ! لم يبق ، حتى حلول الموعد ، سوى ساعة •• لا بأس •• سيذهب مبكراً ، وينتظر في حديقـة المصحّ ••

* * *

عاوده إحساس غريب ، منذ أن فتح له الحارس ، باب المصحّ ، كما فعل في المساء السابق ! فدخل يداعب الكلب الذي تعرّف اليه والذي اندفع يعدو أمامه طرباً ، كأنه يعرف سلفاً أي المقاعد سيختار ، للجلوس عليه ، ولانتظار إشارة الممرّضة ••

تنبّه بعد برهة ، الى أنه يرى الأشخاص ذاتهـا •• المرضى أنفسهم ، يجلسون حيث جلسوا في اليوم السابق •• ويتمشون في الأروقة التي تنزّهوا بينهـا البارحة ، وبالطريقة ذاتها ! أحس كأنه في حلم •• وان كل ما مرّ معه ، منذ البارحة لم يكن سوى تصورات جرت في ذهنه !

أثار انتباهه شاب ، غاية في الوسامة ، والأناقة ، بدا في السابعة عشر من عمره ، يجلس غير بعيد عنه •• ينظر الى السماء •• ثم الى الأرض •• ثم يختطف النظر الى « مكسيم » •• فيسرح بناظريه ، بعد ذلك ، برهة ، كأنه لا يرى شيئا ، ثم يعود للنظر الى السماء ، والى الأرض ، ثم اليه ثانية !

تضاءل ما سيطر عليه من عجب ، وهو يجد نفسه ، للمرة الأولى ، وسط تلك الحديقة ••

كان بالأمس متفرجا ، غريبا •• وها هو ذا يتعرّف الأشخاص •• والأشجار •• والألوان ! يحسّ أنه على تخوم علاقة وطيدة بهذا العالم الغريب ••

كاد ينساق مع خياله ، حين تنبّه الى أن « أوديل » ، مرافقة الدوقة ، تومىء إليه ، بأن يتقدم !

كانت تطلّ من نافذة ضيقة ، خارج مدخل شقة الدوقة ، نافذةٌ ، كأنها منفذ للنور ، لذلك السلم المسدود ، أشارت اليه بأصبعها ، أن يأتي ، ثم اختفى وجهها ••

قام يسير المسافة التي تفصله عن الدار ، ووجه « أوديل » ، في إطار تلك النافذة ، ماثلٌ أمامه ! فما إن همّ بارتقاء السلم ، ونظر الى أعلى ، حتى فوجىء بها ، تطلّ عليه ، كما أطلت في المرة السابقة ، مضيفة الى نظرتها الماكرة ، ما حملته من نهديها العاريين !!

فتحت قميصها ، حتى خصرها العاري •• وأسندت كلاًّ منهما بيد ! تنظر الى نهديها ، تباعاً ، بدلالٍ ، وقِحَةٍ ، ثم الى « مكسيم » ،بإغواء ، وتحدّ !!

سمع « مكسيم » قلبه يضرب بشدة لتلك المفاجأة !! تمالك نفسه ، مشيحاً نظره عنها •• وصعد السلم ، وكأن تلك الشيطانة لم تكن على رأسه !! فما إن وصل الى حيث كانت ، وأعاد النظر اليها ، حتى فوجىء بها وقد أخفت

نهديها تماماً ، تحت قميصها ، ووقفت في وضع طبيعي ، مسندةً كتفها الى الحائط ، تقلّم أظافرها الحمر ، جنبها الآخر تجاه « مكسيم » !

دفعت باب الشقة أمامه ، بقدمها .. وأشارت اليه بطرف أصابعها أن يدخل ، دون أن تلتفت إليه !

* * *

أغلق الباب الخارجيّ وراءه .. ووقف برهة قصيرة ، يستجمع هدوءه ، قبل أن يطرق باب غرفة « لورا » ..

سمعت الدوقة « اناستاسيا » طرقاً خفيفا على بابها ، فقالت ..

ــ .. أهو أنتِ ؟ « أوديل » .. ألم يصل المسيو « نيفسكي » بعد ؟

ــ .. « لورا » .. هذا أنا .. « ميشكا » ..

وفتحَ الباب ، داخلا .. للقاء « لورا » ، تغمره الفرحة بالعودة اليها .. وخفّتْ هي ، لاستقباله .. كأنهما في لقاء ، بعد غياب طويل !

* * *

جلسا يستمعان الى الموسيقى .. ثم طفقت تحدثه عن الماضي ، وما عانته من مصاعب ، خلال سنيّ الحرب ، ثم ما سُرق منها ، من مجوهرات ، تركتها لها جدتها عن والدها ، ملك « الدانمرك » ..

عاد الحديث الى مرضها .. فتنهّدت بألم .. وقالت ..

ــ .. عشرون عاما .. أو ما يزيد ! وأنا طريحة الفراش ! أتنقّل من سرير الى آخر ! ومن مصح الى آخر !! لقد عرفتْ من المشافي النفسية ما لا حصر له ، جميع المشافي ، في سويسرا !! حتى لم يبق من جهابذة علم النفس ، من لم يطبّق ما اكتشفه من نظريات عليّ !! « يونج » ! « أدلر » ! « فرانك » الخ .. عرفتُهم جميعا !! وقد أخفقوا في علاجي ، جميعا !! أخرجُ

من مصح لأدخل آخر !! أتنقل من الاستلقاء أمام هذا ، الى الاستلقاء أمام ذاك !! أصبحتُ حقلاً للتجارب .. تطبق عليّ النظريات .. ثم يقارنون ما توصلوا اليه ، سرّاً ، أو على صفحات المجلات العلمية !

تدخّل « مكسيم » ، سائلاً ..

ــ وممّ كنت تشكين ؟ لم أر منك ما يشير الى أنك مريضة حتى الآن ..

ــ .. بالضبط .. بالضبط .. فأنا لست مريضة ! ولم أكن مريضة ، في يوم من الأيام ! لو كنت مريضة ، بالمعنى المعروف ، لاكتشفوا علّتي ، والدواء معها ! ولانتهى الأمر !! المشكلة ، كانت ، ولا تزال .. إني لست صحيحة الجسم .. ولا أنا مريضة ! لكن بي علّة ، لا يُعرف موضعها .. ولا سببها ! بعض الأطباء النفسيين يرجّح ذلك الى الصدمة التي تلقّيتُها ، حين أطلقوا عليّ ، وعلى أسرتي ، الرصاص !! وبعضهم الآخر ، يرجّح أني إنما اختلقتُ مرضي ، وذكرياتي الواهية ، عن الماضي .. وأني لست في الواقع « انستاسيا » !! هنالك من قالوا .. أني مصابة بحالة نادرة من « شبه » فقدان الذاكرة ، « الإرادي » !! وأني ، انما أُنهك بنيتي ، عن عمد ، ولأسباب لا شعورية ! كي لا أضطر للخروج الى العالم ، ومن ثم ، مواجهة الواقع .. نظرا لما أخجل من إظهاره من طول قامتي أمام الناس !! « ميشكا » .. هل تصدّق ان عالماً كبيراً قال إني شبقة ، مهووسة جنسية ! وإن كوني ، لا أمارس الجنس ، لا يزيد نظريته إلا تأكيداً !! قال .. إن محور مرضي ، وحياتي .. أن بي من الشبق الجنسي ، ما لا يمكن لعقلي الواعي مواجهته !! لذلك .. خَلَقْتُ ماضيّ « القيصري » ، كي أُصَعِّدَ غرائزي الشعبية ، الدنيا ، على سلّمه الراقي !! وأوقعت نفسي ، لا شعوريا ، في حالة اللامرض ، واللاصحة .. كي أُلازم الفراش ، فأكون ، فيه ، قريبة من الجنس ، دون أن أضطرّ الى ممارسته ! ومواجهة غرائزي !!

هز « مكسيم » رأسه عجباً .. وقال ..

ــ •• وماذا تقولين ، أنت ؟!

كانت شاردة ، تسترجع صوراً من الماضي •• فقالت ••
ــ ها أنت ذا تتكلم مثل « يونج » ! تسألني دوما عن رأيي ، أنـــا !!

ثم أفاقت الى أنها تتكلم مع « ميشكا » •• فاستدركَتْ ، قائلة ••

ــ •• « ميشكا » •• تصوّر ! كنت قد تركت البروفسّور « يونـــج » الشهير •• لا بد أنك سمعت عنه •• تركتُه ، لطول ما كانت تستغرق طريقـــة علاجه ، من وقت ! وانتقلت الى مصح البروفسور « شوارتز » وهـــو نقيض « يونج » في طرق التحليل ، والمعالجة •• أتدري « ميشكا » ماذا كان علاجه لي ؟! لم يـــدّعِ « شوارتز » أنني « مهووسة جنسية » ! بـــل أني معقّدة ، وحسب !! قـــال : إني كنت أتعفّف وأتبتّل ، حِفاظاً على طـــورِ طفولتي ، الذي أوصدتْ بـــابه تلك الرصاصة ، الى الأبد !! قـــال ، إن ما يلزمني هو ممارسة الجنس ، كي أتخلّص مـــن الكبت ، والأقربون ، أولى بالمعروف ! فأصبَحَتْ ساعات علاجي اليوميّ •• ساعات ممارسة جنسية معه !! كنتُ ألاقي من الخوف والعذاب ، خلالهـــا ، ما لا أستطيع وصفه لك !! وما كان بوسعي أن أقـــاوم ! أو أن أعترض !!

قال « مكسيم » بتقزّزٍ •• وقـــد أثاره ما سمع ••
ــ •• لا بد أنه شبق •• مريض ••

ــ •• لا •• لا ! إني قانعة أنـــه كان يقوم بذلك ، في شـــكل آلـــي ! لا يخلع سوى بنطاله •• يُبقي على سترته ، وقبعته السوداء •• وحـــذائه !! ويقوم بالعملية ، وهو واقف على قدميه •• وأنا ، ممددة ، على سرير المعالجة !! كانت لحيته البيضاء الكثيفة ، تهتزّ لحركاته ! فأرتَجِفُ ، خوفاً ، لغـــرابة ما يفعـــله بي !! يحدّق الى وجهي ، من خـــلال نظّارتيه الكثيفتين •• دون ابتسامة ، أو أيـــة ملامسة ! ويكرّر على مسامعي ، جملاً بذيئة ، يظنّ أنهـــا ستفكّ من عقدي ! في حين أن عقدي ، إن كان عندي منهـــا •• كانت تشتد تعقدا لسماع أقواله ! وتتلوّى !!

ســألها « مكسيم » ، واجفـاً ..

ــ .. وماذا كانت النتيجة ؟! هل أطلتِ البقاء في ذلك المصح ؟!

ــ .. لا ! لقـد طُردتُ منـه !! لم أكـن أستطيع تحمّل نظـريات « شوارتز » ، الى الأبد !! كنت ، يوماً ، مستلقية على سرير الجراحة ، التي عوّدني الاستلقاء عارية عليها .. وكان يدور حولي .. دون بنطال ، بحذائه ، وسترته ، وياقته المنشّاة ، وقبعته العالية !! دار حولي مرات ، يؤكّد لي أهميّة مجابهة جميع الممنوعات ، في مجـال الجنس .. للتحرّر من جميع رغبـاتي المكبوتة ، اللاشعورية ! فما إن توقّف قبالة ساقيّ ، في وضع تأهّب ، يرفعهما قائلا ، إن ما نلقّبه ، نحن ، بقوانين الطبيعة ، إنما هي قوانين الإنسان ! وانـه ليس ، من ممارسة ، يمكن أن يقال عنها ، إنهـا غير طبيعية ! وتقـدم مني ! حتى أدركت ما يهدف اليه ، من نوع شاذ في الممارسة الجنسية ! فما كان منّي سوى أن طويتُ ساقيّ ، تجاه صدري .. أطلقتهما بكلّ ما استطاع جسدي النحيل أن يجمعه من قوة !! ضاربة وجهه بقدميّ العاريتين ! فطارت نظّارته.. وهوى هو ، خلفها ، على ظهره ، تتدحرج قبّعته وراءه ، على الأرض !!

أطلق « مكسيم » ضحكة ارتياح ، عالية ، فرّجت عما كان قد اعتمـل في نفسه من ضيق وانقباض لما سمع ! وشاركته فيها الدوقة « اناستاسيا » ! ثم أردفت ! موضّحة ..

ــ .. كان ذلك في الثلاثينات .. وعلم النفس ، كان في عصره الذهبي ، إبان تلك الفترة ! تتوالد النظريّات فيه ، بالمئات .. كالفطر ، في كهف داكن ! كان « فرويد » قد كشف علبة « باندورا » ، باكتشافه للمعالجة التحليليّة ، وذلك كان اكتشافاً عظيماً ، لكنه ، ما إن فتح علبة « باندورا » هـذه ، حتى أطلـق لعلماء النفس ، منها ، ماكانوا ينتظرونه من سلاح ، ليمارسوا جهلهم على المرضى ، وليفرّجوا ، باسم العلم ، عمّا كبتوا ، هم ، في لا شـعورهم ، من عقـد !!

صمتَتْ برهـة .. ثم قالت سادرة ..

ـ .. مسكين « جاك كاتلان » ، لقد كاد أن يقع في الدوامة نفسها !

ـ .. « جاك » ؟! « جاك كاتلان » ؟! الممثل ؟ وهل تعرفينه ؟

تعجّبت « لورا » ، قائلة ..

ـ .. هل أعرفه ؟ إنه صديقي ! صديق الهاتف .. وأنا أعرفه ، منذ ما يزيد على العشرين عاماً ! ألم يُخبرك الأمير « يوسوبوف » أو « جاك » ، بذلك ؟!

أعاد سؤالها الى ذهنه ما كان قد نسيه ، تماماً ، من عالمه ، قبل أن يلقاها ! بدت صورة أصدقائه ، باهتة ، في خياله ! أسماؤهم ، غريبة ، في غرفتها .. وعلى لسانها !

هز رأسه نافياً .. فقالت بصوتها الذي كانت رقته تصيب منه مأخذاً جديداً ، كلما تكلمت ..

ـ .. « ميشكا » .. قل لي .. ماذا أخبرت « فيليكس » عني .. وعن لقائنا ؟!

تعجّب لسؤالها .. وقال ، حائراً ..

ـ .. الأمير ؟ أنا لم أخبره بشيء بعد .. ومتى أراه ؟ ولم تسنح لي فرصة لقائه بعد ؟

ـ هذا لا يصح ! سيستاء « فيليكس » لانقطاعك عنه !!

ـ أهذا هو اسمه الأول ؟ « فيليكس » ؟ اسم طريف !

وتعجّب من نفسه ، كيف لم يفطن للسؤال عن اسم الأمير الأول ، منذ أن عرفه !

جال في ذهنه أنه لم يسأل عن الاسم الأول للكونتيس « دي بوكموريل » كذلك ! لماذا ؟ أكان رغم صداقته وحبه لها ، لا يود أن يرفع ما بينهما من كلفة وحواجز ؟ هل كان يؤثر أن تبقى بعض الستر مسدلةً بينه ، وبين عالمها ؟

بين عالمه ؟ عوالم جميع من يعرف ؟! وها قد أضحى اليوم •• « ميشكا » ، بالنسبة للدوقة « اناستاسيا » •• وهي ، « لورا » الغريبة ، الحبيبة ، إليه ! هل ستتكشّف الستر يوما بينهما ؟ هل ستتكشّف الستر ، أخيرا ، بينه ، وبين إنسان من طينته ! إنسانة لطالما حلم بها ، وتاق للقائها •• في أوربا ؟! ومن أوربا ؟!

كانت « لورا » تنظر اليه ، وعيناها تغمرانه بعطف لم يره في عيني إنسان من قبل ••

كأنما أدركَتْ ما يحسّه إزاء العالم الخارجي •• فقالت ، في ودّ وحنان ، نادرين ••

ــ •• « ميشكا » •• أيها العزيز •• يجب المحافظة على جميع علاقاتك وصداقاتك الخارجية ! إن العالم قاسٍ •• « ميشكا » لا يدري الإنسان متى تضطرّه الظروف لعطف الأصدقاء •• مهما أحس بشدةٍ ما يبعده عنهم ، من فوارق !

مالت ، تمسكُ بالهاتف ، القريب منها •• تحاول أن تدير رقما •• وأردفت ••

ــ •• تعال •• هلا كلّمتَ الأمير ، الآن ؟! إنها العاشرة ليلا ••

تردد « مكسيم » وقال ••

ــ لا •• لا •• سأكلّمه غداً •• أو أذهب لزيارته ، مساء غد ••

لكنه تعجب لومض خاطف ، غريب ، لمحه في عينيها ••

قالت ، تحاول أن تخفي امتعاضا لم يفهم سببه ••

ــ •• وهل تخشى أن تكلمه أمامي ؟ لماذا ؟ هل بينكما من أسرار ؟!

ــ •• أسرار ؟ قلت أُكلّمه غدا •• وليس ما يضطرني الى ذلك ، الآن •• هذا كل ما في الأمر !

زاد امتعاضها •• وعجبها ••

ــ •• ومعنى ذلك •• أنك ستذهب لزيارته ، غداً ؟!

أجاب في بساطة ، يستغرب توثّبهـا ••

ــ •• ربما •• وما الغرابة في ذلـك ؟

ــ •• إنك لـن تأتي لزيارتي •• إذن ؟

لم يكن « مكسيم » قد فطن الى ذلك •• تذكّر ما كان قد أهمل إنجازه من أمور عمليّة •• جميعها ، لا تنقضي إلا في ساعات النهار ! فهـزْ رأسـه بالإيجاب ، قائـلاً ••

ــ •• سأضطر للانقطاع عنـك ، لفترة قصيرة •• ريثما أنجز أمـوراً معلّقـة •• وبعـدها ••

لم يُنـه قـوله !

أصاب الدوقة « اناستسيا » انقباضٌ تجهّمَ له وجهها •• فأمسك عن متابعة كلامه •• وبدت على وشك البكاء •• فارتاع لحزنها •• وقال لهفاً ••

ــ •• « لـورا » •• ماذا بك ؟ يومين أو ثلاثة ، هذا كل ما في الأمر ! بل يوم واحد يكفيني لإنهـاء هذه الأمور ! لستُ ذاهباً في سفر !! إنها أمور لا تحلّ إلا أثناء النهار ! وكيف أفعل ذلك إذا مكثتُ هنا ، حتى السادسة صباحاً ، من كل يوم !! كما تحبين ، وأحب ؟!

قالت ، وكأنها لا تسمع ما يقـول ••

ــ •• هذا قدري ! وهذه تعاستي ! سوف تشتاق ، عاجلا أو آجـلا ، الى حياتك الطبيعية ، في باريس ! وسيعاودك الحنـين الى الفتيات اليافعات ! الممتلئات حيويةً •• فتذهب إليهن ! ما شأنك بامرأة مريضة ، مثلي ؟! ليست هذه حياة طبيعية لشاب يافع ، في مثل سنك !!

قال « مكسيم » •• وصوته يزداد لهفـة ••

ــ •• « لـورا » •• أنت الطبيعية •• وما عداك •• لا صحة فيهـم ،

ولا عافية !! إن في هذا المصحّ من الهدوء والاتزان ، ما ليس في جميع أنحاء باريس ! ثم ، ما هذا الكلام عن الفتيات اليافعات ؟! إن لفي قلامة ظفرك من الكمال ، والجمال ما يفوق ما عندهن ، من حداثة السن !

ــ •• أترى يا « ميشكا » ! أتسمع ما تقول ! حداثة سنّهن ! ها أنت ذا تقارن بيننا ، منذ الآن ! تعي ما تضفي حداثة السنين ، عليهنّ من رونق ! فتعوّضني بمثل هذا الكلام !! يا إلهي ، « ميشكا » !! كنتُ أعلم أن الأمور لن تسير بيننا ، كما تتمنّى ! ليتني ما لقيتك ، « ميشكا » !! ليتنا ظللنا تائهين يبحث بعضنا عن بعض !! أما كان ذلك أقل قسوة علينا كلينا ؟!!

نهض « ميشكا » من مقعده ، وجلس قربها ، على حافة السرير •• أمسك بيديها ، وقال في صدق ومرارة ••

ــ •• « لورا » •• إني هنا ! ولن أتركك في يوم من الأيام !! لا تطلقي العنان لمثل هذا التشاؤم ! إن ما بيننا أقوى من الحياة نفسها ! فما بالك بمثل هذه العقبات التافهة ! هل نعكّر صفو سعادة ، ما كنا لنحلم بها !! بسبب مخاوف على مثل هذه البساطة ؟! سأكلّم الأمير الآن ، إن شئت ! و « جاك » •• و « باتريس » ! ولن يكون لباريس وجود في حياتي ، ــ عدا دراستي ــ إلاّ عن طريق هذه الغرفة ! وهذا الهاتف !!

شدّت على يده ، دون أن تجيبه •• كانت تنظر الى أصابعه •• تمرّ بأصابعها فوقها ، برفقٍ عجيب !

قالت ، ساهمة •• سادرة ••

ــ •• من « باتريس » ؟ إن « جاك » ، لم يحدثني عنه !

تعجّب « مكسيم » •• وأجاب ضاحكاً ••

ــ •• وهل دار الحديث بينكما ، عني ؟ وعن أصدقائي ، ومعارفي ؟!

كانت مأخوذة به ، تعاود لمس أصابعه ، تقارنها بأصابعها الدقيقة المرهفة •• قالت ••

ـ •• من الطبيعي أن أجمع كل ما أستطيعه من معلومات •• عنك ••
ـ •• ومتى كلّمك « جـاك » ؟
ـ بعد أن تركتَ غرفتي •• البارحة صباحاً ! وقبل أن تصلها اليوم !

ضحك « مكسيم » ، ثانية ، لصورة « جاك » ، يصحو من نومـه ، في الصباح الباكـر ، على غير عادته ، ليمدّ الحديث مـع الدوقة « اناستاسيا » حـوله •• فسألها ••

ـ •• وبماذا حدثك « جـاك » •• عني ؟

ـ •• « ميشكا » •• إني أعرف « جـاك » منـذ سنين طويلة ، كما أخبرتك •• إن له من الحدس ، ما لا يخطىء ! فأنا ألجأ دوماً اليه •• وليس بيننا من حاجز ، أو أسرار ! لقد رجوته أن يساعدني في جمع صورة متكاملة عما مرّ في حياتك ، قبل أن أعرفك !

ـ •• أما كان في وسعك أن تسأليني هذا •• أنا ؟!

أحست « لـورا » بضيقٍ بان في لهجة سؤاله •• فقالت على الفور •• في شـبه اعتـذار ••

ـ •• « ميشكا » ! أنا سألته ذلك ، لأكمّل الصورة التي في ذهني عنك ! لقد ذهبتَ البارحة ، قبل أن يتسنّى لنا الوقت ، لمثلِ هذا الحديث •• وكنتُ في شوقٍ ، لا أقدر وصفه ، للبقـاء معك ! فحدّثتُ « جاك » •• وما هـدفي في ذلك سوى أن أُبقيك الى جانبي ، ونحن في الحديث عنك !

هز « مكسيم » رأسـه ، وقد تسرّب الى نفسه حزنٌ لا يفهمه !

قال بعـد برهة صمت ••

ـ •• وبماذا حدّثك •• العزيز « جـاك » ؟!

لم تجبه •• بسطت يدها فوق غطـاء السرير ، وسألتهُ أن يبسط يـده

مثلها •• ثم أخذت تمسك بالجلد الذي على ظهر يده ، بأصبعيها •• تشدّه ، في رفق ، ثم تتركه ••

قالت ، وهي تبتسم ، في حزن أليف ••

ــ •• أترى •• « ميشكا » ! كيف ينْبسط جلد يدك الفتيّ ، في اللحظة التي أتركه •• فيعود الى نضارته ! أنظر ، الى جلد يديّ !

وشدت بأصبعيها جلد يدها ، ثم أطلقته •• فانبسط في بطء ظاهر •• عائداً الى ما كان عليه ••

قالت ، تشد يديه •• وتنظر الى عينيه ، واجفة ••

ــ •• هذا ما تفعله السنون ! « ميشكا » ! وليس من قوة على الأرض تمنع التآكل ، والفناء !! أين قضيتُ سبعة عشر عاماً ، من حياتي ؟ كيف انقضتْ طفولتي ؟ وحداثتي ؟! وأين ؟! لستُ أدري عن ذلك شيئاً ! أفقتُ من غيبوبة مفاجئة •• ولدتُ على الحياة •• قذفتُ بين دوّاماتها ! ولي من العمر ثمانية عشر عاماً !! أين العدل في هذا ؟! ما ذنبي ، إن كنتَ على ما أنا عليه الآن من عقدٍ وطوايا !! لا تلمني ، « ميشكا » •• إن أتعبتك همومي !! لا تدع صبرك ينفد ، وأنت تشهد متاعبي ، وتسمعها ! « ميشكا » ، لست من السخف بحيث أصدّق قول العرّافات ! لكنّ مدام « آدا » تعرفني ، منذ سنين ! تعرف طباعي ، وتعرف من يلائم طباعي من الناس ، ومن لا يلائم ! حتى البروفسور « تيزون » ، وافق على نصائحها لي ! إنه الطبيب المشرف ، على هذا المصح ، ومديره •• ولقد لجأتُ اليه ، منذ سنين ، هرباً من علماء النفس المحلّلين •• لا أهتدي بغير إرشاداته •• ولا صديقة أواظب على لقائها ، سوى مدام « آدا » •• ولقد اتفق الاثنان ، على أن لا مخرج لي ، من محنتي ، اذا قدّر لي يوما ، أن أخرج منها ، إلاّ على يدِ إنسان ، على قدر كبير من التجربة الإنسانية ! لا على يدِ طبيبٍ مزوّدٍ بالشهادات ! قالوا ، إن ما يعوزني ، هو رجل •• ولا طريق لهذا الرجل ، للوصول الى عالمي المنقطع

المعزول ، هذا ، سوى أن يهبط عليه ، فجـأة ! فيعطيني من العطف والمحبـة الصادقة ما ينتشلني من بؤرة اليأس هـذه ! التي أعيش فيها !!

نظرَت الى « مكسيم » في ضراعة •• وتابعت ••

ــ •• لكنهم قالوا •• رجل !! وحسبته ، قريباً من سني !! « ميشكا » ! أنا لم أنتظر شاباً ، في الثالثة والعشرين من عمره !! « ميشكا » ! حين فتحتُ لك الباب ، « اوديل » ، البارحة •• توقعتُ أن أرى رجلاً في الأربعين من عمره •• على أقل تقدير ! لم أسأل« فيليكس » عن عمرك ، حين حدّثني عنك ! لو وقفت منه على حداثة سنك •• لما تمّت مقابلتنا أمس ! ماذا سيقول ، من يعرفني ويعرفك من الناس ، في علاقتنا هـذه ؟! « إن لـه من السن ، ما لأولادها » !! سيقولون عنك « قارئها ؟ ها ! يحبها ؟! ها ، هـا ! إنمـا يسعى وراء المـال » !! ويا ليت لي من المال ما أعطيك إياه ، الآن ! بل لو كان لي منه ، ما يزيد على حاجتي ، لأعطيتك كل ما أملك ! ثم طلبت منك أن تنصرف عنّي ، الى الأبد ! حتى لا أروّع يوماً بفقدانك•• أو بالخيبة المريرة فيما لو ••

ــ •• « لـورا » •• ماذا تقولين ؟!

كانت دموعها قد بدأت تنهمر سخية على وجهها ، فتابعت ••

ــ •• « ميشكا » •• لقد تركَتْ لي جدّتي وَقفاً ، لا أعرف مقداره ، بالضبط •• أعيشُ من ريعه الشهري •• لا بـدّ أنه وقف كبير •• لكنّ ، لا سلطة لي إلا على ريعِه •• فكيف أكفيك الحاجة ، لو كنّا سنعيش معاً •• أو لو واظبتَ على زيارتي ، وانقطعت عن العمل ، أثنـاء النهـار ؟!

حار « مكسيم » فيما يقول •• بُهت لتسارع الأمور ، وللنهج الـذي سار عليه الحديث ، ولمّا ينقضِ اليوم الثاني على لقائهما •• وكأنما أدركَت « لـورا » ما في ذهنه •• ورأت حيرته ، من خلال دموعها •• فقالت ••

ــ •• « ميشكا » •• يا صغيري •• إني لا أعقّـد الأمـور •• ولا ألطّخها ! بل أراها جليّة ، أمامي ! لعلي أستبق حدوث المصائب ، ولقد علّمني

ذلك ، الزمان •• فما حيلتي ؟! رأيتُ كلا من سعادتي •• وتعاستي ، منذ وقعَت عيناي على وجهك الهادىء الواثق ! وشاهدتُ شقاءك •• أنت الآخر ، منذ رأيتُ سعادتك ، وحبك لي ، يطفحان من عينيك ، رغم سقمي ! رأيتهما ؛ وأنت تنظر الى عيني •• كأنك لا ترى شحوبي وهزالي !

لفّت ذراعيها حول جذعها تتلمّس نفسها •• ترتجف أصابعها لملمس جسدها الواهي •• وتابعت باكية ••

ــ •• أهذا جسد" يليق بنضارتك ؟! أهذا جسم" يقوى على السير الى جانبك ؟ لا •• يا « ميشكا » •• لا !! لم يبق عندي ما يدفع المرأة لشهوة الرجال ! ولستُ أتحرّقُ لعلمي بأني عاجزة عن إرضائك ! أو إرضاء أحد !! فهذه أمور لم تخطر لي ببال ، ولا يمكن لها أن تدور بيننا ! « ميشكا » •• إنما أود لو أستطيع أن أنهض الآن •• فأصحبك الى الغاب •• نسير في أرجائه •• نعيش الليل ، وتفهم سر جماله •• « ميشكا » ! إن لي قصراً في الغابة السوداء •• تركَتْه لي ، جدتي •• لطالما حلِمْتُ أني سأذهب إليه ، يوماً ، مع إنسان أحب ! ليت في وسعنا أن نقوم بذلك ! لكم كنا سنسعد لو كان في وسعنا قضاء بعض الوقت فيه •• إنه قطعة من عالم « فاجنر » •• لوحة •• لا مثيل لها ! « ميشكا » •• إن الأشجار تحيط به ، من كل جانب •• على من يود الوصول اليه ، أن يسير مسافة طويلة ، عبر الأشجار ! أتفهم شقائي ؟! كيف أذهبُ اليه ، وأنا على سقمي ؟! كيف أسير إليه ، وأنا لا أقوى على النهوض ، غير دقائق معدودات !!

وغَطّت وجهها ، بيديها ، ملقية برأسها على صدر « ميشكا » •• فضمّها ، وصدره يتدفق بعطفٍ كاد يبعث الدموع من عينيه ••

راح يربّت على ظهرها ، فتملّكه إحساس غريب أزلي ، وهو يحسّ بملمس كتفها ، البالغ النحول !

كاد يبعد يده ، رهبة من نحولها ، لكنه عاد يشدها اليه ، يطفحُ صدره ، حبّاً ، وعطفاً عليها !

قال في صوت أراده واثقاً ، مطمئنا •• وإذا هو يسمعه ، عميقاً •• وجلاً متقطّعاً ••

ــ •• « لورا » •• حبي ! سنذهب الى « شفارتز فالد » •• وسنزور ذلك القصر •• سنخرج الى الغاب •• ونسير على العشب النديّ •• ستأتي كلبتك « مينوش » معنا •• وتلعب أمامنا •• وتجري وراء ما تشتاق إليه الآن من عطر الطبيعة ••

رفعت « لورا » رأسها إليه ، حتى أوشكت عيناها تلامسان عينيه ، وطفقتا تنظران إليهما ، كأنهما في ابتهال ••

قالت ، في صوت قطّعه التأثر ••

ــ •• لقد تذكّرتَ « مينوش » ! « ميشكا » !! إنك أنبل إنسان عرفتُ !! الآن ، أعلم أنني سأكون في أمان ، معك •• إنك لم تكره تلك المسكينة ، لأنها شاخت ، وكادت تفقد بصرها ! لم تشر عليّ ، كما أشار « فيليكس » و « جاك » ، بأن أُنهي عذابها •• بحقنة مسكّنة ، كبيرة !! فإذا كنتَ لم تبخل برحمتك ، على حيوان مثلها •• تساقط شعره •• فكيف إذن ستكون عاطفتك نحو إنسانة تحب ؟! مهما تقدم بها العمر !! « ميشكا » •• يا إلـهي !!

وضمّت يديها على صدرها ، ثم على وجهها •• وراحت تتمتم بكلمات لم يفهمها ، ندّت عنها ، وكأنها في دُعاء ، أو صلاة ••

* * *

نهض ، بعد برهة ، يدير الحاكي على ما وجده عليه من موسيقى •• دونما اختيار •• فعلت أنغام « ديبوسّي » تستبق ما طفق يعتمل في نفسه •• تنبئه عنه •• تعلو به ، وتهوي •• حتى أحسّ ، وهو في تلك الغرفة الباهتة النور •• كأنه فيها ، مع « لورا » ، وحيدين في الكون •• يمخران عباب الزمان في عالم مبهم ، لا ظلمة فيه ، ولا نور •• لا حياة فيه ، ولا موت ••

* * *

الفصل الثالث

نظّم « ميشكا » حياته اليومية بما يتمشّى مع كل من دراسته في المعهدين ، وعمله ، مع الأمير « يوسوبوف » ، ثم بما يسمح بزياراته الليلية الطويلة ، للدوقة « انستاسيا » •• ينصرف لدراسته ، أيام الاسبوع ، ويعمل لدى الأمير في المساء •• يقوم بزيارات قصيرة لصديقته ، متى سمح له وقته ذلك •• فاذا أتى آخر الاسبوع ، أمضى ثلاث ليال ، تباعاً ، برفقتها •• ينسى باريس ومشاغلها •• يفتح لـه الحارس باب المصح ، في السادسة مساء •• ليعود ويفتحه له ، في السادسة من صباح اليوم التالي ! يخرج من المصح ، وقد أمضى فيه ما لا يقلّ عن اثنتي عشرة ساعة متواصلة ، تمضي في أحاديث ، وقراءات ، وحوارات ، وموسيقى •• جميعها عن الكون ، وحول الكون •• وجميعها •• كأنها من كون آخر ••

كان للقاءات « لورا » و « ميشكا » طابع فريد دائم التجدد •• يتقابلان ، دوما ، كأنهما في أول لقاء ! في شوق الى تبادل الحديث ، يحدّث كلٌ منهما ، صاحبه ، ويصغي اليه اذا حدثه ، في عطش لمقارنة ما يرى كل منهما من أمور الحياة •• يناقشان ، دقائق اختلاف وجهات النظر •• لا يبعد بينهما التباين •• بل يجمعهما •• يحرّض ، كل ، على الإعجاب بما يمتلك الآخر من مقدرة ، تسمح له باكتشاف زاوية جديدة ينظر الى الحياة من خلالها !

لم تكن هذه صفة عابرة من صفات علاقتهما •• بل ميّزة •• أدركا

مآثرها ، ومخاطرها •• كأنما ، كل منهما ، كان قد تعب بوحدانية وجـوده •• متفرّداً متميّزاً عن بقية من حـوله من الناس ! كان كل منهما •• قد مـلّ تفرّده بأفكاره ، رغم ثقته بصحتها ، وبانسجامها مع عالمه •• فبات في شـوق الى نـدّ يبسطه آراءه •• يأتيه بحصيلة كدّه الفكري المستقلّ •• كأنمـا يحمل له الثمار على كفيه •• هدية غالية ، من بستانه العجيب القصي !

قالت لـه « لـورا » يومـا ••

ــ •• « ميشكا » •• من الذي لا يعرف أن للإدراك حـدوداً •• وأن حدوده ، هي حدود سعة دائرة النور الكاشف المسلّط على المجهول ! إنمـا الإنسان عين" واحـدة مسلطة على ظلمات الكون ! مهما أوتي ، من سـعة التفكير •• فهو يظل عيناً ، واحدة ! يهتدي بمقاييس واحدة •• خاصة به •• « ميشكا » ! إن مجـال رؤى العين الواحدة •• لا يشمل المنظور ، العـين الواحدة ، ينقصها إدراك البعد الثالث •• تعال نصبح عينين متباينتين ، لإدراك واحـد ! تعال ، نجمع إدراكينا ، في رأس واحد ! قد لا تتناغم جميع الصور في إدراكنا المشترك •• لكننا سنرى الأمور دوماً ، من بعدين مختلفين ! قـد نشعر بقلق دائـم ، لكن ذلك سيعطي قناعتنا حركة مستديمة •• يفتح لهـا آفاقـا لا نهـاية لهـا !!

وكانت قراءات « مكسيم » ، حتى ذلك الحين ، تكاد تكون مقصورة على الفلسفة ، وعلم النفس ، والعلوم الاقتصادية والاجتماعية • حتّم عليـه ذلك نهمه للمعرفة •• ثم ظروف عمله في دار الطباعة والنشر ، المتخصصة في هذه الموضوعات ! فما إن جـاء ذكر القراءة مـع « لـورا » •• حتى تمنّى أن تطلب الأدب •• وكان في شـوق للإحاطة بما ينقصه من مطالعة في هـذا المجـال الواسـع ••

قالت « لـورا » •• منذ الأيام الأولى للقائهما ••

ــ •• « ميشكا » •• بم نبـدأ القراءة ؟

ضحك « مكسيم » في سره •• فبان شيء من ذلك في عينيه •• سألته مستغربة ••

ــ •• وهل فيما أقوله ما يضحك ؟

ــ لا •• لا •• تذكرتُ أن الأمير « يوسوبوف » كان قد أنبأني أن لك مزاجاً خاصاً ، فيما تحبّين أن يقرأ عليك ! فلم أفهم معنى أن تسأليني رأيي ، في هذا الخصوص !

ــ •• « فيليكس » •• « فيليكس » •• إنه دوما يشيع عني مثل هذه الأقاويل ! حسنا •• ألم تتفق على أننا سنكون عينين على العالم ؟ فاختر ، إذن ، أنت ، ما شئت ! سأترك لك الحرية التامة في كلّ ما تنتقيه •• فإذا ما أشبعت نهمك لما تشتهي قراءته •• أطلعتُك ، آنئذ ، على ما أحب أنا !

* * *

اندفع « مكسيم » ، أول ما اندفع •• في قراءة الأدب الاوروبي ، عامة ، كمن يتزوّد من الغذاء لرحلة شاقة طويلة !

حرص على انتقاء المهمّ ، قبل الممتع •• والمتجانس ، بين المدارس المتعددة ، قبل المتسلسل منها ••

بدأ بالقرن السابع عشر •• ثم الثامن عشر •• يقفز بين أعلام الأدب في فرنسا ، وانكلترا ، وروسيا •• وألمانيا •• يطعّم قراءاته بما أثّر في الغرب من ترجمات ، أتته من الشرق ! فما إن وصل ، في المطالعة ، الى نتاج القرن التاسع عشر •• حتى بانت في ذهنه صورة واضحة لكل ما أنبتته أوربا •• وتبدّت له لوحة الأدب متجانسة ، واضحة •• فصار لعزلة الأدب الاسباني ، معنى مرتبط بانهيار نفوذها •• ولشمول الأدب الانكليزي وتعاليه ، صلة بمستعمراتها •• كذلك ، حزن روسيا ، وإنسانيتها ! أو شموخ ألمانيا ، وعسكريّتها ! لم يبق لـ « دانتي » أو « غوته » أو « شكسبير » تلك المكانة المتفرّدة ، في تاريخ النضج الإنساني •• وعاد لا يحسّ من حاجة

للبحث عن مزايا « راسين » •• أو « بوشكين » ! أدرك البناء الهيكلي للفكر الاوروبي ، ووضعه في مكانه التاريخي الحقيقي ، بالنسبة الى البناء الهيكلي ، للفكر الإنساني عامة •• فهم « بارت » •• و « ليفي ستراوس » •• قبل أن يقرأهما ••

* * *

ضحكت « لورا » يوماً •• وقالت ••

ــ على هذا •• لا يصح أن يُقرأ أدب القرن العشرين ، قبل قراءة موسّعة لـ « فرويد » •• وإلا فما معنى قراءة « بودلير » أو « رامبو » أو « بروست »، إذا لم يَعرف القارىء دوافع هؤلاء الشعراء والكتّاب ، الجنسية •• وعلاقتها بالعصر الذي كانوا يعيشون فيه ؟!

تبسّم « مكسيم » •• موافقا ••

ــ •• وهذه أبسط الخلفيات •• إذ يجب على القارىء معرفة نفسه ، هو ، قبل أية قراءة ! عليه قراءة وتمحيص دوافعه ، هو ، وما يخفيه عن نفسه ، من هواجس ! قبل حكمه على نتاج الآخرين !!

نظرت اليه « لورا » في تمعّن •• وسألت ••

ــ •• وهل فعلت هذا يا « ميشكا » ؟ هل تسائل نفسك ، من حين لآخر ، عن هواجسك هذه ؟!

أجابها في لهجة من يقول الصدق •• ولا يود أن يغوص في التفاصيل ••

ــ •• أظن أني أعيش هواجسي •• واعياً •• وبلا مواربة ••

ــ •• جميعها ؟!

نظر في عينيها الحادتين المتسائلتين •• ثم ضحك ، وقال ••

ــ •• طبعا ! وهل تظنّين أنّي « ذو اللحية الزرقاء » ؟ أُخفي جثث النساء ، في سراديب قصري ؟!

شاركته بعض ضحكه •• ثم تابعت متبسّمة ••

ــ •• ألا ترى صديقك « باتريس » •• هذه الأيام ؟!

تنبّه الى أنها لا تأتي على ذكر صديقه ، إلا وبعض التساؤل في نبرتها •• فتعجب لذلــك !

ــ •• وما شأن « باتريس » ؟ « لــورا » ! ما شــأن صديقي بالهواجس التي تتكلم عنهــا ؟!

قالت ، تـواصل ابتسامتها ••

ــ •• لقد أجبت نفسك يا عزيزي ! ثم •• « ميشكا » ، إن لك تمــام الحرية في هــذه الأمور ، وفي غــيرها ••

آثر ألا يــردّ عليهــا !

كانا على الشرفة المطــلّة على الغاب •• عرضة للأنظار •• لا بد لجميع من يتنزهون فيه أن يلحظوا التبدل في مظهرها ، لو أصابها انفعال مفاجىء ، فتحاشى ما يثيرهــا ••

همّ بمتابعة ما كان يقرأ عليها من شعر « ريلكة » •• فمدّت ذراعهــا نحوه ، واضعة أصابعها الدقيقة المرهفة فوق الصفحات ، وقالت •• وكأنهــا لا تود طرح مثل هــذا الـسؤال عليه •• وإنها تفعل ذلك ، رغماً عنها ••

ــ •• « ميشكا » ! هل أحببتَ حقا « ماتيلد دو روكموريل » •• هل احببتها •• حقــا ؟!

بوغت « مكسيم » لسؤالها ! ثم تملّكه العجب والحيرة !

ــ •• « لــورا » •• إنك تعرفين الجميع ، بأسمائهم الأولى ! ولديــك مقدرة عجيبة على التكتم ، والانطواء على ما تعلمين ! هل حدّثك « جــاك » عنهــا ، كذلك ؟!

ثم أجــاب نفسه ••

ــ بالطبع•• ومن غيره تعرفين ، ممن لهم اطلاع على هذه الخصوصيات ! إذن •• فلا بــد أنه أطلعك على نمط المحبة التي جمعتنا ! لقد كنتُ بمثــابة

الابن لهـا •• ثم •• إنك تدركين ما سيتركه ذلك من أثر في نفسي ، لو تطرّقنا الى هـذا الموضوع في خفّة ، أو سطحية !

كادت تقفز من مقعدها توثّباً ، وهي تردّ عليه •• تخاف أن يكون قـد أخطـأ فهمهـا ••

ـ لا ! لا ! « ميشكا » ! أنا لا أقصد عاطفة « ماتيلد » بسؤالي هذا •• أنا لم أسألك عنها ! أعلم عنها الشيء الكثير !! وأعلم أنهـا لو أضمرت قصداً آخر من محبتها ، لمـا توانت عن الإفصاح عنه ! لا ، « ماتيلد » •• كان لهـا صفات كثيرة غير محبّبة ، ما عدا المواربة والكذب ! « ميشكا » •• إنما كنت أسـألك عنك أنت ! عن مدى حبك ، أنت ، لها ! وطبيعة ذلك الحب !

أجابهـا على الفـور ••

ـ •• أي طبيعة تقصدين ؟ كنت أبادلها ما كانت تحسّ به تجـاهي ! هذا كل ما في الأمر ! أكان من الممكن أن تربط بيننا عاطفة أخرى ؟ كان عمرها أكثر من ستين سـنة !!

امتقع وجـه « لـورا » •• ثم عاد الى شحوبه السابق ••

قالت في هدوء ، وحزن ، يشوبهما الخوف •• والهزيمة ••

ـ •• « ميشكا » •• يا صغيري ! إن ليَ من العمـر أربعاً وخمسين عاما •• ورغم ذلك ، لا أشعر أنك ولدي !

ارتج على « مكسيم » ! واختلط عليه فهم ما كان فيه !

أحس بحاجة طاغية الى إطلاق ما في صدره •• دون أن يتوقّف ، كعادته ، لإدراك مدى تأثير ما يودّ الافصاح عنه ، في الآخرين !

ولم يشأ أن يمنع نفسه عما عوّدها من انطلاق ، فقال ••

ـ •• لا أعتقد أنك تحبينني كما تحب المرأة الرجل ، وأعتقد ذلك أن لحبي طبيعة تميزه مما يشد العاشق الى معشوقته !

لم تبـد « لـورا » أيـة حركة !

تساقطت دموع" من عينيها •• ثم قالت ••

ـ •• أنا •• « ميشـكا » •• إنما ، سقمي ، يمنعني عن أن أكون كأيـة امرأة عـادية ! ويا ليتني كأية امرأة ! أما أنت •• فأنا أعلم أنك تحبّني •• ولا أحس من حبّك ، سوى بما تجمّع منه في عينيك ! أهو نحولي الذي يقيّـد حبك لي ؟! هل يثير جسدي اشمئزازك ؟!

كان يعـلم أنها لا تطلب منه قرباً ! ولا ترجو منه لمسةً واحدة تحمـل الى جسدها حرارة الجنس ! وفي الوقت نفسه ، كانت تودّ أن يحس بأنوثتها ! كأن أنوثتها باتت كل ما تبقّى لهـا ، كأنهـا الدليل الوحيد على أنهـا قريبة من الحيـاة !

تقـدم منها ، يحاول أن يمسك بيديها ، وقال واجفـاً ••

ـ •• « لـورا » •• كيف تقولين إني لا أحبّ جسدك ! وكـل ذرة فيك أنبل وأجمل ما لقيته في حياتي !

أبعدَت يديها عنه ، خائفة •• ومالت عنه ، الى الوراء ، تقـول وهي تكاد تصرخ ••

ـ •• لا ! يا إلهي ! لا ! ليس هـذا !! أعلم أنك صادق •• رغـم أن ما تقوله غير صحيح !! « ميشـكا » •• إنني أتعذّب ! ولا يعذبني غير نفسي •• يا إلهي !! أليس لهـذا التيه من نهـاية !!

سمع قرع الباب ، فقام « مكسيم » من الشرفة يعبر الغرفة ، على عجل ، ليفتح للقادم •• واذا « أوديل » تحمل قهوة كان قد طلبهـا •• فما إن تناول الطبق منها ، يهمّ أن يلتفت عائداً الى الشرفة ، حتى أحسّ بيدها تندسّ بين فخذيه ، تطبق على ذَكَره ، وتقـول ••

ـ •• هـذا !! لن تناله امرأة سواي !! حذار أن تعطيه تلك المتوهة !

كانت يدا « مكسيم » مقيّدتين بما تحملانه •• فكاد أن يقذف الطبق في وجهها ، لولا أن رأت احتقان وجهه •• فأدركت غضبه وأفلتت هاربة منه على عجـل !!

فرَّت نحو المدخل ، تقفل الباب وراءها •• وتقول هامسة ، مكشّرة ••
ــ •• انه لي ! شئت ذلك ، أم أبيت !!

عاد الى « لــورا » متردداً ، يخاف أن تلحظ اصطباغ وجهه •• أو أن تكون قد انتبهت الى حركة « أوديل » ! فوجدها لاهية عن ذلك ، ترفع الكتب عن المنضدة الصغــيرة التي تفصل بينهما ، لتهيىء مكانا للطبق ، وقد عــادت الى هــدوئها السابق ••

قالت متبسمة ، مازحــة ••
ــ •• « ميشكا » •• لا تلتفت الى نزواتي •• إنما أنا امرأة عجوز •• فلا تهتم للنزع الآخير لشبابي ••

انحنى أمامها ، يضع الطبق •• وهمّ بالكلام •• فوضعت طرف أصبعها على شفتيه ، وتابعت ••

ــ •• ولي من الخبرة بالحياة ، ما يكفي ، لأعلم أنه لا يحيا شــاب ، دون جنس ، ومــا من جنس ، لمن في ســنك ، يوازي ساعة مع صبية مثــل « أوديل » •• أو ••

كاد « مكسيم » يصرخ ! فكبح غضبه ، حتى احتقن وجهه ، مرة أخرى ، وقــال ••
ــ •• « أوديــل » ؟! « أوديــل » ؟!
ــ •• حسناً •• حسناً ! مثل « جينيت » ، إذن !!
ــ •• وتعرفين عنها أيضا •• يا إلهي !! وهــل يخفى عليك شــيء ؟!

وجلس ينظــر اليها حــائراً •• لا يدري ماذا يقول !!

قالت « لــورا » ، بعــد برهــة ••
ــ •• ستأتي مدام « آدا » لزيارتنا هــذه الليلة ••

تمكّن ، في سرعة ، من انفعاله ! تجاهل ما مر بينهما ، وقال في بساطة ••
ــ •• « آدا » •• العرّافــة ؟

هزّت رأسها بالإيجـاب ، وتابعت ..

ــ .. وقد تأتي « غيردا ليهمان » كذلك .. إن « غيردا » ، زوجة مدير دار « الاوبرا » ! ستجد أنهـا على ثقافة عالية .. ولها ذوق موسيقي فذّ ، تحسد عليه ! « ميشكا » .. هلاّ طلبت من « أوديل » أن تؤخر انصرافها ، هذه الليلة ؟ لا أودّها أن تنصرف ، قبل ذهاب الضيوف ..

ــ ومتى يذهبون ؟

ــ .. لست أدري بالضبط .. قل لـ « أوديل »، أرجوك ، إن باستطاعتها أن تضطجع في غرفة الانتظار ، إذا شاءت ، أو أن تنام فيها ، هـذه الليـلة .. لو تأخـر الضيوف ..

كانت الظلمة قد غشيت أنحاء الغاب .. فجلسا برهة ، ينصتان الى صوت الطبيعة الهـادئة .. فما إن زادت رطـوبة الهواء حتى وقفت « لـورا » ، فاتحة ذراعيها ، تعبّ من صفاء الجو ، وكاد رأسها يدور ! فأسرعت عـائدة الى غرفتها .. واستلقت على سريرها ، كعادتها ، بينما جلس « ميشكا » عـلى مقعده الجلدي المأثور ، غير بعيد عنها ، يقلب صفحات ديوان « ريلكة » .. ويعيد قراءة بعض من أشـعاره ..

* * *

تبسم « مكسيم » إذ وقف لمصافحة مدام « آدا » .. وهزّ رأسـه في شـيء من العجب ..

فزمّت هذه جفنيها ، مازحة ، وقالت ..

ــ ها .. أيهـا الشاب ، الوسيم ! ما معنى هذه الابتسامة المغلّقة ؟!

أجابهـا متسلّيا ..

ــ لك الحق في هـذا السؤال ! فمنذ أن أخبرتني مدام « ستيوارت » عنك ، وعن قدومك ، هـذه الليلة ، وأنا أتوقـع أن أقـابل سيدة شمطاء ! معكوفة الأنف ..

أكملت مدام « آدا » قــوله ، مازحــة ••

ــ •• تمشي على عكّاز ، وعلى كتفها غراب أسود مقيت ؟!!

ضحكوا جميعاً لمـا أضافته العرّافة من وصف لا يطابق قامتها القصيرة الممتلئة •• ووجهها المستدير الأليف ، الصبوح !

جلست ، تزيح حطاطة صوفية قديمة عن كتفيها •• تفرك كفيها في حيوية ، وواقعية ، بعيدين كل البعد عما يتوقّع الانسان أن يراه لدى مثيلاتها ، ممّن لهن موهبة النظر ، عبر حدود الزمان ، والتنبؤ ، بما يأتي به المستقبل !

قالت ، تبتسم لـ « مكسيم » ••

ــ •• ولا أنا ، يا عزيزي تصورتُ أنك ستكون على شكلك هذا ! رغم تنبؤاتي البعيــدة ، بقدومك ! وتوقعي باقتراب الموعــد ! أليس كذلــك ، يا مدام « ستيوارت » ؟ لقد أخطأتُ ، بأمرين يتعلقان بك ، الأول ، سنك ! فلقد ظننتُ أن سنّك تربو على الأربعين ! والثــاني •• طباعك ••

تدخلت « لــورا » ، تسألها في لهفة طفولية ••

ــ •• مدام « آدا » •• أرجوك ! قولي الآن ! ماذا تجدين في طبــاعه ؟! ماذا ترين ؟! مــاذا !

حدّقت العرافة الى عيني مدام « ستيوارت » ، وقالت ••

ــ •• وأنت يا عزيزتي ؟ ماذا تجدين ؟ ها قد أصبحت النبوءة ، واقعاً •• فزال دور العرافات •• أو على الأقل ، أصبح من حقهن أن يسترحْن ، قليلا !

أجابت « لــورا » ، حائرة •• ضائعة ••

ــ •• لستُ أدري •• لست أدري ! ليس عندي ما أشكوه من صدق « ميشكا » ! ان لفيه من الصفات والمزايا •• ما لم يتجمّع في جميع من لقيتهم في حياتي ، من رجــال ! ورغم ذلك •• فلا تمرّ الزيارة ، أو الزيارتان حتى يُبكيني ، مــرة أو مرتين !!

ردّت مدام « آدا » قـائلة ••

ـ •• إنما هـذا ضعف منـك ، يا صغيرتي ! وليس علّـة في المسيو « نيفسكي » ثم نظرت الى « مكسيم » ، وتابعت ••

ـ وعلى الرجال أن تنتبه الى نقاط الضعف ، عند النساء ! فتداريها !

حدّقت الدوقة « انستاسيا » الى العرافة •• وأجابت بترفّع مفـاجىء !

ـ •• إن ما تلقّبينه ضعفاً مني •• إنما هو نتيجة مآسٍ ينوء بحملهـا عشرات الرجـال !! لا يا عزيزتي ! أنا لا أشكو من ضعف •• أو من تهالك النساء ! بل من جـرحٍ مفتوحٍ ينزف على الـدوام ، ويزيد نزفه ، لأبسط ملمس !!

خيّم صمت" ثقيل على الغرفة ، لصراحة لهجتها •• فأخـذت العرافة حقيبتها ، تفتحهـا ، وتتشاغل في البحث عن شيء ما فيهـا ، واذا « مكسيم » يضحك ، ويقول •• وهو يغمز لـ « لـورا » بطرف عينه ••

ـ إنما هذا الضعف علّة الملوك يا سيدتي ! كما الـ « هيموفيليا » ، علّة الملكة « فيكتوريا » التي أورثتها أسرة « رومانوف » القيصرية ••

تمتمت « لـورا » ، تثني على فطنة « ميشكا » •• واذا جرس الهاتف يرن •• فتدخل « أوديل » ، لتعلن أن الأمـير « يوسوبوف » يودّ مكالمـة المـدام « ستيوارت » •• فما إن انصرفت « أوديل » ، ورفعت « لـورا » السماعة ، حتى غطتها بيدها ، وقالت •• لـ « مكسيم » ••

ـ •• إن المدام « آدا » على علمٍ بحقيقة من أكون ! وهل يمكن لنسب كهذا أن يخفى على عرّافة مثلهـا ؟!

والتفتت تتكلّم على الهـاتف ، مبتهجة •• فما إن أعادت السماعة الى مكانها •• حتى قالت جذِلـة طـربة ••

ـ •• إن الأمير « نيقولا » في باريس ! وسيأتي مع « فيليكس » لزيارتي ، هـذه الليـلة !

ثم نظرت الى العرّافة تقول ..

ــ .. مدام « آدا » ! ستكون ليلة رائعة ! في وسعنا عقد جلسة روحية .. أليس كذلك ؟ فنحن لم نعقد مثلها منذ سنين ! إن لـ « نيقولا » خصائص وسيطية فريدة ! ثم ، ما رأيك بـ « ميشكا » ؟! هل له مثل هذه الخصائص ؟!

تبدّلت نظرات العرّافة ، وهي تحدّق الى « مكسيم » .. ثم قالت ، مترددة ..

ــ .. إن ما أخافه ، هو تضارب ما قد يحدثه النقيضان .. فالأمير « نيقولا » ، من برج ، وتاريخ ميلادٍ ، لا يتفق البتة مع برج السيد « نيفيسكي » .. وتاريخ ميلاده !

تعجّب « مكسيم » لما لدى العرافة من معلومات عنه ، لا بد أن « لورا » قد زودتها بها .. لكنه أغفل ذكر ذلك ، فتبسّم لقولها .. وسألها ..

ــ .. وماذا يحدث في مثل هذه الحال ؟ هذا التضارب ! هل لي أن أعرف الوجه الذي يحتمل أن يتمّ عليه تضارب الأبراج ؟!

أحسّت العرافة بشيء من الشك ، والسخرية ، في لهجة « مكسيم » فتغاضت عن ذلك ، وهي المتمرّسة في تقبّل جميع أنواع السخرية ، والتحدي !

قالت .. في تصميم .. وكثير من البرود ..

ــ .. سترى يا سيدي ! سترى بنفسك .. أيها السيد العزيز !

* * *

سمع صوتاً نسائياً في غرفة المدخل .. فهمست « لورا » لـ « مكسيم » تنبّهه الى أن « غيردا ليهمان » يهودية الأصل .. وإن عليه أن يحتاط لذلك ، إذا ما ورد ذكر الديانات ، أو جرى نقاش ما حولها ! ثم أدارت قرص الهاتف ، تطلب من مدير المصحّ أن يفتح لها الدور الأرضي ، حيث توجد صالة معدّة لاستقبال الضيوف ..

دخلت مدام « ليهمان » تقبّل وجنات الدوقة « انستاسيا » •• تصافح مدام « آدا » ، ومدت يدها لـ « مكسيم » ، فلثم أصابعها ، وراح يتمعّن في وجهها الأسمر ، الشرقي التقاطيع ••

تململت لنظراته ، وتوجّهت نحو « لـورا » ، قائلة ••

ــ •• أوف ! « ماري » ! إن لفي نظراتكم يا معشر الروس ، ما يلصق بالنفس •• فيكبّلها !

ــ •• تمهلي يا عزيزتي ! إن « فيليكس » ، في طريقه الينا ! واحزري من سيأتي معه ؟! الامير « نيقولا » !! سوف تغرقين هذه الليلة في بحرٍ روسيّ ، لا مخرج لك منه !!

ــ •• كأني لا أعرف معنى ذلك ! وأنا التشكوسلافية الأصل !!

ضحكت الدوقة « انستاسيا » •• وعلّقت ••

ــ •• لكن عذابك هذه الليلة سيأتي على أيدٍ ملكية ! ثلاثة أمراء ، ودوقة !!

تعجّب «مكسيم » لقولها ، « ثلاثة أمراء » !

نظر اليها ، متسائلاً •• فأشارت له بعينيها أن يكفّ عن التساؤل ، كي لا تنتبه « غيردا » الى ذلك ، وأومأت له بأن لها هدفاً من إشراكه في لقب الامارة •• ولم يبد على العرافة أنها استغربت لقبه •• كأن « لـورا » قد حضّرتها له ••

ــ •• « أوديل » •• « أوديل » ••

نادت « لـورا » مرافقتها ، في صوت خافت ، فما إن بانت هذه ، حتى أعطتها التعليمات اللازمة لتحضير الحلوى والشراب ، للضيوف ، ثم أكملت ••

ــ •• وأحيطي المائدة الوسطى الخشبية ، بستة مقاعد مريحة•• وانتظري وصول الأميرين أمام باب المدخل •• فمتى وصلا ، فقدمي لهما شيئا من الشراب ، ثم أخطريني بذلك ••

كانت « أوديل » غـاية في الأدب والدماثة أمام الناس •• سمعت أوامر سيّدتها ، وهي تنظر الى الأرض •• ثم انحنت انحناءة صغيرة •• وانصرفت مسرعة الى عملهـا ••

* * *

ــ سيدتي ، لقـد وصلا •• إنهما في الصالة يشربان « البورتو » ••

نهضت الدوقة « انستاسيا » في بطء ، تحاول أن تُخفي شيئاً من طـول قامتها الذي زاده قصر قـامة ضيفتها !

تدثّرت بوشاح صوفي فضفاض أبيض •• وتقدّمت من « غـيردا » ، ثم « آدا » •• تنزلن السلم •• و « مكسيم » وراءهن ، يدفع « أوديل » من ورائه ، دون أن يلتفت اليها ، وقد حاولت أن تمد يدها بين ساقيه ، من جديد !

نهض الأميران ، من حيث جلسا ، في غرفة الاستقبال ، يخفّان للسلام على قريبتهما ، المريضة ، الغريبة الطباع ••

ــ « انستاسيا بتروفنا » !

ــ « انستاسيا بتروفنا » ! ابنة العمـة ••

ــ عزيزيّ ! صديقيَّ « فيليكس »•• « نيقولا » •• دعاني أقبّلكما ••

ــ إنك تبدين رائعـة •• تتوقـدين صحة •• وجمالا !

تبـادل الجميع القبل والسلام •• فتوجّه الأمير « يوسوبوف » الـى « مكسيم » ، يهزّ سبابته قائلا ••

ــ « مكسيم فيودوروفيتش » •• إني حانق عليك ! وعلى ابنة العمـة « !انستاسيا بتروفنا » التي تستأثر بك !

تدخّل الأمير « نيقولا » ، قائلاً ، في لهجة من يحاول لفت النظر اليه ••

ــ •• قـل لي يا « فيليكس أندرييفتش » ، لو صح كلامك •• فمـن المسؤول ، في نظرك ؟ أنت، الذي قدّم ربيبك اليها•• أم هي التي استأثرت به ؟

هزّ الأمير « يوسوبوف » رأسه ، نزقاً ، لتطفّل « نيقولا » ! كان يكره التمحيص والتدقيق في مثل هـذه الأمور !

قام بأصابعه بحركة من يفلّي شيئاً •• وقـال ••

ـ هذه عادة « نيقولا سير غييفتش » دوماً ، وراء •• وراء الخفـايا !! يفلّيها حتى يضيق به من حوله ! لا بـد أنك كشفتَ جميع فضـائح قصر « باكنغهـام » مدة ضيافتك فيه في « لندن » ! أتدرين يا ابنـة العمة ، أن « نيقولا سيرغييفتش » كاد يُطرد من القصر !

هزىء الأمير « نيقـولا » ، من قولـه •• وأجـاب مبتسما ••

ـ وهل في « باكنغهـام » من الفضائح ما هو في حاجة الى الكشف ؟ الكلّ يعلم بأسرار البلاط •• وجميعهم يتعامون عنها ، أو يتصرّفون كأنهـا أسرارٌ تنتظر من يأتي ليكشفها للمـلأ !! إن ازدواجية الانكليز كارثة ، حتى الانكليز غدوا يضجون منها ، ويضيقون بهـا !

كانت مدام « آدا » تُعـدّ النور المناسب ••

أطفأت القويّ منها ، وتركت بعض المصابيح الخافتة في جوانب الصالة••

تذكّر « مكسيم » ما كانوا بصدده ، فهمس في إذن « لـورا » ••

ـ •• أحقّا ، سنجلس الى تحضير الأرواح ؟!

مالت مـدام « آدا » وقد سمعت قوله ، رغم بعدها عنهما ••

ـ •• مسيو « نيفيسكي » •• أيها العزيز ! ليس بيننا من مجنونٍ ، أو معتوهٍ ينتظر أن تعود روح أبيه ، أو جدّه ، هذه الليلة ، لتنبئه بما يخبىء له المستقبل •• ولا متكسّب يسعى الى مطمع ، يناله من التغرير بأحد الحاضرين الأثرياء !! سنجلس حـول المائدة ، بعد برهـة •• لنحاول ، بما أوتينا من قـوة روحية ، أن نعلو ، ولو بمقدار ، فـوق واقعنا المحسوس ! هـذا كل ما في الأمـر !!

ردد « مكسيم » قولها الأخير في لهجة متشككة ..

ـ .. هـذا كل ما في الأمر !

نظرت اليه بغتة ، وقالت ، وهي تحدّق الى عينيه ..

ـ .. حسناً .. لنستعمل تعابير العصر ، في القول نفسه .. أليسَ هنالك شحنة كهربائية تمرّ على الدوام في كيان كل إنسان ؟! أليس لكل إنسان تيار كهربائي خاص به ؟! إن هـذا واقع علميّ لا يمكن لأحد نكرانه !! ثم .. أليس لكل تيار كهربائي ، دائرة مغناطيسية ، تحيطه وتلفّه ؟! وهـذا واقع علمي آخر ، لا يمكنك نفيه !! فاذا جلس ستّتنا حول المائدة المستديرة العازلة .. أفلا تتجمّع دوائر ساحاتنا المغناطيسية ؟ أفلا تتقاطع ؟ وتتشابك ؟! أليس قولنا علمياً ، إذا استنتجنا ، ان دائرةً مغناطيسية جديدة ستتشكّل من هذا التجمع ؟! فما بالك لو كانت دارات بعضنا أقوى من المعتاد ؟! وما بالك ، لو ركّز كل منا اهتمامه على تقوية شحنته الكهربائية ، بالتفكير ، والإصرار على التركيز الإراديّ ؟! ألا يحتمل أن ينتج شيء ما من كل هذا ؟ بعـد" ، حسي" .. لما هو ، في الحياة الاعتيادية .. غير حسيّ ؟!

رفع « مكسيم » حاجبيه عجباً لهـذا الهجوم العلمي المفاجىء !! وقال ..

ـ .. إن ما تقولينه الآن يا سيدتي ، يختلف كثيراً عما سمعته منذ برهة عن كوننا سنجلس لتحضير الأرواح !!

ـ .. معنى ذلك ، يا عزيزي .. أن ما تفهمـه أنت عن الأرواح ، أي معلوماتك المسبقة عنها ، هي التي أثارت استغرابك ، حين سمعتَ ذكرها ..

تبسّم « مكسيم » لطريقتها في النقاش .. وذكّره ذلك بجلسات سابقة له مـع أصدقائه في مقهى « المابيون » .. فأشار لمدام « آدا » بيده أنه يفهم مسار فكرها ! لكنه أصرّ .. دونما لهجة جادة ، تنشز بتلك السهرة عن هدفها المسلّي ..

ـ .. مـدام « آدا » .. قولي صراحة ! هل ستنهض الأموات مـن

قبورها ، هـذه الليلة ، أم لا ؟! إن لفي ماضيّ من الأموات ، من لست على رغبة كبيرة في لقائهم هذه الليلة !

ضحكت « غيردا » وسـألت ..

ـ .. من النساء .. أم من الذكور ؟!

تدخّل الأمير « يوسوبوف » ، خوفاً من أن يشذّ الحديث ، دون قصد أحـد . فقال كمن يقفل النقاش ..

ـ .. من النوعين يا سيدتي ، من النوعين ! وجميعنا .. لنا من نخـاف رجعته ، هذه الليلة .. خصوصا أنـا !!

فطن الحاضرون الى ما عناه الأمير من ماضيه.. فكتموا فهمم لملاحظته.. مما أسبغ جوّا من الحذر سيطر فجأة على عقولهم .. فأخلدوا الى الصمت والترقّب !

* * *

أغلقت العرّافة نافذة الصالة .. فخفَتَ أزيزُ ريحٍ خريفية كانت تعبث بأشـجار الغـاب ..

أشار تالى « غيردا ليهمان » بأن تغلق النافذة الأخرى .. فعاد لا يسمع من صوت الرياح ، سوى صفيرٍ بعيد أضفى على نور الصالة الباهت ، مسحة من الغرابة الموحشة ، تبدّت على وجوه الحاضرين !

همست « لـورا » ! وهي تحسّ برعشةِ ترقّبٍ خفيفة ..

ـ .. أوف ! صارت هذه الجلسات لا تروقني !

وأحكمت جمـع وشاحها الأبيض ، مقتدية بحركة العرّافة .. فتبعهـا الجميع ، يبسطون أكفّهم وأصابعهم فوقها ، يضيّقون من دائرة الأيدي ، حتى تلامست أطراف أصابعهم المفتوحة .. فبدت فوق الغطاء الأسود ، كدائرة من النجوم البيضاء القبيحة ، ترتجف فوق ظلمة جافّة لا قمر لهـا !

همس « مكسيم » ، منقاداً مع غرابة ما أحاط بـه ..

ـ .. هل من أمر خاص يتوجّب علي أن أعرفه ، أو أن أقوم به ! قبل أن نبـدأ التحضير ؟!

أجابته العرافة ، في صوت صارم ، مقتضب ..

ـ .. أقفل عينيك .. اسمع ، وأطع .. هذا كل ما هو مطلوب منك !!

وأقفلت عينيها .. ثم أخلدت الى الصمت ، والتنفس العميق !!

خاف « مكسيم » إن هو لم يقفل عينيه ، أن يمتعض الحاضرون منـه ، أو أن يسيء الى « لورا » ! فانصاع الى ما قالته العرافة .. وأسدل جفنيه .. وإذا هو يسمع صوت تنفّس الجميع ، يعـلو ، ويخفت ، في إيقاع منتظم ، انساق معـه ، دون أن تكون له يـد في ذلك .. فما إن تسارعت أنفاسه ، معهم ، حتى أحسّ بدورته الدموية تتسارع في عروقه .. وفي صوت يشابـه الطنين البعيد يمـلأ صدغيه !!

سمع صوت العرافة يبدأ تمتمة خافتة .. لم يفهم معناها ، في البـدء ! ثم علت ، في بطء شديد .. فتبيّن له أنهـا كلمات « لاتينيّة » .. فهم منهـا ألفاظاً متقطعة ، مثل .. « روح ».. « موت » .. « الليمبوس » ! « موت » ! « روح »! « ضياع » !! « عـذاب » !! وإذا صوتُها ينداح ، وتزيده طبقته عمقا ، وبتسارعِ تنفّسِ الجميع ، ينساقُ مع تنفسها.. يتوقّف ، لتقطعاته.. ينقطع ، لعثراته ، ثم يعود الشهيق ، والزفير ، إذا ما عادت الى النداء المبحوح.. « مـوت » .. « روح » .. « أموات » .. « ضياع » .. « تعالوا » .. « تعالوا » .. تعالـوا « .. تعالـــــوا » .. واذا بصوتهـا يعلو !! ويعلـو !! ويعلــــــو !! فترتعش الأصابع ، وتحاول التمسك بما تحتهـا من غطاء أملس ، راح يهتز ، كأنما المائدة التي تحته ترتجف ، وترتعد !!

سَمع بغتــة أنين بعيد .. بعث قشعريرة رعبٍ في أوصالهم !! ثـم صوت طفلة تبكي ، وتتوسل !! تقـول إنها لا تستطيع الهبوط !! ثم صوتٌ بعيد ، يسألها عن السبب !! فتجيبه إن في الغرفة روحاً غريبة تمنعها عن ذلك !! فتعود

الطفـلة الى الأنـين ! والبكـاء !! والتوسـل !! ترجـو أن يُسمح لها ، بالهبوط !! فيصرّ الصوت على سؤالها عما يمنعها •• فتقول ، إنها تتعذّب ، إنهـا تخاف الضيف الجديد !! فهو يودّ ، إن هبطت ، أن يتمسك بها !! ولن يسمح لهـا بالرجوع •• عاد الصوت ، يسألها •• هل يخـرج الضيف ، من الحلقة ؟! فبكت ! وزاد عويلها !! كأن لا مخرج لها مما وقعت فيه !

أحسّ « مكسيم » أنه المعنيّ بصوت الفتاة المرعب !!

سحب يديه عن المائدة ، وهو يفتح عينيه ، في صعوبة بالغـة !! وتراجع الى الخلف ، في هدوء ، بينما أغلق الباقون دائرة الأيدي ، ثانية !!

رأى شفاه العرّافة تهتزّ مع صوت الطفـلة التي عاد الى البكاء ، ثـم اختلطت مع العويل أصوات أخرى ، توالت ، تباعاً ، تتلفّظ بما لم يفهمه !!

تراجع الى الخلف ، في بطء ، وتأن •• ثم فتح باب الصالة وانسحب منه ، يحاول أن ينفّض عنه ما اعتراه من رهبة ، ورغبة ملحّة في إطـلاق ضحكٍ هستيريّ !!

صعد السلّم ، الى غرفة « لورا » ، وهو لا يزال تحت تأثير ما كان فيه !

فتح باب غرفة المدخل •• واذا « أوديل » مستلقية على المقعد العريض فيها ، كأنها تنتظر قدومه ، وثوبها الأبيض مفكوك الأزرار •• مفتوح ، تماماً ، عن جسدها العاري !

نظرت إليه ، ساخرة ، تشير الى ما بين ساقيها •• في سذاجة وتحدٍ ••

ــ •• أليس في هـذه البقعة السوداء من المتعة ، أكثر ما على مائـدة العجائز السوداء ، تلك ؟!!

تقدّم منها ، كمن وصل الى الهواء الطلق ، بعـد ضياعٍ طويلٍ ، في كهفٍ مظـلمٍ سحيق !!

انحنى فوقها ، يقبّل ساقيها ، ونهديها ، وكأن في ذلك نجاة له مما كـاد ينزلق فيه من شعوذةٍ ، وسـحر !!

دقائق •• ثم نهض عن « أوديل » يلهثُ لمـا أصابه من ارتواء !

سألها ، ساهمـاً ••

ــ هل يجتمعون مراراً •• في مثل هذه السهرات ؟

ــ •• يقومون بهـذه الجلسات كلما عادت تلك المأفونة « آدا » مـن السفر !! إن لها مريدين ، في كثـير من البلدان ! تدور على الجميع ، تجمـع الهـدايا ، فهي كما سمعتُ ، تحتقر النقود !!

ــ •• وهل يعلم البروفسور « تيزون » بهذه الجلسات ؟!

ــ •• ماذا ؟! إنه يظن « آدا » هاوية ! لو علم بمهنتها الحقيقية ، لطردها من المصـح !

فطن « مكسيم » ، بغتة ، لأمر غاب في البدء عن انتباهه •• فالتفت الى الوراء ! وأسرع نحو السلم ، يقفز درجاته ، نازلاً نحو الصالة !

* * *

كانت الأصوات الغريبة لا تزال تنبعث خافتة ، من وراء الباب ••

فجمّع قواه •• ودفع الباب ، بقدمه ، على مصراعيه !!

ما إن سمع دويّ مصراعيّ البـاب ، وهما تصطدمان بالحائط ، حتى غابت الأصوات ، وفتحَ من كانوا حول المائدة ، عيونهم ، مذهولين لما يحدث !! إلاّ صوت العويل البعيد ، الغريب !! ظل ينبعث راتباً ، من مصدر في قعـر الغرفة ، في غير مكانه ، وقـد أضاء « مكسيم » الأنوار الساطعة •• وغابت بقية الأصوات !

تقدّم في خطوات كبيرة •• وحدّق الى العرّافة ، وعيناه ترتجفان غضباً !

ــ إما أن تبرحي هذا المصح ! خلال دقائق ! وإلى غير عودة ! وإما أن أخبر البوليس عنك ، في هـذه اللحظة !!

علا احتجاج الدوقة « انستاسيا » •• فصاح يكرر وعيده للعرافة ، دون

أن يلتفت الى « لورا » •• أو الى دهشة الآخرين ! ثم استدار نحو صديقته ، وكان الإجهاد قـد نال منها فجـأة فبدت كأنهـا لا تقوى على النهوض من مقعدها ! فانحنى يحمـل جسدها النحيل بين ذراعيه ، يؤنّبها ، كمن يعنّف طفلة •• فطوّقت « لورا » عنقه بذراعيها ، منقادة لإرادته ، وتمتمت ••

ــ •• « ميشكا » •• « ميشكا » •• لطالما وعدْتني باستحضار أرواح إخوتي ! كانت ، تسلية ، في البدء •• مجرّد تمضية للوقت •• يا إلهي ! كيف انزلقنا ، جميعا •• وإلامَ •• انزلقنـا !

لبث « مكسيم » واقفـاً ، و « لـورا » بين ذراعيه •• يحـدّق الى العرافة •• فإذا هذه تنظر حولها ، في برود وسخرية ••

نهضت ، لتجمّع حوائجها •• ولما تلكّأت•• باغتها « مكسيم » بقوله••

ــ •• لا تنتظري أن نبرح الصالة ، كي تأخُذي مكبّرة الصوت التي تركتِ ، وراء الستارة ! على إفريز النافذة ! انهـا لا تزال في دورانها ، عـلى ما حضّرْتِ ، من أصوات العويل !! خذيها ، وانصرفي في الحال !!

بُهت الأمير « يوسوبوف » •• ورفع الأمير «نيقولا » يديه على فمه ، دهشة لمـا سمع !

مشت العرافة في بطء ، وتخاذل ، نحو النافذة ، وانتزعت علبة صغـيرة ، بحجم الكف المغلقة•• كانت قد شبكتها وراء الستارة •• فوضعتها في حقيبتها ، في صمت •• وخرجت من الصالة ، مهزومة ، دون أن تنبس بحرف واحد !

* * *

استدارت « لـورا » ، على كتف « ميشكا » •• في وداعة •• وقالت للأميرين ، اللذين سـارا وراءهما ••

ــ •• لقد صدَقَت مدام « آدا » •• في شيء واحد ، على الأقـل !! إن « ميشكا » ، هو الذي كنت أنتظره ، منذ سنين !!

ضحك الأمير « يوسوبوف » وكان بادي السرور بكل ما حصل •• قال ، وهو يصعد السلم ، وراء الأمير « نيقولا » ، يرافقان الدوقة «انستاسيا» الى غرفتها ، وسريرها ••

ـ •• « مكسيم فيودوروفيتش » •• هل تدري ، يا صديقي ، ماذا تحمل بين ذراعيك الآن ؟! إنك تحمل خلاصة أوربا !! خلاصة حضارتها !!

أضاف الأمير « نيقولا » •• حزينا •• شارد اللبّ ••

ـ •• أوربا المريضة •• أو ما تبقّى ، منها •• ومن نبلها !

طبع « ميشكا » قبلة هادئة على خدّ صديقته •• وقال ••

ـ •• لقد أضعتُ وقتاً طويلا للاهتداء الى كنزي ! إنه حمل ثمين ، خفيف ••

* * *

الفصل الرابع

تلت تلك الليلة ، ليالٍ .. وأسابيع .. عاش « ميشكا » خلالها ، مع « لورا » ، حلماً تخطّت سعادته خيالهما !

نسي العالم الخارجي .. غدا المصح عالمه ، لا يرتاد اليه سوى طريق الغاب ، والبحيرة ، كي لا تقع أنظاره على غيره ، من المشاهد الباريسية ، فيغيّر ذلك من صفو انسياب السحر الذي كان غارقاً فيه ! فإذا تركه للدراسة ، أو لعمله مع الأمير « يوسوبوف » ، صمّ أذنيه ، وغلّف حواسّه ، عمّا يعترضه من أمور الحياة اليومية ، يمرّ حِذوها كالغريب ، لا يرى ، ولا يسمع ، سوى ما سينقله الى « لورا » من حوادث ، أو نوادر ، فيُشْركها معه في حياته الباريسية .

نسج مع « لورا » ، من عالميهما ، عالماً متناغماً ، فريداً ، لا ثالث لهما فيه ! يقلّبان العِلم والثقافة .. يقيّمان الفنون ، ويتناقشان في الفلسفة .. ولا رأي يُسمع في ذلك ، سوى رأيهما ! ولا ذوق يُقبل معياره فيه ، سوى ذوقهما ! لا يجتمعان بثالث ، حتى يحسّ إزاءهما بغربة ، تدفعه للفرار من توافقهما ! يضحكان لذلك .. ويعودان في شوق الى الاتحاد ، واعتزال الناس ، كأنّ الضيف قد أقصى أحدهما عن الآخر ، في غربة طويلة !

* * *

كانت « أوديل » قد غابت لقضاء عطلتها السنوية ، مع والديها .. وحلت

محلها ممرضة مسنة تعوّدت أن تنادي « لورا » و « ميشكا » بـ « أولادي » ..
تحضّر لهما الخفيف من الطعام ، والشراب .. لا تتركهما ، حتى تستوثق من أنهما تناولا جميع ما وضعته أمامهما ، من غداء .. فيضحكان من ذلك ، جذلين ، وكأنهما طفلان ، أخوان .. أو حبيبان ، في طورٍ من الحب ، لا يعرفان أن فيه لقاء غير ما تجتمع عليه العيون !

فما إن عادت « أوديل » ، وكانوا قد أوغلوا في شهور الشتاء .. حتى أحس « ميشكا » بأن غمامة تتهدّد سعادته .. وأن في عودتها ما ينذر بالخطر .. لكن « أوديل » بدت ، كأنها غير تلك التي تركت المصح ، منذ أسابيع ..

تبدّلت الشيطانة ! وبدل تلك الشبقة المغتلمة التي عرفَ ، قبل سفرها.. عادت « أوديل » صبية ناضجة الأنوثة ، والنظرات .. تخاطبه ، اذا ما انفرد بها ، وكأن ما عرف منها في الماضي ليس سوى ذكرى من ذكريات طفولة مجنونة ، بعيدة !

أنِس لها ، وكان في شوق الى جسدها البضّ الفتيّ .. فما إن أشعرها بما توقّد في جسده من رغبته ، حتى ضحكت في دلال وخفر ، فوجىء لهما !

لم تمض أيام حتى وجد الطريق إليها ، من جديد .. فبات يأتي الى المصحّ في موعد مبكّر .. يمضيان ، في صالة الدور الأول ، ما شاء لهما من خلوة ، يصعد بعدها للقاء « لورا » .. ولا همّ له سوى إسعاد صديقته .. ولا لذّة عنده أكبر من إدراك ما كانت تشعّ به عيناها ، من سعادة وهناء ..

* * *

أخذا يخطّطان للمستقبل .. تسأله « لورا » عما يودّ أن يزاوله من عمل ، بعد انهاء دراسته للفن .. فلا يدري بماذا يجيب .. وكل ما يبعده عن دراسته وعالمها ، بات غريباً مقيتاً على نفسه ! فلا يجيبها ، يُبعد ذلك الاحتمال عن ذهنه .. فتعيده « لورا » الى الواقع ، في رفق وأناة .. حتى لم يجد في النهاية بديلاً عن مواجهته ..

أجابها ، يوماً ..

ــ أدرسُ ، أحد العلوم الاجتماعية •• وأتخصص فيما بعد ، في تدريس هذه المـادة !

ــ وأيّ المـواد أحب الى نفسك ؟

ــ الفلسفة •• أو علم النفس •• أو العلوم السياسية ! لست أدري •• جميعها محبب الى نفسي •• وجميعها يأتي في الدرجة الثانية ، بعد الفنون ! ليت في وسعي دراسة جميع هذه المواد ، معاً !

ــ •• ولماذا لا تراسل إحدى جامعات أميركا ؟ تحضّر لشهادة في الأدب مثلا ، وتجمَعُ ، حسب نظامها ، من المواد المساعدة ، ما يروق لك !

أعجبه اقتراحها •• وتمّ الاتصال باحدى الجامعات •• فبدأ « ميشكا » الدراسة بالمراسلة ، على أن يحضّر برنامجا خاصاً ، ينظّمه بما يتسع لـه من الوقت ، فاذا أنجـزه صار الى تلك الجامعة ليقضي فيها عاماً ، ينـال بعـده شهادة التخرج منهـا •

* * *

اتّخذت حياته نهجاً بدا له أن كل ما عداه ، كان هلامياً ، أو مؤقتـاً ، لا قيمـة لـه !

صار لأحلامه جذوراً واقعية ، امتدت ابتداءاً من الحاضر ، نحو الماضي ، والمستقبل !

أهمـل الحي اللاتيني ، وتعـوّد ألا يزوره إلا في فترات متقطّعة ، متباعدة •• فاذا ما صادف الأصدقاء القدامى •• جلس إليهم ، يسامرهم ، كأنه عائد من سفر •• يعلمون أنه انتهج سبيلاً آخر في الحياة ، غير الذي عوّدهم عليه ، فيأسفون لفقدان صديقهم •• ويتعجّبون لماضيه العجيب ، ثـم لذلك القدر الذي اختطفه من حياتهم •• ويتهامسون عن حاضره نبذات ، يتناقلونها ، كأنها فصولٌ من أسطورة خرافية !

إلاّ « باتريس » •• كان اذا ما رآه عرَضاً ، يظلّ بعيداً عنه ، والحزن بادٍ في عينيه •• يحاول « ميشكا » ربط الحديث معـه ، بما لهما من مودة

سابقة ، فلا يستجيب له « باتريس » •• يهزّ رأسه لأجوبته •• يهز رأسه لأسئلته •• يسأله في النهاية ، واجماً •• « هل حان وقت رجوعك اليها ؟ » « أليس لهذا الكابوس من نهاية ؟! » فيمتعض « ميشكا » •• لا يدري ماذا ينغّص صديقه •• ولا يقوى على تجاهل حزنه !

* * *

جلس في أحد الأيام المشمسة ، المشرقة •• في حديقة المصحّ ، ينتظر حلول موعد زيارته لـ « لورا » ، وكانا قد اتفقا على ساعة مبكّرة ، من بعد الظهر •• فراح يداعب كلب الحارس ، ينظر حوله الى المقاعد الخالية ، والغاب الذي غيّر الشتاء معالمه •• واذا الشاب الوسيم ، الذي كان يراه في الماضي ، يجلس غير بعيد عنه ، على المقعد الذي تعوّد الجلوس عليه •• ينظر الى السماء ، كعادته ، ثم الى الأرض ، ثم الى « ميشكا » •• كأنهما في أول يوم زار فيه « ميشكا » المصحّ ••

حدّق إليه « ميشكا » متعجّباً لأمره •• وإذا الشاب ينهض من مقعده•• يقترب من « ميشكا » ، ثم يجلس الى جانبه ••

تبسّم « ميشكا » له •• وبادره السلام ، ثم التعليق على ما حولهما من معالم الشتاء ، لكن الشاب لم يردّ عليه ، بل لم يبد منه ما ينبىء أنه سمع ، أو فهم ، ما قاله « ميشكا » ! فتجاهل « ميشكا » صمته ، وعاد يداعب الكلب ، الذي قفز الى جانبه ، يلهث ، وينظر بمودة الى عينيه ••

سمع صوت الشاب بعد برهة ، يقول في تردّد ••

ــ •• أنا حزين •• لقد فقدتُ •• قلمي •• هل تعرف ، أين ضاع قلمي ؟

كان صوته غريباً متلكئاً ، جافاً ، بعيداً •• كأنه لا يعرف •• أو لم يتعوّد الكلام !

نظر اليه « ميشكا » ، متعجباً •• ثم تلفّت حوله ، فتنبه الى أن هنالك من يراقبهما ، في انتباه ظاهر ! تأكّد من ذلك ، واذا الممرضات يتراكضن ، يُسرعن في استدعاء طبيب المصح ، بل كن في تلك العجلة من أمرهن ، منذ أن نهض الشاب للجلوس الى جانب « ميشكا » !

خفَّ البروفسور « تيزون » ، ليراقب أول حركة انسانية يقوم بها مريضه ، منذ أن فقد صلته مع العالم ، أثناء طفولته !! لا يصدق أن الشاب أحس بوجود إنسان ، من غير عالمه ، المغلق ، المفصول عن الواقع ! لا يصدق انه أحسَّ فعلاً بوجود « ميشكا » ، فقام ليجلس إزاءه !

توارى الطبيب ، خلف الأشجار ، يراقب الشابين ، فما إن رأى شفتي الشاب ، تتحركان •• وأدرك عن بعد ، أنه يحدث « ميشكا » ، حتى بدأ يلوّح لـ « ميشكا » يفهمه أن يربط معه الحديث •• أي حديث ، يشير إليه ، في توسل ظاهر ، ألا يترك الشاب يعود الى وحدته الأبدية القاتلة !!

لقد كان الشاب يعاني من مرض لا يعرف الطب النفسي علاجاً له •• لا تنفع معه العقاقير ، أو تستطيع الصدمات الكهربائية ، إزاءه شيئا !

فهم « ميشكا » إشارات الطبيب ، فسأل جليسه ••

ــ ومتى أضعتَ قلمك ؟ هلاّ وصفته لي ؟

رفع الشاب أصابعه ، كمن يودّ أن يصف شكلاً في خياله ، ثم أسقط في يده ! فضم أصابعه على كفّيه ، في بطء ، ثم أعاد يديه الى حضنه ، وغرق في ذهوله المعتاد !

كرر « ميشكا » السؤال ، في غير طائل !

كان موعد زيارته لـ « لورا » قد حان ، فقام يربّت على كتف الشاب ، ويقول له ، كأنه يحدّث نفسه ••

ــ •• الى اللقاء •• يا صديقي •• إنك أصدق إنسان عرفت !

* * *

ما إن دخل « ميشكا » الى غرفة « لورا » •• يخبرها عما مرّ به •• حتى سمعا طرقاً على الباب ، ودخل البروفسور « تيزون » وراءه ، يُبدي من اللهفة والاهتمام ، ما لم تره « لورا » ، على وجهه ، منذ سنين !

أعاد رواية ما حدث ، للدوقة ، لمريضته وصديقته التي يُكنّ لها كل الاحترام والإعجاب ، ويثق برأيها ، وهي التي تلقّت خبرة عمليّة على أيدي أساتذة مثل « يونج » و « أدلر » ، ومرت بجميع المصحّات النفسية ، في سويسرا ، فكانت لها تجربة ، يندر أن تجتمع لطبيب مختص !

تعجّبت الدوقة لما سمعت ، ثم قالت ..

ــ لكن حالته انتكست ثانية ، على ما سمعت .. وعاد الى وحدته السابقة !

هزّ البروفسور أصبعه قائلاً ..

ــ .. ليس تماما .. يا عزيزتي .. ليس تماما !

ــ لست أفهم !

ــ لقد تبع الشاب المسيو « نييفسكي » ، حتى باب دارك ، هنا !! وهو الآن واقف بالباب ، كأنما ينتظر خروجه !

أجابت « لورا » ، في حيرة ظاهرة ..

ــ .. لكن المسيو « نييفسكي » لن يخرج قبل ساعات ! فما العمل ؟ وماذا يحدث لو تابع الشاب وقوفه ؟! والانتظار ؟! هل سيدفعه ذلك الى الإفاقة من غيبوبته !

ــ .. لا .. لا أظن ذلك ! لقد سار وراء المسيو « نييفسكي » .. كأنه لا يشعر بما يقوم به .. كأن المسيو « نييفسكي » قد ربط أمراً ، من عالم اللاشعور عنده .. أنا لو سئلت عن رأيي في حالته النفسية ، الميؤوس منها .. لقلتَ إنه لا يدري ما يقوم به ! لا يدري أنه يتبع أحداً ! المسألة على غاية من البساطة من الناحية « الكلينيكية » .. لكن ما أخشاه .. هو ردود فعل أهله ! فوالده ، إنسان مرموق .. مستبدّ برأيه ! ولن يتوانى عن أي شيء لسَبْرِ جميع احتمالات هذا الأمل الجديد !!

* * *

ما إن خرج البروفسور « تيزون » من غرفة « لـورا » حتى نظرت هذه الى كتبها •• تبحث عن شيء •• وقالت ••

ــ هل سمعت بـ « أوسبينسكي » •• يا « ميشكا » ؟

ولمـا هزّ رأسه بالنفي •• أردفت ••

ــ •• ماذا ؟ ألم تسمع بـه ؟ صحيح •• إن معظم الشباب ، لا يعرفون عنـه شيئا !

سـألها « ميشكا » ، مستغرباً ••

ــ •• ومن يكون ؟ أموسيقاراً •• أم فيلسوفاً ؟!

ضحكت « لـورا » •• وقالت ، تشير الى كتـاب على رفّ كتبهـا المفضلـة ••

ــ •• لا •• لا •• إنه ليس بموسيقار ، بالتأكيد ! رغم درايته الكبـيرة بهذا العلم •• هات هـذا الكتاب النبيذي اللون •• انه كتاب نادر ، مفقود ، طُبع منه ، في العشرينات ، عدد محدود ، ووزّعت نسخه باليد ، على أفرادٍ مختارين ! هذا الكتاب يدعى « مقتطفات من معرفة فُقدت بين طيات الزمان » ! وقد يفسر لك ما لا يفهمه العلم ، من أمر هـذا الشاب ، وغـيره ! بالاضافة الى أمور كثيرة أخرى ! هاته • واقرأ منه عليّ ! ولنسمع كلماته ، معـاً •• منـذ الحروف الاولى !

* * *

فتح « أوسبينسكي » لـ « ميشكا » و « لـورا » •• عالما ليس لغرابة أجوائه من وصف ! دخله « ميشكا » ، متردّدا ، يحسّ من كلماته الأولى أن تأثيره سيكون بالغ المدى في حيـاته !

قرأ ، للكون ، بدايةً ، لم يردْ ذكرها ، أو ما يشابهها ، على لسان مؤرخٍ ، أو فيلسوفٍ ، أو مؤسّس ديانة ، أو ساحر !!

هـاله ، أن يقف إنسان ، وحده ، مهما أوتي من علم ، وتجمّع لديه من سُبل المعرفة ، فيطرح للكون بأسره ، أصولاً ، لم يسمع بهـا أحد بعـد ،

ولمسيرة الحياة ، قواعد وقوانين •• لا علاقة لقـوة إلهية ، أو غير إلهية بها !!

لم يكن « أوسبينسكي » كاتب هـذا النظـام ، بل الوسيط ! ينقل الى القـارىء تعاليم إنسان ، مات في الثلاثينات ، يدعى « غورد جييف » ، دار متاهات العالم ، بحثاً عن المعرفة ! اطّلـع على دراسات متخصّصة تثبت أن للاهرامات ، مثلاً ، التي بُنيت منذ آلاف السنين ، سراً لا يعرفه أحد • وإن بناءهـا استلزم ، من الحسابات الرياضية ، ما لا تستطيع الإحاطة به ، سـوى الآلات الحاسبة الالكترونية ، المتقدمة ، الحديثة ! إضافة ، الى عـدد كبير من الظواهر التي ، ما إن جمّعها حتى أدرك أن الزمان قد طوى معرفةً علميّة ، لا يعرف التاريخ الحديث عنهـا شيئاً ! آثارها ، ظاهـرة بادية للعيان •• وما على المدرك ، سوى أن يبحث عن أصولها •• في غياهب الأنقاض المنسيّة •• وفي كهوفٍ ، للمعرفة ، لا يجرؤ على دخولها إنسان !

فمن قبور الفراعنة ، قبل أن تطأها أقـدام المنقّبين عن الآثـار •• الى معابد « التيبت » •• ومن مجاهل الهند ، وآسيا •• الى معابد « الإنكا » •• جـال « غورد جييف » وضاع ، عن العالم ، سنين ، يبحث ، ويدقّق ، حتى عـاد الى أوربا ، يحمل خلاصة معرفة ، ما إن حاول كشفها للعامة من الناس ، حتى حورب ، واتهم بالزندقة ، والكفر ! ثم بالتدجيل !! الى أن مات في ظروفٍ غامضة •• وترك لبعض مريديه ، ومن بينهم « أوسبينسكي » •• محتويـات كتاب « مقتطفات عن معرفة ، فُقدت بين طيات الزمان » !

وتتالت على « ميشكا » قراءات نادرة لم تكن لتخطر له على بـال !!

أحسَّ بجذورٍ ، لتعاليم « غورد جييف » ، ترجع أصولها الى البوذية•• فـارع ، هو ، اليها ، وخاض فيها ، وفي « التاوية » ، مروراً بجميع مذاهبها ، حتى بلغ مرحـلة « الزين » •• فما إن قرأ عن تعاليم « كريشنا مورتي » بعد ذلك ، حتى تعجّب لانسجام طبيعته هو ، مع كتابات هذا النابغة •• وتساءل ، عما اذا كان قدره سينتهي به يوماً ، الى هذا المصير الغريب ••

* * *

عبر باب سور المصح ، يوماً .. يسْرع الخطا ، في حديقته هربا مما كان يتساقط من كتلات الثلوج ، التي تجمعَتْ في الليـل الفائت فـوق ذوائب الأشجار المتشابكة.. فإذا هـو يسمع وقـع خطواتٍ وراءه ، ما إن التفت نحوهـا ، حتى رأى الشاب ، وقـد توقّف ، هو الآخر ، ينتظر أن يعـود « ميشكا » ، الى المسير كي يسير وراءه !

أحس بضيق شديد لرؤية الشاب ، يقف شارداً ، وقد تجمّع الثلج فوق قبّعته الصوفية !

كان ينظر الى « ميشكا » وليس في عينيه ، من إرادة ، سـوى المكث على بعدٍ معيّنٍ منه .. مسافة ، متعارف عليها ، بينهما ، لا يرضى الشاب لها أن تزيـد ، أو تنقص !

كانت هذه حاله ، منذ اليوم الذي تفوّه فيه بتلك الكلمات المعدودة ! يعرف مواعيد قدوم « ميشكا » الى المصح .. فينتظره ، على الباب .. لا همّ لـه ، ولا هدف ، سوى أن يسير وراءه ، حتى يبلغ باب دار « لـورا » .. فيقف إزاءه .. كحارس أمين .. كمخلوق أليف .. كحيوان أليف .. لايبدي حركة ، و لاسكنة ، حتى يخرج « ميشكا » مبكّرا ، من زيـارة صديقته ، فيسير وراءه ، يواكبه ، على ذلك البعد المدروس منه ، حتى باب السور ! فإذا ما تأخر في الزيارة .. أتت له الممرضة بمعطف ، يحميه من البرد ! فما إن يخيّم الظـلام .. حتى تقوده الى غرفته .. فيسير ، صاغراً .. لا يبدو على وجهه حـزن ، أو فـرح !

لم يكن تصرف الشاب خافياً على أطبّاء المصح ، أو من يقيمون فيـه ، من مرضى ، وممرضات ! كانوا جميعاً يراقبون حركاته .. يتفاعلون معـه ، يتأثّرون لصمته ، يكرهون قدَره الأصمّ ، لا يفهمون ما يحركه ! وفي الوقت ذاته .. يتعاطفون معه ، وكأن لمصيره علاقة بما هم فيه ، من قضاء محتوم !

ولم يكن لذلك القدر الغريب أن يمرّ دون أن يصاب « ميشكا » بشيء من غرابته ! فلئن أسقط المرضى بعضاً مما كان في نفوسهم ، من يأس ورجـاء

أعمى ، على ذلك الشاب .. فإنهم أسقطوا القطب المعاكس ، على « ميشكا » ، زائرهم الغريب ! فسرعان ما أضحى ، في نظر جميع من كانوا على علم بتلك الواقعة ، وكأن على عاتقه تقع بعض المسؤولية لما تمور فيه حالة ذلك الشاب ، من يأس وضياع !

صار لـ « ميشكا » في نظرهم ، طابع أولئك الذين لا يخضعون للقوانين التي تسيّر باقي البشر ! فنسجوا حوله هالة من الغرابة ! فلم ينقض زمن طويل .. حتى تأثّر هو الآخر بها ، وتشرب بشيءٍ من طبيعتها ، فصبغته بمسحة خاصة فريدة ! وأصبح ، مع صديقته « لورا » ، ـ ولكلٍ مؤثرات خاصة أثرت في حياته ـ ، كأنهما مخلوقان غريبان ! يؤثر من حولهم ، مراقبتهما عن بعد ، على الاقتراب منهما ، أو التحدث إليهما ! قد يثيران إعجاب ، ودهشة ، من حولهم من الناس .. لكنهما لا يحرّكان العطف في نفس أحد !

دخل « ميشكا » غرفة « لورا » ، يودّ أن يشكو لها ما بات يحسّ به من ضيق شديد ، لمشاهدة ذلك الشاب ، وهو على تلك الحال التي لا أمل له في الخروج منها ! وإذا « لورا » تبادره بنبأ ، مفاده أن والديّ ذلك الشاب قد زارا البروفسور « تيزون » مراراً ، إثر ما باتا يسميانه بـ « تلك المعجزة » ! وأن الطبيب لم يجد ، في النهاية ، من حلّ ، سوى أن يفاتحها بما يرتئيان !

قال « ميشكا » في شيء من العصبية ..

ـ وما شأننا ، نحن ، بأهل الشاب وما يرتؤونه ؟ وماذا في وسعهم أن يقترحوا على الطبيب مما لا يعرفه ، سلفاً ؟! ثم .. ما شأننا ، نحن ، بما قد يبتكرونه من حلول ، مع الطبيب ؟!

تبسّمت « لورا » حيرى ، وقالت في هدوء ، وبرود ..

ـ بل أنتَ المعني الأول ، يا عزيزي ! وأنت على علم خفيّ بذلك !! وإلا لما أصابك هذا الضيق ، وأنا لم أفاتحك بعد ، بما سمعت ! إنهم يقترحون عليك أن تعيش معه ! أن تعيشا معاً !! إن والده من كبار الأثرياء ، في فرنسا ..

وهو مستعدّ لبذل كل ما تطلبه منه ، مقابل أن تسمح لابنه المريض أن يعيش الى جانبك !

بُهت « ميشكا » لما سمع ! وقال غير مصدّق ..

ـ .. أنا ؟! يعيش بقربي أنا ؟! وما علاقتي بهذا المسكين ؟ أو بأهله ؟ إنني لا أعرف حتى اسمه !! فكيف يُقترح علي مثل هذا الاقتراح !!

ـ .. العكس هو الغريب .. يا عزيزي ! لست أحرّضك على قبول عرضه ، بالطبع ، أو على رفضه ! لكن .. ليس من إنسان على ذرّة من الشفقة الإنسانية ، يرى ذلك المسكين ، يتبعك ، كالكلب الأمين ، يقف تحت بابي ، غير آبه بأمطارٍ أو ثلوج ، إلا ويتبادر الى ذهنه حل يماثل ما اقترحه والده ! والأدهى من ذلك ، ان أهله يظنّون أن شفاءه قد يتمّ ، بالفعل ، على يديك !!

ـ .. ماذا ؟! ألم يشرح لهم الدكتور « تيزون » ما فسّره لنا ، من انقطاع الأمل في شفائه ؟!

ـ .. طبعاً .. وأكد لهم أن باب الوعي الخارجي ، حين يُفتح على العالم عند أمثال هؤلاء المرضى .. فانما يحدث ذلك ، بشكل لا على التعيين.. ثم يغلق دون انذار ! وانه لو قدر له أن يُفتح ، مرة ثانية .. قد لا تكون لذلك أية علاقة ، بالمرة الأولى .. وأن ليس للذاكرة من دور تلعبه ، في مثل هذه الأمور ..

ـ .. وماذا قالوا ؟

ـ .. وهل في وسعهم مناقشة الطب النفسي ؟! إنهم يقبلون بجميع ما يقوله « تيزون » .. من الناحية الطبية .. رغم أن لي رأياً مخالفاً لرأي البروفسور « تيزون » ! فاذا كان هذا الانفتاح ، على العالم الخارجي ، تجربة فريدة ، منقطعة عن أية صلة بالزمان والمكان .. فلماذا .. يتابع الشاب ملاحقتك ، وقد عاد الى غيبوبته الأولى ؟! لا شك أنه لا زال يتمسّك برباط ما ، مع العالم الخارجي ، وهو أنت ! وإلا فكيف يستطيع أن يميّزك ،

بين الأشخاص ؟ ويحفظ مواعيد جميع تحركاتك ؟ على أية حال ، هنالك الناحية الإنسانية ، في كل هذا •• ويبدو أن والده قد تضرع الى الطبيب ، كي يحاول التأثير فيك ! بينما جلست أمه تبكي •• وتردد •• « انها المرة الأولى التي نظر فيها ولدي الى إنسان ، وكلمه !! إنه لا يعرفنا •• لا يبدي أنه يعرف أهله !! إنها المرة الأولى التي اهتم فيها بإنسان !! فلا تتركوه يعود الى وحدته !! لو كان لكم ولد ، لأدركتم شعوري !! »

ضحك « ميشكا » في عصبية ، وسخرية •• وقال ••

ــ •• هذا جنون لا يمكن أن أقبل به ! إنني أدرك ، وأحس بجميع ما يقولون ! بل أحب الشاب ، وأعطف عليه •• لكن هذا أمر ، وأن أتركه يعيش بقربي •• أعيش على مسافة أمتار من مريض نفسي ! فهذا أمر آخر ، جنون ، لا يحتمله عقل !! ثم •• كيف يمكن لمثل هذا الأمر أن يتم ؟ من الناحية العملية ؟!

تراءى لـ « لورا » أن «ميشكا » إنما يثور ، لأنه على وشك القبول ! وإلا ، فلماذا يسأل عن الناحية العملية ! فامتعضت •• لكنها أكملت في هدوء ••

ــ •• إن والده يقترح أن تنتقي ، من المساكن ، مايرضيك•• في باريس ، أو في الضواحي •• أو في أية عاصمة ، أو مدينة أخرى ! فيما لو طاب لك ذلك ، وهو يضع ، تحت تصرفك ، ما تشاء من مرتب شهري ، وما تطلبه من مساعدين ، يقومون على خدمتكما •• من سائق ، وفراشين ، وطباخ •• الى غير ذلك ! إن كل ما يتطلبه منك ، هو أن تبقي ولده ، في صحبتك ! فمن الواضح أن الشاب لا يطلب من حياته التي لا هدف لها ، سوى هذا ! لا يفهم منها ، سوى أن يسير الى جانبك ، حيث تسير ، لا أكثر ، ولا أقل !!

سخر « ميشكا » كأنه لا يصدق ما تقول ، وسأل ••

ــ والى متى يدوم هذا النعيم ؟!

سخرت « لــورا » بدورها ، وأجابت ••
ــ إلى ما يشاء الله ! أو إلى أن يفتح الشاب عينيه ، على إنسان آخر !

أطرق « ميشكا » ، برهة •• ثم قال ، بتصميم ••

ــ « لــورا » ! ليس أمامي سوى حل واحد ! من الواضح أن الأمور لا يمكن أن تدوم في هذا المصح ، على هذا الشكل ! دون أن تثار في وجهي المتاعب !! لقــد اقترب عيد الفصح •• وفي ودّي أن أذهب الى « ميجيف » ، لقضاء العطلة فيها ، في التزلج •• أسبوعين ، أو ثلاثة ، لا أكثر •• وأعــود بعدها إليك •• لعــل الأمور ستتبدل ، أثنــاء غيابي •• قــد ينسى الشاب وجودي •• أو يقتفي أثر إنسان آخــر !

نظــرت « لــورا » إليه في جمود ، وتمعّن •• ولم يكن قــد انتبه إلى شحوب كان قد أصاب وجهها ، وهو يقترح عليها السفر • فقالت ••
ــ •• ستذهب برفقة « جينيت » ، أو « باتريس » ؟! أليس كذلك ؟!

أفاق « ميشكا » ، الى ما اعترضها •• فوجمَ برهة ، ثم قــال ••
ــ •• ومن أطلعك على ذلك ؟ « جاك » بالطبع •• أليس كذلك ؟!

هــزّت رأســها ، بالإيجاب •• وأشاحت بوجههــا تبحث عن عــلاج « الكورامين » الذي يقبع دائما الى جانبها •• تتناوله في حالات الوهن الشديد الذي يعترضها فجأة •• فتحس أن قلبها بحاجة الى ما ينبّه حركته !

صاح مرتاعاً •• لمّا رأى يدها ترتجف وهي تمتدّ نحــو الدواء ••
ــ •• « لــورا » •• حبيبتي •• ماذا دهاك ؟! هل أدعو الطبيب ؟!

وكأن صيحته جاءتها بالدواء الشافي ! فمالت نحــوه ، تنظر إليه في حنان وحب ، وقالت في صوت خافت ، لاهث ••

ــ •• لا •• لا شيء ، إنهــا رجفــة طفيفة •• وستمر بعــد حين •• « ميشكا » لم أطق تصوّر غيابك عني •• فماذا لو غبت فعلاً !! أظــن ، في ذلك ، نهــايتي !! « ميشكا » ••

ـ •• لكنها أسابيع •• « لورا » •• لن أغيب عنك ، سوى أسبوعين ••

شدّت على يده ، وقالت •• وهي مغمضة العينين ••

ـ •• إن كان بُعدك عن هـذا المصح هو كل ما تطلبـه •• فان لديّ البديل •• اقتراح آخر •• خير من اقتراحك •• لماذا لا تذهب الى قصري في « شوارتز فـالد » وإذا شئت ، ألا تكـون بمفردك •• فسأحاول أن أذهب برفقتك •• « ميشـكا » •• ماذا تقول •• « الشوارتز فالد » ! أنت ، وأنا ؟!

وفتحت عينيها ، تنظر الى عينيه في تساؤل ، ورجـاء ••

سـمع نفسه يجيبهـا ••

ـ •• سأفعل ما تريدين •• نذهب معاً •• لمَ لا ؟ « لـورا » سنذهب معـاً ! كما حلمنا ، في الماضي •• وخطّطنا ! سيكون ذلك في أوائل الربيع •• ولا بد أن الغابة السوداء ستكون آنذاك ، في أبهى حللها ! فماذا تقولين ؟!

شدّت على يده •• وسالت الدموع من عينيها ••

ـ •• ماذا أقول ؟! وتسألني ذلك ؟! إنه حلمي الوحيد ! وقـد يكون آخـر أحـلامـي !!

* * *

الفصل الخامس

واقترب موعد حلول عيد الفصح ، فشرعوا في الاستعداد لسفر طال ترقّبه ، وصار لزاماً على « لورا » اتخاذ الاجراءات اللازمة ، لتهيئة قصرها لاستقبال الضيوف ، بعد سنين من الاهمال ، والنسيان ، المتواصلين ..

تم الاتصال بحارسه العجوز ، وزوجته .. فأكدا لسيدتهما أن القصر لا زال على ما تركته جدتها ، منذ ماقبل الحرب ، وانها لن تشكو من نقص في أوانيه ، أو نظافته .. لكنه ، في موقع بعيد ، منعزل جداً .. وعليها أن ترسل من يتحقق من وجود ما سيكفي الضيوف من مؤونة التدفئة ، والطعام ، مدة إقامتها ، مع ضيوفها فيه ..

قالت « لورا » ، حائرة .. متردّدة ..

ــ .. « ميشكا » أكاد أندم على قراري ، ولمّا نبدأ السفر والمتاعب الحقيقية ! فالقصر مهجور ، بكل معنى الكلمة ! وهو على بعد أميال من أقرب قرية حوله ! لذلك يجب التحقق من جميع ما يلزمنا .. داخل القصر .. من مؤونة ، وأدوية .. وحوائج مختلفة .. فمتى ذهبنا الى القصر وجب إقصاء فكرة الاتّكال على العالم الخارجي ! فمن الذي في وسعه القيام بجميع هذه الترتيبات ؟ وما فائدتها ؟ ما دمنا لن نمكث فيه سوى أسبوعين ، في السنة ؟!

تعجب « ميشكا » وقال ، متبرّماً ..

ــ .. « لورا » أنت التي أبديت هذا الاقتراح .. ولا أسهل من

الرجوع عنه •• لماذا لا أذهب الى « ميجيف » لقضاء العطلة ، ونستريح من هـذا التعقيد !؟

ما كاد يعيد على مسامعها ذكر السفر ، بمفرده ، حتى استوت في فراشها•• وأدارت قرص الهاتف على رقم « جـاك » •• تسأله أن يعينها ، على الخروج من ورطتها •• تدعوه الى القصر ،وتقترح عليه أن يدعو بعضاً من أصدقائـه ، معه ، اذا شـاء ذلك ••

ضحكت لردّه •• وضعت يدها على السماعة ، وهمست لـ « ميشـكا »••

ـ •• يقول •• إنه لا يودّ أن يقال عنّي إني أنافس ما كانت تقـوم به « ماتيلد دو روكموريل » من دعوات طنّانة !!

ثم عادت تكلّم « جـاك » •• فتقول ••

ـ •• لا يا عزيزي « جـاك » •• فشتّان ما بيننا ! قصرهـا مكشوف على الشمس والأفـق ! وقصري ، منعزل ، بين الأشجار ، على هضبة لا يكاد يعرف مكانهـا أحد !! ثم إن « ماتيلد » كانت تمتطي الخيل ، مع ضيوفها •• وأنا••طريحة الفراش••كانت« ماتيلد » الوجه المشرق لأوربا ! وجهها الخارجي المعـافى !! وأنا •• ليلهـا •• وعلتهـا !!

* * *

تقرّر ، في النهاية ، أن يتولى « جـاك » إرسال من يساعد الحراس في إعداد القصر لاستقبالهم •• تذهب اليه « لـورا » و « ميشـكا » و « أوديل »، ليستجمّوا فيه ، بمفردهم ، ردحاً من الزمان •• ثم اذا ما شارفت العطـلة على الانتهاء •• يأتي بقية الضيوف ، لقضاء أيام قلائل فيه •• ثم يعـود الجميع ، معـاً ، بعد ذلك الى باريس ••

همس « ميشـكا » •• لها قبل أن تنهي حديثها من « جـاك » ••

ـ •• « لـورا » •• لماذا لا يأتي « جـاك » معنا منذ البداية ؟ سيُغنى

بأمور كثيرة قد يفوتنا ذكرها الآن ! ولا تنسي أننا سنكون في ألمانيا •• وأنـا لا أتكلم الألمانية ! إلا في صعوبة بالغـة !!

أقفلت « لـورا » الهاتف ، في هدوء ، وقالت ، تنظر إليه بإمعـان ••

ــ •• أعلم انك ستكون بحاجة الى رفيق ، ومساعد •• لكنك ستكون رب القصر ، هنـاك ! فلماذا لا تدعو أحد أصدقائك الخلّص •• « باتريس » مثلاً ! إنه يتكلّم الألمانية ، على ما أظن ••

ردّ نظراتها ، إليها •• وقال في مثل هدوئه الأول ••

ــ •• ولمَ لا ؟! ستكون هذه فرصة ، تتعرفين فيها اليه ، عن قـرب ! وستفاجئين بما سترين فيه ! « لـورا » ، ليس « باتريس » كما يُخيل إليك !!

* * *

كان القصر ، في الغابة السوداء ، أي « الشفرتز فالد » ، غير بعيـد عن نهـر « الراين » •• على هضبة نائية ، معزولة ، واحـدة من مئـات الهضاب المترابطة ، بين عالم مدينتي « فرايبورغ » و « شتوتغارت » ، حيث الطبيعة ، والغابات ، ليستا مظهـراً من مظاهر الحياة •• بل الحيـاة نفسها •• تختلط النباتات بما حولها ، من ماء ، وهواء •• فتصبح كتلة واحدة •• وحدة ، تتمثّل الإنسان ، إذا ما عاش فيهـا •• فيُصبح ، هو الآخر ، جـزءاً منها •• فيفنى الجزء ، بالكل •• ويُغرق الكلّ الجـزء •• فتنطلق من عبق هـذا التماذج العجيب ، أساطير الآلهـة الجرمانية التي ترعرعت على هياكلها ، بنية الشعوب الجرمانية ، وجميع ما تدفق منها من آثـار فنية ، عريقة ، فريدة !

خرجـوا من باريس ، يقـود « ميشكا » سيارة « لـورا » « الرولز » القديمة ، الكبيرة •• والى جانبه « باتريس » ، تجلس « لـورا » في المقعـد الخلفي ، والى يسارها « أوديل » ، وقـد غرقت في عُلب القبعات الواسـعة العريضة ، التي لم تقبل « لـورا » أن تخرج من المصح دونها ••

فما إن تجاوزوا مدينتي « نانسي » ثم « ستراسبورغ » •• وقطعوا نهر

« الراين » ، حتى عبروا حـدود ألمانيا ، وصاروا في قلب الغـابة السوداء •• يتبعون تعرّجات طرقاتهـا ، ينظرون ذات اليمين ، وذات اليسار ، فـلا يرون سوى جدران عالية من الأشجار الخضراء ، الباسقة ، الكثة ! يقـال لهم ، إن وراء هـذه الأشجار تقع قصور وبحيرات •• وهم لا يرون منها سوى طرق الإسفلت ، وأسهم وإشارات ، تقودهم الى قرى صغيرة ، لا تعرف عن وجهتهم شيئاً ! فيعودون الى الأسماء والأسهم ، يهتدون بما لديهم من خرائط •• يأملون ألا يحل الليل عليهم وهم على تلك الحال من الضياع !

وصلوا ، في النهاية ، الى مركز للشرطة ، فنزل « باتريس » يستدل على وجهتهم ، أشـار عليهم المسؤول فيه ، أن يوغلوا في طـريق جانبية طـويلة ، تقودهم الى مركز غـير بعيد عن الطريق ، يقطن فيه حارس لذلك الجـزء من الغـاب •• شاب ، يعرف الكثير من المسالك الداخلية ••

أمضوا برهة طـويلة ، يوغلون بين تلك الأشـجار الموحشة •• فما إن اقتربوا من الوجهة الاخيرة التي أُشير بها عليهم •• ورأوا كوخ الحارس عن بعـد ، حتى سارعوا اليه ، وتوقّفوا قرب كوخه ، فترجل « باتريس » مـن السيارة ، يمطّ ذراعيه ، ويبحث في الكوخ عمّن يسأله عن وجهة القصر •• وإذا شـاب ، بادي الصلابة ، والرجولة ، يخـرج إليهم ، بعـد أن أحـكم اقفـال باب كوخه ، خلفه ، ثم تقدم منهم ، كأنه يحاول حجبَ ما في داخـل كوخه ، عن أنظارهم المتطفلة !

ضحك « باتريس » لذلك ، واسترق النظر عبر النافذة ، الى ما في داخل الكـوخ !

وإذا « لـورا » ، تتعرّف فجأة على معالم الطبيعة التي حولها •• تذكر اسم قصر جدّتها •• وتقفز فرحاً ، وهي تقول لـ « ميشكا » ، وللحارس ••

ـ •• إنه « تاتناغل » !!إن قصري يدعى « تاتناغل » كما في الأساطير ! وها هي ذي الطريق •• « ميشكا » •• يجب عبور هذه الدرب الضيقة أولاً •• ثم •• تعالوا ! إني أعرف الدرب !!

بهت « ميشكا » !

ــ « تاتتاغل » ؟ « لـورا » •• إنك لم تخبريني عن هــذا الاسم !

ردّ الحارس خصلة شعر شقراء ، طويلة ، سقطت على جبينه •• تبسّم وهو يطلّ من نافذة السيارة ، حيث جلس « ميشكا » ••

ــ •• « تاتتاغل » ! بالتأكيد ، يا سيدتي ! هذا اسم القصر ، منذ قرنين ! يقال إنه صورة ، طبق الأصل ، عن القصر القديم الذي بُني فوقــه •• قصر الملك « مارك » •• ملك الاساطير ! هذه هي الطريق يا سيدتي •• أول متعرّج على اليمــين ••

ضحك « ميشكا » •• بدوره وقــال ••

ــ •• من الخير أن ليس بيننا « تريستان » ولا « ايسولت » وإلا لكــان الموت والكارثة في انتظارنا •• كما في الأسطورة !

وشكر الحارس الذي أدّى له التحية •• ثم اتجه بالسيارة ، نحو الدرب الذي أشير عليه به •• وأوغل ثانية عبر أشجاره المعتمة ، الكثيفة ••

إن هي سوى دقائق ، وإذا الظلمة تنحسر ، فينكشف الدغل الكبير ، عن سفح هضبة ، معتدلة الارتفاع ، تلتف حولها طريق لولبية ، ترقى سفحهــا ، حتى تضيع أمــام مدخل قصر !

بدا القصر كأنه قلعة من آثار العصور الوسطى •• تشمخ أبراجها القديمة فوق رؤوس أشــجار السنديان الجبّارة ، والسرو الباسق •• فيضيع لــون أحجارها الرمادية ، في عتمة غيوم داكنة ، كانت قــد بدأت تتجمّع مسرعة في السماء ، تنبيء بريح قوية ، تحمل عاصفة وشيكة الوصول !

كان الحارس في انتظار صاحبة القصر •• فخفّ لتحيّتها ، في احترام شديد ، وسارع الى مساعدة « أوديل » على نقل الحقائب الى داخل القصر ••

هبّت ريح باردة ، كادت تعصف بقبعة « لــورا » العريضة السوداء •• فتمسكت بها ، وقالت ، وهي تتقدم من المدخل ، تعبة ، وجلة ••

ــ •• أرجو أن يكون القصر دافئاً •• لقد نسيت نوع نظام التدفئة التي فيه •• لقد تعودنا التدفئة الحديثة المركزية ، في باريس •• يا إلهي سوف يكسوني الصقيع ، وليس في القصر سوى المواقد الحجرية القديمة !!

أسرعت « أوديل » تتناول قبعة سيدتها وقفازيها ، منها •• بينما طمأن الحارس سيدته قائلا ••

ــ إن جميع المواقد في القصر تعمل في انتظار وصولكم •• إن مقعد جدتك يا صاحبة السمو مكسو بالفراء •• قرب الموقدة •• تماما كما تركَتْه ، يوم كانت هنا آخر مرة ! لقد كانت ، رحمها الله ، لا تطيق البرد ! إن المواقد تعمل على تدفئة الصالة الكبرى ، وجميع الغرف ، منذ أربعة أيام ! حسب تعليمات السيد « كاتلان » •• نغذيها بالأحطاب والفحم ، دون انقطاع !

تقدمت الدوقة « انستاسيا » كل من « ميشكا » و « باتريس » الى داخل القصر ، وراحوا ينظرون الى القاعة الكبرى ، فبانت ابتسامة الإعجاب والرضى على شفاههم ، رغم ما جهدوا في كتمانه من انفعالاتهم ، أمام الخدم ! فما إن غاب هؤلاء ، في الدور العلويّ ، ينقلون الحقائب ، عبر السلم الحجري العريض الذي يقود الى غرف النوم ، حتى لفّ « ميشكا » ، خصر « لورا » النحيل •• يقبّلها ، طرباً ، يحملها ، ويدور بها فوق الأرض الحجريّة الملوّنة ، المزيّنة بفروتين لدبّين أسودين ، وأخرى ، لدب قطبي أبيض اللون ، الى جانب عدد من الطنافس التتارية القديمة !

تنهّدت « لورا » بين ذراعيه ، وقالت ، وهي لاتقوى على رفع صوتها ••

ــ •• « ميشكا » •• أرجوك ! يكاد يغمى علي •• إنّي لا أقوى على الوقوف •• خذني الى المقعد ، قرب النار ، على عجل ••

أسرع « ميشكا » يرفعها ، ويلمّ ذيل ثوبها الطويل ، ويساعدها في الجلوس فوق مقعد جدتها الكبير ، القديم ، المرتفع الظهر ••

جلس قبالتها ، في المقعد الآخر ، تفصل الموقدة الحجرية بينهما •• يسطع

نور لهيبها النحاسي ، المتوهج •• فينعكس على جـدران القاعـة الحجريـة البعيدة ، أشباحاً متطاولة تتلاعب فوق ما يكسوها من ستائر مخمليّة عاليـة ، ولوحـات عائليـة قديمة ••

كان « باتريس » يقف بعيداً عنهما •• أمام بيانو عريض ، أسود اللون•• لمس بعض مفاتيحه ، بأصابعه •• فانبعث في القاعة صوته الرخيم ، وزاد صداه دوياً لاتساع القاعة •• فالتفت « ميشكا » اليه ، ثم الى « لـورا » ، وقـال مبهـوراً ، سـعيداً ••

ــ •• حتى البيـانو ؟ « لـورا » !

تبسّمت ، سعيدة لفرحه •• وقالت ••

ــ •• ولقد طلبتُ من « جـاك » حاكياً كهربائياً •• للاسطوانات •• أرجو أن يكون قد وجـد مكاناً مناسبا له ••

سمع « باتريس » قولها •• وكان قد لاحظ موضع الحاكي •• فـوق صندوق خشبي منحوت قديم •• فتوجّه نحوه ، في صمت ، وانتقى اسطوانة ، أدارها في أناة ، ثم عاد الى مكانه ، فجلس في هدوء على مقعد البيانو ، ينتظر من بعيد ، من خلال غطائه المكشوف ، الى كل من « ميشكا » ، و « لـورا » ، ويودّ لو أنه بقي في بـاريس !

* * *

جاءت زوجـة الحارس ، تسألهم ما إذا كانوا يودّون التعجيل بتناول العشاء ، قالت بلهجتها الالمانية ، الجنوبية ••

ــ لقد أعددتُ لحوماً باردة •• مع حساء خاص بهذه المنطقة •• يبعث النشاط ، والحرارة ، في أجسادكم !

تململت « لـورا » •• أجابت ، تضغط أصابعها بعضاً ببعض ••

ــ •• « ميشكا » ! أنا لا أستطيع البقاء بجانب النار ، هنا •• يجب أن أتمدد ! أنت تعرف ذلك •• ثـم •• الطعام •• كيف أتناول الطعـام ، على مائدة ، وجذعي منحنٍ ، نحو الأمام ؟! يجب أن أكون مستلقية ، في فراشي !

نهض « ميشكا » ، وجلس قربها ، على حافة المقعد ، يشدّ كتفيها في عطف ، ومودة •• وقال لزوجة الحارس ••

ـ •• إن سمو الدوقة ، تتناول الطعام في غرفتها •• وسأبقى مع السيد « دو غريفيل » لتناول الطعام ، هنا •• دعي « أوديل » تهتم بعشائها •• إنها تعرف ما يلزم سموّها •• خيراً من أي انسان ••

وأعان « لورا » على النهوض ، ثم حملها على ذراعيه صاعداً بها درجات السلم العريض •• فما إن استقرت في فراش جدّتها الملكي •• ذي الأعمدة المحفورة الاربعة ، والستائر القديمة المطرّزة •• حتى قبّل خدها ، وتركها ، على أن يعود اليها ، بعد العشاء ••

نزل درجات السلم ، مسرعاً •• يُعجب بدرعين فولاذيتين ، لشخصين محاربين كاملي اللّباس الحربي ، يحرسان طرفي باب غرفة الطعام •• مرّ بينهما ، يبحث عن « باتريس » ، فوجده شارد اللب ، يقف إزاء موقدة غرفة الطعام الكبيرة •• ينتظر عودته ، فدخل الغرفة ، يشير الى صديقه أن يجلس الى أحد أطراف المائدة الضيقة الطويلة •• بينما جلس ، هو ، الى طرفها الآخر ••

لفت نظره ، ما يفصل بينهما ، من أوان فضيّة كثيرة •• أبرزها شمعدانان كبيران ؛ وطبق عريض للفواكه ، أوان باهرة الجمال ، كأنها من أوان البلاط القيصري ••

قال للحارس الذي وقف غير بعيد عنه ••

ـ •• ألا تخشون اللصوص ، في هذه البقعة النائية ؟ إن القصر مليء بالتحف الثمينة !

أجابه الحارس ، في أدب ظاهر ••

ـ •• إن القصر يا صاحب السموّ ، في حماية حكومية مشددة •• شأن جميع ممتلكات الأسرة المالكة الدانمركية هنا ••

أحسّ « ميشكا » بالاطمئنان لما سمع •• فأردف ضاحكاً ••

ــ •• إذن ، نستطيع تناول طعامنا •• ونحن آمنون ••

خــرج الحارس الى عمله ، فرفع « ميشكا » كأســه ، الى صديقه •• فإذا « باتريس » يسبقه الى الكلام ••

ــ •• هل تسمح لي أن أقترح نخباً •• قبل أن نبــدأ الطعام ؟!

ــ •• بالطبــع !

ــ •• أودّ أن نشرب نخب صديق لنا •• غاب عنا منذ سبعة أشهر ، أو ثمانية ! نخب شاب عرفته •• اسمه « مكسيم » !

دُهش « ميشكا » لقول « باتريس » ، ولنبرة حزن لم يتوقعها في صوته ! أدرك ما يرمي اليه صديقه •• لكنه تغــابى ليصون ما بينهما عن الحــارس وزوجته ! فأشار اليهما ، برفع أطباق الحساء •• فما إن تواريا عن الأنظــار حــتى قــال ••

ــ •• وهل فقدت هذا الصديق ؟ أم غــاب عنك ؟!

ــ •• لقد فقدناه معاً يا « ميشكا » ! لقد فقد نفسه !!

عــادا الى الصمت يتناولان طعامهما في بطء وشرود ، لا يُسمع حولهما سوى احتكاك الأواني ، والموسيقى •• وصفير الرياح ، الذي تعالى ، ينــذر بوشوك حلول العاصفــة !

تابعا تنــاول طعامهما في صمت إراديّ ، فما إن أوشكا ينتهيان ، حتى قال « باتريس » ، وهو يهم بالنهوض ••

ــ •• أظنكما ، ستطيلان السهرة ، هذه الليلة •• سآوي الى فراشــي مبكراً•• بودّي أن أخرج غداً ، الى نزهة ، في ضواحي القصر ••

هزّ « ميشكا » رأسه موافقاً ، ثم ســأل صديقه ، وهو يرفع من صوت الحاكي كي تصل الموسيقى الى غرفة « لــورا » ••

ــ •• أأنت انتقيت مقدّمة « بلياس وميليزاند » كي نسمعها ، هــذه الليلة ؟! أم كانت الاسطوانة على الحاكي ، قبل أن نصل الى القصر ؟

ــ •• بل انتقيتُها ••

وصعدا السلم في بطء •• كلّ ، غارق في ما بعثه القصر من هواجس جديدة في نفسه •• فدخل « باتريس » غرفته ، بعد سلام واجم على صديقه ، بينما أكمل « ميشكا » طريقه الى غرفة « لــورا » ، سعيداً بأنه تحت سـقف واحد مع « لــورا » و « باتريس » و « أوديل » ! تجتمع له ، فيهم ، جميـع عناصر السعادة •• لولا توجّس غريب أحسّ به ، راح ينذره بما قد ينتج عن ذلك من مضاعفــات !

* * *

كانت « لــورا » في فراشها •• باديــة التعب ، وإلى جانبها ، أطبــاق الطعام تركتها ، ولم تمسّ منها إلا النذر القليل•• تبسّمت لرؤية« ميشكا »•• وقد عاد إليها مبكّرا •• ومدّت ذراعيها له ، قائلة ••

ــ •• لقد أجهدني السفر •• آمل ألا تكون عواقبه وخيمة على صحتي المتداعية •• تعال ، قبّلني ، ولنغرق في النوم •• ستكون أول مرة ألجــأ فيها الى النوم ، قبــل منتصف الليل !

كان لمنظرها ، في فراش جدتهــا ، وقع جديد على نفس « ميشكا » •• ذكّره بنسَبِها القيصريّ ، وبما ذاقته ، أثناء شبابها ، من تعاسة •• وما فقدته من دلال وترف ، وُلدت ، وعاشت في كنفهما ، طوال سبعة عشر عاما !

قبّــل جبينها ، في عطف شــديد •• يتعجّب ، كيف زالت كل غربــة بينهما •• كيف جمعتهما الأقدار ، وكأن الزمان ما تــاه بكلٍّ منهما ، هــذه السنين الطويلة ، إلا ليجمعهما ، ويربط عرى علاقة غريبة بينهما ، لا يقوى غير الموت على حلّهــا !

كانت « أوديل » قد رفعت أطباق الطعام ، وراحت تجمع غطــاء السرير

المطرّز تحت قدمي سيدتها ، استعدادا للنوم •• فقالت « لـورا » في دعابة ••

ــ •• لا بد أن صديقك « باتريس » يمزح •• وإلا ، فلماذا اختار من الموسيقا مقطوعة « بلياس و ميليزاندا » هذه الليلة ••

دهش « ميشكا » •• وسـألها ••

ــ •• ماذا تعنين ؟

ــ •• لو انتقى « ترستان وايزولت » •• لكان ذلـك أنسب ! سيّما ونحـن في قصر « تانتاغل » •• الذي ربما كان في الماضي ، نفس قصر الملك « مارك » ! أما أن يختار « ميليزاندا » •• تلك الفتاة التي لم تتجاوز الثامنة عشرة من عمرها ، فما علاقتي بها ؟ ماذا يرى صديقك ، من شـبه ، بيني وبين دور مثل تلك الفتاة ؟ إنها خلاصة البراءة ! أم هل يظن إنك « بلياس » الحائر ! وأني ، أنـا ، الملك « مـارك » ؟!

ــ يا له من تصور غريب ! لعلّ « باتريس » ما اختار هـذه المقطوعة ، إلا للروعة الفنية في موسيقاها دون أن يفطن الى أحداث الأوبرا وشخصياتها ! أليس فيها من موسيقى « ديبوسّي » ما يكفي ؟!

ــ •• سـوف ترى يا « ميشكا » ! ستكتشف أنني علـى حـق ! ان « باتريس » سيفاجئك في يوم من الأيـام !

صمتت برهة ، وتابعت •• ترمي الى هدفٍ بعيدٍ من سؤالها ••

ــ •• بالمناسبة •• كيف تجـد قصة هذه الأوبرا ؟ هل يعجبك عمـل « ميترلينك » ؟

أطرق « ميشكا » طويلا •• ثم أجـاب ••

ــ •• « لـورا » •• لقد تركت عالماً بأسره ، قبل أن آتي الى فرنسا •• هرباً من الزيف والرياء •• والكلام المبطّن ! وحاولت جاهداً ، في باريس ، ألا أختلط إلاّ بمن لهم القـدرة والشجاعة على مواجهة أقدارهم ، في جـرأة ، وصراحة ! ولم أقتنع بما وجدت ، في الحي اللاتيني ، رغم صدقه ! أدركت أن

هنالك ما ينقصه ، مما لم يمكنني التغاضي عنه ! كأن جميع من فيه إنما كانوا يمثّلون أدوار الحياة الجريئة ، ولا يشفع لهم عندي أنهم كانوا يمثلونها في صدق ! لقد كانوا يلعبون تلك الحياة ، كأدوارٍ مسرحية •• ولفترة معينة من حياتهم ، فترة الدراسة •• يعودون بعدها الى الحياة •• والزيف •• حتى وجدتك ! فوجدت ضالتي ، فيما كنت أبحث عنه في الغرب من براءة واعية ، وخلاصة النبل ! أقول براءة ، واعية •• لا كما هي الحال عند فتاة طاهرة مثل « ميليزاندا » •• بريئة ، لأنها لا تعرف الحياة ، ولم تخض تجاربها ! نبيلة ، لأنها لم تحتكّ بما هو قذر ، وخسيس ! إن ما أحب في نبلك ، وبراءتك ، هو أنك بلغت في فهم الحياة ، شأناً ، أغناك عن كل ما هو غير بريء وطاهر ! فلا تلجئي الى غير هذه الطريق •• « لورا » !! لا تنزلي عن هذا العرش ، الذي نصّبك عليه القدر !! بل الذي هو قدرك !!

فتحت « لورا » عينيها دهشة لما سمعت ! قالت وقد بهرها صدق « ميشكا » ••

ــ •• هل أنا حقاً على ما تقول ؟ « ميشكا » ! هل ترى فيّ حقاً ، هذه الصفات ؟

ــ •• تعلمين قصة « نوح » •• وفلكه ! لقد أحسستُ في حداثتي بالسيل ، يكاد يغمرني ، ويجرفني ، ورغم ذلك ، رفضت اعتلاء أفلاك كثيرة ! كنت دائم التردد ، والرفض •• أحسّ في بعض الأحيان أني على وشك أن أغرق ! ورغم ذلك ، كنت أقاوم رغبتي بالتعلّق بالحلّ الوسط •• آملاً أن يأتي اليوم •• أو المكان ، الذي سأجد فيه نهجاً للحياة أستطيع أن أحيا فيه ، وأنا مطمئن الى صدقه ! « لورا » •• لم أجد في عالمك « فلكا »لي •• أنا ، الذي يكره الأفلاك •• بل وجدتك أنت !! إنسانة شريدة ، ضائعة عما وصلت اليه قمة حضارتها •• مثلي !! وجدتك في بقعة نائية من الكون •• بقعة نسيها التاريخ ! فيها ، خلاصة التاريخ ! مرتفع ، لا يصل اليه الماء •• ولن يجرفه السيل ! أغناني عن اللجوء إلى أية أداة للنجاة !!

قالت « لـورا » ، واجفـة ..

ــ .. « ميشكا » .. لهفي عليك يا صغيري ! ألا تخاف أن تجـد يوماً أنك كنت معي في عزلة عن العالم ؟! وأن في ذلك ، هروباً ، من السيل ، وليس وسيلة للتغلب عليه ؟! « ميشكا » .. ألسنا في حلم ، لا بد له من آخر ؟!!

ــ .. ربما .. لكني الآن قانع هانىء .. فإن كان هذا حلماً ، وطـال ، فلماذا أخشى الواقع ؟! وقـد أقصيته عن حياتي !

انحنى على صديقته ، يقبّل خدّها ، مرة ثانية .. ويقول ، وهو يتجـه نحـو الباب ..

ــ .. قد أخرج في نزهة صباحية .. غـداً ..

نظرت إليه طويلاً .. ثم سـألتْ .. مترددة ..

ــ .. هل ستخرج ، مع « باتريس » ؟

التفتَ نحوها فجأة فبدت كأنها ، رغما عنهـا ، تـُخفي تلك الابتسامة الماكرة ، التي تعودت أن تقرنها باسم صديقه ..

قل ، وهو يترك الغرفـة ..

ــ .. لم نتفق على ذلك .. لكنها فكرة لا بأس بهـا !

* * *

الفصل السّادس

فتح جفنيه ، في الصباح التالي على لمسات « أوديل » لجسده المتوتّر ، المتشوق الى مداعبتها ! شدّها الى سريره ، فاستجابت على الفور ، تذكّرة ، كما في المرة الأولى ، بعد عودتها الى باريس من عطلتها السنوية ، انها غير « أوديل » الماضي !

عضّها من شفتيها مازحاً ، فكتمت صيحتها •• سألها متعجّبا ••

ـ •• لكم تبدّلت ، أيتها الماكرة ! أين ذهبت « أوديل » الماضي ؟!

ـ وهل كنت تحب تلك الشيطانة ؟ أيهما تفضّل ؟! قل الحق ؟!

ـ •• أيهما أنت ؟!

ـ •• لم أعد أدري •• لقد غيرتني السيدة ! سيدتك •• مدام « ستيوارت » !!

عجب لقولها ••

ـ وما شأنها بك ؟

تردّدت ، ثم قالت ••

ـ •• لقد أعطتني بعض النصائح في باريس ! قالت إن الرجال يحبون الأنوثة المتزنة !

تعجّب « ميشكا » ••

ـ أي رجال ؟ وهل هي على علم بعلاقاتك ؟!

ثم طرأت له فكرة ، جفل لهـا •• فقفز عنها •• يسألها مقطّبا ••

ــ •• هل هي على عـلم بما بيننـا ؟!

ــ •• لا •• لا •• اطلاقا !! كنت على علاقـة بممرّض في المصح •• وأراد الزواج مني ! فكلّم المدام « ستيوارت » بشأني •• إن ذلك هو الذي دعاها الى نصحي •• وليس أكثر !

خـرج « ميشكا » من فراشه ، يغسل وجهه ، وتحت إبطيه ، في طبـق قديم ، تصبّ له « أوديل » الماء ، فوق يديه ، من ابريق طويل ، على أسلوب القرن الماضي ، ثم ارتدى ثيابه ، على عجل ، يسألها عن « باتريس » ، فقالت ••

ــ لقد خرَج الى الغاب ، منذ الصباح الباكر •• ثم إن الحارس يوصيك ألا تبتعد عن القصر ، أو تدع وجهته تغيب عن نظـرك ، وأنت في الغاب •• إن فيه من الأدغـال ما إذا دخلته ، حجبت رؤية السماء عن نظرك ! هنـاك ، يصبح شرق الإنسان غربـه •• ولا سبيل للخروج منـه إلا بالمصادفة ، أو باستخدام بوصـلة !

ــ •• والمدام « ستيوارت » ، ألا زالت نائمة ؟

ــ •• لقـد أوصتني ألا أوقظها ، قبل الرابعة من بعـد الظهر !

* * *

ما إن تخطّى صحن مدخل القصر الحجري ، وأوغل بين الأشجار ، حتى أحاطت به النباتات ، من كل ناحية ، وبات فجأة في مملكتها !

سرعان ما غاب وقع أقدامه على أرضها الرخصة •• فلفّه حفيف ناعـم سمع ، من خلاله ، صوت الحارس يأتيه خافتـاً من بعيد •• يشير عليـه ألا يضلّ ، في سـيره ، عن الدروب المطروقة ! لكنه وقع في سحر تلك الأشجار ، منذ أن وجـد نفسه بينها ! فلم يلتفت الى قـوله •• وسـار ، يقوده حدسه بين الجذوع العريضة الباسقة •• يكاد لا يميّز نوعها ، لما لفهـا ، من طحالب ،

وتساق عليها ، من زرع كثيف ، تدلت فروعه الطرية ، وتماوجت مع النسيم ، في رفق ، حتى بدت كأنهــا نباتات بحرية ، وأحس كأنه يسير أو يسبح بينها ، في قعر بحـــرٍ ، قاتم الخضرة ، بعيد العمــق !

* * *

تابع السير ، حتى تنبه الى أن النور بدأ يخفت حوله ، والأشجار تحجب الضوء عن طريقه بما لم يتعوده ، أو يظنه ممكناً في وضح النهــار !

أدرك معنى أنه في الغــابة السوداء •• يسير في أرجائها ، يرى بأم عينه ، مصدر الخوف ، والإلهــام ، لمئات الاساطير التي خلقها ذلك الجو السحريّ الغريب ، في نفوس جميع من عرفها عن قرب !

أصبح لأصوات الطيور ، وحيوانات الغــاب ، وقعٌ مميّز ، يجــرّ من يسمعه الى عالمها ! فمن صوت طيور خائفة •• الى أخرى كأنها تهزأ منها •• يصمت السنجاب ، فجأة ، ويتسمّر عدد منها في مكانه ، لوقع الأقدام الغريبة ! ثم تنســرّ هاربة •• وتختفي بين الأغصان الكثيفة البعيدة •• يرفع ابن عرس رأسه ، وجلاً على صِغاره ، ثم يختفي تحت بساط النباتات ، ويهرع مسرعاً ، عائداً ، الى وكره ! وتنفذ أشعة الشمس ، عبر فتحات ضيّقة مما غطى الغاب ، من سقف متشابك •• فينزلق ضياؤها فــوق ما يمور تحتها من أبخرة تسبح كالضباب الكثيف •• سيوفاً برّاقة ، بيضاً ، من النور الساطع •• أصابع آلهة « الفلهلاّ » ، تخترق الأشجار المظلمة ، فيغشى وهجها نظر من يمرّ عبرهــا ، فيخرج منها ، بعد لحظات ، يتلمّس طريقه ، لما يعود اليه ، من عتمة مباغتة !

رأى صغار الوعل تتبع أمهــا •• فأدرك أنه بات على بعــدٍ من القصر لا يحسن أن يتمادى في تخطّيه !

تناقصت كثافة الأشجار ، فزادت معالم الغاب وضوحاً ، لما بات يتسرّب الى أرضه من ضياءٍ ، راح ينعكس فوق سطحٍ متماوجٍ من أبخرة النباتات والتربة•• تجمّعت وتكاثفت ، على شكل بساطٍ أبيضٍ ، كسا خضرة الأرض ،

فبدا الكون ، كأن سطح المـاء القاتم ، قد هبط الى الأرض ، وأن الأشـجار تنبع ، وتنبثق من وسط الغيوم !!

وتتلاعب انعكاسات الشمس فوق غيوم هذه الأرض البيضاء ، الخرافية ، فيصعد ضياؤها ، كأن الأرض تشعّ به •• يلامس الأشجار ، في غـير مواطىء النور الاعتيادية•• فتبدو كأنها شموس تحتية ، أو جانبية ، تعبث بعين الناظر•• فيدور رأسه بإحساساتٍ ووعيٍ ، غريبين !

* * *

ـ احذر الماء ! هنالك جدول •• غير بعيد عن موطىء قدميك !

جال في عينيه يبحث عن مصدر الصوت ! فإذا صديقه ، يقف على مسافة منه ، كأنه يسبح في بحـر من الغيوم •• لا يبدو منه سوى رأسـه وكتفيه ، يطفوان فوق ما غاص فيه جسده ، من ضباب كثيف !!

أجـابه « ميشكا » •• لا يصدق ، ما هو فيـه !

ـ إنـه لأغرب وأروع ما وقَعَت عليه عيناي في حيـاتي !!

وقف ، يتأمل ما حـوله •• يحدد موضع الجدول تحت الضباب ، وقد ميّز صوت خرير مائه •• ثم سأل « باتريس » ••

ـ •• هل أبدو لك ، على مثل ما أراك فيه من هـالة أسطورية ؟!

حرك « باتريس » ذراعيه ، فتماوج الضباب حـوله •• وقال ••

ـ •• لقد كنتَ تتقدّم مني •• تتحرك ، وسط هذا الضباب ، فيتماوج وراءك ، كأنك « زيغفريد » •• يبحث عن سيفه ! أو « فوتان » ، وقد هبـط الى الأرض !!

ـ هل نحن بعيدان عن القصر ؟ ما أسهل الضياع في هـذا الغاب !

تبسم « باتريس » وهو يقترب من « ميشكا » •• رافعـاً ذراعيه ، كأنه يخوض في مـاء غمره حتى بلغ صدره !!

لسنا بعيدين عن طريق الأسفلت الذي سرنا عليه البارحة ، ألم تمر بكوخ حـارس الغـاب ؟!

تعجّب « ميشـكا » ••

ــ تعال نَزُرْ الحارس •• هل حقـاً ان الطريق إليـه قريبة منـا ؟

والتفت يبحث حـوله عما ينبئه عن موقع الكوخ •• وإذا « باتريس » يقول لـه ، في لهجـة فاجأته ••

ــ •• لا أظنك ستسرّ بما ستجد فيه ! ولن يسـر ، مَن فيه ، لزيارتك المباغتـة !

تعجب « ميشـكا » •• ونظر الى صديقه ، يستوضح ما سمعه •• فتابـع « باتريس » قوله •• ونظرة مستسلمة في عينيه ••

ــ •• ستعرف ، إن عاجلاً ، أو آجلاً •• فلماذا لا أخبرك الآن ؟!

ــ •• بماذا ستخبرني ؟ أهـذا وقت المفاجآت ؟!

ــ •• إن « جـاك كاتلان » •• و « جينيت » ، صديقتك ، في ذلـك الكوخ !! في ضيافة الحـارس !!

بُهت « ميشـكا » ، لما سمع !! ونظر الى « باتريس » ، يستزيده ! فتابع صديقـه ، يقـول ••

ــ السبب بسيط •• لكـن الوسيلة غريبة ، غير متوقعة ! لقـد مـرّ « جـاك » بالحارس منذ أن أتى لتهيئة القصر ! فهام به ، ولم يجد من وسيلة للوصول إليه ، سوى أن يستدرجه ، بفتـاة تغويه •• فوقع اختياره علـى « جينيت » ! دعاها الى القصر ، قبل أن نصل ، نحن ، إليه •• بعد أن اتفـق معها على أن تكون جسراً له ، إلى الحارس ! إن الأمر بسيط ، كما ترى !

صمت « باتريس » •• ثم أكمل ، وهو يلتفت حوله ، كأنه لا يريـد أن يسمع صديقه ما قـال ••

ــ لعلها تنتقم منك•• لقد أهملتَها ! لا أظنّك تجهل أنها لا تحب سواك !

صعق « ميشكا » •• وقف لا يعـرف كيف يتقبّل ما سمعه ! كان على وشك أن يضحك هازئاً ، مضطرباً••فسأل « باتريس » ، يهمّ على مخاصمته••

ــ •• وكيف عرفت أنت ، بالأمر ؟! هل أطلعك « جاك » عليه ؟ منذ كنا في بـاريس ؟!

ــ •• لا •• ! لقد •• لقد تنبّهتُ الى ما يشبه ثياب « جينيت » ، في كوخ الحارس ، منذ البارحة ، حين مررنا به ، نسأله عن وجهتنا ! فجئت اليوم ، أتحقق من الأمر وإذا هي في سريره ، وبين ذراعيه !! لقد فوجئَتْ بالطبـع ! ورجتني أن أكتم الخبر عنك ! أخبرتْني إنهـا خطة « جاك » ! واستحلفتْني ألاّ أطلعك على ذلك •• « مكسيم » •• لماذا تهتم بهـا ؟! لقـد أقصيتها من حياتك ! أليست هي ، حرّة في تصرفاتها ؟!

تضاربت مشاعر « ميشكا » لمـا سـمع !

فاجـأه أن يتبعه الحي اللاتيني الى الغـابة السوداء •• وليس عـلى طريقة الحيّ في النزال ، والمقارعة ، أو على أكتاف أناس منه ! بل على نهـج آخـر ! دربُ « جـاك كاتلان » ، وطرُقِهِ الملتوية ، التي كان يتحاشاها ، وهو ما زال في بـاريس !

امتعض من نفسه ، لأنه لم ينجح في طرد ما سيطر عليه من ضيق !

صحيح ، قول « باتريس » •• و « جينيت » ، حرة في تصرفاتها ! لو أنها اختارت ذلك الشاب •• ورآها ، في سرير ذلك الحارس الفتيّ ، لمـا امتعض لفعلتها ! لكن دور « جـاك » أثار حنقه ! وآلمـه أن تنساق « جينيت » في إحدى خطط « جـاك » ، وقبل أن ترى الحارس ، أو تُعجَب به !! فانطبع ما قامت به بطابع سوقي •• بعث الازدراء في نفسه ! فزاد في حنقه عليها !!

* * *

أسرع الخطا ، عائداً الى القصر ، و « لورا » •• دون أن يلتفت وراءه !!

عـاد على دروب الغاب ، من حيث أتى ، يسير مطرقاً ، صامتاً •• يشكر

لـ « باتريس » ، أنه تركه لأفكاره .. لا يحدّثه ، كأنما أدرك ، هو الآخر ، أنّ فيما قامت به « جينيت » مساً بإحساسٍ بالكرامة ، كان عزيزاً على سكّان « الحي اللاتيني » .. إحساس ، هو كل ما كان لهم ، مما كانوا يحرصون على الحفاظ عليه ، رغم إهمالهم المتعمّد ، الواعي ، لجميع ما تعارف عليه المجتمع ، من قيم !

قال لصديقه ، في النهاية .. وكانت أبراج القصر قد أطلّت عليهما ، من بعيد ..

ــ .. ترى ما الذي حرّضها ؟ لعلّه لم يطلعها على ما وراء تلك الدعوة ! « باتريس » .. أليس هذا احتمالاً ، جائزاً ؟ لعلّه دعاها الى قضاء أيام في القصر ، دون شروط ! ومن الذي لا يسرّ لقضاء عطلة قصيرة في« الشفارتز فالد » ؟!

لم يردّ « باتريس » على تساؤلاته .. كان على وشك أن يترك صديقه لما راح يبحث عنه من احتمالات مريحة ! لكن أمراً حرّكه في النهاية ، فقال يائساً ، هازئاً ..

ــ .. إن لفي إصرارك على البحث عن البراءة ، والصدق ، ما يحيّر ، ويحزن !! « مكسيم » دعْك من أوهامك هذه !! لقد قبلَت « جينيت » ، دعوة « جاك » ، مقابل هدية ! لا أكثر ولا أقل ! حجرٍ ثمين قديم ، يحيط بعنقها الآن ! ولقد أطلعتني عليه .. فخورة بما ربحت !!

هزىء « ميشكا » من نفسه ، بدوره .. وقال ، على مضض ..

ــ .. وماذا يهمني من أمرها ! من حسن حظي أنني تركتها ، وعالمها .. في الوقت المناسب !! أين أنا اليوم .. من هذه الأجواء .. لعلّني مدين للمصادفات بهذه المنة ! لقد قطعتُ آخر صلة لي بأوربا العُقد ، والتمثيل ، والنفاق ، والدجل !! يا لنبل « لورا » .. يا لصدقها !!

* * *

وقفتْ « لـورا » •• وراء نافذة غرفتها ، في الدور العلوي •• فبـدت لـ « ميشـكا » القادم نحو القصر ، كأملٍ لا بديل عنـه !

« ميليزاندا » أو « إيسولت » •• تنتظر عودة الحبيب !

لم يكن الظلام قد خيّم بعد •• لكن نوراً ضعيفاً ، انبعث من غرفتهـا ، فتسرّب من زجـاج نافذتها الملوّن الذي أحـاط بجذعها ، فبدت كأيقونة منقوشة على حائط القصر القديم !

لوّحت للصديقين بمنديل في يدها •• فردّ « ميشـكا » الاشـارة •• ينظر اليها في لهفـة ، لم يعرف مثلهـا ، ويهمس لـ « باتريس » •• وقلبـه يخفق للقـائها !

ـ •• كيف لا ترى الفارق ! « باتريس » ! كيف تتعجّب لإيثاري هذا العالم على كل ما عداه !! كيف تأسف لتبدد شخصية « مكسيم » ، وأجـواء الحي ، من حيـاتي !! وأمثال « جينيت » !!

أجـابه صديقه •• حـائراً ••

ـ •• لم أعـد أدري •• لعلك على حـق !

كانا قد وصلا صحن مدخل القصر •• فوقفا يتأملان « لـورا » •• فإذا هي تتكيء على أفريز النافذة ، في رفق ، وتقول لهما ، ملوّحة •• معجّلة ••

ـ •• « ميشـكا » ، « باتريس » ، تعالا في الحال •• هناك مفاجأة ، في انتظاركما •• هيا أسرعا •• بل مفاجأتان •• واحدة ، لكل منكما !

سُرَّ « ميشـكا » ، أن تنتظره مفاجأة ، لعلها تنسيه ما سمعه من صديقه في الغـاب ••

أسرع الخطا ، يحثّ « باتريس » على اللحاق به •• فما إن دخـل غرفة « لـورا » ، وقبّل خديها •• حتى نظر حوله ، يتوقع مشاهدة أحد ••

* * *

وكنتُ أنا المفاجأة ، مع « آني » ، صديقة « باتريس » .. دعتنا الدوقة عن طريق « جاك » .. ووقفنا ، وراء الباب ، في غرفتها ، ننتظر وصولهما !

تردد « ميشكا » في البدء .. وقال متمتماً .. ينظر إليّ ، مستغرباً وجودي وراء الباب !

ــ « شارل غوستاف » .. أنت ؟!

ثم أقبل يصافح « آني » .. ثم يصافحني ، بلهفته المعهودة .. يحاول جاهداً ألا يمزج بين سروره بلقائنا ، وامتعاضه ، لكتمان صديقته ، عنه ، نبأ دعوتنا !

أدركتُ أنه كَرِهَ اختلاط عالمه القديم ، بعالم « لورا » ، وكره أن يمتد اهتمامها الى ما خلّفه وراءه من أجواء !

رأيت في عينيه عجبه ، وكرهه ، لأصابع الأنثى ، راحت تجمّع وتحيك ، في الظل ، ما لم تجد طريقها اليه صراحة ، في الضياء !

خرج « باتريس » بنا .. يقودنا الى غرفنا .. فوقف « ميشكا » ينظر الى « لورا » صامتاً .. متسائلاً .. ثم قال ، وفي صوته غصّة ، جهِدَ في إخفائها ..

ــ .. « لورا » .. أهذا تصوّرك عن عطلةٍ ، خطّطنا لقضائها في هذا القصر الرائع .. منعزلين عن العالم ؟!

وجمت « لورا » ، ثم فتحت عينيها دهشة ، وقالت ..

ــ إنهم أصدقاؤك ! « ميشكا » ! لقد دعوتهم لتسليتك أنت ! لا لتسليتي ، أنا !!

ــ .. وهل أبديتُ أني في شوق الى تسلية ، من هذا النوع ؟ وهل أبديتُ أني في شوق الى غيرك ؟ نحن لم نكد نصل القصر .. فلماذا استدعيتِ هذه الجموع ؟!

بان على وجه « لــورا » وهنها المفاجىء ! تساقطت دموعها ، غزيرة على خــدّيها •• ثم استلقَتْ على سريرها ، تجهش في بكاءٍ ، لا تجــد لنفسها منه مخرجــا ••

مضت برهة ، وهما على تلك الحال •• حتى تقدم « ميشكا » منهــا •• وجلس كعادته يربّت على كتفها ••

تنهّد في عمق ، ثم قال يائساً ••

ــ •• « لــورا » •• لست أفهم ، عــمّ تبحثين ؟ كلّما جــاء ذكــر « باتريس » •• تبتسمين بإبهام ! تدعينه لتسليتي •• ثم تدعين « آني » ، وليس في دعوتها ، من قصد ظاهري ، سوى تسليته هو ! « لــورا » •• لا بد أنك علمتِ من « جاك » ، عن طبيعة « آني » •• مع الفتيات ! ولستُ أشك أنك تعلمين من « جــاك » أنه لم يعــد بين « باتريس » و « آني » من علاقة ! إن وجودها ، الى قربه ، لن يسلّيه ، بل سيزيد من عزلتــه !

نظرَتْ إليه ، في ضراعة ظاهرة•• وقالت ، ودموعها تسيل على خدّيها••

ــ ••إن كــل ما أريده ، هو أنت ! « ميشكا » ! أريد « ميشكا » ، الروح !! وليس « ميشكا » الجسد !! يا إلهي •• أتظنني أتسلّى بما أقــوم به من دعوات ؟! إني أخاف هؤلاء النسوة ! أخاف جميع أصدقائك ! أرتعد لرؤيتهم !! إن رؤية الأصحّاء من الناس تثير في نفسي من الخوف ما لا يمكن وصفه لإنسان !! وأنت •• إنك صحيح البنية ، تستطيع الذهاب معهم ، حيث تشاء •• ومتى تشاء ! وأنا طريحة هــذا الفراش •• أموت الساعات التي لا أراك فيها ! لهــذا ، « ميشكا » ، إني أحس أحياناً أن في وسع أي انسان أن يأخذك مني ! أعرف أن روحك لي ، وإنها لصق روحي •• لكنني أخــاف أن أفقدك ، عبر ما لجسدك من حاجات ملحّة وضروريّة ! وليس مثلي من يعرف أن هذه الحاجات طبيعية ، « ميشكا » •• ألا تفهم ما أنا فيه ، من ضياع ؟!

ــ •• لماذا لا ترين الأمور بيننا بالبساطة ، والواقعية ، التي ترين فيهــا أمور بقية الناس ، إذا ما طُرحت عليك مشكلاتهم ؟! « لــورا » •• هل تخافين من علاقة أخفيتها عنك ؟ قولي ، صراحة ؟!

هزت رأسـها ، نافيـة ••

ـ •• لا •• لا •• إنما أخاف من المجهول ، في نفسك •• المكبوت فيها ! « ميشكا » •• هل تقسم على كـل ما هو عزيز على نفسك ، أنك لا تفضّل صحبة أحـد من الموجودين ، في هذا القصر ، على صحبتي ؟!

سمع « ميشكا » نفسه يضحك من سذاجتها !! قال ، يهز رأسه ، حيرة ••

ـ •• وهل يعقل هذا ؟ « لـورا » •• ماذا بك ؟!

استوت في فراشها ، تمسح دموعها ، وهي تبتسم فجأة •• وقالت ••

ـ •• إذن ، لنلعب لعبـة « الحقيقة ، أو العمـل » !! أدع ضيوفنا ، « ميشكا » •• جميعهم ! ولنمض ساعة تتسلّى بهـذه اللعبة ، قبل أن يحـلّ موعـد العشاء !!

* * *

تلخصت تلك اللعبة في أن يطرح أحد اللاعبين أمراً يُجبَر ، لاعب آخر ، على الانصياع له •• أو سؤالاً ، محرجاً ، يتوجّب على اللاعب الإجابة عنه •• وفي كلتا الحالتين ، يضحك بقية اللاعبين من غرابة ما يُجبر اللاعب على تنفيذه ، مـن حركات ، أو ما يُضطر للإجـابة ، صراحة عنه ، من أسئلة شخصية ، مُحرِجـة !

جلسنا في دائرة كبيرة حول سرير الدوقة « انستاسيا » ، لا ندري شيئاً عما دار بينها ، وبين « مكسيم » ، نمرح لفكرتهما الطفولية ، في تمضية الوقت بهذا النوع من التسلية ، فننساق مع بساطة تلك اللعبة ، عائدين الى طفولتنا •• لا يرى واحدنا في الآخر سوى أطفال يناوئونه ، يتلهّف كـل منا ، لوصولِ دوره ، في طرح الأسئلة ، كي يتسنّى له الإيقـاع بالآخرين !

لم يغب عنا أن لانتقاء الدوقة لهذه اللعبة ، ولمّا وصلنا قصرها ، هدفاً غير تمضية الوقت ، والتسلية !

قام كل منا بدوره ، مرحاً ، يسأل أصدقاءه ، أو يأمرهم واحداً ، واحداً.. نضحك ، أو ندهش للأجوبة ، كيفما اتفق .. ننتظر أن يأتي دور مضيفتنا ، كاتمين ما في نفوسنا ، من ترقّب ، وتساؤل ! فما إن بدأت في طرح أسئلتها ، حتى خاب ظننا !

أمرتني بأن أقوم برقصة غجرية ، دون موسيقى .. وأمرَت « آني » : أن تقبّل « ميشكا » ، على شفتيه ، فنفّذت « آني » الأمر ، متسلّية ، مازحة ! فمرّت قبلتها ، على سلام ! ثم سألت « ميشكا » إذا ما كان قد ضاجع أحداً ، من الموجودين ، بيننا ! فنفى ذلك ، دون أن ينظر الى « آني »، فلم تنتبه « لورا » الى تردده .. فما إن أتى دور « باتريس » ، حتى قالت ، وكأنها تخفي له سؤالاً ، محرِجاً ..

ــ « باتريس »! هل أنت واثق أنك تفضل « سؤالاً » .. على « عمل »؟!

تردّد « باتريس » أمام نظرتها الحادة .. ثم قال ..

ــ .. حسناً .. مريني ، إذن ، أن أقوم بعمل ! لعلّ هذا أسهل عليَّ .. وأرجو ألاّ يكون تأدية رقصةٍ ، إذ إني لا أحس الرقص !

نظرَتْ إليه ، في إمعان .. وقالت ..

ــ حسناً.. يا « باتريس » ! إنني أطلب منك أن تذهب الى« ميشكا ».. فتجثو ، على ركبتيك ، أمامه ، ثم تجلسَ قربه ، تقبّله على شفتيه ، في وضعٍ يشبه وضع تمثال القبلة للمثّال ، « رودان » .. وأن تبقى على وضعك هذا ، حتى أشير عليك ، أنا ، بأن وقت القبلة قد انتهى ! ولتكن قبلةً حقيقية !! وإلاّ ، فمعنى ذلك أنك تخفي ما تخاف منه !!

غاصَ الدم في وجه « باتريس » !!

نظر إليّ ، مستنجداً .. ثم الي « مكسيم » ، حائراً .. فإذا بـ «ميشكا» يهزّ كتفيه ، استخفافاً .. يشجّعه ، يقول له ، وهو يخفي امتعاضه ..

ــ •• وماذا في الأمر ؟ تعال يا « باتريس » •• قبّلني ! ولنقمْ بنموذج جيّدٍ لتمثالٍ جـديد !

تقدم « باتريس » من صديقه • • يتعمّد التأنّي في سيره ، وجثا أمامه ، ينظر الى الأرض برهة ، ثم جلس قربه ، لا يدري كيف يحرّك ذراعيه !

نظر الى « لـورا » ، للمرة الأخيرة ، كأنه يستعطفها ، يناجيها أن تنثني عما طلبته ! ولمـا لم يجد منهـا سوى عينين واجفتين ، مصممتين ، تنتظران ما سيقوم به ! أغمض عينيه ، وألصق شفتيه بشفتي صديقه ، فضمّه «ميشكا» بالوضع الذي طلبته منه « لـورا » ، وانتظر أن تُعلن « لـورا » انتهـاء القبـلة !

راحت « لـورا » تنظر إليهما كأنهـا قد تحجّرت !!

مرّت برهـة طويلة •• تداعت بعدها ذراعا « باتريس » ، عـن كتفي صديقه ، قبل أن تشير إليهما « لـورا » بالتوقف ! نهض ، كأنـه يترنّح •• فأسند يـده على عامود سـرير « لـورا » •• ثم سـألها •• لا يعرف كيف يحبس الدمـع في عينيه !!

ــ •• لمـاذا ؟! لمـاذا ؟!! هذه الساديّة !!

ثم استدار ، وخرج من الغرفة ، لا يلوي على شـيء ••

نظر « مكسيم » الى « لورا » ، لا يصدّق ما مرّ مع صديقه !
قال في صوت واجفٍ •• أجشّ ••

ــ •• هـل كنت تعلمين ؟! بربّك « لـورا » ؟! إن كان لك من عمـق البصيرة ، ما يسمح لك أن تدركي ما في نفسه •• فما سبب هـذه القسوة ؟! كيف تحطّمين ثقـة إنسان بنفسه ؟! وبهـذه السهولة ؟!!

صاحت « لـورا » وكأن زمام تماسُكِها ، قد أفلت منها ••

ــ •• إنما كنتُ أبحث عنك ، أنت ! « ميشكا » !! كنتُ أخافُ ممـا

في نفسكَ أنت ، تجاه « باتريس » !! لا مما في نفسه ، هو !! ماذا يهمني من أمر « باتريس دو غريفيل » •• أو من غيره ؟! يا إلهي ! لقد اختلطت عليّ الأمور ! « ميشكا » ! الى أين أنت ذاهب « ميشكا » •• عد إليّ !!

لمعت عيناها ، في بريق ، ملؤه الذعر ، وهي ترى « مكسيم » يغادر الغرفة ، وراء صديقه !!

صاحت ، غير آبهة ، لمن حولها ••

ــ •• « ميشكا » ! عد إليّ ! الى أين أنت ذاهب ؟! « ميشكا » •• سوف تصبح أباً !! بعد أشهر قليلة •• الى أين تذهب ؟!!

وأخذت تجهش بالبكاء ، وهي تردّد لنفسها ••

ــ سوف تصبح أبا •• « ميشكا » •• يا صغيري •• وسوف أحمل طفلك ، بين ذراعيّ ! طفل « ميشكا » !! طفله !!

ثم عادت الى الصراخ ••

ــ « ميشكا » ! عد إليّ •• هل تتركني ، لكي أموت وحيدة ••

وقف « فراس » بباب الغرفة ، يمسك مصراعيه بيده •• ويقول في صوتٍ غريب ••

ــ •• « لورا » ؟! أنا ؟! سأصبح أبا ؟! وممن ؟!

أشارت « لورا » الى « أوديل » التي وقفت ، هي الأخرى ، غير بعيدة عنها •• حزينة ، تذرف الدموع ، في صمت وألم !!

حدّق « فراس » الى عيني « أوديل » •• يسألها •• فهزت رأسها •• موافقة •• وقالت ••

ــ لقد عرفت السيدة ، منذ البدء ، ما جرى بيننا ! وأشارت عليّ بالاحتفاظ بالجنين ! بل ، لقد •• أكرمتني ! وأجزلت لي العطاء ! ثم •• أليس هذا خيراً من قتله ؟!

قالت « لــورا » ، وهي تهتزّ ، وترتجف في فراشها ••

ــ •• « ميشكا » •• يا صغيري •• لماذا الحزن ؟ أين الغرابة ؟! سنحتفظ بالطفل ، معــاً •• سيعيش في كنفنا •• ويرث هذا القصر ، من بعدي ! وكــل ما أملك !! وتتزوج •• « ميشكا » ! لو شــئتَ ذلــك !! فيصبح طفلكما ، طفلنـــا ، ووريثي !!

ــ •• وتملكينني معــه ؟! أهــذا ما تسعين إليه ؟ وبهــذه الطريقة !! لا •• هــذا لن يكون !!

تراءت له هــدباء ، في فراش زوجها !

تراءت له « جينيت » ، مستلقية بين الحارس و « جــاك » !!

تراءت لــه ، جميع نساء الأرض ، مهما سمَتْ نفوسهن •• لا يعرفن سوى حب التملك ! ولا يعرفن ، من طـريق الى ذلــك ، ســوى حيــلٍ دنيئــةٍ تعسة !!

قــال •• يحبس الدمع في عينيه ••

ــ •• لقد أحببتك « لــورا » •• كما لا أستطيع أن أحب مخلوقاً على الأرض ! أحببتكِ •• رغم مرضك ! وسأبقى على حبك •• لكنك ، أوربا •• ولن تعرفي العطــاء !! نعم ، سيبقى الشرق ، شرقاً ، والغرب ، غرباً •• لقــد قالها « كيبلين » يوماً ، ترفّعــاً عن الشرق ! وها أنا ذا أردّها الآن ، لــكِ ، ترفّعاً عن الغرب !! قد يقدّر لمولودٍ من صلبي ، أن يعيش في كنفك وسيكون إنساناً هجيناً ! أما أنا ! فهــذا ليس عــالمي ! وداعــاً !!

* * *

للمؤلف

ثلاثية البحث عن الأنا

- مسافر بلا حقائب
- السقوط الى أعلى — صدر عام ١٩٧٣
- رحلة النيلوفر — ستصدر قريبا

- النمرود — مجموعة قصصية ستصدر قريبا

في الغرب ! فإذا ما انتهى هذه المرحلة الأولى عاش في رواية "السقوط إلى الأعلى"، مرحلة ضلالية لا جذور لها، أدرك في نهايتها، ومن خلال سلسلة طويلة من التجربة والرفض، جوهر ما يبحث عنه في حياته.

فإذا ما وجد القارئ في نفسه ميلاً لإتمام هذه المرحلة مع فراس، فما عليه إلا أن ينتظر ما وصل إليه من أجوبة في خاتمة هذه الثلاثية.. رواية "رحلة النيلوفر"...

المؤلف